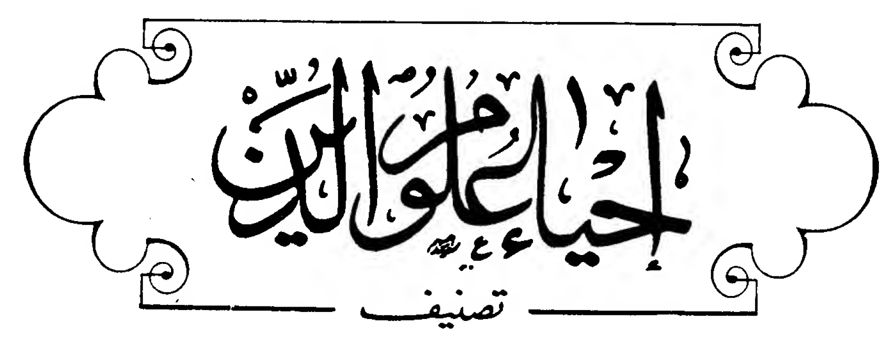


تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في ٥٠٥ سنة هـ

وبذيله كتاب

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي

المتوفى في ٨٠٦ سنة هـ

وتماماً للنفع ألحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي

الثاني: الاملاء عن اشكالات الاحياء للإمام الغزالي: ردّ به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الاحياء.

الثالث: عوارف المعارف: للعارف بالله تعالى الامام السهروردي

صُحِّح بإشراف

الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان

دبلوم في الدراسات العربية والإسلامية

الجزء الرابع

دار القلم

ص.ب: ٣٨٧٤

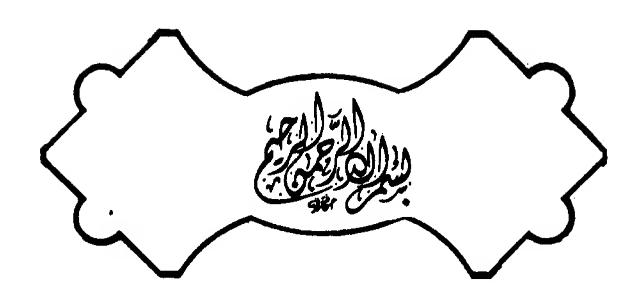
بيروت - لبنان



الطبعة الثالثة

مصححة ومنقحة

بيروت - لبنان
ص.ب : ٣٨٧٤



كتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدّر كل خطاب، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الثواب، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التوّاب، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب، أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب.

ونصلي على نبيه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب. وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب.

أما بعد، فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأوّل أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وما أجدر بالأولاد، الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم، فهي شنشنة نعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر وعمر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم، ولقد قرع آدم سن الندم، وتندّم على ما سبق منه وتقدم. فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم، بل التجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين؛ فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان؛ فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيتان. وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان؛ فالتائب قد أقام البرهان، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان؛ فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان؛ فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم

عجناً محكمًا لا يخصله إلا إحدى النارين: نار الدم أو نار جهنم، فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار، ويساق إلى دار الاضطرار. إما إلى الجنة وإما إلى النار. وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان: (الركن الأول): في نفس التوبة وبيان حدّها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال، وأنها إذا صحت كانت مقبولة. (الركن الثاني): فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر. (الركن الثالث): في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة. (الركن الرابع): في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين.

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل.

الركن الأول: في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل. فالعلم الأوّل والحال الثاني، والفعل الثالث. والأوّل موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه إطراد سنة الله في الملك والملكوت. أما العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر، فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدّمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام «الندم توبة[1]» إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه؛ فيكون الندم

---

(١) حديث «الندم توبة» أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين.

محفوفاً بطرفيه أعني ثمرته ومثمره؛ وبهذا الاعتبار قيل في حدّ التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ؛ فإن هذا يعرّض لمجرّد الألم، ولذلك قيل: هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب، وباعتبار معنى الترك قيل في حدّ التوبة: إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء. وقال سهل بن عبد الله التستري: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة، والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر؛ وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجرّدة.

بيان وجوب التوبة وفضلها

إعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار[1] والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدرت على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة. فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه، وإما بصير يهدي إلى أوّل الطريق ثم يهتدي بنفسه، وكذلك الناس في طريق الذين ينقسمون هذا الانقسام، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوة فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله، وربما يعوزه ذلك فيتحير؛ فسير هذا وإن طال عمره وعظم جدّه مختصر وخطاه قاصرة. ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدّة نور باطنه يجتزىء بأدنى بيان، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أوّلاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى. وقول القائل: صار واجباً بالإيجاب، حديث محض فإن ما لا غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه؟ فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم. وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً، وعلم أنه مقرّب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى فلا يشك في أن الإنصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الإنصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة: أخرج مسلم من حديث الأغر المزني «يا أيها الناس توبوا إلى الله... الحديث» ولابن ماجه من حديث جابر «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا... الحديث» وسنده ضعيف.

يتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً آيُّه المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً... ﴾ الآية ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح. ويدل على فضل التوبة قوله تعالى: ﴿إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين﴾ وقال عليه السلام: «التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له[1]» وقال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتدّ عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه؛ فالله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته[2]» وفي بعض الألفاظ «قال من شدّة فرحه إذ أراد شكر الله: أنا ربك وأنت عبدي» ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا: يا أدم قرّت عينك بتوبة الله عليك، فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه: يا آدم ورثت ذويك التعب والنصب وورّثتهم التوبة، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب. والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها؛ إذ معناه العلم بأنّ الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى، وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه، فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة، ولا خلاف في وجوبها. ومن معانيها: ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الإستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يشك في وجوبه. وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب، وهو روح التوبة، وبه تمام التلافي، فكيف لا يكون واجباً، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله.

فإن قلت: تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؟ فاعلم أنّ سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ هذا هو الحق عند ذوي الأبصار وما سوى هذا ضلال.

فإن قلت: أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ قلنا: نعم وذلك لا يناقض قولنا: إنّ الكل من خلق الله تعالى، بل الإختيار أيضاً من خلق الله، والعبد مضطر في الإختيار الذي له، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة

---

(١) حديث «التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول، وأما الشطر الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف، «إن الله يحب الشاب التائب» ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبي يعلي بسند ضعيف من حديث علي «إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب».

(٢) حديث «لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة... الحديث» متفق عليه من حديث إبن مسعود وأنس. وزاد مسلم في حديث أنس «ثم قال من شدة الفرح: أللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح» ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصراً.

على التناول؛ فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختياراً، ولا بدّ من حصوله عند تمام أسبابه، فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحرّكت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة، إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضرورياً، فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة، وهما أيضاً من خلق الله، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع، وهما أيضاً من خلق الله تعال، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيباً جرت به سنة الله تعالى في خلقه ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلاً في النفس، ولا ينبعث هذا الميل انبعاثاً تاماً ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المال، ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم؛ فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة، والقدرة والإرادة أبداً تستردف الحركة، وهكذا الترتيب في كل فعل، والكل من اختراع الله تعالى، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض، فلذلك يجب تقدّم البعض وتأخر البعض، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم؛ فيكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة لا أن الحياة تتولد من الجسم، ويكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم لا أنّ العلم يتولد من الحياة، ولكن لا يستعدّ المحل لقبول العلم إلا إذا كان حياً ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة لا أنّ العلم يولد الإرادة، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم، ولا يدخل في الوجود إلا ممكن، والإمكان ترتيب لا يقبل التغير لأن تغييره محال، فمهما وجد شرط الوصف استعدّ المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الإستعداد، ولما كان للإستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب، والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة؛ وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير، وظهورها بالتفصيل مقدّر بقدر لا يتعدّاها وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة، وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت، وقالوا يا أيها الرجل قد تحرّكت ورميت وكتبت، ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت: وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، وما قتلت إذ قتلت، ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم. وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة، فمن قائل إنه جبر محض، ومن قائل إنه اختراع صرف، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه، وأنّ القصور شامل لجميعهم. فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط علمه بجوانبه، وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوّة نافذة إلى عالم الغيب، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الإرتضاء، ومن حرّك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه.

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الإفهام بمثال؟ فاعلم أنّ جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا

اسمه، فقالوا:لا بدّ لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فطلبوه، فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه، فقالوا قد عرفنا انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرجل: إنّ الفيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها، وقال الذي لمس الناب: ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الأسطوانة أصلاً بل هو مثل عمود، وقال الذي لمس الأذن: لعمري هو لين وفيه خشونة، فصدق أحدهما فيه ولكن قال: ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذا أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل، فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه، وإن كان هذا كلاماً يناطح علوم المكاشفة ويحرّك أمواجها وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أنّ التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة: العلم والندم والترك، وأنّ الندم داخل في الوجوب لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله.

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور المتقصى عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه، فإنّ هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل، بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصي عن عهدته ما لم يصر باعثاً عليه؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً لتركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن[1]» وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإنّ ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت، كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله، فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيباً وغير مصدّق به، بل المراد أنه غير مصدّق بقوله إنه سم مهلك؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان باباً واحداً بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نقي البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها، وهذا مثال مطابق، فالإيمان كالإنسان وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقد الروح، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوع العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح، وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدّها وتقوّيها؛ فكذلك من ليس له إلاّ أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدّمة قدوم ملك الموت ووروده؛ فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة إلا ما يسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت. وقول العاصي

---

(١) حديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار:

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة، وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدّماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون؛ فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالباً لا يقع فجأة، فيقال له: الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت، وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة، ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار؛ فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكذلك المعاصي، فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية، فمتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدّته، إذ ليس لمدّته آخر البتة؛ فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين، ويدخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقحمون. وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون. وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ولا يغرّنك لفظ الإيمان، فنقول: المراد بالآية الكافر، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل؛ فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد: وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع، ووجود الفرع بالأصل، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغني أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها، فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها، ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر، كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم.

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى: ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً آيُّه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ فعمم الخطاب. ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان، ولا يتصوّر ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة

والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان. إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقه للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال: ﴿لأحتنكنّ ذرّيته إلا قليلاً﴾ وإن كمل العقل وقوي كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات، ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان، إلى طريق الله تعالى، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان نبياً كان أو غبياً، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام، وقد قيل:

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها سجية نفس، كل غانية هند

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدّل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها، فإذن كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره، فإذا بلغ مسلمًا تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانفكاك والإسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه، وكل هذا رجوع وتوبة، فدل على أنّ التوبة فرض عين في حق كل شخص يتصوّر أن يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم، فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلاً. وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أنّ كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه، إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب؟ فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضدّه والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصوّر الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بدّ منه، ولهذا قال عليه السلام «إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة[1]» الحديث، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال: ﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾ وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟.

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص، وأنّ الكمال في الخلو عنه، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال، وأنّ الإنتقال إلى الكمال من

---

(١) حديث «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» أخرجه مسلم من حديث الأغر المزني، إلا أنه قال «في اليوم مائة مرة» وكذا عند ابي داود، وللبخاري من حديث أبي هريرة «إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة». وفي رواية البيهقي في الشعب «سبعين» لم يقل «أكثر» وتقدم في الأذكار والدعوات.

أسباب النقصان رجوع، والرجوع توبة، ولكن هذه فضائل لا فرائض، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع: فما المراد بقولك: التوبة واجبة في كل حال؟ فاعلم أنه قد سبق أنّ الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلاً، وليس معنى التوبة تركها فقط، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار ريناً كما يصير بخار النفس في وجهه المرآة عند تراكمه خبثاً، كما قال تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ فإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه، كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث، ولا يكفي في تدارك إتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان إلتي انطبعت في القلب، كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»[1] فإذن لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محور آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات؛ هذا في قلب حصل أوّلا صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة؛ فأما التصقيل الأوّل ففيه يطول الصقل؛ إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة؛ فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً، وكل ذلك يرجع إلى التوبة، فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجباً بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم أنّ الواجب له معنيان: أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية، ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرّغ أحد للتقوى، بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار، والواجب الثاني هو الذي لا بدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصدّيقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال: الطهارة واجبة في صلاة للتطوّع أي لمن يريدها. فإنه لا يتوصل إليه إلا بها. فأما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها، كما يقال: العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان، يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا، فأما من قنع بأصل الحياة ورضي أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة كأصل الحياة، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنتهي، الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل، وعليه كان حرصهم، وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً في منامه، فجاء إليه الشيطان وقال: أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال: نعم، وما الذي حدث؟ فقال: توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم، أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في فتاوى العامة؟ أفترى أن نبينا محمداً ﷺ لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزعه[2]

---

(١) حديث «أتبع السيئة الحسنة تمحها» أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح، وقد تقدم في رياضة النفس.

(٢) حديث نزعه ﷺ الثوب الذي كان عليه في الصلاة: تقدم في الصلاة أيضاً.

وشغله شراك فعله الذي جدّده حتى أعاد الشراك الخلق[1] لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لكافة عباده، فإذا علم ذلك فَلِمَ تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً في قلبه أثراً يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به؟ أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه؟ فَلِمَ تاب عن شرابه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرّفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصدّيقون، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله، وإياك مرة واحدة أن تغرّك الحياة الدنيا، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور، فهذه أسرار من استنشق مبادىء روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمّر عمر نوح، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشدّ، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جواهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً، وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً. فإن كنت لا تبكي على هذه المعصية فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة، لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإنّ نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد رفع الناس عن التدارك.

قال بعض العارفين: إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه بقي من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلاً، وهو أوّل ما يظهر من معاني قوله تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربِّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصّدق وأكن من الصالحين، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ فقيل: الأجل القريب الذي يطلبه معناه أن يقول عند كشف الغطاء للعبد:يا ملك الموت أخّرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزوّد صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: فأخرني ساعة فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه، ويتجرّع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والإضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا يقال: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ وقوله: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾ ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندّم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» ولذلك قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ومن ترك المبادرة إلى التوبة

---

(١) حديث نزعه الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق: تقدم في الصلاة أيضاً.

بالتسويف كان بين خطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعاً فلا يقبل المحو (الثاني) أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر: «إن أكثر صياح أهل النار من التسويف»[1] فما هلك من هلك إلا بالتسويف. فيكون تسويده القلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم» ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر.

قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرّين يسرهما إليه على سبيل الإلهام: (أحدهما) إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر اليَّ كيف تلقاني. (والثاني) عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ وبقوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾.

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى، وعلموا أن القلب خلق سليمًا في الأصل، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما أنّ كل ثوب نظيف فهو مقبول، فإنما عليك التزكية والتطهير. وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له، وهو المسمى فلاحاً في قوله: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أنّ القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم، وأنّ بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً لا يتصور الجمع بينهما، فكأنه لم يتلق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به قلبه، إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه، فمن يتوهم أنّ التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أنّ الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب، نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به،

---

(١) حديث «إن أكثر صياح أهل النار من التسويف» لم أجد له أصلاً.

فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية، فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به، وقد قال تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾ وقال تعالى: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ إلى غير ذلك من الآيات. وقال ﷺ: «لله أفرح بتوبة أحدكم... الحديث» والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة. وقال ﷺ: «إن الله عزّ وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[1] وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل. وقال ﷺ: «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم»[2] وقال أيضاً: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة، فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينه تائباً منه فارّاً حتى يدخل الجنة[3]، وقال ﷺ: «كفارة الذنب الندامة»[4] وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»

ويروى أن حبشياً قال: يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «نعم» فولى ثم رجع فقال: يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: «نعم» فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه[5].

ويروى أن الله عزّ وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لا خرجت من قلب إبن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه[6].

وقال ﷺ: «إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ»[7] والأخبار في هذا لا تحصى.

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى: ﴿إنه كان للأوّابين غفوراً﴾ في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الفصيل: قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصدّيقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم.

وقال طارق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

---

(١) حديث «إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار... الحديث» رواه مسلم من حديث أبي موسى بلفظ «يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار... الحديث» وفي رواية للطبراني «لمسيء الليل أن يتوب بالنهار... الحديث».

(٢) حديث «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ «لو أخطأتم» وقال «ثم تبتم».

(٣) حديث: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة... الحديث» أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً، ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة «إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه، فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له... الحديث» وفيه صالح المري، وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث. ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر «إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه» والحديث غير محفوظ، قال العقيلي.

(٤) حديث: «كفارة الذنب الندامة» أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس، وفيه يحيى بن عمرو ابن مالك اليشكري ضعيف.

(٥) حديث: إن حبشياً قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال «نعم» الحديث لم أجد له أصلاً.

(٦) حديث: «إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال: وعزتك لأخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح... الحديث» أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أزال أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني، أورده المصنف بصيغة: ويروى كذا ولم يعزه إلى النبي ﷺ، فذكرته احتياطاً.

(٧) حديث: «إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ» لم أجده بهذا اللفظ، وهو صحيح المعنى، وهو بمعنى «أتبع السيئة الحسنة تمحها» رواه الترمذي وتقدم قريباً.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: من ذكر خطيئة ألَمّ بها فوَجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب.

يروى أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لئن عدت لأعذبنّك فقال يا ربِّ أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصمني لأعودنّ فعصمه الله تعالى.

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب.

وقال حبيب بن ثابت: تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول: أما إني قد كنت مشفقاً منه: فيغفر له.

ويروى أن رجلاً سأل إبن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان؛ فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق فاعمل ولا تيأس.

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم: تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى: ﴿إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً، ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام.

وقال عبد الله بن سلام: لا أحدّثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

قال عمر رضي الله عنه: إجلسوا إلى التوّابين فإنهم أرق أفئدة.

وقال بعضهم: أنا أعلم متى يغفر الله لي. قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب عليّ.

وقال آخر: أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة، أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة.

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً، فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عـي ولا بكم، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لا محالة.

فإن قلت: أفتقول ما قالته المعتزلة من أنّ قبول التوبة واجب على الله؟ فأقول: لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش، وأنه إذا منع الماء مدّة وجب العطش، وأنه إذا دام العطش وجب الموت، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى، بل أقول: خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلاً للعطش، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة، فلا واجب على الله تعالى، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة.

فإن قلت: فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه؟ فأقول شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة، فإنّ للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتي، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل وذلك لشكه في حصور شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى.

الركن الثاني فيما عنه
التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أن التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً، فمعرفة الذنوب إذن واجبة، والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أوّلها إلى آخرها، وليس ذلك من غرضنا، ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها، والله الموفق للصواب برحمته.

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أنّ للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله، ولكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية. وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة، فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار كما يقتضي السكر والخل والزعفران في السكنجبين آثاراً مختلفة، فأما ما يقتضي النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبار الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدّوها ذنوباً وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات (الثانية) هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال. (الثالثة) الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنا واللوط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات. (الرابعة) الصفة السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال، ويتفرّع عنها جمل من الذنوب، وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أوّلاً ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق. فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان،

وبعضها على البطن، والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح.

قسمة ثانية: إعلم أنّ الذنوب تقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد. فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر، الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك: فالديوان الذي يغفر: ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى: وأما الديوان الذي لا يغفر: فالشرك بالله تعالى. وأما الديوان الذي لا يترك. فمظالم العباد[1] «أي لا بدّ وأن يطالب بها حتى يعفي عنها».

قسمة ثالثة: إعلم أنّ الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها، فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة، وهذا ضعيف، إذ قال تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ وقال تعالى: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ وقال ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر»[2] وفي لفظ آخر: «كفارات لما بينهن إلا الكبائر» وقد قال ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص: «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس»[3] واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك، فقال ابن مسعود: هن أربع. وقال ابن عمر: هن سبع. وقال عبد الله بن عمرو: هن تسع. وكان إبن عباس اذا بلغه قول ابن عمر: الكبائر سبع، يقول: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع، وقال مرة: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة: وقال غيره: كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر. وقال بعض السلف: كل ما أوجب عليه الحدّ في الدنيا فهو كبيرة، وقيل: إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة: وقال ابن مسعود لما سئل عنها: اقرأ من أوّل سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة. وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشر جمعتها من جملة الأخبار،[4] وجملة ما اجتمع من قول ابن

---

(١) حديث: «الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر... الحديث» أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة، وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه إبن معين وغيره، وله شاهد من حديث سلمان، رواه الطبراني.

(٢) حديث «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر» رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث عبد الله بن عمرو «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس» رواه البخاري.

(٤) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال: الكبائر سبع عشرة جميعها من جملة الأخبار، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم: الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره، وشهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، والسحر، وشرب الخمر والمسكر، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا، والزنا، واللواط، والقتل والسرقة، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين. إنتهى. وسأذكر ما ورد منها مرفوعاً، وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «إجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هي؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف. وقذف المحصنات المؤمنات». ولهما من حديث أبي بكرة: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور ـ أو قال قول الزور ـ». ولهما من حديث أنس: سئل عن الكبائر قال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين» وقال «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور، أو قال شهادة الزور». ولها من حديث ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم =

عباس وابن مسعود وإبن عمر وغيرهم: أربعة في القلب وهي الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره. وأربع في اللسان، وهي: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس ـ وهي التي يحق بها باطلاً أو يبطل بها حقاً، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً ولو سواكاً من أراك. وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار ـ والسحر: وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة. وثلاث في البطن: وهي شرب الخمر والسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا وهو يعلم واثنتان في الفرج وهما: الزنا واللواط. واثنتان في اليدين وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين: وهي الفرار من الزحف الواحد من اثنتين والعشرة من العشرين. وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين، قال: وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما، وأن يسباه فيضربهما، ويجوعان فلا يطعمهما: هذا ما قاله وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر، وهي جناية على الأموال، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل، فأما فقوء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرّض له، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله، كيف وفي الخبر «من الكبائر السّبتان بالسبة ومن الكبائر إستطالة الرجل في عرض أخيه المسلم»[1] وهذا

= معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». وللطبراني من حديث سلمة بن قيس: «إنما هي أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا» وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا» وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر» وفيه موقوفاً على عبد الله بن عمرو: «أعظم الكبائر شرب الخمر» وكلاهما ضعيف. وللبزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن: أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله» وله من حديث بريدة «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ومنع فضل الماء ومنع الفحل» وفيه صالح ابن حيان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وله من حديث أبي هريرة «الكبائر أولهن الإشراك بالله» وفيه «والإنتقال إلى الأعراب بعد هجرته» وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حثمة في الكبائر «والتعرب بعد الهجرة» وفيه ابن لهيعة، وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري «الكبائر سبع» وفيه «والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة» وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني، وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه «الكبائر تسع» ،فذكر منها«واستحلال، بيت الحرام» وللطبراني من حديث واثلة «إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل» وله أيضاً من حديثه «إن من أكبر الكبائر أن ينتفي الرجل من ولده» ولمسلم من حديث جابر «بين الرجل وبين الشرك ـ أو الكفر ترك الصلاة» ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو «من الكبائر شتم الرجل والديه» ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد «من أربى الربا الإستطالة في عرض المسلم بغير الحق» وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: «أنه ﷺ مرّ على قبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وإنه لكبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله». الحديث. ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكرة «أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس» الحديث. ولأبي داود والترمذي من حديث أنس «عرضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها» سكت عليه أبو داود واستغربه البخاري والترمذي. وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس «لا صغيرة مع إصراره» وفيه أبو شيبة الخراساني والحديث منكر يعرف به. وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله. وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال: الكبائر الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف، وأكل الربا، والسحر، والزنا، واليمين الغموس الفاجرة، والغلول، ومنع الزكاة، وشهادة الزور، وكتمان الشهادة، وشرب الخمر، وترك الصلاة متعمداً وأشياء مما فرضها الله، ونقض العهد، وقطيعة الرحم. وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس: كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة، وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله: لا صغيرة مع الإصرار، وإسناده جيد؛ فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو إثنان وثلاثون، إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم، وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف. وللبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له: الكبائر سبع، فقال: هي إلى السبعين أقرب. وروى البيهقي أيضاً فيه عن ابن عباس قال: كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم.

(١) حديث: «من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم» عزاه أبو منصور الديلمي في مسند =

زائد على قذف المحصن. وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر[1]. وقالت طائفة كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا: لا يصح، ما لم يفهم معنى الكبيرة، والمراد بها كقول القائل: السرقة حرام أم لا؟ ولا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أوّلاً ثم البحث عن وجوده في السرقة؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأنّ الكبير والصغير من المضافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة، صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه، صغيرة بالإضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة إسم الكبيرة، ونعني بوصفه بالكبيرة: أنّ العقوبة بالنار عظيمة، وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه مصيراً إلى أنّ ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول: تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه، ثم يكون عظيمًا وكبيرة لا محالة بالإضافة، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها، فهذه الاطلاقات لا حرج فيها، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات، ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الإحتمالات، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ وقول رسول الله ﷺ: «الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر» فإن هذا إثبات حكم الكبائر. والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه، فلا يدري حكمه، فالطمع في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لم يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول: إني أردت بالكبائر عشراً أو خمساً ويفصلها فإن لم يرد هذا ـ بل ورد في بعض الألفاظ «ثلاث من الكبائر»[2] وفي بعضها: «سبع من الكبائر»[3] ثم ورد: «أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر» وهو خارج عن السبع والثلاث: علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع؟ وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل. كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها، نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق. وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب، ونعرف أيضاً أكبر الكبائر، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته. وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي ليكونوا عبيد لي، ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بدّ أن يعرف نفسه وربه،

= الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد، والذي عندهما من حديثه «من أربى الربا استطالة الرجل في عرض المسلم بغير حق» كما تقدم.

(١) حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر. أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح وقال «من الموبقات» بدل الكبائر. ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال: صحيح الإسناد.

(٢) حديث: «ثلاث من الكبائر» أخرجه الشيخان من حديث أبي بكر «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاث ـ الحديث». وقد تقدم.

(٣) حديث: «سبع من الكبائر» رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد «الكبائر سبع» وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر «من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر. . . الحديث» ثم عدهن سبعاً. وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة «إجتنبوا السبع الموبقات».

فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام: «الدنيا مزرعة الآخرة»[1] فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين لأنه وسيلة إليه. والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسدّ باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس ويليه باب ما يسدّ المعايش التي بها حياة الناس، فهذه ثلاث مراتب، فحفظ المعرفة على القلوب، والحياة على الأبدان، والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصوّر أن تختلف فيها الملل، فلا يجوز أنّ الله يبعث نبياً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله؛ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال. فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب: (الأولى) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربه بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله، ويتلو الجهل الذي يسمى كفراً الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته، فإن هذا أيضاً عين الجهل، فمن عرف الله لم يتصوّر أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً، ويتلو هذه الرتبة: البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشدّ من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه، ومراتب ذلك لا تنحصر، وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن. وإلى ما يعلم أنه لا يدخل؛ وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع. (المرتبة الثانية) النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود، إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضي إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض، ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط، لأنه لو اجتمع الناس على الإكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود. وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوّش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح، وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرّك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل وينبغي أن يكون أشدّ من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته. (المرتبة الثالثة) الأموال فإنها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها. نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر، وذلك بأربع طرق: أحدها الخفية، وهي السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً كيف يتدارك. الثاني: أكل مال اليتيم، وهذا أيضاً من الخفية وأعني به في حق الولي والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف، وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه. الثالث: تفويتها بشهادة الزور. الرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً، وبعضها أشدّ من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس.

---

(1) حديث: «الدنيا مزرعة الآخرة» لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم «نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته، الحديث» وإسناده ضعيف.

وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها. وأما أكل الربا فليس إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله، وإذا لم يجعل الغضب الذي هو أكل مال الغير بغيره رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع، وإن عظم الشرع الزنا بالزجر عنه فقد عظم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة، والمصير إلى أنّ أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر، وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضرورياً في الدين، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين. أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر، وقد دلّ عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضاً، لأن العقل محفوظ كما أنّ النفس محفوظة، بل لا خير في النفس دون العقل، فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري والقطرة من الخمر ، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر، لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس، والمقطرة وحدها في محل الشك، وإيجاب الشرع الحدّ به يدل على تعظيم أمره، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع، وليس في قوّة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة *وجب الإتباع، ولا فللتوقف فيه مجال. وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض، والأعراض دون الأموال في الريبة، ولتناولها مراتب، وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا، وقد عظم الشرع أمره، وأظن ظناً غالباً أن الصحابة كانوا يعدّون كل ما يجب به الحدّ كبيرة، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن، ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرّده لا يدل على كبره وعظمته، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأنّ العدل الواحد إذا رأى إنساناً يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرّد شهادته، فإن لم تقبل شهادته فحدّه ليس ضرورياً في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات، فإذن هذا أيضاً يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع، فأما من ظن أنّ له أن يشهد وحده، أو ظن أنه يساعد على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر. وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا، وضربهم، والظلم لهم بغصب أموالهم، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم، وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر - إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه - فالتوقف في هذا أيضاً غير بعيد، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر. فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع. وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعاً وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه، والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة، وإذن لا مطمع فيه - فطلب رفع الشك فيه محال.

فإن قلت: فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدّها، فكيف يردّ الشرع بما يستحيل معرفة حدّه؟ فاعلم أنّ كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرّق إليه الإبهام، لأن دار التكيف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث أنها كبيرة، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما، وإنما حكم الكبيرة أنّ الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرأون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس، وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف

نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس، فإنّ جاهد نفسه بالكف عن الوقاع أشدّ تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه؛ فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي مقدماته كسماع الملاهي والأوتار، نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع، فكل هذه أحكام أخروية، ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حدّ جامع، بل ورد بألفاظ مختلفات، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة إلى الصلاة كفارة، ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث: إشراك بالله، وترك السنة، ونكث الصفقة»[1] قيل ما ترك السنة؟ قيل الخروج عن الجماعة. ونكث الصفقة: أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حدّ جامع فيبقى لا محالة مبهمًا.

فإن قلت: الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر، والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة، وهذا من أحكام الدنيا! فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر، فلا خلاف في أنّ من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته، ولم يذهب أحد إلى أنّ هذه الأمور من الكبائر. وقال الشافعي رضي الله عنه: إذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته، فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة، فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب. تقدح في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات: كالغيبة، والتجسس، وسوء الظن، والكذب في بعض الأقوال، وسماع الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكل الشبهات، وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائداً على المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجّار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فهذه ذنوب لا يتصوّر أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات. وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل، فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها لا إلى الكبيرة والصغيرة، ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة، وكذلك مجالسة الفجّار ومصادقتهم، والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أنّ المباح يصير صغيرة بالمواظبة، كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر.

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة، والآخرة من عالم الغيب والملكوت، وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت، وبالآخرة حالتك بعد الموت، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك، يسمى القريب الداني منها دنيا، والمتأخر آخرة. ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة، فإنا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح

(١) حديث: «الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك الله وترك السنة ونكث الصفقة...» الحديث. أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الإسناد.

الآخرة وهي عالم الملكوت، ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال، ولذلك قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ وهذا لأنّ عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت. ولذلك قال ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1] وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا الأمثال المحوجة إلى التعبير، فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال، وأعني بكثرة الأمثال ما نعرفه من علم التعبير، ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة.

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال: رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال: إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر، قال: صدقت. وجاء رجل آخر فقال: رأيت كأني أصب الزيت في الزيتون، فقال: إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت في صغرك، لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره. وقال له آخر رأيت كأني أقلد الدرّ في أعناق الخنازير، فقال: إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال، والتعبير من أوّله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال، وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقاً، وإن نظر إلى صورته وجده كاذباً، فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذباً، فإنه لم يختم به قط، وإن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وقدر عقولهم أنهم في النوم، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل، فإذا ماتوا انتبهوا، وعرفوا أن المثل صادق، ولذلك قال ﷺ: «قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن[2]». وهو من المثال الذي لا يعقله إلّا العالمون، فأما الجهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلاً، كما يسمي تفسير ما يرى من الأمثلة تعبيراً فيثبت لله تعالى يداً وأصبعاً - تعالى الله عن قوله علواً كبيراً. وكذلك في قوله ﷺ «إن الله خلق آدم على صورته»[3] فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك - تعالى الله عن قوله علوّاً كبيراً. من ههنا زل من زل في صفات إلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتاً وحرفاً إلى غير ذلك من الصفات، والقول فيه يطول، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده، كقوله ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح»[4] فيثور الملحد الأحمق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول: يا سبحان الله. الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسماً؟ وهل هذا إلا محال، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جيء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر: صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط، لأن المذبوح وقع اليأس منه، فإذن المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته، وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرّفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له، لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقاً وكان معناه صحيحاً؛ فالرسل أيضاً إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفاً بعباده وتيسيراً لادراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل، فقوله: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح» مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة

---

(١) حديث: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» لم أجده مرفوعاً، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب.

(٢) حديث: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» تقدم.

(٣) حديث: «إن الله خلق آدم على صورته» تقدم.

(٤) حديث: «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح. . .» الحديث. متفق عليه من حديث أبي سعيد.

وثبوت المعاني فيها بواسطتها، ولذلك عبر القرآن بقوله: ﴿كن فيكون﴾ عن نهاية القدرة، وعبر ﷺ بقوله: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» عن سرعة التقليب. وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في «كتاب قواعد العقائد» من ربع العبادات فلنرجع الآن إلى الغرض، فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلنفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته. فنقول: الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلاً البتة، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس. فنقول: الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين. «ومثاله في الدنيا أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويعذب بعضهم ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلي بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون، فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الإعتراف بملكه وعلوّ درجته، ولا يخلي إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بجز الرقبة أو تنكيلاً بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدّة وطول المدّة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم، فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر، فكذلك فافهم أنّ الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون، فمن هالك، ومن معذب مدّة، ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز. والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس، والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر»[1] وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي، فلنذكر كيفية توزعها عليها.

(الرتبة الأولى)، وهي رتبة الهالكين ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى، إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه، فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق، والجاحدون هم المنكرون، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد هم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب من محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة فهو لا محالة يكون محترقاً نار جهنم بنار الفراق، ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها. إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد، ولذلك قيل:

وفي فؤاد المحب نار جوى ... أحر نار الجحيم أبردها

---

(١) حديث: «إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه:وأطولهم مكثاً فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة.

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا، فقد رؤى من غلب عليه الوجد فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة القدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه «وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأنّ الغضب نار في القلب»، قال رسول الله ﷺ: «الغضب قطعة من النار»[1] واحتراق الفؤاد أشدّ من احتراق الأجساد، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه، فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرّق بين جزءين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشدّ إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسد، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً ولم يعدّ ذلك ألماً وقال: العدو في الميدان مع الصولجان أحب إليّ من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوباً. ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذاً، وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس، كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان، وليس لكل إنسان قلب؛ ولو كان لما صح قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلب، ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر، واللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته، ولله الخلق والأمر جميعاً، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيباً، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق، وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، من عرفها فقد عرف نفسه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، وعند ذلك يشم العبد مبادىء روائح المعنى المطوي تحت قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طريق تأويله، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر، فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وحكمته يختص بها من يشاء ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطوّلنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب، فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها.

(الرتبة الثانية) رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه، فإن رأس الإيمان هو التوحيد: وهو أن لا يعبد إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ وهو أن تذر بالكلية غير الله، ومعنى قوله تعالى: ﴿الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل، وذلك قادح

---

(١) حديث: «الغضب قطعة من النار» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه، وقد تقدم.

في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم، فذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجات القرب، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن؛ فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذباً مرتين من وجهين، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين، أحدهما: قوة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقلته، وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى: ﴿وإنّ منكم إلا واردها كان على ربك حتمًا مقضياً* ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان[1] قال الحسن: يا ليتني كنت ذلك الرجل. واعلم أن في الأخبار ما يدلّ على أنّ آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة، وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأنّ الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو؛ وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب، ويتطرّق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدّة وهو اختلاف الأنواع، إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره؛ فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دلّ عليها قواطع الشرع، وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها. أما شدّة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرته فبكثرتها، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات؛ وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ وبقوله تعالى: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ وبقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ وبقوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره *ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه، وجانب العفو والرحمة أرجح؛ إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ: «سبقت رحمتي غضبي»[2] وقال تعالى: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيمًا﴾ فإذن هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع و نور المعرفة، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض ـ أعني الأركان الخمسة ـ ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط. فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته، إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفراً للصغائر، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشه راضية، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرّبين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى، فكذلك يتبع أصناف الإيمان، لأن الإيمان إيمانان: تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه. وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه، فيتضح أنّ الكل إلى الله مرجعه ومصيره، إذ ليس في الوجود

---

(١) حديث: «من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان» أخرجه أحمد وأبو يعلي من رواية أبي ظلال القملي عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون.

(٢) حديث «سبقت رحمتي غضبي» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله، هذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى، وهم أيضاً على أصناف: فمنهم السابقون ومنهم من دونهم؛ وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى: ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر، إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازلة؛ فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم. وأما المؤمن إيماناً تقليدياً فمن أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين، وهم أيضاً على درجات، فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الادنى من درجات المقربين، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها ـ أعني الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج؛ فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام، فإن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلاً، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر محظر عند الموت، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدياً، فإن التقليد وإن كان جزماً فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يعفو الله عذاباً يزيد على عذاب المناقشة في الحساب، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين: ففي الخبر «آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف»[1] فلا نظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام، كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين، فإنّ هذا جهل بطريق ضرب الأمثال، بل هذا كقول القائد: أخذ منه جملًا وأعطاه عشرة امثاله، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار؛ فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والنقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشيره، بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها؛ فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته، فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال: أعطيته عشرة أمثاله، كان صادقاً، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون؛ فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر، فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول: ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله: إني أعطيته عشرة أمثاله، والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال، فعند ذلك ينكشف له الصدق، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله ﷺ في هذه الموازنة، إذ يقول ﷺ: «الجنة في السموات»[2]، كما ورد في الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة، وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلي بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة، فالعارف مرحوم إذا بلي بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة، ولذلك قال ﷺ:

---

(١) حديث: «إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف» متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٢) حديث كون الجنة في السموات: أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن».

«إرحموا ثلاثة: عالماً بين الجهال، وغني قوم افتقر، وعزيز قوم ذل»[1] والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم من سبق بتوكيله القضاء الأزلي، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام: «البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»[2] فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن؛ فإنّ بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم، إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فراراً، ولذلك لما تأذى رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس قال: «رحم الله أخي موسى لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»[3] فإذن لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين، ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين، وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين، فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنه يعطي آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم؛ فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله، إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس، وكل من نسي الله أنساه الله - لا محالة - نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقي إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرّضاً لنقمته إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة، فإنّ البهيمة تتخلص بالموت. وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذه القالب الفاني وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة، إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم﴾ فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيهم وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه؛ فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر، ولا يخرج من النار إلا موحد. ولست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغانمين عن ماله، ومدّة الرقبة والمال مدّة الحياة، فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان، وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله. وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما

---

(١) حديث: «إرحموا ثلاثة: عالماً بين الجهال. . . الحديث» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس، وعيسى ضعيف، ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال: «عالم تلاعب به الصبيان» وفيه أبو البحتري واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين.

(٢) حديث: «البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاس وقال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ فذكره دون ذكر الأولياء وللطبراني من حديث فاطمة «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون. . . الحديث».

(٣) حديث: «رحم الله أخي موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر» أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود.

يجرى عليه، إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل، وهذا التـوحيد متفاوت، فمن الناس من له من التوحيد مثال الجبال، ومنهم من له مثقال. ومنهم من له مقدار خردلة وذرّة، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أوّل من يخرج من النار. وفي الخبر يقال: «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان»[1] وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان، وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة، والموازنة بالمثقال والذرّة على سبْيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد، فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها، ففي الأثر «إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضي من حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير، فيقول الله تعالى: ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكاً إلى النار» وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم، إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلم به وقد حكي عن إبن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال: لا أفعل، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها. وقال هو وغيره: ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي، فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين، فإنّ ذلك ظنّ يصيب في أكثر الأحوال، ولكن قد تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم، إذ ليس في قوّة البشر الوقوف على كنهها، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام، ووراء ذلك سر المشيئة الإلٰهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها، فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة؛ فإن الإعتماد على التقوى والتقوى في القلب، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً، ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلّام للعبيد﴾ ولا قوله تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ وكل ذلك صحيح، فليس للإنسان إلا ما سعى، وسعيه هو الذي يرى، وكل نفس بما كسبت رهينة، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر، إذ للبصر يمكن الغلط فيه، إذ قد يرى البعيد قريباً والكبير صغيراً. ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب، وإلا فما يرى بها بعد الإنفتاح فلا يتصور فيه الكذب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾.

(الرتبة الثالثة) رتبة الناجين، وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم

---

(١) حديث: «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان» الحديث تقدم.

تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد، وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبّر الشرع عنه بالأعراف، وحلول طائفة من الخلق[1] فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار ومن أنوار الاعتبار؛ فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم؛ فهذا مظنون وليس بمستيقن؛ والإطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة؛ ويبعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء؛ والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة. حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال: «وما يدريك»[2] فإذن الإشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام.

(الرتبة الرابعة) رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين، وهم المقرّبون السابقون؛ فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقرّبون وما يلقى هؤلاء يجاوز حدّ البيان، والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾ وقوله عزّ وجل: ﴿أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر﴾ والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصوّر أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور فإنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها: كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار؛ فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه حتى عن

---

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف: أخرجه البزار من حديث أبي سعيد الخدري: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: «هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم على سور بين الجنة والنار... الحديث» وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدني عن أبيه مختصراً؛ وأبو معشر نجيح السندي ضعيف، ويحيى بن شبل لا يعرف. وللحاكم عن حذيفة قال: «أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة... الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين. وروى الثعلبي عن ابن عباس قال: الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحمزة وعلي وجعفر... الحديث، هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين.

(٢) حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله وقال «ما يدريك» رواه مسلم، قال المصنف: والأخبار في حق الصبيان متعارضة. قلت: روى البخاري من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي ﷺ، وفيه: «وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة» فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال وأولاد المشركين» وللطبراني من حديثه: سألنا رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «هم خدمة أهل الجنة» وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة، وهو ضعيف يرويه عن عيسى إبن شعيب، وقد ضعفه ابن حبان. وللنسائي من حديث الأسود بن سريع. كنا في غزاة لنا... الحديث في قتلى الذرية، وفيه «ألا إن خياركم أبناء المشركين» ثم قال «لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة... الحديث» وإسناده صحيح، وفي الصحيحين. من حديث أبي هريرة «كل مولود يولد على الفطرة... الحديث» وفي رواية لأحمد «ليس مولود يولد إلا على هذه الملة، ولأبي داود في آخر الحديث: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين» وللطبراني من حديث ثابت بن الحارث الأنصاري: كانت يهودي إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق، فقال النبي ﷺ «كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد... الحديث» وفيه عبد الله بن لهيعة، ولأبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة في النار» وله من حديث عائشة: قلت يا رسول الله ذراري المؤمنين؟ فقال: «مع آبائهم» قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» قلت: فذراري المشركين؟ قال: «مع آبائهم» قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» وللطبراني من حديث خديجة: قلت يا رسول الله أين أطفالي منك؛ قال «في الجنة» قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» قلت: أطفالي قبلك؟ قال: «في النار» قلت: بلا عمل؟ قال: «لقد علم الله ما كانوا عاملين» وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحارث وخديجة. وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين «هم من آبائهم» وفي رواية «هم منهم».

أنفسهم، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه، ويعبر على هذه الحالة بأنه فني عن نفسه، ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره وصارت همومه هماً واحداً وهو محبوبه، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يتصوّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصوّر أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق، وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات، والله المرفق بلطفه.

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصوّر ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «خير الأعمال أدومها وإن قل»[1] والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قلّ فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب، إلا أنّ الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره. ومنها أن يستصغر الذنب فإنّ الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة، وقد جاء في الخبر: «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره»[2] وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد: ليت كل ذنب عملته مثل هذا، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصي به رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة، بل كل مخالفة فهي كبيرة، وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين: وإنك لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ الموبقات، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف. ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه

---

(١) حديث: «خير الأعمال أدومها وإن قلّ» متفق عليه من حديث عائشة بلفظ «أحب» وقد تقدم.

(٢) حديث: «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه... الحديث» أخرجه البخاري. من رواية الحارث بن سويد قال: حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه، فذكر هذا وحديث «الله أفرح بتوبة العبد» ولم يبين المرفوع من الموقوف، وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا.

سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدّة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه؟ ويقول المعامل في التجارة: أما رأيت كيف روّجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدوّ عليه وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الخبر «كل الناس معافى إلا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدّث بذنبه»[1] وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر. فالإظهار كفران لهذه النعمة. وقال بعضهم: لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهوّنها عليه. ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعدّيه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماد متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه. وفي الخبر: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً»[2] قال تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل. وقال إبن عباس: ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق. وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها. وفي الإسرائيليات: أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهراً، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار، فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والأخرى إخفاءه، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك، فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما

---

(1) حديث: «كل الناس معافى إلا المجاهرين... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «كل أمتي» وقد تقدم.

(2) حديث: «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها... الحديث» أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب.

بالخسران، وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها.

الركن الثالث: في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلاً بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط فلا بد من بيانها: أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي. وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصابه وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه وأي عقوبة أشد من النار وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيباً: أن مرض ولده المريض لا يبرأ أو أنه سيموت منه، لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار، فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر «جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة»[1]، ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة، وفي الإسرائيليات: إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ـ وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال ـ وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه.

فإن قلت: فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها؟ فأقول: من تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا؟ فإن قلت: لا، فهو جحد للمشاهدة والضرورة، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضاً لشبهه به، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان. ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون، فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى متهاوناً بالذنوب مصراً عليها، فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب. وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال؛ وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال. وله تعلق بالماضي؛ وهو تدارك ما فرط. وبالمستقبل؛ وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت.

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً ونفساً نفساً، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى

---

(١) حديث: «جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة» لم أجده مرفوعاً وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال: «جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب» وقال أيضاً: «فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب» وقال أيضاً: «التائب أسرع دمعة وأرق قلباً».

المعاصي ما الذي قارفه منها؟.

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد.

وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النية بالليل ولم يقض، فيتعرّف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه.

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أوّل ملكه ـ لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي ـ فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضي جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلاً، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء.

وأما الحج فإنه كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً قال عليه السلام: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً»[1] والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها.

وأما المعاصي فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغيره ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذاً من قوله ﷺ: «إتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها»[2] بل من قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر مس المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله بأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه، وعدّ جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا

---

(١) حديث: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً... الحديث» تقدم في الحج.

(٢) حديث: «إتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها» أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبعضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس.

رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال ﷺ: «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم»[١] وفي لفظ آخر: «إلا الهم بطلب المعيشة» وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه»[٢] ويقال إنّ الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها، وشعور القلب بوقفة الحساب وهو المطلع.

فإن قلت: هم الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له: كيف تركت الشيخ الكئيب؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال: فما له عند الله؟ قال: أجر مائة شهيد. فإذن الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب ـ لأن تلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة، ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعني به الإيذاء المحض.

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول. وإن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين، فإن أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روي أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني! فرده فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت! فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم، فكان الناس فيه فريقين: فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئة وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»[٣] وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني! فردها فلما كان من الغد قالت: يا

---

(١) حديث: «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم» وفي لفظ آخر «إلا الهم في طلب المعيشة» أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح.

(٢) حديث: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم» وتقدم أيضاً في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ «ابتلاه الله بالحزن».

(٣) حديث: إعتراف ماعز بالزنا ورده ﷺ حتى اعترف أربعاً وقوله: «لقد تاب توبة... الحديث» أخرجه مسلم من حديث بريدة ابن الخصيب.

رسول الله لِمَ تردني لعلك تريد أن ترددني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى. فقال ﷺ: «أما الآن فاذهبي حتى تضعي» فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدته قال: «إذهبي فأرضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت: يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها. فسمع رسول الله ﷺ سبه إياها فقال: «مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت».[1].

وأما القصاص وحدّ القذف: فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه، وإن كان المتناول مالاً تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده، فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به، إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره. فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف؟ وربما يكون الأجل قريباً؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات. هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته.

أما أمواله الحاضرة فليردّ إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيناً وما لا يعرف له مالكاً فعليه أن يتصدق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالإجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام.

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم في الغيبة فيطلب كل من تعرّض له بلسان أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرف قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعدّيه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته، فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوّفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب.

---

(١) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله ﷺ «لقد تابت توبة... الحديث» أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله.

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه، كمن أتلف في الدنيا مالاً فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين. وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على راهب فأتاه فقال: «إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا. فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على رجل عالم فقال له: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله عزّ وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكمًا بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»[1] وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها» وفي رواية: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرّبي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له» بهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرّة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات وهذا حكم القصد المتعلق بالماضي.

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزماً جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه، فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أوّل أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات؟ وقد قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها. وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين، لم يعد إليه أبداً. ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة، وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب، كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلاً، وليست هذه توبة مطلقة.

وقد قال بعض الناس إنّ هذه التوبة لا تصح، وقال قائلون تصح، ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل، بل نقول لمن قال لا تصح: إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بلا وجوده كعدمه فما أعظم

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض... الحديث» هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد.

خطأك! فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته. ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ! بل النجاة والفوز بترك الجميع. هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم. وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة، ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية فإن العلة شاملة لهما إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لأن توجهه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصي بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبه وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم تتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح أي لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك، وتحقيق هذا أنّ ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي، وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء.

فنقول: التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر، أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته، والصغائر أقرب إلى تطرّق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه، كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خائفاً من الجناية على الأهل مستحقراً للجناية على الدابة، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى. وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوماً فلا تستدعي التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر.

الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه، فهذا أيضاً ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر، لأنّ الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي.

الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة، كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر، فهو أيضاً ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوّة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ولا قوياً عليه، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية، وقد تشتد ضراوة

الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك؟ بل يقول هذا الفاسق في نفسه؛ إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخي العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي، فعساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي. ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلي ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرّب إلى الله تعالى ما لم تتقرّب بترك الفسق؛ وهذا محال بأن يقول لله تعالى علي أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان، وأنا ملي في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا، وإذا فهم هذا، فهم أنّ غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي ﷺ: «الندم توبة» ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ولم يقل التائب من الذنوب كلها، وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل إنّ التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرّض إلى سخط الله تعالى، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط، ويتوب عن الكثير دون القليل لأنّ لكثرة الذنوب تأثيراً في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى، كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بدّ وأن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي عليه إما في شدّة المعصية وإما في غلبة الشهوة، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الخوف والندم، فيتصوّر اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي.

فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة؟ فأقول لا، لأنّ التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه، ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحصر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فإني أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أنّ ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فإذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدّر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله.

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين، أحدهما: حرقة الندم. والآخر: شدة المجاهدة بالترك في المستقبل. وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً.

فإن قلت: إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه، فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحابي

أبي سليمان الداراني: إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة. وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة.

والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان (إحداهما) أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دلّ على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوّة الدين؛ وأعني بقوّة الدين قوة الإرادة التي تنبعث بإشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً. وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ. وهو كقول القائل: العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة، والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدوّ له والملك ربما يغلب مرّة وإن غلب مرّات، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلوّ شرطه اقتحام الأغرار. بل كقول القائل: الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدي عليه، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قوياً عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد.

(الحالة الثانية) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها. فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها. وقول القائل: ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد فإن الجهاد كان مقصوداً لعينه، بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر. ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم. ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد، ولقد زلّ في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق. وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرّب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال: هذا محال، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات. وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات.

فإن قلت: فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذنبين عندنا على حق ولكن بالإضافة إلى حالين.

وكلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجدّ حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه أمر غيره، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله. وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الإشتراك في أصل الهداية؟.

فأقول: تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدىء، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق. لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله. فهو بالإضافة إلى الغافل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق. بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك، فإن ظهر له مبادي الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال. بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل، ولو جلس على شاطىء البحر بعد عبوره يبكي متأسفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع. نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله، فإن حصل له من التنبية ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك ـ وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربع المهلكات ـ بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته، ولكن إن كان شاباً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة. بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا. فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركاً للشهوة، فالمبتدي أيضاً قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك. ولا يصدّنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام، فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم، فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنياً عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلاً للأمر على المريد. ولذلك قال ﷺ: «أما إني لا أنسى ولكني أنسى لأشرع»[1] وفي لفظ: «إنما أسهو لأسنّ». ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة. أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال ﷺ: «كخ كخ»[2] لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها في فيه؟ وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول إرم هذه التمرة فإنها حرام، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته. بل الذي يعلم شاة أو طائراً يصوّت به رغاء أو صفيراً تشبهاً بالبهيمة والطائر تلطفاً في تعليمه. فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات: (الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرد من أمره ولا يحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في

---

(١) حديث: «أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشرع» ذكره مالك بلاغاً بغير إسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد في الموطأ إلا مرسلاً لا إسناد له وكذا قال حمزة الكتاني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنماطي: وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وأدعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسنداً.

(٢) حديث: «أنه قال للحسن «كخ كخ» لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها في فيه: أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام.

العادات مالم يكن في رتبة النبوّة، فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة: التوبة النصوح. واسم هذه النفس الساكنة: النفس المطمئنة، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ: «سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أزوارهم فوردوا القيامة خفافاً»[1] فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم. وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات. فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي بمجاهدتها وردها. ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع. وكذلك يختلفون من حيث طول العمر: فمن مختطف يموت قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة. ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته. وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء: إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى، واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض. ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته. بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته في الابتداء.

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرّضه لها. وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد، وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾ فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه. قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ فيما رواه عنه علي كرّم الله وجهه: «خياركم كل مفتن تواب»[2] وفي خبر آخر: «المؤمن كالسنبلة يفيء أحياناً ويميل أحياناً»[3] وفي الخبر: «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة»[4] أي الحين بعد الحين، فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين. ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين

---

(١) حديث: «سبق المفردون المستهترون بذكر الله... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم.

(٢) حديث علي «خياركم كل مفتن تواب» أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(٣) حديث «الموءمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً» أخرجه أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلاً وكلها ضعيفة وقالوا «تقوم» بدل «تفيء» وفي الأمثال للرامهرمزي اسناد جيد لحديث أنس.

(٤) حديث: «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة» أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة.

كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار، وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة. وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه. بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاؤون وخير الخطائين التوابون المستغفرون»[1] وقال أيضاً: [2] «المؤمن واهن راقع فخيرهم من مات على رقعه» أي واهن بالذنوب راقع بالتوبة والندم. وقال تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة﴾ فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً.

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسوّل نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم. فهذه النفس هي التي تسمى: النفس المسوّلة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم دلّ تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دلّ على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين. فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس، فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير. هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب. ولذلك قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان. قال ﷺ: «إنّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[3] فإذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة. وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به، فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر.

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن

---

(١) حديث: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون» أخرجه الترمذي واستغربه والحاكم وصحح اسناده من حديث أنس وقال «التوابون» بدل «المستغفرون» قلت فيه علي بن مسعدة ضعفه للبخاري.

(٢) حديث «المؤمن واراقع فخيرهم من مات على رقعه» أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالا «فسعيدهم» بدل «فخيرهم».

(٣) حديث «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة . . . الحديث» متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله «سبعين سنة» ولمسلم من حديث أبي هريرة «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة . . . الحديث» ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة» وشهر مختلف فيه.

يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أنّ يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هي: النفس الأمارة بالسوء، الفرارة من الخير؛ ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه، كما لا يستحل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده، وأن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم. فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة، وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلّم، وليت من اتجّر استغنى وليت من صام وصلى وغفر له، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم. وكما أن من خرب بيته وضيّع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعدّ عنه ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين - وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله. . . فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعدّ عند أرباب القلوب من المعتوهين. والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول: إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ويقول: ما هذا الهوس؟ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب، هكذا قدّره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله، ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً، وأنه قد أخبر إذ قال: ﴿وأنّ ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم، وأنّ ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدّة الإجتهاد في غالب الأمر في الدنيا؟ وينسى قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوارؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً﴾ أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فأرجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الإنقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والإرتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب.

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتفكير بحسنه تضاده كما ذكرنا طريقه، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فالحسنات لمكفّرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها.

فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو، ويتذلل تذلل العبد الآبق، ويكون ذلك بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد، وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات.

وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول: رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ـ كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار.

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات. وفي الآثار ما يدل على أنّ الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجواً؛ أربعة من أعمال القلوب هي: التوبة أو العزم على التوبة، وحب الإقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له. وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهم سبعين مرة وتقول: سبحان الله العظيم وبحمده، مائة مرة ثم تتصدّق بصدقة ثم تصوم يوماً، وفي بعض الآثار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين[١] وفي بعض الأخبار: تصلي أربع ركعات[٢] وفي الخبر: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها، السر بالسر والعلانية بالعلانية»[٣] ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار. وفي الخبر الصحيح: «أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض عليّ بحكم الله تعالى»؟ فقال ﷺ: «أو ما صليت معنا صلاة الغداة؟» قال: بلى، فقال ﷺ: «إن الحسنات يذهبن السيئات»[٤] وهذا يدل على أنّ ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله ﷺ: «الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر» فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات.

فإن قلت: فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار، وفي الخبر: «المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله»[٥] وكان بعضهم يقول استغفر الله من قولي أستغفر الله، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين. وقالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير! فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ـ ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات ـ حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فكان بعض الصحابة يقول: كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا[٦]

---

(١) أثر «إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين» أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له» لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً فلعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقوف فذكرته احتياطاً وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي.

(٢) حديث: التكفير بصلاة أربع ركعات: أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يهوى امرأة... الحديث. وفيه: فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدنة فقام نادماً فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبي ﷺ «صلّ أربع ركعات» فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ الآية وإسناده جيد.

(٣) حديث: «إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ «وما عملت من سوء فأحدث الله فيه توبة السر بالسر... الحديث».

(٤) حديث: أن رجلاً قال يا رسول الله إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس... الحديث في نزول ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله «أو ما صليت معنا صلاة الغداة» ورواه مسلم من حديث أنس وفيه «هل حضرت معنا الصلاة» قال: نعم، ومن حديث أبي أمامة وفيه «ثم شهدت الصلاة معنا» قال: نعم... الحديث.

(٥) حديث: «المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله» أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ «كالمستهزيء بربه» وسنده ضعيف.

(٦) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ الآية «كان لنا أمانان ذهب أحدهما» أخرجه أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه: «أنزل الله علي أمانين... الحديث» وضعفه وابن مردويه، تفسيره من قول ابن عباس.

فنقول: الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة استغفر الله، وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثربه قلبه، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال ﷺ: «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة»[1]. وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب. وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ولذلك قال سهل: لا بد للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء فإن عصى قال يا رب استر عليّ، فإذا فرغ من المعصية قال يا رب تب عليّ، فإذا تاب قال يا رب ارزقني العصمة، وإذا عمل قال يا رب تقبل مني. وسئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال: أوّل الاستغفار الإستجابة ثم الإنابة ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه، ثم ينظر إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش. وسئل أيضاً عن قوله ﷺ: «التائب حبيب الله» فقال: إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى: ﴿التائبون العابدون﴾ الآية. وقال: الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه.

والمقصود أن للتوبة ثمرتين (إحداهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له (والثانية) نيل الدرجات حتى يصير حبيباً. وللتكفير أيضاً درجات: فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات ـ وإن خلا عن حل عقدة الإصرار. من أوائل الدرجات ـ فليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها. بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرّات وذلك بالضرورة محال، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول: أي غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب؟ ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة. فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً. بل أقول: الاستغفار باللسان أيضاً حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي: إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل. فقال: أشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوّده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول. وما ذكره حق فإن تعوّد الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي. فمن تعوّد لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً، سبق لسانه إلى ما تعوّد فقال: استغفر الله. ومن تعوّد الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك! ومن تعوّد الاستعاذة إذا حدث بظهور

---

(١) حديث: «ما أصر من استغفر. . . الحديث» تقدم في الدعوات.

مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان: نعوذ بالله، وإذا تعوّد الفضول قال: لعنه الله، فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى: ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ومعاني قوله تعالى: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات، وتضعيف الآخرة: ﴿أكبر لو كانوا يعلمون﴾ فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روّجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل إليهم إنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر، فأي خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب؟ فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات. أما السابق فقال صدقت يا ملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلاً. فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب، فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه وأما الظالم المغرور: فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل: وافق شنّ طبق وافقه فاعتنقه. وأما المقتصد: فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب، ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير. فكان السابق كالحائك الذي ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتباً، والظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً، والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال: لا أنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة. ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير. فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة، بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي. ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث؛ رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه، وخبأ ولايته في عباده فلا تحقروا منهم أحد فلعله ولي الله تعالى. وزاد: وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه.

الركن الرابع

في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان: شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «يعجب ربك من شاب ليست له صبوة»[1] وهذا عزيز نادر. والقسم الثاني: هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين، وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه. فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله. ولا يبطل الشيء لا بضده. ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة

---

(١) حديث: «يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة» أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة.

إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى: ﴿وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار. فإن لهذا الدواء أصلان: أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانهما.

فإن قلت: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟ فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار. فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول: يحتاج المريض إلى التصديق بأمور:

(الأول) أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإنّ من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك. وهذا وزانه مما نحن فيه: الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة وللشقاوة سبباً هو المعصية وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع، وهذا لا بدّ من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان.

(الثاني) أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب، فإنّ إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان. ووزانه مما نحن فيه: العلم بصدق الرسول ﷺ والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

(الثالث) أنه لا بد أن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء. ووزانه من الدين: الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج.

(الرابع) أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرف أولاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه، فليس على كل مريض الإحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص. ووزانه من الدين: أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة! وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها، ثم العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها.

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم؛ ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يُسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم، كما أنّ الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء كافة. وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيهاً متديناً يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا

جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع. والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم. ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان. والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى. فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس.

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل؛ إحداهما: أنّ المريض به لا يدري أنه مريض.

والثانية: أنّ عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غير مشاهد، وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

والثالثة: وهو الداء العضال: فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً، لأنّ الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السبب عمّ على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذا لم ينصحوا لم يغشوا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا! وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألذ في الأسماع وأخف على الطباع، فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله.

ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائباً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه. فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادي العلة. أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية: فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال. وكذلك المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التي سبقت: يعالج أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب. فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء وذلك من دأب الجهال والأغبياء. فإذن فساد الأطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلاً.

فإن قلت: فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق؟ فاعلم أنّ ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه. نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع.

(الأول) أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار مثل قوله ﷺ: «ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا! ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا! فيقول الآخر: يا

ليتهم إذا علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا»[1] وفي بعض الروايات: «ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا! ويقول الآخر: يا ليتهم إذا لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا» وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها. وقال بعض السلف: ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً؛ فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدي وامهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إليّ فأغفر له ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السمٰوات والأرض أن تـزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها»[2] وفي حديث مجاهد: «القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنباً انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسدّ على القلب فذلك هو الطبع»[3] وقال الحسن: إن بين العبد وبين الله حدّاً من المعاصي معلوماً إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه لم يوفقه بعدها لخير.

والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله ﷺ، فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه[4].

(النوع الثاني) حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق، مثل أحوال آدم ﷺ في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة، حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه، ونودي من فوق العرش: اهبطا من جواري فإنه لا يجاورني من عصاني. قال: فالتفت آدم إلى حواء باكياً وقال: هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب. وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوماً، وقيل: لأنّ المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل، وقيل: بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلب ملكه أربعين يوماً فهرب تائهاً على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعموني فإني سليمان بن داود شـج وطرد وضرب. وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه. وفي رواية: أخرجت عجوز جرّة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين ـ أيام العقوبة ـ قال: فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال: لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم في عذركم الآن إنّ هذا أمر كان من السماء ولا بدّ منه. وروي في الإسرائيليات: ان رجلاً

---

(١) حديث: «ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا... الحديث» غريب لم أجده هكذا. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف «إن الله ملكاً ينادي في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده... الحديث» وفيه «ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا... الحديث».

(٢) حديث عمر «الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات... الحديث» أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر.

(٣) حديث مجاهد «القلب مثل الكف المفتوحة» قلت هكذا قال المصنف: وفي حديث مجاهد، وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة.

(٤) حديث: أنه ﷺ ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة أخرجه البخاري من حديث عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة. ولمسلم من حديث عائشة ما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً. وفي حديث أبي الدرداء: إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم... الحديث وقد تقدم في العلم.

تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها، فجاهدها واستعصم. قال: فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبياً في بني إسرائيل. وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام: بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بتركي المعاصي لأجل الله تعالى. وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديداً فكأنه أعجبه! قال: فوضعته الريح، فقال لِمَ فعلت هذا ولم آمرك؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعت الله. وروي أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا، قال: لقولك لإخوته: ﴿أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ لِمَ خفت عليه الذئب ولم ترجني، ولِمَ نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟ وتدري لِمَ رددته عليك؟ قال: لا، قال: لأنك رجوتني وقلت: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ وبما قلت: ﴿إذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا﴾ وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك: ﴿أذكرني عند ربك﴾ قال الله تعالى: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾.

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار وورود الأسمار، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟ نعم كانت سعادتها في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثمًا ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر. فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

(النوع الثالث) أن يقرّر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع علي الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر، كما حكي في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه، قال ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[1] وقال إبن مسعود: إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه؛ وهو معنى قوله عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً»[2] وقال بعض السلف: ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاً في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه، وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون. وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل جامعاً ثيابه محترزاً عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط، فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول: هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها يخوض في الذنوب خوضاً. وهو إشارة إلى أنّ الذنب تتعجل عقوبته بالإنجرار إلى ذنب آخر، ولذلك قال الفضيل: ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورّثتك ذلك. وقال بعضهم إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري. وقال آخر: أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي. وقال بعض صوفية الشام: نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه، فوقفت أنظر إليه فمرّ بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ بيدي فاستحييت منه فقلت: يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار! فغمز

---

(١) حديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلا أنه قال «الرجل» بدل «العبد» من حديث ثوبان.

(٢) حديث: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً» تقدم.

يدي وقال: لتجدنّ عقوبتها بعد حين، قال: فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة. وقال أبو سليمان الداراني؛ الاحتلام عقوبة. وقال: لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه. وفي الخبر: «ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم»[١] وفي الخبر: «يقول الله تعالى إنّ أدنى ما أصنع بالعبد إذ آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي»[٢] وحكي عن أبي عمرو بن علوان ـ في قصة يطول ذكرها ـ قال فيها: كنت قائماً ذات يوم أصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال، فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام، وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إليّ فأشخصني من الرقة، فلما أتيته قال لي: أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون، قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة؟.

واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر، وإن كان شقياً أخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار. والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره. بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته، فإن ابتلي بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه، وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه. وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته.

(النوع الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد، وكل ذلك مما لا يمكن حصره، وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد: أوصني يا رسول الله ولا تكثر عليّ قال: «لا تغضب»[٣] وقال له آخر: أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام: «عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاة مودع، وإياك وما يعتذر منه»[٤] وقال رجل لمحمد بن واسع: أوصني، فقال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال: وكيف لي بذلك؟ قال: الزم الزهد في الدنيا. فكأنه ﷺ توسم في السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل. وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا. وقال رجل لمعاذ: أوصني، فقال: كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً. فكأنه تفرّس فيه آثار الفظاظة والغلظة. وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: أوصني. فقال: إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي النسناس وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء اليأس. فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته، وكان الغالب آذاه بالناس. والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل. وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري، فكتبت إليه: من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد

---

(١) حديث: «ما أنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم» أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله بن هانيء. قلت: هو متهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل.

(٢) حديث: «يقول الله إني أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي» غريب لم أجده.

(٣) حديث: قال رجل أوصني ولا تكثر عليّ قال «لا تغضب» تقدم.

(٤) حديث: قال له آخر: أوصني قال: «عليك باليأس. . . الحديث» أخرجه ابن ماجه والحاكم وقد تقدم.

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس»[1] والسلام عليك. فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددها؟ وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم. وكتبت إليه مرة أخرى، أما بعد، فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام.

فإذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان.

فإن قلت: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإلا على الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل.

ومثاله ما روي أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري: أوصني، قال: عليك بتقوى الله عزّ وجل فإنها رأس كل خير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن: أوصني، فقال: أعز أمر الله يعزك الله. وقال لقمان لأبنه: يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلّاً، وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين. وقال أيضاً لابنه: يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت، يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم. وقال رجل لأبي حازم: أوصني، فقال: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه. وقال موسى للخضر عليهما السلام: أوصني، فقال: كن بساماً ولا تكن غضاباً وكن نفاعاً ولا تكن ضراراً وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران. وقال رجل لمحمد بن كرام: أوصني، فقال: اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف: أوصني فقال: إجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات، قال: وما غلاف الدين؟ قال: ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه. وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى أما بعد، فخف بما خوفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأل أن يعظه فكتب إليه: أما بعد؛ فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع وإذا ندمت فاقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك. وكتب مطرق بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد، فإن الدنيا دار

---

(١) حديث عائشة «من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس... الحديث» أخرجه الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يسم.

عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء. وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن أرطاة. أما بعد، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم. وكتب أيضاً إلى بعض عماله. أما بعد، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم أن الله عزّ وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام.

هكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها. ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستسرى الفساد، وبلى الخلق بوعاظيزخرفون أسجاعاً وينشدون أبياتاً ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب، بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف.

فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى، وطلب العلماء أول علاج العاصين. فهذا أحد أركان العلاج وأصوله. (الأصل الثاني) الصبر: ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يتناول ذلك: إما لغفلته عن مضرته، وإما لشدة غلبة شهوته؛ فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة. فيبقى علاج الشهوة ـ وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس ـ وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه، فلا بد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخلوقات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله- ﷺ، فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته. ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة. ومن داخل: تناول لذائذ الأطعمة، وعلاجه الجوع والصوم الدائم. وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم، وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك. فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى. وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإنما لله الآخرة والأولى.

فإن قلت: فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف، والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان؛ فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن؟ فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة. ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور.

(أحدها) أن العقاب الموعود غائب ليس بحاضر، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

(الثاني) أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف ـ والعادة طبيعة خامسة ـ والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ وقال عزّ وجل: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[١] وقوله ﷺ: «إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام: إذهب فانظر إليها، فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها! فحفها بالشهوات ثم قال: إذهب فانظر إليها، فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها. وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام إذهب فانظر إليها، فنظر فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فحفها بالمكاره ثم قال: إذهب فانظر إليها، فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد»[٢] فإذاً كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذباً بأصل الطب ولا مكذباً بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر.

(الثالث) أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات، وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير، فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان.

(الرابع) أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالاً على فضل الله تعالى. فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان.

نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر، كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر.

فإن قلت فما علاج الأسباب الخمسة؟ فأقول: هو الفكر، وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب، أن كل ما هو آت آت وأن غداً للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب، والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً ويذكر نفسه أنه أبداً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال، إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده، ومفارقته للدنيا لا بد منها، فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً؟ فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه فيقول: كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا؟ وبهذا التفكير بعينه يعالج اللغة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها

---

(١) حديث: «حفت الجنة بالمكارة... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «إن الله خلق النار فقال لجبريل إذهب فانظر إليها... الحديث» أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة.

بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة؟ وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، لأن المسوف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد! فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها. وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق. وما مثال المسوف إلا مثاله من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت إزداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف.

وأما المعنى الرابع: وهو انتظار عفو الله تعالى. فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان، وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل، وقال: انتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار! فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة! وقد حكي في الأسمار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله. فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل، إذ قد لا يمكن ولا يكون.

وأما الخامس وهو شك فهذا كفر، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول. ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله، فيقال له: ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة شخص واحد في مكانين في حالة واحدة؟ فإن قال: أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء. وإن قال: أنا شاك فيه، فيقال: لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة؟ فيقول: أتركه لا محالة لأني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام، والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب، وإن صدق فتفوتني الحياة، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد. فيقال له: يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ـ ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الألباب ـ عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضاً فيما يقول؟ فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثواباً وعقاباً وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائراً يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئاً، فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى أبد الآباد؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعري:

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما

لذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا: إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً وإلا فقد تخلصت وهلكت! أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال.

فإن قلت: هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته؟ وما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله؟ فاعلم أن المانع من الفكر أمران (أحدهما) أنّ الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرّج والاستراحة. (والثاني) أنّ الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخراً لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك.

أما علاج هذين المانعين: فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألماً بذكره مع استحقار ألم مواقعته، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به؟ وأما الثاني وهو كون الفكر مفوتاً للذات الدنيا؛ فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها، ولذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر. وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به؟ ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة؟ نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعدما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدناً كما كان الشر ديدنا، فالنفس قابلة ـ ما عودتها تتعود ـ والخير عادة والشر لجاجة.

فإذن هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات، ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيها تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر، فيصير الفكر موافقاً للطبع فيميل القلب إليه. ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة. وقد روي في حديث طويل: أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفكر على ماذا بني؟ فقال علي رضي الله عنه: بني على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء، ومن عمي نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غرّته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب. فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر في التوبة كاف. وإذا كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى.

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بِسمِ الله الرحْمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء، المنفرد برداء الكبرياء، المتوحد بصفات المجد والعلاء، المؤيد صفوة الأولياء بقوّة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء: ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء.

أما بعد: فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر[1] كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار. وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى وإسمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبوراً وشكوراً، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان، فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان. ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى. (الشطر الأول) في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حده وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه. فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى.

بيان فضيلة الصبر

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عزّ من قائل: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ وقال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ وقال تعالى: ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ وقال تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ وقال تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ فما من قربة إلَّا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولاجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به» فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾ وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول.

وأما الأخبار فقد قال ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»[2] على ما سيأتي وجه كونه نصفاً وقال ﷺ: «من أقل ما أؤتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إليّ من أن يوافيني كل أمرىء منكم بمثل عمل جيعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وما عندكم ينفد وما عنده الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم﴾[3] الآية وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة»[4] وقال أيضاً: «الصبر كنز من كنوز الجنة»[5] وسئل مرة: «ما

---

(١) حديث: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف.

(٢) حديث: «الصبر نصف الإيمان» أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم.

(٣) حديث: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر. . . الحديث» بطولة تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطول.

(٤) حديث جابر: سئل عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة» أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده.

(٥) حديث: «الصبر كنز من كنوز الجنة» غريب لم أجده.

الإيمان؟ فقال: الصبر»[1] وهذا يشبه قوله ﷺ: «الحج عرفة»[2] معناه معظم الحج عرفة وقال أيضاً ﷺ: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»[3] وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام؛ تخلق بأخلاقي وإن من أخلاقي أني أنا الصبور. وفي حديث عطاء عن ابن عباس: لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: «أمؤمنون أنتم؟» فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله قال: «وما علامة إيمانكم؟» قالوا: نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء، فقال ﷺ: «مؤمنون ورب الكعبة»[4] وقال ﷺ: «في الصبر على ما تكره خير كثير»[5] وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون. وقال رسول الله ﷺ: «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً والله يحب الصابرين»[6] والأخبار في هذا لا تحصى.

وأما الآثار فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر. الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى. واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال علي كرم الله وجهه: بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال أيضاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له. وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين؛ يعني بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى. والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب﴾ بكى وقال: واعجباه أعطى وأثنى أي هو المعطي للصبر وهو المثني. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر. وهذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، وأما من حيث النظر بعين الإعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق.

بيان حقيقة الصبر ومعناه

إعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار. وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى. واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل ـ كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد ـ وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم. فإن

---

(١) حديث: سئل مرة عن الإيمان فقال: «الصبر» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» ويزيد ضعيف.

(٢) حديث: «الحج عرفة» تقدم في الحج.

(٣) حديث: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس» لا أصل له مرفوعاً وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس.

(٤) حديث عطاء عن ابن عباس: دخل على الأنصار فقال: «أمؤمنون أنتم؟» فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله... الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء.

(٥) حديث: «في الصبر على ما تكره خير كثير» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم.

(٦) حديث: «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً» أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي.

الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة. أما في البهائم فلنقصانها. وأما في الملائكة فلكمالها.

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوّة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً.

وأما الملائكة عليهم السلام فإنهم جرّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو مهتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، على الترتيب، وليس له قوّة الصبر البتة؛ إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم، ولكنّ الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين؛ أحدهما يهديه، والآخر يقويه، فتميز بميزة الملكين عن البهائم. واختص بصفتين: إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف. فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ. وأما الدواء النافع مع كونه مضراً في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه. فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً ولكن لا قدرة له على دفعه؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه، فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر.

فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثاً دينياً، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى. وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد. ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى. فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة. فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين.

فإن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى: الصبر، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة. وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة. فإذ قوي يقينه ـ أعني المعرفة التي تسمى إيماناً وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى ـ قوي ثبات باعث الدين، وإذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة. وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها. وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين. وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوّى لم يخف عليك

أنّ جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست، الذي ينبغي أن يكون مسلمًا له. فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال.

وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة. فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه فيكتب أعراضه سيئة، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة. وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسيء إليه فيثبت عليه سيئة، وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة. وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما فلذلك سميا كراما كاتبين. أما الكرام فلإنتفاع العبد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام بررة، وأما الكاتبون فلإثباتهما الحسنات والسيئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سنر القلب، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة، وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين: مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى، وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت، إذ قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»[1] وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ وفيها يقال: ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق، وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمراً لا آحاداً. والهول الأول هو هول القيامة الصغرى، ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلاً فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره، فحصته من الزلزلة توفرت من غير نقصان. واعلم أنك أرضي مخلوق من التراب، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط، فأما بدن غيرك فليس بحظك. والأرض التي أنت جالس-عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه، وإلا فالهواء أبداً متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط، فهي أرضك وترابك الخاص بك، وعظامك جبال أرضك، ورأسك سماء أرضك، وقلبك شمس أرضك، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك، وشعورك نبات أرضك، وأطرافك أشجار أرضك، وهكذا إلى جميع أجزائك، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفاً، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويراً، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكداراً، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقاً، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيراً، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلاً، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك. فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب، والأعمى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة، وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره، ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس

---

(١) حديث: «من مات فقد قامت قيامته» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره؟ فهذه هي القيامة الصغرى. والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال وتمت الأهوال.

واعلم أنّ هذه الصغرى وإنّ طولنا في وصفها فإنا لم نذكر عشير أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى؛ فإن للإنسان ولادتين (إحداهما) الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم. فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضاً إلى الرحم، بل أوسع وأعظم. فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة. وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت. والمقرّ بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجال.

فما أعظم غفلتك يا مسكين ـ وكلنا ذلك المسكين ـ وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى؟ أوما سمعت قول سيد الأنبياء: «كفى بالموت واعظاً»[١] أوما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ: «اللهم هوّن على محمد سكرات الموت»[٢] أوما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون؟ فيأتيهم المرض نذيراً من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولاً منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون، أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون؟ ﴿أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ﴿وإن كل لما جميع لدينا محضرون﴾ لكن ﴿ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ وذلك لأنا ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لتنذرهم لا يؤمنون ﴾ .

ولنرجع إلى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول: ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئاً عن الصبيان والمجانين، إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منها والسيئة في الإعراض عنها، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منها إقبال وإعراض، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض. ولعمري إنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزاً ولا يعاقب على تركها في الآخرة، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة، بل على القيم العدل والولي

---

(١) حديث: «كفى بالموت واعظاً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد.

(٢) حديث: «اللهم هون على محمد سكرات الموت» أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ «اللهم أعني على سكرات الموت».

البر الشفيق ـ إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ـ أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب. فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي. فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقرّبين والصدّيقين. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»[1] وأشار إلى أصبعيه الكريمتين ﷺ.

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليها جميعاً، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً. واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات. ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين.

أحدهما: أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً. فيكون للإيمان ركنان: (أحدهما) اليقين (والآخر) الصبر. والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين. والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل. فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الإعتبار. ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر. . . الحديث» إلى آخره.

الإعتبار الثاني: أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلّى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما، وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر. فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الإعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالإعتبار الأول. وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر، وقد يرفع أيضاً إلى رسول الله ﷺ.

ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين، باعث من جهة الشهوة، وباعث من جهة الغضب؛ فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب: قال ﷺ بهذا الإعتبار: «الصوم نصف الصبر» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعاً، فيكون الصوم بهذا الإعتبار ربع الإيمان. فكهذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان: والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة.

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان؛ أحدهما: ضرب بدني، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها. وهو إما بالفعل: كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها. وإما بالاحتمال: كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة. وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

---

(١) حديث: «أنا وكافل اليتيم كهاتين» أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم.

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر: وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى. ثم هذا الضرب إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر. فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر. وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود، وشق الجيوب وغيرهما. وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس، وتضاده حالة تسمى البطر. وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن. وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ويضاده التذمر. وإن كان في نائبه من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر. وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوماً. وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضاده الحرص. وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. ولذلك سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال: «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال: «الحج عرفة»[1] وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمي الكل صبراً فقال تعالى: ﴿والصابرين في البأساء﴾ أي المصيبة ﴿والضراء﴾ أي الفقر ﴿وحين البأس﴾ أي المحاربة ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفة، والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعاني أولاً فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي فإنها وضعت دالة على المعاني. فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع. ومن يطلب الأصول من التوابع لا بد وأن يزل. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمَّن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه.

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال؛ أحدها: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال من صبر ظفر. والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصدّيقون المقربون ﴿الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين. وإياهم ينادي المنادي: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾.

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله. وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة بالآخرة فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني وهو غاية الحمق كما قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[2] وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال: أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذّرت

---

(١) حديث: «الحج عرفة» أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم في الحج.

(٢) حديث: «الكيس من دان نفسه... الحديث» تقدم في ذم الغرور.

عليّ فلست أطمع فيها، أولم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال: إن الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتي. وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلماً ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيراً عندهم، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطاً لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطاً عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه. فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلماً لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته! لأن الهوى أبغض إله عبد في الأرض عند الله تعالى. والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم﴾ هذا باعتبار القوة والضعف. ويتطرّق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه: فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيئاً منها، أو يغلب بعضها دون بعض. وتنزيل قوله تعالى: ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى. والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقاً المدبر يقيناً، ولذلك قيل:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبراً. وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر. وإذا دامت التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره، فإنّ الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر. ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين. فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين. ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا ـ كما سيأتي في كتاب الرضا ـ فالرضا أعلى من الصبر، ولذلك قال ﷺ: «أعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير»[1]

وقال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاثة مقامات (أولها) ترك الشهوة هذه درجة التائبين. (وثانيها) الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين. (وثالثها) المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين.

---

(١) حديث: «اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم.

وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من الرضا، كما أنّ مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. وكأن هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا.

واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض. وعلى المكاره نفل. والصبر على الأذى المحطور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتاً. وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم. والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر. فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة.

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين (أحدهما) هو الذي يوافق هواه. (والآخر) هو الذي لا يوافقه، بل يكرهه. وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما. فهو إذن لا يستغني قط عن الصبر.

(النوع الأول) ما يوافق الهوى: وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا. وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق. وقال سهل: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال. والزوج والولد فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ وقال عزّ وجل: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ وقال ﷺ: «الولد مبخلة مجبنة محزنة»[1]. ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال: «صدق الله ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ إني لما رأيت ابني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذته»[2] ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق وفي بدنه ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر ـ كما سيأتي ـ وإنما كان الصبر على السراء أشدّ لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر، والصبر على الحجامة والفصد إذ تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء.

---

(١) حديث: «الولد مجبنة مبخلة محزنة» أخرجه أبو يعلي الموصلي من حديث أبي سعيد وتقدم.

(٢) حديث «لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قميصه نزل عن المنبر. . . الحديث» أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذي حسن غريب.

(النوع الثاني) ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب. أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام:

(القسم الأول) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان:

(الضرب الأول) الطاعة، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعاً من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكبرياء.

فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقاً. ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة. ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة. ومنها ما يكره بسببها جميعاً كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال: الأولى قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس. وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى»(١) وقال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾.

الحالة الثانية: حالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نعم أجر العاملين الذين صبروا﴾ أي صبروا إلى تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ وكما قال تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى﴾ فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم. وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

(الضرب الثاني) المعاصي: فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ وقال ﷺ: «المهاجر من هجر السوء، والمجاهد من جاهد هواه»(٢) والمعاصي مقتضى باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر: الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة، فإذا

---

(١) حديث: «إنما الأعمال بالنيات» متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم.

(٢) حديث: «المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه» أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول والنسائي في الكبرى بالشطر الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين وقد تقدما.

انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس. كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً. وأنواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس. فللنفس فيه شهوتان: إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه. وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضد ما أمر به من العبودية. ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتاداً في المحاورات يعسر الصبر عنها، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزنا[1] ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها. وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس. فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد. وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه.

(القسم الثاني) ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أوذي بفعل أو قول وجني عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة. قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنا نعدّ إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى. وقال تعالى: ﴿ولنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ وقسم رسول الله ﷺ مرة مالاً، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فأخبر رسول الله ﷺ فاحمرت وجنتاه ثم قال: «يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[2] وقال تعالى: ﴿ودع أذاهم وتوكل على الله﴾ وقال تعالى: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ أي تصبروا عن المكافأة. ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين﴾ وقال ﷺ: «صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك»[3] ورأيت في الإنجيل: قال عيسى بن مريم عليه السلام: لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحوّل إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين. وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى. فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً.

(القسم الثالث) ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوّله وآخره؛ كالمصائب: مثل موت الأعزة وهلاك

---

(١) حديث: «إن الغيبة أشد من الزنا» تقدم في آفات اللسان.

(٢) حديث: قسمه مر مالاً وقول بعض الأعراب: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. . . الحديث» متفق عليه من حديث إبن مسعود وقد تقدم.

(٣) حديث: «صلْ من قطعك. . . الحديث» تقدم.

الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء. وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه؛ صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة. وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم.

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصدّيقين فإنّ ذلك شديد على النفس. ولذلك قال ﷺ: «أسألك من اليقين ما تهوّن عليّ به من مصائب الدنيا»(١) فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

وقال أبو سليمان: والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره؟ وقال النبي ﷺ: «قال الله عزّ وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبادي مصيبة في بدنه أو ماله وولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً»(٢) وقال ﷺ: «انتظار الفرج بالصبر عبادة»(٣) وقال ﷺ: «ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أؤجرني بمصيبتي وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك»(٤) وقال أنس: حدّثني رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا قال الله تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي»(٥) وقال ﷺ: «يقول الله عزّ وجل إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عوّاده أبدلته لحمًا خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي»(٦) وقال داود عليه السلام: يا رب ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبداً. وقال عمر بن العزيز رحمه الله في خطبته: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوّضه منها الصبر إلا كان ما عوّضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وسئل فضيل عن الصبر فقال: هو الرضا بقضاء الله، قيل: وكيف ذلك؟ قال: الراضي لا يتمنى فوق منزلته. وقيل حبس الشبلي رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟ قالوا: أحباؤك جاؤوك زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال: لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي. وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ ويقال إنّ امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع

---

(١) حديث: «أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا» أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي وقد تقدم في الدعوات.

(٢) حديث: «قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل... الحديث» أخرجه ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) حديث: «انتظار الفرج بالصبر عبادة» أخرجه القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله «بالصبر» وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذي من حديث ابن مسعود «أفضل العبادة انتظار الفرج» وتقدم في الدعوات.

(٤) حديث: «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أم سلمة.

(٥) حديث أنس: «إن الله قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه... الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسملي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاري بلفظ «إن الله عزّ وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة» رواه ابن عدي وأبو يعلي بلفظ «إذا أخذت كريمتي عبدي لم أرض له ثواباً دون الجنة» قلت يا رسول الله وإن كانت واحدة قال: «وإن كانت واحدة» وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدي ضعيف.

(٦) حديث: «يقول الله إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحمًا خيراً من لحمه... الحديث» أخرجه مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقي موقوفاً على أبي هريرة.

ظفرها فضحكت فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وقال داود لسليمان عليهما السلام: يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكيل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات. وقال نبينا ﷺ: «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك»[1] ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوماً وفي كمه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه فقال: بارك الله له فيها لعله أحوج إليها مني. وروي عن بعضهم أنه قال: مررت على سالم مولى أبي حديفة في القتلى وبه رمق فقلت له: أسقيك ماء؟ فقال: جرّني قليلاً إلى العدو واجعل الماء في الترس فإني صائم فإن عشت إلى الليل شربته. فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى.

فإن قلت: فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره، فهو مضطر شاء أم أبى، فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار؛ فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت. كما روي عن الرميصاء أم سليم رحمها الله، أنها قالت: توفي إبن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ قلت: بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا! قال: ما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا! فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «اللهم بارك لهما في ليلتهما»[2] قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأوا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال: «رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة» وقد قيل: الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء، ولأن البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: «إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرضا، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه ـ وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ـ وكتب ابن أبي نجيح يعزي بعض الخلفاء، إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له: واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك. واعلم أن أجر الصابرين به فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه.

فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين. نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب. وقد قيل: من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة. فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أنّ وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، فإنّ الذي كفى الشهوات كلها

---

(١) حديث: «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال: «من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك».

(٢) حديث الرميصاء أم سليم: توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت. . . الحديث» أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف.

واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والإنفراد ظاهرا، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا. فإن اختلاج الخواطر لا يسكن. وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بدّ وأن يحصل منه ما هو مقدّر، فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون، هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحثات مقصوراً عليه، ولا يكون ذلك غالباً، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، إذ لا يزال ينازع كل من تحرّك على خلاف غرضه في جميع عمره، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفته، ولا يزال في شغل دائم، فللشيطان جندان: جند يطير وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار. وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار، والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة، فلا يتصوّر نار مشتعلة لا تتحرّك بل لا تزال تتحرّك بطبعها. وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجداً لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

فإذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده. ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه. وانقياده بالإذعان سجود منه ـ فهو روح السجود ـ وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح. ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصوّر ذلك، كما أنّ الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافاً بالعادة، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب! فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالاً فيك، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين.

ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان. ولذلك قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ وقال ﷺ: «إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ»[1] وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ، ثم تزدوج أفراخه أيضاً وتبيض مرة أخرى وتفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده، فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسري شيئاً فشيئاً على الاتصال. فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن الشهوة، فإذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهي

---

(١) حديث: «إن الله يبغض الشاب الفارغ» لم أجده.

صفة نفسك، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج ـ حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ما هو؟ فقال: هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك.

فإذن حقيقة الصبر وكماله: الصبر عن كل حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت. نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل. فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها. واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرف الطريق في بعض الأمثلة.

فنقول: «إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه» إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة فنقول: «قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر؛ فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة. فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور.

(أحدها) أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة ـ من حيث نوعها ومن حيث كثرتها ـ فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة.

(الثاني) قطع أسبابه المهيجة في الحال فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظانّ الشهوة، إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية، قال: «رسول الله»ﷺ **«النظرة سهم من سهام إبليس»**[1] **وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه** إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه. فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه.

(الثالث): تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغنى عن المحظورات منه. وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال، ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال ﷺ «عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»[2].

فهذه ثلاثة أسباب، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام: يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته. الثاني: يضاهي تغيب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها. والثالث: يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب.

---

(١) حديث: النظرة سهم مسموم من سهام إبليس. تقدم غير مرة.

(٢) حديث: «عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم. . . الحديث» تقدم في النكاح.

وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين، أحدهما: إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة (وفي الأثر) إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر. ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال. وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى، فإن قوي قوّى باعث الدين وهيجه تهييجاً شديداً وإن ضعف ضعفه. وإنما قوّة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر، وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر.

والثاني: أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرىء عليها وتقوى منته في مصارعتها، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال، ولذلك تزيد قوّة الحمالين والفلاحين والمقاتلين. وبالجملة فقوّة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة.

فالعلاج الأوّل: يضاهي إطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال﴿وإنكم إذاً لمن المقرّبين﴾.

والثاني: يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرىء عليه وتقوى فيه عزيمته .فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعف، ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه، وإنما أشدّها كف الباطن عن حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرّغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر، فإنّ الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب. وهذا لا علاج به البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء، ثم الاعتزال إلى زواية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به، ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم هما واحداً وهو الله تعالى. ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة: من القراءة والأذكار والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإنّ الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها؛ إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدّد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط، إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة. فهذا أحد الأنواع الشاغلة.

وأما النوع الثاني: فهو ضروري أشدّ ضرورة من الأوّل وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش، فإن تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه. ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمة أو واقعة، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق، والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد، فأما مقادير ما ينكشف مبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق. فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ، والمعوّل وراءهذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد. نعم اختيار العبد

في أن يتعرّض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا، فإنّ المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين. وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها؛ فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ، «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها» وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ وهذا من أعلى أنواع الرزق. والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق. فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدري متى يقدّر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلي سنة عن مطر، فكذلك فلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات: فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرّضه لمهاب رياح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان، فإن الهمم والأنفاس أسباب. بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدرّ بها الأمطار في أوقات الاستسقاء، وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجاباً بينك وبينها، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب. وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها. ولكونه حاضراً في القلب ومنسياً بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكراً، فقال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وقال تعالى: ﴿وليتذكر أولو الألباب﴾ وقال تعالى: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدّم على الصبر عن الخواطر.

قال الجنيد رحمه الله: السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدّة الصبر عن شواغل القلب ثم شدّة هجران الخلق.

وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه. فإنّ لذة الرياسة والغلبة الاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ وليس القلب مذموماً على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر. فأضله وأغواه، وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه. وعزاً لا ذل فيه وأمناً لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمالاً لا نقصان فيه؟ وهذه كلها من أوصاف الربوبية. وليس مذموماً على طلب ذلك، بل حق كل عبد أن يطلب ملكاً عظيمًا لا آخر له. وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة. ولكن الملك ملكان: ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل... وقد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة - التي في طبعه - فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة، وتوسل إليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال: ﷺ «والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه. ولم يتدل الموفق بحبل غروره إذ

علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة. فعبر عن المخذولين بقوله تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلةوتذرون الآخرة﴾ وقال تعالى: ﴿إنّ هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾ وقال تعالى: ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾.

ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكه إلى الرسل وأوحوا إليهم ما تم على الخلق من إهلاك العدوّ وإغوائه، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾.

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد، والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة. أما ملك الدنيا: فالزهد فيها والقناعة باليسير منها. وأما ملك الآخرة: فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزاً لا ذل فيه وقرّة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس.

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضرتان، ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم أيضاً ولو كانت تسلّم له لكان يحسده أيضاً، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه. ثم مهما تسلم وتتم الأسباب ينقضي العمر ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾ فضرب الله تعالى لها مثلاً فقال تعالى ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءأنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمًا تذروه الرياح﴾ والزهد في الدنيا لما أن كان ملكاً حاضراً حسده الشيطان عليه فصده عنه.

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً. وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه، فيكون مسخراً مثل البهيمة مملوكاً يستجره زمام الشهوة آخذاً بمختنقه إلى حيث يريد ويهوى. فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكاً! وينال الربوبية بأن يصير عبداً! ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ فقال كيف؟ قال: من أنت عبده فهو عبد لي! فقال كيف ذلك؟ قال: أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لي. فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة. فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً.

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته؛ إذ تصير بتركه ملكاً في الحال وترجو به ملكاً في الآخرة.

ومن كوشف بهذه الامور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف؛ بل لا بدّ وأن يضيف إليه العمل. وعمله في ثلاثة أمور (أحدها) أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ (الثاني) أن يكلف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده، فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع، وكذلك كل هيئة وحال وفعل: في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء

بمقتضى جاهه، فينبغي أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده. فلا معنى للمعالجة إلا المضادة (الثالث) أن يراعي في ذلك التلطف والتدريخ فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف

الأقصى من التبذل، فإن الطبع نفور. ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض، ثم إذا اقنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض، إلى أن يقنع بالبقية. وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه. وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله ﷺ «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى [١]» وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه [٢]».

فإذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول. ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه، فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه. وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات، فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً. فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب. وإلى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد؟ فقال: الصبر في الله تعالى، فقال: لا، فقال الصبر لله، فقال لا، فقال: الصبر مع الله، فقال؛ لا، فقال: فإيش؟ قال: الصبر عن الله؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله. وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء. وقد قيل في معناه:

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل أيضاً:

الصبر يجمل في المواطن كلها ... إلّا عليك فإنه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره.

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلاثة أركان: (الأول) في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه (الثاني) في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة (الثالث) في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

الركن الأول: في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فقال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وقال تعالى: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ وقال تعالى:

---

(١) حديث «إن هذا الدين متين فاوغل فيه برفق» الحديث أخرجه احمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد.

(٢) حديث: «لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه» تقدم فيه.

﴿وسنجزي الشاكرين﴾ وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين ﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾ قيل هو طريق الشكر، ولعلوّ رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ولا تجد أكثرهم شاكرين. وقال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ وقال: ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ وقال: ﴿يرزق من يشاء بغير حساب﴾ وقال: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وقال: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى: ﴿والله شكور حليم﴾ وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ وقال: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

وأما الأخبار فقد قال رسول الله ﷺ «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر [(١)]» وروي عن عطاء أنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجبا؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي-أو قالت في لحافي-حتى مسّ جلدي جلده ثم قال: «يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي» فقالت: قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك فأذنت له، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً ولِمَ لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الآية[(٢)]» وهذا يدل على أنّ البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً. وإلى هذا السر يشير ما روي أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال: منذ سمعت قوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ فأنا أبكي من خوفه، فسأله أن يجيره من النار فأجاره، ثم رآه بعد مدّة على مثل ذلك فقال: لِمَ تبكي الآن؟ فقال: ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور! وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً. وروي عنه ﷺ أنه قال؛ «ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة» قيل: ومن الحمادون؟ قال «الذين يشكرون الله تعالى على كل حال[(٣)]» وفي لفظ آخر «الذين يشكرون الله على السراء والضراء» وقال ﷺ «الحمد رداء الرحمن [(٤)]» وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي-في كلام طويل-وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين: أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم، وبالنظر إليّ أزيدهم. ولما نزل في الكنوز ما نزل؛ قال عمر رضي الله عنه: أي المال نتخذ؟ فقال عليه السلام «ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً»[(٥)]، فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن المال. وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان.

---

(١) حديث: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف.

(٢) حديث عطاء: دخلت على عائشة فقلت لها: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فقالت: وأي أمره لم يكن عجباً... الحديث في بكائه في صلاة الليل. أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزي في الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء دون قولها: وأي أمره لم يكن عجباً. وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث.

(٣) حديث: ينادي يوم القيامة «ليقم الحمادون... الحديث» وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور.

(٤) حديث: «الحمد رداء الرحمن» لم أجد له أصلاً وفي الصحيح من حديث أبي هريرة «الكبر رداؤه... الحديث» وتقدم في العلم.

(٥) حديث عمر: ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً... الحديث» تقدم في النكاح.

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه. ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه.

(فالأصل الأوّل) العلم: وهو علم بثلاثة أمور؛ بعين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه. فإنه لا بد من: نعمة، ومنعم عليه، تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة، فهذه الأمور لا بد من معرفتها. هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم، والوسائط مسخرون من جهته.

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها. بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان: التقديس. ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس: وهو التوحيد. ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة منه، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد: كمال القدرة والانفراد بالفعل. وعن هذا عبر رسول الله ﷺ حيث قال: «من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة»[1]. وقال ﷺ «أفضل الذكر لا إلَه إلاّ الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»[2]. وقال: «ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله [3]» ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب، «فسبحان الله» كلمة تدل على التقديس و «لا إله إلا الله» كلمة تدل على التوحيد و «الحمد لله» كلمة تدل على النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين.

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه، بل منه بوجه ومن غيره بوجه، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحداً في حق الملك. نعم لا يغض من توحيده في حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتبه عليه، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما، لأنه لا يثبت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضاً مضطرّان من جهة الملك في الإيصال، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئاً، فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد، فلا يورث ذلك شركاً في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك.

وكذلك من الكاتب أن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها، فإن الله تعالى هو المسلط

---

(١) حديث: «من قال سبحان الله فله عشر حسنات. . . الحديث تقدم في الدعوات».

(٢) حديث: «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله». أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر.

(٣) حديث: «ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله» لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي. يقال إن الحمد أكثر الكلام تضعيفاً.

للدواعي عليها لتفعل ـ شاءت أم أبت ـ كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلاً إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده. فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي! وألقى في نفسه أنّ خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به. وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلاً إلى تركه، فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعمًا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها. وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطراً إلى الإيصال إليك. فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله، وكنت موحداً وقدرت على شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجرّدها شاكراً.

ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك؟ فقال الله عز وجل: علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرا.

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك ريب في هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك: فهذا بيان هذا الأصل.

(الأصل الثاني) الحال المستمدة من أصل المعرفة: وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضاً في نفسه شكر على تجرّده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذ كان حاوياً شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام، ولعل هذا يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلاً فنقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفره فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه (أحدها) أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس، وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح (الوجه الثاني) أن يفرح به لا من حيث إنه فرس بل من حيث تستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه، لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلاً لاستغنائه عن الفرس أصلاً أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك (الوجه الثالث) أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته القرب منه، وربما يرتقي إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرساً ويعتني به هذا القدر من العناية، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب، فهذه ثلاث درجات، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه، وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما يريد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد مهملج بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه

الله: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة وقال الخوّاص رحمه الله: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب. وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب، فإنّ القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرّة، كما قيل:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فمعزى، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية، أما الأولى فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه.

الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم. وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح، أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح؛ فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى إن شكر العينين: أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه فيه! فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان: لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به؛ فقد قال ﷺ لرجل «كيف أصبحت؟» قال بخير، فأعاد ﷺ السؤال حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال ﷺ «هذا الذي أردت منك [1]» وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكرلله تعالى ليكون الشاكر مطيعاً والمستنطق له به مطيعاً وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء. وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل؛ وإظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح. قال الله تعالى: ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له﴾ وقال تعالى ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ فالشكر باللسان من جملة الشكر. وقد روي أن وفداً قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكبر الكبر! فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك! فقال: تكلم، فقال: لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة ، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف. فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته.

فأما قول من قال:إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب. وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه نظر إلى مجرّد عمل اللسان. وقول القائل: إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة: جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان. وقول حمدون القصار:شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيلياً، إشارة إلى أن

---

(١) حديث: قال: ﷺ لرجل «كيف أصبحت؟» فقال: بخير، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال: «هذا الذي أردت منك» أخرجه الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعاً نحوه، قال في الثالثة: أحمد الله. وهذا معضل، ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال: أحمد الله إليك، وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه، ورواه مالك في الموطأ موقوفاً على عمر بإسناد صحيح.

معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة، إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالاً بما يهمهم عما لا يهمهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقاً بحالة السائل، اقتصاراً على ذكر القدر الذي يحتاج إليه، وإعراضاً عما لا يحتاج إليه؛ فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها، بل لا يظن ذلك بعاقل أصلاً إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني، أم يتناول بعضها مقصوداً وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء، والله الموفق برحمته.

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أنّ الشكر إنما يفعل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم، وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك، وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين: (أحدهما) أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعاً سجداً؛ فشكرنا إياه بما لاحظ فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له، ولاحظ لله تعالى في أفعالنا كلها (الوجه الثاني) أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة، ولو أعطانا الملك مركوباً فأخذنا مركوباً آخر له وركبناه، أو أعطانا الملك مركوباً آخر لم يكن الثاني شكر للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأوّل، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالاً في حق الله تعالى من هذين الوجهين. ولسنا نشك في الأمرين جميعاً، والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام، وكذلك لموسى عليه السلام فقال: يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ وفي لفظ آخر: وشكري لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك؟ فأوحى الله تعالى إليه؛ إذا عرفت هذا فقد شكرتني. وفي خبر آخر: إذا عرفت أنّ النعمة مني رضيت منك بذلك شكرا.

فإن قلت: فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم؛ فإني أعلم استحالة الشكر لله تعالى، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه، فإنّ هذا العلم أيضاً نعمة منه فكيف صار شكرا؟ وكأنّ الحاصل يرجع إلى أنّ من لم يشكر فقد شكر، وأنّ قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى، والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه، فاعلم أنّ هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم المعاملة، ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول: ههنا نظران: نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرّفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً، لأن الغير هو الذي يتصوّر أن يكون له بنفسه قوام، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد، إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه، وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره؛ فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة، وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو

الذي لو قدر عدم غيره بقي موجوداً فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم، ولا قيوم إلا واحد، ولا يتصوّر أن يكون غير ذلك؛ فإذن ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد؛ فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه، فهو الشاكر وهو المشكور، وهو المحب وهو المحبوب، ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب﴾ فقال واعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى، فهو المثني وهو المثنى عليه، ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرىء بين يديه ﴿يحبهم ويحبونه﴾ فقال: لعمري يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك، فلا يخفى عليك أنّ المصنف إذا أحب تصنيفه لقد أحب نفسه، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه، وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته؛ فإن أحبه فما أحب إلاّ نفسه، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول: كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالاً من الخبز، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إنّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذ رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غداً أعظم، إذ قال تعالى: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون﴾ وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ فهذا أحد النظرين. النظر الثاني: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد

وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم في كلتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقاً وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم، ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم، وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا، وفرق بين الموجود وبين الموجد، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان، وإذا كان كل من عليها فان ، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. الفريق الثاني: ليس بهم عمى ولكن بهم عور، لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه، والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق؛ فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً كما أنّ الذي قبله جاحد تحقيقاً، فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين، فأثبت عبداً ورباً فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد، ثم إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى؛ فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو، فينمحى عن رؤية ما سوى الله فلا يرى إلا الله، ليكون قد بلغ كمال التوحيد، وحيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد، وبينهما درجات لا تحصى، فبهذا تتفاوت درجات الموحدين، وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار، والأنبياء هم الكحالون، وقد جاؤوا داعين إلى التوحيد المحض، وترجمته قول؛ «لا إله إلا الله» ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد، إذ عبدة الأوثان قالوا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى﴾ فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً، والمتوسطون هم

الأكثرون، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز.

لكـل إلى شأو العـلا حـركـات ولكن عـزيـز في الـرجـال ثبـات

ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب القرب فقيل له:﴿واسجدواقترب﴾ قال في سجوده «أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك [١]» فقوله: ﷺ «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله، فاستعاذ بفعله من فعله «ثم اقترب ففني عن مشاهدة الأفعال، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال:«أعوذ برضاك من سخطك» وهما صفتان، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب ورقي من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وأعوذ بك منك» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة، ولكنه رأى نفسه فارّا منه إليه ومستعيذاً ومثنياً، ففني عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال:«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فقوله ﷺ:«لا أحصي» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها، وقوله «أنت كما أثنيت على نفسك» فقوله ﷺ «لا أحصي» خير عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها، وقوله «أنت كما أثنيت على نفسك» بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله، فيستعيذ بفعل من فعل: فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق، ولقد كان ﷺ لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ «انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة [٢]» فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاماً بعضها فوق البعض: أوّلها وان كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى آخرها، فكان استغفاره لذلك. ولما قالت عائشة رضي الله عنها: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً [٣]» معناه: أفلا أكون طالباً المزيد من المقامات. فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾.

وإذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة: فنقول:الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الحق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه، ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول: يمكنك أن تفهم أن ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوباً وملبوساً ونقداً لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك، ثم يكون له حالتان: (إحداهما) أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته.(والثانية) أن لا يكون

---

(١) حديث: قال في سجوده «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك... الحديث» أخرجه مسلم من حديث عائشة: أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك... الحديث».

(٢) حديث: «إنه ليغان على قلبي... الحديث» تقدم في التوبة، وقبله في الدعوات.

(٣) حديث عائشة لما قالت له: غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء... الحديث. رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصراً وكذلك وهو في الصحيحين مختصراً من حديث المغيرة بن شعبة.

للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه، بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء، وغيبته لا تنقص من ملكه؛ فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه، فمنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى فإن الأولى محال على الله تعالى، والثانية غير محال. ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكراً في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ما لم يقم بخدمته التي أرادها الملك منه. وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً، ومع ذلك يتصوّر أن يكون شاكراً وكافراً ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه؛ فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذا استعمل نعمته في محبته: أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه، وإن ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته: أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه، وإن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته إذا أهملها وعطلها، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته، وإنما سعادتهم في القرب منه فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا﴾ الآية، فإذن نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب، والله تعالى غني عنه قرب أم بعد، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية، وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى؛ فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى؛ فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة، بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه. ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه، وقد انحل بهذا الإشكال الأوّل: وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر؛ وبهذا أيضاً ينحل الثاني؛ فإنا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد، وفعلك عطاء من الله تعالى، ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك؛ فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى وصار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته، فله الشكر على كل حال، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده، ولكن بمعنى أنك محل له، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك؛ فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية لك وأنت شيء، إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً وإنما أنت لا شيء إذا كنت أنت ظاناً لنفسك شيئاً من ذاتك؛ فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئاً فأنت شيء إذ جعلك شيئاً؛ فإن قطع النظر عن جعله كنت لا شيء تحقيقاً، وإلى هذا أشار ﷺ حيث قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له [1]» لما قيل له: يا رسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل؟ فتبين أن الخلق مجاري قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض. وقوله: «اعملوا» وإن كان جارياً على لسان الرسول ﷺ فهو فعل من أفعاله، وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى، والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى

---

(١) حديث: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» من حديث علي وعمران بن حصين.

الحركة والطاعة، وانبعاث الداعية أيضاً من أفعال الله تعالى، وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضاً من أفعال الله تعالى، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أي الأوّل شرط الثاني كما كان خلق الجسم سبباً لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض: أي هو شرط، ومعنى كونه شرطاً أنه لا يستعدّ لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعدّ لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم، فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أنّ بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه.

فإن قلت: فلم؟قال الله تعالى:اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان، وما إلينا شيء فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى؟ فاعلم أنّ هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا، ولاعتقاد سبب لهيجان الخوف، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الأسباب مرتبها، فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة، ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ وكلام العلماء؛ فإذا لم يسمع لم يعلم «وإذا لم يعلم لم يخف، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان، وإن جهنم لموعدهم أجمعين؛ فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب، وهو تسليط العلم والخوف عليه». وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه. فالمتقون يساقون إلى الجنة قهراً، والمجرمون يقادون إلى النار قهراً، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار، ولا قادر إلا الملك الجبار، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي ﴿لمن الملك اليوم؟لله الواحد القهار﴾ ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص، ولكنّ الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف؛ فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك.

بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

إعلم أنّ فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان (أحدهما) السمع، ومستنده الآيات والأخبار (والثاني) بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير، وهو لأجل ذلك عزيز، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً. وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية. أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعمًا للخلق ومرعى للأنعام، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه، إذ قال تعالى: ﴿أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً﴾ الآية. وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق، والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة

للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكوكب﴾ فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرّة من ذرّاته عن حكم كثيرة من حكمه واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف، وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلا ما يعرف حكمتها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش، واليد للبطش لا للمشي، والرجل للمشي لا للشم، فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدراً يسيراً بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ فإذن كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس، إذ الإبصار يتم بهما، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما، فقد استعملها في غير ما أريدتا به، وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهراً وباطناً، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، فلذلك قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق﴾ الآية، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بدّ منها لإقدامه على تلك المعصية. ولنذكر مثالاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه. كمن يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بدّ في مقدار العوض من تقدير، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة. وكذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقاً بحمار فهذه الأشياء لا تتناسب فيها، فلا يدري أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جداً، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم بينها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقرّرت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدّر الأموال بهما، فيقال: هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر، فإذن خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً ماحتيج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء، والشيء إنما تستوي نسبته إلى

المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها، كالمرآة لا لون لها، وتحكي كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض، وكالحرف لا معنى له نفسه وتظهر به المعاني في غيره، فهذه هي الحكمة الثانية، وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما، فإذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه. لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما فإنهما حجران، وإنما خلقا لتتداولها الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة المقادير مقوّمة للمراتب، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة ـ أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله ﷺ حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذي عجزوا عن إدراكه، فقال تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كنز لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس، والحبس أهون منه، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدّد، وإنما الأواني لحفظ المائعات، ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له؛ من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم [1]، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض في عينهما، فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً ودابة، إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب، فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فانهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما، وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام، كما قال النحويون: إنّ الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره، وكموقع المرآة من الألوان؛ فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيداً عنده وينزل منزلة المكنوز، وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم، كما أن حبسه ظلم، فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصوداً للادخار وهو ظلم.

فإن قلت فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر؛ ولم جاز بيع الدرهم بمثله؟ فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق في الحاجات قليلا قليلا، ففي المنع منه ما يشوّش المقصود الخاص به؛ وهو تيسر التوصل به إلى غيره؛ وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فإنه عبث يجري مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، فلا نمنع مما لا تتشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر، وذلك أيضاً لا يتصور جريانه؛ إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد؛ وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء، لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر اليهما فيما يقصد في عينه، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلا مضافات دقيقة في صفاته، وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لا تقصد. وأما إذا باع درهماً بدرهم مثله نسيئة فإنما لم يجز

---

(١) حديث «من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم» متفق عليه من حديث أم سلمة، ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً.

ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر. والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر، فهو أيضاً ظلم لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعارضة، وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف على جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له، فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها؛ إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجاً ولم يجعله بضاعة تجارة، وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجاً إليه، فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضاً مستغن عنه، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب؛ نعم بائع البر بالتمر معذور، إذ أحدهما لا يسدّ مسدَّ الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة؛ ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد وأما جيد برديئين فقد يقصد، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام، فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فإنه أوى من جميع ما أوردناه في الخلافيات، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصص بالأطعمة دون المكيلات، إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول؛ ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات، ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكناً بالقوت وكان ممكناً بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو ضرورة البقاء؛ وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم؛ ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحدّ لتحير الخلق في أتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص. فعين المعنى بكمال قوّته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحدّ ضرورياً، فلذلك قال الله تعالى: ﴿ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ ولأنّ أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد، كما يحدّ شرع عيسى بن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر، وقد حدّه شرعنا بكونه من جنس المسكر؛ لأن قليله يدعو إلى كثيره، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية، فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين، فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين، بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال ﷺ «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء[1]» وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصوّر أن ينفك عنهما، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالخطر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالخطر فأقول مثلاً: لو أستنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين، إذ خلق الله لك اليدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل، وتفضيل الناقص عدول عن العدل، والله يأمر بالعدل، ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال: بعضها شريف كأخذ المصحف، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل، وكذلك إذ بصقت مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله

---

(١) حديث: «لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» تقدم في الصوم.

تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متسعك في حركتك وقسم الجهات إلى ما لم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه الى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق، فإذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت؛ لأن الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروها، حتى أن بعضهم كان قد جمع أكراراً من الحنطة وكان يتصدّق بها، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً فأريد أن أكفره بالصدقة، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الإنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها؛ فقبيح أن يقال: الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره قد تعدّى من وجهين: أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار، ومن باع خمراً في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال خان من وجهين (أحدهما) بيع الخمر، والآخر البيع في وقت النداء. ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه، فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، فينمحق بعضها في جنب البعض. فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يتق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه، فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة، وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب، بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقرّ الشياطين، وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة. وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوّة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك، إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان، فإنهما جميعاً فانيان هالكان، فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدّة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضاً وإن كان محتاجاً، لأن كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلمًا، فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجع جانبه بذلك، فإن نبت ذلك في موات الأرض لا بسعي آدمي اختص بمغرسه أو بغرسه، فلا بدّ من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه، فللسابق خاصية السبق، فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقراء عن هذا الترجيح بالملك، وهو مجاز محض، إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذي له ما في السموات والأرض، وكيف يكون العبد مالكاً وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم، كالملك ينصب مائدة لعبيده، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد ـ فإن اليد وصاحب اليد أيضاً مملوك ـ ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفى بحاجة كل العبيد فالعدل في

التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله في عباده، ولذلك نقول: من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم، نعم لا يدخل هذا في حدّ فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة، وأواخر الأعمار غير معلومة، فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كلام غير مهم، وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه، إذ قال تعالى: ﴿إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا﴾ بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وفرح إبليس لعنه الله بقوله: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأموراً أخرى وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مباديها؛ فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير.

* فإن قلت؛ فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، ولكن الإشكال باق: وهو أنّ فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها:هو أيضاً من فعل الله تعالى، فأين العبد في البين حتى يكون شاكراً مرة وكافراً أخرى؟ فاعلم أنّ تمام التحقيق في هذا يستمدّ من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها، ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير و يجحدها من عجز عن الإيضاع في السير فضلاً عن أن يجول في جوّ الملكوت جولان الطير فنقول: إن الله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتدّ طرف فهمهم إلى مبادي إشراقها، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس، لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش، فاضطرّ الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة، فهي توهم منها أمراً محملاً عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها،

وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدر ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة، وقيل؛ إنهما جميعاً داخلان في وصف المشيئة، ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة، منها أمراً مجملاً عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات، ثم انقسم عباده الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى منْ سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دونَ غايتها، ويكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة، فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها، فاستعير له الكفران، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال، وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى، وأعطى النكال ثم قبح وأردى، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه، فإذا تمم زينته قال: يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك، فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثني على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة، فهكذا كانت الأمور في الأزل، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولم يكن ذلك على اتفاق وبحث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء، وقيل: إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادي إلى غير نهاية. وقيل: إنّ شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل؟ وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه، فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكنوا فما لهذا خلقتم ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ وامتلأت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض، وكان زيتهم أولاً صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فمسته نار فاشتعل نوراً على نور، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم: تأدبوا بآداب الله تعالى واسكنوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا[1] فإن للحيطان آذاناً وحواليكم ضعفاء الأبصار، فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوّكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس، وكونوا كمن قيل فيهم:

شربنا شراباً طيباً عند طيب ... كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ... وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أوّل هذا الأمر وآخره، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له، وإذا كنت أهلاً له فتحت العين

---

(١) حديث: «إذا ذكر القدر فأمسكوا» رواه الطبراني من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في العلم، ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً.

وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حدّ ما؛ فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجرّ وراءه أعمى، وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلاً ولم يكن العبور إلا بالسباحة، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة ن يعبر بنفسه وربما لم يقدر عى أن يستجرّ وراءه آخر؛ فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض، والسباحة يمكن أن تتعلم؛ فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوّة اليقين؛ ولذلك قيل للنبي ﷺ: إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء! فقال ﷺ «لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء[1]» فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران، لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها، وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى إفهام الخلق إذ عرّف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين: ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ وقال تعالى؛ ﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ وأحال الاغواء على إبليس فقال تعالى: ﴿ليضل عن سبيله﴾ والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه، وعندك في العادة له مثال، فالملك إذا كان محتاجاً إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوّض حمل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينبغي أن تقول: «هذا فعلي، ولم يكون فعله دون فعلي؟» فإنك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك، بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً للعدل، فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها، وتارة يتم فيك فإنك أيضاً من أفعاله، فداعيتك وقدرتك علمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبه بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال المعتدلة، إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أنّ ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت، فلذلك تضيفه إلى نفسك، وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعبذ الذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورؤسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد. وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الأمر إليه والجاذبة بيده، فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء، ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة، ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها، وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسموات، وشاهدوا أيضاً ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وعبر عن هذه

---

(١) حديث قيل له: يقال:إن عيسى مشى على الماء قال:«لو ازداد يقيناً لمشي على الهواء» هذا حديث منكر لا يعرف هكذا، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشي على الماء، فذكر حديثاً فيه أن عيسى قال: لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال».

المشاهدات في القرآن وقيل: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ وعبر عن انتظار ملائكة السموات بما ينزل اليهم من القدر والأمر فقيل ﴿خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أنّ الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم. وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها افهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى: ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ فقال: «لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتوني، وفي لفظ آخر: لقلتم إنه كافر».

ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول:

إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب، وما منهم إلا وله مقام معلوم، وأعلاهم في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام، وإنما علوّ درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة، وقد أصلح الله تعالى بهم

وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض، ويلي درجتهم درجة الأنبياء فإنهم في أنفسهم أخيار، وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته، وأعلاهم رتبة نبينا ﷺ وعليهم، إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنهم في أنفسهم صالحون، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره، ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء، ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم، ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع.

واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحقر وإن كان ظالماً فاسقاً. قال عمرو بن العاص رحمه الله: إمام غشوم خير من فتنة تدوم. وقال النبي ﷺ: «سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون، ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساؤوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر[1]». وقال سهل: من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل. وسئل: أي الناس خير؟ فقال: السلطان، فقيل: كنا نرى أن شر الناس السلطان! فقال مهلاً: إن لله تعالى له كل يوم نظرتين: نظرة إلى سلامة أموال المسلمين، ونظرة إلى سلامة أبدانهم، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه، وكان يقول: الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصاً يقصون.

الركن الثاني من أركان الشكر: ما عليه الشكر

وهو النعمة، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فإن إحصاء

---

(١) حديث: «سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أم سلمة «يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون» ورواه الترمذي بلفظ «سيكون عليكم أئمة» وقال حسن صحيح، وللبزار بسند ضعيف من حديث إبن عمر «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو جاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر» وأما قوله «وما يصلح الله بهم أكثر» فلم أجده بهذا اللفظ، إلا أنه يوءخذ من حديث إبن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله: إصبروا فإن جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ فذكر حديثاً فيه «والإمارة الفاجرة خير من الهرج» رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به.

نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر، كما قال تعالى: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فنقدم أموراً كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم، ثم نشتغل بذكر الآحاد، والله الموفق للصواب.

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية. والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات:

(القسمة الأولى) أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً: كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل: كالتلذذ باتباع الشهوة، وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل: كقمع الشهوات ومخالفة النفس، فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً كالعلم وحسن الخلق والضارّ فيهما هو البلاء تحقيقاً وهو ضدهما والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم فإنه يعدّه نعمة إن كان جاهلاً، وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه. والضار في الحال نافع في المآل نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهال: ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة، فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعدّه نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيء له أسبابه، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعوه إليها، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوّا له؛ ولو عقل لعلم أن الأم عدوّا باطنا في صورة صديق، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشدّ من الحجامة، ولكن الصديق الجاهل شر من العدّو العاقل، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدوّ.

(قسمة ثانية) اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب، ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافىء ضرور نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات، فهو مع هذه التوفيق نعمة في حقه، ورب انسان يستضر بالقليل أيضاً إذ لا يزال مستصغراً له شاكياً من ربه طالباً للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه.

(قسمة ثالثة) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره، وإلى مؤثر لغيره مؤثر لذاته ولغيره، فالأول: ما يؤثر لذاته لا لغيره: كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها. الثاني: ما يقصد لغيره ولا غرض أصلاً في ذاته: كالدراهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عيها بالربا ويظنون أنها مقصودة؛ ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصاً فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الاصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولاً بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده، وهو غاية الجهل والضلال الثالث: ما يقصد لذاته ولغيره:

كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا، وتقصد أيضاً لذاتها فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضاً سلامة الرجل من حيث إنها سلامة، فإذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقاً، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأوّل، فأما ما لا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان أنفسهما من حيث إنهما نعمة، بل ولكن دون الأوّل، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمر ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته، استوى عند الذهب والمدر، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة.

(قسمة رابعة) اعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل،فاللذيذ وهو الذي تدرك راحته في الحال، والنافع هو الذي يفيد في المآل، والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال: والشرور أيضاً تنقسم إلى ضارّ وقبيح ومؤلم، وكل واحد من القسمين ضربان: مطلق ومقيد، فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضارّ وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادّان فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة. الضرب الثاني: المقيد، وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتآكلة والسلعة الخارجة من البدن، ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع، فقد قيل: استراح من لا عقل له فإنه لا يتهم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه، ورب نافع من وجه ضارّ من وجه: كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق، فإنه ضارّ للمال نافع للنفس في نجاتها. والنافع قسمان: ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامها البتة غيرهما، وإلى ما لا يكون ضرورياً كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفراء؛ فإنه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه.

(قسمة خامسة) اعلم أنّ النعمة يعبر بها عن كل لذيذ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع: عقلية، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات. أما العقلية فكلذة العلم والحكمة، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج، وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل، وهذه أقل اللذات وجوداً وهي أشرفها، أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم، وما أقل أهل العلم والحكمة، وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم. وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودائمة لا تمل، فالطعام يشبع منه فيمل، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل، والعلم والحكمة قط لا يتصوّر أن تمل وتستثقل، ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد إذا رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه: أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال، إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزيد بالإنفاق والمال ينقص بالإنفاق، والمال يسرق والولاية يعزل عنها، والعلم لا تمتدّ إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدا؛ وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدا، ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبدا، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سماه خيراً في

مواضع. وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم. فإما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق، إذ الشوق تبع الذوق، وإما الفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرّاً، وإما لقصور فطنتهم، إذ لمَ تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء، فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة، إما من لم يحيي باطنه كالطفل، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات: وقوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾ إشارة إلى مَرض العقول. وقوله عز وجل ﴿لينذر من كان حياً﴾ إشارة إلى من لم يحيي حياة باطنة، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان الثانية: لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات. الثالثة. ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج، وهذه أكثرها وجوداً وهي أخسها، ولذلك اشترك فيها كل مادن ودرج حتى الديدان والحشرات، ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة، وهو أشدّها التصاقاً بالمتغافلين، فإن جاوز ذلك أرتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة، لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله، وهذه رتبة الصدّيقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب، وآخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حب الرياسة. وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصدّيقون: فأما قمعها بالكلية حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجاً عن مقدور البشر. نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة، ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إلى الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه، وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية. وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة. أما الأول فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد. وأما الثاني فالدنيا طافحة به. وأما الثالث والرابع فموجودان ولكن على غاية الندور، ولا يتصوّر أن يكون ذلك نادراً شاذاً وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام، فلا يزال يزداد العهد طولاً وتزداد مثل هذه القلوب قلة، إلى أن تقرب الساعة ويقضي الله أمراً كان مفعولاً، وإنما وجب أن يكون هذا نادراً لأنه مبادي ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم، فكذا في ملك الآخرة، فإنّ الدنيا مرآة الآخرة، فإنها عبارة عن عالم الشهادة، والآخرة عبارة عن عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، كما أنّ الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك، فإنك لا ترى نفسك، وترى صورتك في المرآة أولاً فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة؛ فالقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة والقلب المتأخر متقدّما؛ وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم، فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت، فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الحق به فقال: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة

وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء ناراً من شأنها أن تطلع على الأفئدة، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجاباً، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان. ولكنَ الجحيم تدرك، مرة بإدراك يسمى علم اليقين، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين، وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين، فلذلك قال الله تعالى: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم﴾ أي في الدنيا ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ أي في الآخرة، فإذن قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً كالشخص الصالح لملك الدنيا.

(قسمة سادسة) حاوية لمجامع النعم: اعلم أنّ النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية؛ أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر بعده، وهي النعمة الحقيقية، ولذلك قال رسول الله ﷺ:«لاعيش إلا عيش الآخرة[1]» وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس، وذلك في وقت حفر الخندق في شدّة الضر؛ وقال ذلك مرة في السرور منعاً للنفس من الركون إلى سرور الدنيا؛ وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع[2]. وقال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال النبي ﷺ:«وهل تعلم ما تمام النعمة»؟ قال: لا. قال: «تمام النعمة دخول الجنة[3]».

وأما الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس؛ وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة؛ وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية، فهي إذن أربعة أنواع:(النوع الأوّل) وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع الشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق، وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، وإلى علوم المعاملة. وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين: ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله ﷺ، إذ قال تعالى: ﴿أن لا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان. ومن انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان، وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان، فإذن الفضائل الخاصة بالنفس المقرّبة إلى الله تعالى أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة، وعدالة. ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية وهي أربعة: الصحة، والقوة، والجمال، وطول العمر ولا تتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهي أربعة: المال والأهل، والجاه، وكرم العشيرة، ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده. فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة. أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما، فليس للإنسان إلا ما سعى

---

(١) حديث: «قوله عند حفر الخندق «لا عيش إلا عيش الآخرة» متفق عليه من حديث أنس.

(٢) حديث: قوله في حجة الوداع «لا عيش إلا عيش الآخرة» رواه الشافعي مرسلاً، والحاكم متصلاً وصححه، وتقدم في الحج.

(٣) حديث قال رجل: أللهم إني أسألك تمام النعمة. . . الحديث، أخرجه الترمذي من حديث معاذ بسند حسن.

وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزوّد من الدنيا، فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري: وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل، فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة.

*فإن قلت: فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والاهل والجاه والعشيرة؟ فاعلم أنّ هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود. أما المال فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية: كساع إلى الهيجا بغير سلاح، وكبازي يروم الصيد بلا جناح، ولذلك قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح[1]» وقال ﷺ: «نعم العون على تقوى الله المال[2]» وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات في طلب الاقوات وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة، ثم يتعرّض لأنواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات.

وقال بعض الحكماء-وقد قيل له ما النعيم؟ فقال: الغني فإني رأيت الفقير لا عيش له. قيل: زدنا! قال: الامن، فإني رأيت الخائف لا عيش له. قيل: زدنا! قال: العافية، فإني رأيت المريض لاعيش له. قيل: زدنا! قال: الشباب، فإني رأيت الهرم لا عيش له. وكأنّ ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة، ولذلك قال ﷺ: «من أصبح معافى في بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها[3]» وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما، إذ قال ﷺ: «نعم العون على الدين المرأة الصالحة[4]» وقال ﷺ في الولد: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له... الحديث»[5]. وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح. وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطال شغله، وكل ما يفرغ قلبك من ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين، فهو إذن نعمة. وأما العز والجاه، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم، ولا يستغنى عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدوّ يؤذيه وظالم يشوّش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه، وقلبه رأس ماله، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه، ولذلك قيل: الدين والسلطان توأمان. قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب، كما لا معنى للغني إلا ملك الدراهم، ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه. فكما يحتاج إلى سقف يدفع عنه المطر، وجُبّة تدفع عنه البرد، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته، فيحتاج أيضاً إلى من يدفع الشر به عن نفسه، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه، وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم والاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم، ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان

---

(١) حديث: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» رواه أحمد وأبو يعلي والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد.

(٢) حديث: «نعم العون على تقوى الله المال» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر. ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلاً: ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب هكذا مرسلاً.

(٣) حديث: «من أصبح معافى في بدنه آمناً في سربه... الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث عبيد الله ابن محصن الأنصاري، وقد تقدم.

(٤) حديث: «نعم العون على الدين المرأة الصالحة» لم أجد له إسناداً، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

(٥) حديث: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وتقدم في النكاح.

يؤذي ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة[1].

فإن قلت: كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول: النعم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الأئمة من قريش[2]» ولذلك كان ﷺ من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام[3] وقال ﷺ: «تخيروا لنطفكم الأكفاء[4]». وقال ﷺ: «إياكم وخضراء الدمن» فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء في المنبت السوء[5]». فهذا أيضاً من النعم ولست أعني به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله ﷺ وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل.

فإن قلت: فما معنى الفضائل البدنية؟ فأقول: لاخفاء بشدّة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما، ولذلك قال ﷺ: «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى[6]». وإنما يستحقر من جملته أمر الجمال، فيقال يكفي أن يكون البدن سليمًا من الأمراض الشاغلة عن تحرّي الخيرات، ولعمري الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضاً: أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها، وأما في الآخرة فمن وجهين (أحدهما) أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه، إذ هو نوع قدرة، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها. والثاني: أنّ الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن، فالمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان، ولذلك عوّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن فقالوا: الوجه والعين مرآة الباطن. ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم، ولذلك قيل: طلاقة الوجه عنوان ما في النفس. وقيل: ما في الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن ما فيه. واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح، فاستنطقه فإذا هو ألكن، فأسقط اسمه من الديوان وقال: الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة، أو على الباطن ففصاحة، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن، وقد قال ﷺ: «اطلبوا الخير عند صباح الوجوه[7]» وقال

---

(١) حديث ما ناله ﷺ من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقاب إذ عرضت نفسي على إبن عبد ياليل. . . الحديث» وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أنس «لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد ولقد أتى عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال» قال الترمذي: معنى هذا حين خرج النبي ﷺ هارباً من مكة ومعه بلال. وللبخاري من عروة قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فدفعه عنه. . . الحديث. وللبزار وأبي يعلي من حديث أنس قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله. وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) حديث: «الأئمة من قريش» رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح.

(٣) حديث: كان ﷺ من أكرم الناس أرومة في نسب آدم. الأرومة الأصل، هذا معلوم، فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» وفي رواية الترمذي «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب بن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم» وفي حديث ابن عباس «ما بال أقوام يبتذلون أصلي، فوالله لأنا أفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً».

(٤) حديث: «تخيروا لنطفكم» أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة، وتقدم في النكاح.

(٥) حديث: «إياكم وخضراء الدمن» تقدم فيه أيضاً.

(٦) حديث: «أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله» غريب بهذا اللفظ، وللترمذي من حديث أبي بكرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله» وقال حسن صحيح.

(٧) حديث: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه» أخرجه أبو يعلي من رواية اسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن

عمررضي الله تعالى عنه: إذا بعثتم رسولاً فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم. وقال الفقهاء: أذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجهاً أولاهم بالإمامة، وقال تعالى ممتنا بذلك ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة، وإنما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه.

*فإن قلت. فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيِّز النعم، وقد ذم الله تعالى المال والجاه، وكذا رسول الله ﷺ[1] وكذا العلماء. قال تعالى: ﴿إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم﴾ وقال عزوجل: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ وقال علي كرّم الله وجهه في ذم النسب: الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل أمرىء ما يحسنه. وقيل: المرء بنفسه لا بأبيه. فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا؟ فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة بالتخصيص أخرى؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها، إلا أنّ فيها فتناً ومخاوف؛ فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة، وإن أصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء وهلاك، وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآلىء، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالماً بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه، وإن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك، فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيراً، ومدحه رسول الله ﷺ وقال: «نعم العون على تقوى الله تعالى المال» وكذلك مدح الجاه والعز، إذ من الله تعالى على رسوله ﷺ بأن أظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق، وهو المعني بالجاه، ولكن المنقول في مدحهما قليل، والمنقول في ذم المال والجاه كثير، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب. ومعنى الجاه ملك القلوب، وإنما كثر هذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص في بحر الجاه، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره، ولو كانا في أعيانها مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوّة الملك كما كان لرسولنا ﷺ، ولا أن ينضاف إليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام: فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزمون، فقد يضر الصبي ما لا يضر المعزم. نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك، فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضرراً كثيراً، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعرّفه أنّ فيها سمًا قاتلاً لا ينجو منه أحد ولا يحدّثه أصلاً بما فيها من نفع الترياق، فإنّ ذلك ربما يغرّه فيقدم عليه من غير تمام المعرفة. وكذلك الغوّاص إذا علم أنه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك. فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر. فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل . فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه . فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء. ولذلك قال ﷺ:«إنما أنا لكم مثل

سباع عن أمها عائشة، وخيرة وأمها لا أعرف حالها. ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر، وله طرق كلها ضعيفة.

(١) حديث ذم المال والجاه. أخرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه» وقد تقدم في ذم المال والبخل.

الوالد لولده[1]» وقال ﷺ:«إنما تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم[2]» وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه، فإن الإنفاق فيه الترياق، وفي الإمساك السم، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق، فلذلك قبحت الأموال، والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذتها؛ فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم، وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله؛ فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار. وقوله عليه الصلاة والسلام:«ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب[3]» معناه لأنفسكم خاصة ولا فقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة. ولما ذكر رسول الله ﷺ أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدّة أستأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه، فأذن له جبريل عليه السلام، وقال: مره بأن يطعم المسكين ويكسو العاري ويقري الضيف[4]... الحديث فإذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوّها بمخوفها ونفعها بضرها؛ فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقياً داءها ومستخرجاً دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظانّ الأخطار، فلا تعدل بالسلامة شيئاً في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه.

*فإن قلت: فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد؟ فاعلم أن التوفيق لا يستغني عنه أحد: وهوعبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق، وكذا الارتداد، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها، لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرّد الإرادة؟ فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية، ولذلك قال تعالى: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وقال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء﴾ وقال ﷺ:«ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى» أي بهدايته، فقيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا

---

(١) حديث: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله «لولده» وقد تقدم.

(٢) حديث: «إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم» متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «مثلي ومثل الناس» وقال مسلم «ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه». ولمسلم من حديث جابر «وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي».

(٣) حديث: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب» أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال «بلغة» وقال «مثل زاد الراكب» وقال صحيح الإسناد قلت: هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه «عهد إلي أن يكفي أحدكم مثل زاد الراكب».

(٤) حديث: استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال: مره أن يطعم المسكين... الحديث اخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الإسناد، قلت، كلا، فيه خالد بن أبي مالك ضعيف جداً.

أنا[1]». وللهداية ثلاث منازل (الأولى) معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل، ولذلك قال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ فأسباب الهدى هي الكتاب والرسل وبصائر العقول، وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا، والأسباب التي تعمي القلوب وإن كانت لا تعمي الابصار، قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ ومن جملة المعميات: الإلف والعادة وحب استصحابها، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ الآية. وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وقوله تعالى: ﴿أبشر منا واحدا نتبعه﴾ فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يمدّ الله تعالى بها العبد حالا بعد حال، وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وهو المراد بقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ والهداية الثالثة وراء الثانية: وهو النور الذي يشرق في عالم النبوّة والولاية بعد كمال المجاهدة، فيهتدي بها إلا ما لا يهتدي إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدّمات؛ وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى، فقال تعالى: ﴿قل إنّ هدى الله هو الهدى﴾ وهو المسمى حياة في قوله تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ والمعنى بقوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ وأما الرشد فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقوية على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها، فالصبي إذا بلغ خبيراً بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيداً لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية و ميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرّد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة. وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتدّ في صوب الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجرّدها لا تكفي، بل لا بد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي، بل لا بدّ من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، وأما التأييد فكأنه جامع للكل، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج، وهو المراد بقوله عز وجل: ﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾ وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر يصير كمانع من باطنه غير محسوس، وإياه عنى بقوله تعالى: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ فهذه هي مجامع النعم، ولن تثبت إلا بما يخوّله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المراعي المتواضع والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء، ويستدعي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا، وتستدعي تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجاً ليعلم به معنى قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ وبالله التوفيق.

---

(١) حديث «ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله» متفق عليه من حديث أبي هريرة «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» وفي رواية لمسلم «ما من أحد يدخله عمله الجنة... الحديث» واتفقا عليه من حديث عائشة، وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم.

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة لأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة، وكل حركة لا بدّ لها من جسم متحرّك هو آلتها، ولا بدّ لها من قدرة على الحركة، ولا بدّ من إرادة للحركة، ولا بدّ من علم بالمراد وإدراك له، ولا بدّ للأكل من مأكول، ولا بدّ للمأكول من أصل منه يحصل، ولا بدّ له من صانع يصلحه؛ فلنذكر أسباب الإدراك، ثم أسباب الإرادات، ثم أسباب القدرة، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء.

الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك

اعلم أنّ الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجوداً من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمي ولا تغذي؛ فإن النبات خلق فيه قوّة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض، وهي له آلات، فيها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة، ثم تغلظ أصولها، ثم تتشعب، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر، إلا أنّ النبات مع هذا الكمال ناقص، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر، فإنّ الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك، فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه، وهذا أوّل حس يخلق للحيوان، ولا يتصوّر حيوان إلا ويكون له هذا الحس، لأنه إذا لم يحس أصلا فليس بحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه، فإن الإحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة، وهذا الحس موجود لكل حيوان، حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب، لا كالنبات فإنّ النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصاً كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية، فتحتاج إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه، وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوّا لا حجاب بينك وبينه؛ وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدوّ فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع، فاشتدّت إليه حاجتك فخلق لك ذلك، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات، وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق، إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك، كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذب، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم

يخلق في مقدّمة دماغك إدراك اخر يسمى حسا مشتركا تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه، ولولاه لطال الأمر عليك؛ فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلا فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانياً لولا الحس المشترك، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بدّ من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً، حتى إذا أردت الصفرة حكم أنه مر فيمتنع عن تناوله ثانياً، وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات، إذ للشاة هذا الحواس كلها؛ فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً؛ فإنّ البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت، وقد تلقي نفسها في بئر ولا تدري أن ذلك يهلكها، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذة في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، فأما إدراك العواقب فلا، فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهي أشرف من الكل وهو العقل، فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل، وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس في حقك، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به، فواحدة منها بأخبار الألوان، والأخرى بأخبار الأصوات، والأخرى بأخبار الروائح، والأخرى بأخبار الطعوم، والأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها، وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك، والحس المشترك قاعد في مقدّمة الدماغ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة ويسلمها، إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها؛ فأما معرفة حقائق ما فيها فلا، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم الإنهاءات إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرّك الجنود وهي الأعضاء: مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تعنّ له، فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات، ولا تظنن أنا استوفيناها؛ فإنّ الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات، والبصر واحد من جملة الحواس، والعين آلة واحدة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها طوبات وبعضها أغشية، وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض، وبعضها كأنه الجمد، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب، ولو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم، فهذا في حس واحد، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس؛ بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة، مع أنّ جملته لا تزيد على جوزة صغيرة؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

الطرف الثاني: في أصناف النعم في خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البشر معطلاً، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله، فيبقى البصر والإدراك معطلاً في حقه، فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة؛ فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضى الذي يضطرّك إلى التناول حتى تتناول وتغتذي فتبقي بالغذاء، وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات. ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت

وأهلكت نفسك، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، لا كالزرع فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمي يقدّر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق دم الحيض، وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض، وكيفية خلق الأثنين والعروق السالكة اليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث، وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظمًا ولحمًا ودماً، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء: لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب، فضلاً عما تراه الآن، ولكنا لسنا نريد أن نتعرّض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام؛ فإذن شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات، وذلك لا يكفيك، فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب، فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك، لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء، فإن كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلى إلّا ما يضر وينفع في الحال، وأما في المآل فلا تكفي فيه هذه الإرادة، فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعرّف للعواقب، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالةالحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل، إذ كان مجرّد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة، وهذه الإرادة أفردت بها عن البهائم كراماً لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب، وقد سمينا هذه الإرادة باعثاً دينياً وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا.

الطرف الثالث: في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك، والإرادة، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب، فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما، فلا بدّ من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً وبمقتضى الكراهية هرباً، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها؛ فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للإنسان والجناح للطير والقوائم للدواب، ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان، وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً؛ فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة، ومنها ما خلق له أربع قوائم؛ ومنها ما له رجلان، ومنها ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول: رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفي ما لم تتمكن من أن تأخذه؛ فافتقرت إلى آلة باطشة؛ فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدّتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتدّ وتنثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة: ثم جعل رأس اليد عريضاً بخلق الكف؛ ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية، ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعاً إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض، ثم خلق لها أظفاراً وأسند إليها رؤوس الأصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارك، ثم هب أنك أخذت الطعام

باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام طحناً، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك، فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب احدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً، وبذلك لا يتم الطحن. فجعل اللحى الأسفل متحرّكا حركة دورية، واللحى الأعلى ثابتا لا يتحرّك فانظر إلى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنعه الله تعالى، إذ يدور منه الأسفل على الأعلى، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرّك الطعام إلى ما تحت الأسنان، أو كيف تستجرّه الأسنان إلى نفسها، وكيف يتصرف باليد في داخل الفم؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى، هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوّة النطق والحكم التي لسنا نطنب بذكرها، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك، ثم هذا الطعام المطحون المتعجن من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد في المعدة حتى تمتدّ فتجذب الطعام، فانظر كيف هيأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوي إلى المعدة في دهليز المريء ، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحمًا وعظمًا ودماً على هذه الهيئة بل لا بد وأن يطبخ طبخاً تاماً حتى تتشابه أجزاؤه، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، فلا يزال لابثاً فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة، إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال، ومن قدّام الترائب، ومن خلف لحم الصلب فتتعدّى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتي ينطبخ الطعام ويصير مائعاً متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ووقته، وهو بعد لا يصلح للتغذية؛ فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوّة الكبد فتصبغة بلون الدم، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي لغذاء الأعضاء، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ: إحداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوي، والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء، ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء، فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منها عنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلاً في تجويفه، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوي، فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية، وأولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعداً إلى الأعضاء، فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منها عنقاً طويلاً إلى الكبد. ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقها ليس داخلاً في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من

حدبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد، إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافياً من الفضلات الثلاث نقياً من كل ما يفسد الغذاء، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقاً، ثم قسمها بعد الطلوع أقساماً، وشعب كل قسم بشعب، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهراً وباطناً، فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصيرالعروق المنقسمة شعرية كعروق الاوراق والاشجار بحيث لا تدرك بالابصار، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الاعضاء، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداوية كالبهق واليرقان والبثور والحمرة، وإن حلّت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها، وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره. ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة: أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزلقة ويحدث في الأمعاء لذع يحركها للدفع، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك. وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض، ثم يرسل منها كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرّك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل، وأما الكلية فإنها تغتذي بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل. ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية الشعات والعروق والضوارب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية الشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء، ثم كيفية تركب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه، بل في الأدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرّك أو تحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين، فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والحمار أيضاً يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك؟ وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط، فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر، إلا أن من علم شيئاً من هذا أدرك شمة من معاني قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقرة القلب، ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها، كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه، ولكنه جعل السراج سبباً له بحكمته؛ وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح؛ ومحله القلب، ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة، والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة، والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفىء مهما انقطع غذاؤه، وكما أن

الفتيلة قد تحترق فتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفىء السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفىء مع وجود الغذاء؛ فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقي به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تتشبث النار به؛ وكما أن السراج تارة ينطفىء بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفىء بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل، وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدّرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر؛ فكذلك انطفاء الروح، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب، فكذلك انطفاء الروح؛ وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقته أنواره التي كان يستفيدها من الروح وهي أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة، فهذا أيضاً رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه ﴿لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ عز وجل: فتعساً لمن كفر بالله تعسا؛ وسحقا لمن كفر نعمته سحقا.

فإن قلت؛ فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال: «قل الروح من أمر ربي[1]» فلم يصفه لهم على هذا الوجه* فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح، فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها نحن إنما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً تسميه الأطباء روحاً، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به. حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدّة، في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدّة فيها ويعالجونها بما يفتح السدّة، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل. وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه، ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال: هو أمر رباني كما قال تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات، وتتزلزل في ذكر مبادىء وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة في مضيقها، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال، وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً، فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها؛ لأنّ ذلك طور لم يبلغه بعد، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب، وعلى أوّل الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني؛ فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة واستحال أن يصل الميدان، فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية، ولذلك قيل: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه. وأنّى يصادف هذا خزانة الأطباء؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه؟ بل المعنى المسمى روحاً عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك ممن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحرّكها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك، ولا يشك في أنّ خطأه

(١) حديث: أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال: «الروح من أمر ربي» متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في شرح عجائب القلب.

فاحش، وهذا الخطأ أفحش منه جدّا، ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولاً قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى للرسول ﷺ أن يتحدّث عنه، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئاً، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته، أما نسبته ففي قوله تعالى: ﴿من أمر ربي﴾ وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ ولنرجع الآن إلى الغرض، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل.

الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته

اعلم أن الأطعمة كثيرة، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تتناهى، وذكر ذلك في كل طعام مما يطول، فإن الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية، فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الأغذية فنقول: إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعاً، فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بتمام حاجتك! فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء لأنه يغتذي بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذي أنت وتجتذب، ولسنا نطنب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، ولكن نشير إلى غذائه فنقول: كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص، فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلاّ هواء، ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها، ولو تركتها في الماء لم تزد، ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد، بل لا بدّ من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه: أنا صببنا الماء صباً. ثم شققنا الأرض شقاً. فأنبتنا فيها حباً. وعنباً وقضباً. وزيتوناً ونخلاً. . .﴾ الآية؛ ثم لا يكفي الماء والتراب، إذ لو تركت في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرض رجوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ وإنما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض، ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف؛ فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة، فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد، إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي، فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الأنهار، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب ثقال حوامل بالماء، ثم انظر كيف يرسله مدراراً على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجاً، فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي، ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها، وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان، فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد، والحر عند الحاجة إلى الحر! فهذه إحدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم!. ولذلك لو كانت

الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة، حتى أن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضاً، ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه، بل نقول: كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب، فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثاً باطلاً ولم يصح قوله تعالى: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ وقوله عز وجل: ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة، والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك، وشرح ذلك يطول، ولا ينبغي أن تظن أنّ الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسباباً لها بحكم الحكمة- مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم[1] بل المنهى عنه في النجوم أمران (أحدهما) أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخَّرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها: وهذا كفر (والثاني) تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها؛ لأنهم يقولون ذلك عن جهل، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يميز فيه الصواب عن الخطأ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحاً في الدين بل هو حق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك: اخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال: قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك، وقس بهذا سائر الآثار، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول. فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر؛ فإذن الكواكب ما خلقت عبثاً، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى، ولهذا نظر رسول الله ﷺ إلى السماء وقرأ قوله تعالى:﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ثم قال ﷺ:«ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته»[2] ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل، ويقتصر من فهم ملكوت السمٰوات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضاً، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته، فلله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى؛ فإن من أحب عالماً فلا يزال مشغولاً بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له، فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى، فإن العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرّك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فإنها خرق محرّكة لا متحركة، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار؛ فإذن المقصود أن غذاء

---

(١) حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم. أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان «إذا ذكرت النجوم فأمسكوا» وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم في العلم. ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت يا رسول الله، أموراً كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي بالكهان! قال: «فلا تأتوا الكهان. . . الحديث».

(٢) حديث قرأ قوله تعالى ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ثم قال: «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته» أي ترك تأملها. أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس بلفظ «ولم يتفكر فيها» وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حبة ضعيف.

النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب. ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على ما أهملناه، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات.

الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أنّ هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يغنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون فإما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشدّ أعدائهم لو عرفوا. فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح ويركبوا الأخطار ويغرروابالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك! وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها! وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل في البراري، وانظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة، وإلى الحمار كيف جعل صبوراً على التعب، وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوي المراحل تحت الاعباء الثقيلة على الجوع والعطش، وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج! وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدّ الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن، ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز.

الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة

اعلم أنّ الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل، وهو كذلك بل لا بدّ في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمورأخر لا تحصى، واستقصاء ذلك في كل طعام يطول، فلنعين رغيفاً واحداً، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض. فأوّل ما يحتاج إليه الحارث ليزرع ويصلح الأرض، ثم الثور الذي يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدّة، ثم تنقية الأرض من الحشيش، ثم الحصاد، ثم الفرك والتنقية، ثم الطحن، ثم العجين ثم الخبز؛ فتأمل عدد هذه الافعال التي ذكرناها وما لم نذكره، وعدد الاشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره! وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار، وحداد وغيرهما! وانظر إلى حاجة الحدّاد إلى الحديد والرصاص والنحاس! وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن! وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة! فإن فتشت علمت أنّ رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع، فابتدىء من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة الى العمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات، حتى أن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمساً وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملاً، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلاً بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة

والصنائع الغريبة! فانظر إلى المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها؛ فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان وسبحان من منع النبيين مع هذا البيان. فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلاً، أو عن الحدّاد، أو عن الحجام الذي هو أخس العمال، أو عن الحائك، أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها! فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء.

الطرف السابع: في إصلاح المصلحين

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبدّدواوتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم﴾ فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها، ففي جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدّة والأسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض، فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق، واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحدّاد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحدّاد وصار الحجام ينتفع بالحراث، والحرّاث بالحجام، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض. وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرّفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق و قوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين! وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرّب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحرّاث يصلحه بالحصاد والحدّاد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحدّاد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة، والسلطان يصلح الصناع، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم، والعلماء يصلحون السلاطين، والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ لما اهتدينا إلى هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه الله لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا، وإن سكنا فبقهره انقبضنا؛ إذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى، لأنا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾

فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار.

الطرف الثامن: في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم، ولا تظنن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية والسماوية وحملة العرش، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما. واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو اقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف، وذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر، ثم يصير لحماً وعظماً، وإذا صار لحماً وعظماً تم اغتداؤك، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار، فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ثم عجيناً ثم خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصناع، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً وعروقاً وعصباً إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد، وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة، فأقول: لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عليه صورة الدم، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم، ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلاً، ولا بد من سابع يرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته، فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها وإلى الأفخاذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع، بل لو لم يراع هذا الملك العادل في القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلاً لبقيت تلك الرجل كما كانت في حدّ الصغر وكبر جميع البدن، فكنت ترى شخصاً في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة «فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوّضة إلى ملك من الملائكة، ولا تظنن أنّ الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإنّ محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول؛ فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك، تركنا تفصيل ذلك للايجاز، والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت العزة والجبرۥت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام، والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجرّ من جانب إلى جانب[1]. أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به.

---

(١) حديث: الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب. . . ؛ ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا: =

*فإن قلت: فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم افتقر إلى سبعة أملاك، والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولاً ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثاً، ثم إلى من يعجن رابعاً، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامساً، ثم إلى من يرقها رغفاناً عريضة سادساً، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعاً، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الإنس ظاهراً؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما منا إلا وله مقام معلوم﴾ فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس، فإنّ البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولا هما يتنازعان الشم وليس كاليد والرجل فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشاً ضعيفاً فتزاحم به اليد، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز، فإن هذا النوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل، ولذلك نرى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة، بل هم مجبولون على الطاعة ولا مجال للمعصية في حقهم، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، والراكع منهم راكع أبدا، والساجد منهم ساجد أبدا، والقائم قائم أبدا لا اختلاف في أفعاهم ولا فتور، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه، وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك، فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلاً بإشارتك، فهذا يشبه من وجه ولكن يخالفه من وجه، إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحاً وإطباقاً والملائكة أحياء عالمون بما يعملون؛ فإذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسماوية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها، فإنا لم نطول بذكرها؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات، فإذن قد أسبغ الله تعالى نعمة عليك ظاهرة وباطنة، ثم قال: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة واضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل أقول: كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما، فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضاً به فإن لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور

= إفتح، وفيه: أتى السماء الثانية فقال لخازنها: إفتح. . . الحديث، ولهما من حديث أبي هريرة «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام» وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد يا ليل «فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. . . الحديث» ولهما من حديث أنس «إن الله وكل بالرحم ملكاً. . . الحديث» وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي «ما من نبت ينبت إلا وتحته ملك موكل حتى يحصد. . . الحديث» وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكراوي واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف. وللطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف «إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس» وللترمذي وحسنه من حديث ابن عباس: قالت اليهود يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب» ولمسلم من حديث أبي هريرة: «بينما رجل بفلاة من الأرض سمع صوتاً من سحابة: إسبق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماء في حرة. . . الحديث».

سود، ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين، إذ البباض يفرّق الضوء والسواد يجمعه، ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفاً واحداً أن يكون مانعاً للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبثاً للأقذاء التي تتناثر في الهواء، وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل: وهو أنّ غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شباك الشعر، فيكون شباك الشعر مانعاً من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الاجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الاقذاء إلى زوايا العين والاجفان، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين، فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاده إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب، ولعلنا نستأنف له كتاباً مقصوداً فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى، فلنرجع إلى غرضنا فنقول: من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بعين، ولا العين إلا برأس؛ ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات، والا السموات إلا بالملائكة، فإنّ الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض، فإذن قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا ويلعنه، ولذا ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم[1] وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر[2] وأن الملائكة يلعنون العصاة[3] في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاءها، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في الملك والملكوت، وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوه، فيتبدل اللعن بالاستغفار، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه.
وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام «يا أيوب ما من عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكان، فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان: اللهم زده نعمًا على نعم، فإنك أهل الحمد والشكر، فكن من الشاكرين قريبا فكفى بالشاكرين علوّ رتبة، وعندي أني أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم».

وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعما كثيرة، فاعلم أن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدّ متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالم، فانظر هل يتصوّر إحصاء ذلك أم لا؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى؛ ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ قال: إلهي كيف أشكرك ولك في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت أصلها، وأن طمست رأسها؟ وكذا ورد في الأثر: أن من لم يعرف نعم الله في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه.

وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ما سواه من النعم به، فإنّ البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه، فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطمع.

---

(١) حديث «إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم» لم أجد له أصلاً.
(٢) حديث: «إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر» تقدم في العلم.
(٣) حديث: «إن الملائكة يلعنون العصاة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه.

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله. ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعدّه نعمة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حارّ أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غمًّا؛ فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدّر ذلك نعمة وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها؛ فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينيه، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعدّه نعمة، ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعدّه الجاهل نعمة، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائمًا، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرّق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدّة اغتمامه به فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال لا: أيسرك أن أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ فقال: لا فقال: أيسرك أنك مجنون ولك عشر آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا!

وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى في المنام كأنّ قائلاً يقول له؛ تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار؟ قال: لا، قال: فسورة هود؟ قال: لا، قال: فسورة يوسف؟ قال: لا، فعدّد عليه سوراً ثم قال: فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو، فأصبح وقد سري عنه.

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه، فقال له: عظني: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه؟ قال: نعم، فقال: لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه؟ قال: نعم. قال: فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء.

فهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة ـ وقد ذكرنا النعم العامة ـ فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول: ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعمًا كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل. فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس، وقل من يسأل الله العقل، وإنّ من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه، فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقي فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه في حقه كالباقي.

وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء.

وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره وما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة! فإذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساوئه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد؛ فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقاً. وأما في بعض الأمور فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أموراً لو سلب ذلك منه وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً وحياً لا جماداً وإنساناً لا بهيمة وذكراً لا أنثى وصحيحاً لا مريضاً وسليمًا لا معيباً؛ فإنّ كل هذه خصائص، وإن كان فيها عموم أيضاً فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها، بل له أمور لا يبدّلها بأحوال الآدميين أيضاً، وذلك إما أن يكون بحيث لايبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكثر؛ فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخصاً يرتضي لنفسه حالة بدلاً عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص؛ فإذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه، وما باله لا يسوي دنياه بدينه، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة! فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه، فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خير منه، وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق، فكيف لا يلزمه الشكر وإذا قال ﷺ: «من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابراً وشاكراً ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً[1]» فإذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعمًا كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك، ولذلك قيل:

إن شاء عيشا رحيبا يستطيل به	في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعا	ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم: «من لا يستغن بآيات الله فلا أغناه الله[2]» وهذا إشارة إلى نعمة العلم. وقال عليه السلام: «إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه[3]» وقال عليه السلام: «من أتاه الله

---

(١) حديث: «من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابراً شاكراً... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب، وفيه المثني بن الصباح ضعيف.

(٢) حديث: «من لم يستعن بآيات الله فلا أغناه الله» لم أجده بهذا اللفظ.

(٣) حديث: «إن القرآن هو الغناء الذي لا غناء بعده ولا فقر معه» أخرجه أبو يعلي والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ: «إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه» قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلًا، وهو أشبه بالصواب.

القرآن فظن أنّ أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله[١]» وقال ﷺ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن[٢]» وقال عليه السلام: «كفى باليقين غنى[٣]» وقال بعض السلف: يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة «إن عبداً أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتي: عن سلطان يأتيه، وطبيب يداويه، وعما في يدا أخيه» وعبر الشاعر عن هذا فقال:

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر ﷺ عن هذا المعنى فقال: «من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه: فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها[٤]» ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث؛ مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضاً عن علمك بل عن عشر عشير علمك: لم يأخذه، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة، بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكماله، فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به، لكان لا يأخذه، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدّرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها، هكذا كانت إلى الآن، وهكذا تكون ما بقي من الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت، كالمرأة الجميل ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغني، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها، ولا ينبغي أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها، فإنّ المقبل عليها أيضاً متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة وتألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ فإذن إنما انسدَّ طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة.

فإن قلت: فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر؟ فأقول: أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة. وأما القلوب البليدة التي لا تعدّ النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها، فسبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية، إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود، فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر

---

(١) حديث: «من آتاه الله حفظ كتابه فظن أن أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله» أخرجه البخاري في التاريخ من حديث رجاء الغنوي بلفظ «من آتاه حفظ كتابه وظنّ أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد صغر أعظم النعم» وقد تقدم في فضل القرآن، ورجاء مختلف في صحبته. وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة.

(٢) حديث: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» تقدم في آداب التلاوة.

(٣) حديث: «كفى باليقين غنى» رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر، ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفاً عليه، وقد تقدم.

(٤) حديث: «من أصبح آمناً في سربه... الحديث» تقدم غير مرة.

الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن، ويحضر المقابر فيعلم أنّ أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً. أما من عصى الله تعالى فليتدارك، وأما من أطاع فليزد في طاعته، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول: كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات، وأما العاصي فغبنه ظاهر، فإذا شاهد المقابر وعلم أنّ أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له، فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر. وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للمعرفة، فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غلا في عنقه وينام في لحده ثم يقول: ﴿رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً﴾ ثم يقوم ويقول. «يا ربيع قد أعطيت ما سألت، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد».

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدوها بالشكر. وفي الخبر: «ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال[1]» وقال الله سبحانه تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ فهذا تمام هذا الركن.

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر

فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول: ماذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً فما الصبر إذن. وإن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء. وقد ادعى مدّعون أنا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة، فكيف يتصوّر الشكر على البلاء، وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألما والشكر يستدعي فرحا وهما يتضادان، وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده؟ فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه: أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه: كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد؛ أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدّة وإما أبدا. وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق وأما المقيّد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة. وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي، نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا

---

(١) حديث: «ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه... الحديث» أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ: «ألا عظمت موونة الناس عليه، فمن لم يحتمل تلك المونة... الحديث» ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال: إنه موضوع على حجاج الأعور.

يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليها، والعاصي يعرف أنه عاصي فعليه ترك المعصية، بل كل بلاء ويقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصوّر أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر؛ فإن الغنى مثلا يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده، الصحة أيضاً كذلك؛ فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حالة؛ فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى؛ قال الله تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ وقال تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى﴾ وقال ﷺ: «إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه[1]» وكذلك الزوجة والولد والقريب، وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فإنها يتصوّر أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعماً في حقهم، إذ سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون فقدها نعمة، مثاله؛ جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه؛ وكذلك، جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه، إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام؛ وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالاً عليه في الدنيا والآخرة، بل جهله بالصفات المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فإنه ربما يكون ولياً لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم، فليس من آذى نبياً أو ولياً وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها: إبهام الله تعالى أمر القيامة، وإبهامه ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، وإبهامه بعض الكبائر، فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم. وحيث قلنا إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق، وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس، وهي أيضاً قد تكون نعمة في حق المتألم بها، فإن لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به، وألم الكفار في النار فهو أيضاً نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد. ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار. أما ترى أهل الدنيا ليس يشتدّ فرحهم بنور الشمس مع شدّة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبذولة، ولا يشتدّ فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها، فإذن قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم، فإذن في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً إما على المبتلى أو على غير المبتلى، فإذن كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة، فيجتمع فيها على العبد وظيفتان: الصبر والشكر جميعاً.

فإن قلت؛ فهما متضادان فكيف يجتمعان؟ إذ لا صبر إلا على غم، ولا شكر إلا على فرح؟ فاعلم أن الشيء الوحيد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح. وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح الغافل بها ويشكر عليها. (أحدها) أن كل مصيبة ومرض فيتصوّر أن يكون أكبر منها، وإذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله

(١) حديث: «إن الله ليحمي عبده من الدنيا. . . الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه، وقد تقدم.

تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا. (الثاني) أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه: قال رجل لسهل رضي الله تعالى عنه: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي! فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال: اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه. وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه، فقال له: اشكر الله فضربه؛ فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه، فقال: اشكر الله، فجيء بمجوسي فحبس عنده وكان مبطونا فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسي، فأرسل إليه فقال: اشكر الله، فكان المجوسي يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضي حاجته، فكتب إليه بذلك، فقال: اشكر الله، فقال: إلى متى هذا، وأي بلاء أعظم من هذا؟ فقال: لو جعل الزنار الذي في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع؟ فإذن ما من إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهراً وباطناً في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلاً وآجلاً، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداهما فهو مستحق للشكر. ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد، فسجد لله تعالى سجدة الشكر، فقيل له: ما هذه السجدة؟ فقال: كنت أنتظر أن تصب عليّ النار، فالاقتصار على الرماد نعمة، وقيل لبعضهم: لا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار! فقال: أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجر.

فإن قلت: كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار؟ فاعلم أن الكافر قد خبىء له ما هو أكثر، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب، كما قال تعالى: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا﴾ وأما المعاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه، ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح، ولذلك قال تعالى في مثله: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك، ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك. وهذا هو الوجه الثالث في الشكر: وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصوّر أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها، ومصيبة الآخرة تدوم، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي، إذ أسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذبين، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانياً، إذ قال رسول الله ﷺ: «إنّ العبد إذا أذنب فأصابته شدّة أو بلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً[1]». (الرابع) أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بدّ من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها، فهذه نعمة. (الخامس) أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين، أحدهما: الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة حق الصبي، فإنه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب، فكان يخسر جميع عمره، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض الأحوال، بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه، فالملحدة غداً

(١) حديث: «إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث علي «من أصاب في الدنيا ذنباً عوقب به فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده. . . الحديث» لفظ ابن ماجه. وقال الترمذي: «من أصاب حداً فعجل عقوبته في الدنيا» وقال حسن. وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له. . . الحديث».

يتمنون لو كانوا مجانين أو صبياناً ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدّر فيه الخيرة ويشكره عليه، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد، وغداً يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد. فقد روي أنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أوصني قال: «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك[1]» ونظر ﷺ إلى السماء فضحك، فسئل فقال: «عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن: إن قضى له بالسراء رضي وكان خيراً له وإن قضى له بالضراء رضي وكان خيراً له[2]» الوجه الثاني: أنّ رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور، ومؤاتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجناً عليه، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن، ولذلك قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[3]». والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضي بها واطمأنّ إليها، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي، وبقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي، بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق؛ فإذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به، وأما التألم فهو ضروري، وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجاناً، أو يسقيك دواء نافعاً بشعاً مجاناً، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل، بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة، فرأى وجهاً حسناً لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالاً وبلاء عليه لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد؛ فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة؛ فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصوّر منه الشكر؛ لأنّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة، ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة. وحكي أن أعرابياً عزّى ابن عباس على أبيه فقال:

اصبر نكن بك صابرين فإنما ... صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده ... والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس: ما عزاني أحد أحسن من تعزيته.

والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرا يصب منه[4]»

---

(١) حديث: قال له رجل أوصني قال «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك» رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله، وفي إسناده ابن لهيعة.

(٢) حديث: نظر إلى السماء فضحك. فسئل فقال: «عجبت لقضاء الله للمؤمن.. الحديث». أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء، وضحكه «عجباً لأمر المومن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمومن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» وللنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص: «عجبت من رضا الله للموءمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر... الحديث».

(٣) حديث: «الدنيا سجن الموءمن وجنة الكافر» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٤) حديث: «من يرد الله به خير يصب منه» رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

وقال ﷺ:قال الله تعالى: «إذا وجهت إلى عبدٍ من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً» وقال عليه السلام: «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله ذلك به». وقال ﷺ قال الله تعالى: «من سلبته كريمتيه فجزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي» وروي أن رجلاً قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال ﷺ: «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه، إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه وإذا ابتلاه صبره[1]». وقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك[2]». وعن خباب بن الأرت قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: يارسول الله، ألا تدعو الله تستنصره لنا؟ فجلس محمراً لونه ثم قال: «إن من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه[3]» وعن علي كرّم الله وجهه قال: إيما رجل حبسه السلطان ظلمًا فمات فهو شهيد، وإن ضربه فمات فهو شهيد وقال عليه السلام: «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك». وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يبقى، ألا حبذا المكروهات الثلاث: الفقر والمرض والموت. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:«إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجاً، فإذا دعاه قالت الملائكة: صوت معروف وإن دعاه ثانياً فقال: يارب قال الله تعالى: «لبيك عبدي وسعديك لا تسألني شيئاً إلا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير وادخرت لك عندي ما هو أفضل منه، فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفوا أعمالهم بالميزان: أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صباً كما كان يصب عليهم البلاء صباً فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب[4]» فذلك قوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: شكا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال: يارب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء، ويكون الكافر لا يطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا؛ فأوحى الله تعالى إليه «إنّ العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي، فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه، حتى يلقاني فأجزيه بحسناته. ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا، حتى يلقاني فأجزيه بسيئائه».

---

(١) حديث: أن رجلاً قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال: «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده، إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين.

(٢) حديث: «إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك» رواه أبو داود في رواية ابن داسه، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده، وليس في رواية اللؤلؤي. ورواه أحمد وأبو يعلي والطبراني من هذا الوجه، ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو المليح الحسن بن عمر الرقي، وكذلك لم يرو عن خالد إلا ابنه محمد، وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمي جده اللجلاج بن سليم. فالله أعلم. وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور روى عنه جماعة. ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي إياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده. ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فالله أعلم.

(٣) حديث خباب بن الأرث: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث... تقدم.

(٤) حديث أنس: «إذا أراد الله بعبد خيراً وأراد أن يصافيه صبّ عليه البلاء صباً... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله: «فإذا كان يوم القيامة... إلى آخره» وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضاً ضعيف.

وروي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست يصيبك الأذى؟ ألست تحزن؟ فهذا مما تجزون به[1]». يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك. وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾[2]». يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة.

وعن الحسن البصري رحمه الله: أن رجلاً من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية، فكلمها ثم تركها، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا[3]» وقال علي كرم الله وجهه: ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن؟ قالوا: بلى، فقرأ عليهم ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار؛ فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً، وإن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة. وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «ما تجرّع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها. ولا قطرت قطرة أحب إلى الله من قطرة دم أهريقت في سبيل الله، أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله. وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة، وخطوة إلى صلة الرحم[4]».

وعن أبي الدرداء قال: توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجداً شديداً فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زي الخصوم، فقال أحدهما: بذرت بذراً فلما استحصد مر به هذا فأفسده، فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يميناً وشمالاً فإذا الطريق عليه. فقال سليمان عليه السلام: ولم بذرت على الطريق، أما علمت أن لا بدّ للناس من الطريق؟ قال: فلم تحزن على ولدك، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟ فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك.

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض، فقال: يابني، لأن تكون في ميزاني أحب إليّ من أن أكون في ميزانك، فقال يا أبتِ، لأن يكون ما تحب أحب إليّ من أن يكون ما أحب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعي إليه ابنة له، فاسترجع وقال: عورة سترها الله تعالى، ومؤنة

---

(١) حديث: لما نزل قوله تعالى ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ قال أبو بكر الصديق: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض. . . الحديث» من رواية من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر وضعفه. قال: وليس له إسناد صحيح. وقال الدارقطني: وروى أيضاً من حديث عمر ومن حديث الزبير، قال: وليس فيها شيء يثبت.

(٢) حديث عقبة بن عامر: «إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج. . . الحديث» رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن.

(٣) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط. . . الحديث، وفيه «إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا» أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعاً ومتصلاً. ووصله الطبراني أيضاً من رواية الحسن عن عمار بن ياسر، ورواه أيضاً من حديث ابن عباس، وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي.

(٤) حديث أنس: «ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها. . . الحديث» أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين، وفيه محمد بن صدقة وهو الفلكي منكر الحديث. وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد جيد: ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله. وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة «ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عزّ وجل من قطرة دم رجل مسلم في سبيل الله، أو قطرة دمع في سواد الليل. . . الحديث» وفيه محمد بن صدقة، وهو الفلكي المنكر الحديث.

كفاها الله وأجر قد ساقه الله تعالى، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى: قال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾.

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن، فعزاه مجوسي يعرفه؛ فقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال ابن المبارك: اكتبوا عنه هذه.

وقال بعض العلماء إن الله ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الأرض وما له ذنب.

وقال الفضيل إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير.

وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان، وعلى الفقراء بالمسيح، وعلى العبيد بيوسف، وعلى المرضى بايوب صلوات الله عليهم.

وروي أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك، فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا، فأنّ منه أنة؛ فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوّة، فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين.

وقال أبو مسعود البلخي: من أصيب بمصيبة فمزق ثوباً أو ضرب صدراً فكأنما أخذ رمحاً يريد أن يقاتل به ربه عز وجل.

وقال لقمان رحمه الله لابنه: يابني إن الذهب يجرّب بالنار والعبد الصالح يجرّب بالبلاء، فإذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

وقال الأحنف بن قيس: أصبحت يوماً اشتكي ضرسي، فقلت لعمي: ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثاً، فقال: لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة، وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد. وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام «إذ نزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي وآشك إليّ كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساوئك وفضائحك» نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة.

بيان فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول: هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟

فأقول: لا وجه لذلك، لما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة[1] وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة[2]» وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها[3].

وقال علي كرّم الله وجهه: اللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ: «لقد سألت الله البلاء فاسأله العافية[4]»

---

(١) حديث: أنه ﷺ كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة رواه أحمد من حديث بشر بن أبي أرطاة بلفظ: «أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» وإسناده جيد. ولأبي داود من حديث عائشة «أللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة» وفيه بقية وهو مدلس، ورواه بالعنعنة.

(٢) حديث: كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس: كان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ يقول: «أللهم آتنا في الدنيا... الحديث» ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ما بين الركنين: «ربنا آتنا... الحديث».

(٣) حديث: كان يستعيذ من شماتة الأعداء: تقدم في الدعوات.

(٤) حديث قال علي رضي الله عنه: أللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ: «لقد سألت الله البلاء فسله العافية» رواه الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه، ولم يسم علياً وإنما قال: سمع رجلاً. وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث علي: كنت ساكناً فمر بي رسول الله ﷺ وأنا أقول.... الحديث. وفيه: فإن كان بلاء فصبرني، فضربه برجله وقال «أللهم عافه واشفه» وقال حسن صحيح.

وروى الصدّيق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سلوا الله العافية، فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين[1]» وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك، فعافية القلب أعلى من عافية البدن.

وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لا شر فيه: العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر.

وقال مطرّف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر، أحب إليّ من أن أبتلى فأصبر.

وقال ﷺ في دعائه: «وعافيتك أحب إليّ[2]».

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين: أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب؛ فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء، ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما لا يعطيه على الصبر.

فإن قلت: فقد قال بعضهم؛ أود أن أكون جسراً على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار. وقال سمنون رحمه الله تعالى:

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فأختبرني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء! فاعلم أنه حكي عن سمنون المحب رحمه الله أنه بلي بعد هذا البيت بعلة الحصر، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب وأما محبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظنّ المحب بنفسه حباً لمثل ذلك، فمن شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعوّل عليه، كما حكي أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عني ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لأجلك؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال: يانبي الله كلام العشاق لا يحكى، وهو كما قال، وقال الشاعر

أريد وصاله ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضاً محال، ومعناه أني أريد ما لا يريد، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر، فكيف أراد الهجر الذي لم يرده، بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين (أحدهما) أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به إلى الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهماً في درهمين فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال (الثاني) أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث إنه رضاه فقط، ويكون له لذة في استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته، فعند ذلك يتصوّر أن يريد ما فيه الرضا، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم

---

(١) حديث أبي بكر الصديق «سلوا الله العافية... الحديث» أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد جيد، وقد تقدم.

(٢) حديث: «وعافيتك أحب إليّ» ذكره ابن إسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ «وعافيتك أوسع لي» وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلاً، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسنداً وفيه من يجهل.

أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا، فهؤلاء إذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية، وهذه حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال؟ هذا فيه نظر، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المانّ بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين.

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أنّ الناس اختلفوا في ذلك، فقال قائلون: الصبر أفضل من الشكر. وقال آخرون: الشكر افضل. وقال آخرون: هما سيان. وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل، فلا معنى للتطويل بالنقل، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى. فنقول. في بيان ذلك مقامان:

(المقام الأوّل) البيان على سبيل التساهل: وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب التفتيش بحقيقته وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة، وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمده الوعاظ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم، والظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات، بل باللبن اللطيف، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بقوّته، ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته فنقول: هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضي تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر، بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله ﷺ:«من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر[1]». وفي الخبر يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له: أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر، فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كلا، أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت، لأضعفن لك الأجر عليه، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين[2]». وقد قال الله تعالى:﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وأما قوله؛ «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر[3]». فهو دليل على أنّ الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر، وهو كقوله ﷺ: «الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل[4]» وكقوله ﷺ: «شارب الخمر كعابد الوثن[5]» وأبدا المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة، فكذلك قوله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان» لا يدل على أنّ الشكر مثله، وهو كقوله عليه السلام «الصوم نصف الصبر» فإنّ كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وإن كان بينهما تفاوت، كما يقال: الإيمان هو العلم والعمل؛ فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أنّ العمل يساوي العلم. وفي الخبر عن

---

(١) حديث: «من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر» تقدم.

(٢) حديث: يوءتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين، ويوءتى بأصبر أهل الأرض. . . الحديث. لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٤) حديث: «الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل» أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف، أو الطبراني بالشطر الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت: كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ قال: طاعة أزواجهن. وفي رواية: ما جزاء غزوة المرأة؟ قال:طاعة الزوج. . . الحديث» وفيه القاسم بن فياض، وثقة أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات.

(٥) حديث: «شارب الخمر كعابد الوثن» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ «مدمن الخمر» ورواه بلفظ «شارب» الحارث بن أبي أسامة من حديث عبد الله بن عمر، وكلاهما ضعيف وقال ابن عدي: إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهاني.

النبي ﷺ «آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه. وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه[(١)]». وفي خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا[(٢)]». وفي الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد، وأوّل من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام[(٣)]».

وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر؛ لأنّ الصبر حال الفقير، والشكر حال الغني، فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم.

(المقام الثاني) هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح فنقول فيه: كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان. والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول: قد ذكرنا أن هذه المقامات تنظم من أمور ثلاثة: علوم، وأحوال، وأعمال والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك، وهذه الثلاثة إذاً وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين في الظواهر أن العلوم تراد للأحوال، والأحوال تراد للأعمال، والأعمال هي الأفضل: وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك؛ فإن الأعمال تراد للأحوال والأحوال تراد للعلوم؛ فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال؛ لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه: وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد المعارف، وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد المعاملة؛ ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل؛ وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر؛ فنقول: فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته، وأفعاله، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه، وهي الغاية التي تطلب لذاتها، فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة، ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة. فهي المعرفة الحرّة التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها. وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها، فإنها إنما تراد لأجلها. ولما كانت مرادة لأجلها كان تعاونها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى: فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة، فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل وأما الأحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق، فإذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة، وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض، فكذلك أحوال القلب، فالحالة القريبة أو المقرّبة من صفاء القلب وجلب الأحوال إليه، وكل عمل إما

---

(١) حديث: «آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه، وآخر أصحابي دخولاً الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل «يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً» وقال: لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفي ثقة. وروى البزار من حديث أنس: «أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف» وفيه أغلب بن تميم ضعيف.

(٢) حديث: «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً» تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك، ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر.

(٣) حديث: «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد. . . الحديث» لم أجد له أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة؛ فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وبصرى وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان: ولقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.

أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا، وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه. واسم الأول المعصية، واسم الثاني الطاعة، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة، وأنّ الحج أفضل من الصدقة، وأنّ قيام الليل أفضل من غيره، ولكن التحقيق فيه أنّ الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فإخراج الدرهم له أفضل من غيره، ولكن التحقيق فيه أنّ الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام، لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع، فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره، وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه، والشح المطاع من جملة المهلكات، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة، بل لا يزيله إلا إخراج المال؛ فعليه أن يتصدّق بما معه، وتفصيل هذه مما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع إليه؛ فإذن باعتبار هذه الأحوال يختلف، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ، إذ لو قال لنا قائل: الخبز أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب؛ فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، فإن تساويا فهما متساويان. وكذا إذا قيل: السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر؟ لم يصح الجواب عنه مطلقاً أصلاً، نعم لو قيل لنا: السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء؟ فنقول: عدم الصفراء، لأن السكنجبي مراد له، وما يراد لغيره فلذلك أفضل منه لا محالة، فإذن في بذل المال عمل وهو الإنفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب، ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه، فالأفضل المعرفة، ودونها الحال، ودونها العمل.

* فإن قلت: فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ وقال تعالى: ﴿ويأخذ الصدقات﴾ فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل؟ فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه، فإنه لا يشعر به، ولو ذكر له لا يصدق به. والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلاً إن كان ماء الورد يزيل البرص، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه، فإنه لو ذكر أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه.

ولنضرب مثلاً أقرب من هذا: من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظاً لقال: إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم، فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم، فيشكل عليه الأمر فيقول: ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به، واعلم أن لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلاً عن عدم علمهم بالقرآن، فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتماداً على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبراً محروماً من حيث لا يدري، وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا: إن الله تعالى غني عن عبادتنا وعن أن يستقرض

منا، فأي معنى لقوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ ولو شاء الله اطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم، كما قال تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ وقالوا أيضاً: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو جل الله تعالى ثم قالوا لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا: هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفاً به في استجراره إلى ما فيه سعادته، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق، فإذن هذا المسكين الآخذ لمالك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك، فإنه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك؛ فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام. ولا يخرج الحجام عن كونه خادماً بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدم، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله ﷺ من أخذها وانتهى عنها[1]. كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها[2]، والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات، والقلب بحسب تأثيرها مستعدّ لقبول الهداية ونور المعرفة، فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف، ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول: في كل واحد منها معرفة وحال وعمل، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال، أو العمل في الآخر، بل يقابل كل واحد منها بنظيره حتى يظهر التناسب، وبعد التناسب يظهر الفضل، ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة، إذ معرفة الشاكر: أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى. ومعرفة الصابر: أن يرى العمى من الله، وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرنا في البلاء والمصائب. وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية، وفيهما يتحد الصبر والشكر لأنّ الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى شكراً بالإضافة إلى باعث الدين، إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة: وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة، فهما عبارتان عن معنى واحد، فكيف يفضل الشيء على نفسه؛ فإذن مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة، والمعصية، والبلاء وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي، وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين: أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية، والآخر أن يستعملها في الطاعة وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر؛ فإنّ الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكراً لنعمة العينين؛ وإن اتبع النظر كفر نعمة العينين؛ فقد دخل الصبر في شكره، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضاً فيه من صبر على الطاعة، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، فيكون

---

(١) حديث النهي عن كسب الحجام: تقدم.

(٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها. أخرجه مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة «إن هذه الصدقة لا تحل لنا إنما هي أوساخ القوم وأنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد» وفي رواية له «أوساخ الناس».

هذا الشكر أفضل من الصبر، ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريراً من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء، لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا، ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جداً لأنّ كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين، وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين، وذلك لا يكون إلا بصبر، وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما ورائه، ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر، ووجود الزيادة نعمة، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات، أو أن لا تستعمل في المعصية، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرح بنعمة الله تعالى، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى. وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوة؛ والغني أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح، والمباح فيه مندوحة عن الحرام، ولكن لا بدّ من قوّة في الصبر عن الحرام أيضاً، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوّة التي يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوّة التي يدل العمل عليها، فإنّ الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب، وتلك القوّة حالة للقلب تختلف بحسب قوّة اليقين والإيمان، فما دل على زيادة قوّة في الإيمان فهو أفضل لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأنّ السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال الغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية، لا أن يصرفها إلى الطاعة، فإذن الصبر أفضل من الشكر، أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر: أيهما أفضل؟ فقال: ليس مدح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم، وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما، فشرط الغني يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها، فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي الم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها. والأمر على ما قاله، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه، وهو لم يرد سواه. ويقال: كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة، فكان يقول؛ دعوة الجنيد أصابتني، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر.

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أنّ لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير، إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه، على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منه، بل أداء الحق لله تعالى في تفقد عباده، فهذا أفضل من الفقير الصابر.

* فإن قلت؛ فهذا لا يثقل على النفس والفقير يُثقله الفقر؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر؛ فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق فاعلم أنّ الذي تراه أنّ من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهراً. وقد ذكرنا

تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة، فإيلام النفس ليس مطلوبا لعينه" بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد، والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذيذاً عنده، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذاً. وقد كان مؤلماً له أوّلاً، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية - بل قبل البداية بكثير - كالصبيان، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق، فإذن إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الافهام؛ فإذا أردت التحقيق ففصل، فإنّ للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرضا وهو الرضا وهو مقام وراء الصبر، ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا؛ إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها، ويدخل في جملتها أمور دونها؛ فإنّ حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر، والاعتراف بأنّ النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر، والعلم بأنّ الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر؛ إذ قال عليه السلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله[1]». وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة، وقلة الأعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر. وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها؛ وهي درجات مختلفة؛ فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الأخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار.

وقد روي عن بعضهم أنه قال: رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن فسألته عن حاله فقال: إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني؛ فاتفق أنها زوّجت مني، فليلة زفافها قلت: تعالي حتى نُحيي هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمعنا، فصلينا تلك الليلة ولم يتفرّغ أحدنا إلى صاحبه؛ فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك، فصلينا طول الليل، فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة، أليس كذلك يافلانة؟ قالت العجوز: هو كما يقول الشيخ؛ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة، أو لو لم يجمع الله بينهما، وانسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه، فلا يخفى عليك أنّ هذا الشكر أفضل؛ فإذن لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفضيل كما سبق. والله أعلم.

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجوّ لطفه وثوابه، والمخوف مكره وعقابه، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه، والعدول عن دار بلائه التي هي مستقرّ أعدائه. وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته، وصدّهم عن التعرّض لأئمته والتهدف

---

(١) حديث: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» تقدم في الزكاة.

لسخطه ونقمته، قوداً لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته. والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته.

(أما بعد) فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ـ إلا أزمة الرجاء. ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم ـ مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات ـ إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف، فلا بدّ إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما. ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشمل على شطرين؛ الشطر الأوّل في الرجاء والشطر الثاني في الخوف.

أما الشطر الأوّل فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطرق الذي يجتلب به الرجاء.

بيان حقيقة الرجاء

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضاً سريع الزوال، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفر الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالا لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب؛ وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال. والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة، وبيانه؛ أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في الاستقبال، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً، وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال سمي وجداً وذوقاً وإدراكاً، وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب سمي خوفاً وإشفاقاً، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بدّ وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب. وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب، لأنّ ذلك مقطوع به، نعم يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه. وقد علم أرباب القلوب أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوّس، ثم امده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته: سمى انتظاره رجاء. وإن بث البذر في ارض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً، ثم انتظر

الحصاد منه: سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء. وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً: سمي انتظاره تمنياً لا رجاء؛ فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات؛ فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة: كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور، قال ﷺ: «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة[1]» وقال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾ وقال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال: ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدنّ خيراً منها منقلباً﴾ فإذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة. وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة. وأما قبل التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق إليها، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة؛ لأنّ كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب، ولذلك قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجو؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع، فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية. قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلاً إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس، واليأس يمنع من التعهد، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت؛ فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدها، والرجاء محمود لأنه باعث، واليأس مذموم وهو ضدّه لأنه صارف عن العمل، والخوف ليس بضدّ للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة، فإذن حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لا بدّ وأن تظهر على كل من يرجو

(١) حديث: «الأحمق من اتبع نفسه هواها... الحديث» تقدم غير مرة.

ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل، ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل، إذ قال لرسول الله ﷺ: جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد؟ فقال:«كيف أصبحت؟» قال: أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه، وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه. فقال: «هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت» فقد ذكر ﷺ:«علامة من أريد به الخير، فمن ارتجى أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور[١]».

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له، والحب يغلب الرجاء، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخرة رجاء لثوابه، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت: قال تعالى: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ فحرم أصل اليأس، وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه. أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له. وقال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله تعالى[٢]». وقال ﷺ: يقول الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء[٣]». ودخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: «كيف تجدك؟» فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي. فقال ﷺ «ما اجتمعنا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجاً وأمنه مما يخاف[٤]». وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك. وقال سفيان: من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدّره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه، قال: لأن الله عز وجل عير قوماً فقال: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ وقال تعالى: ﴿وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً﴾ وقال ﷺ:«إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإن لقنه الله حجته قال: «يا رب رجوتك وخفت الناس. قال: فيقول الله تعالى: قد غفرته لك[٥]». وفي الخبر الصحيح، أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيراً قط، فقال الله عز وجل: «من أحق بذلك منا[٦]». فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات. وقال تعالى: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾ ولما قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات

---

(١) حديث: قال زيد الخيل جئت لأسألك من علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد... الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف، وفيه أنه قال: «أنت زيد الخير» وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبي ﷺ زيد الخير يروى عنه حديث، وذكره في حديث يروي: فقام زيد الخير فقال: يا رسول الله... الحديث» سمعت أبي يقول ذلك.

(٢) حديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» أخرجه مسلم من حديث جابر.

(٣) حديث: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء. أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله «فليظن بي ما شاء».

(٤) حديث: دخل النبي ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: «كيف تجدك؟ الحديث» رواه الترمذي وقال غريب، والنسائي في الكبري، وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي: إسناده جيد.

(٥) حديث: «إن الله يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد، وقد تقدم في الأمر بالمعروف.

(٦) حديث: إن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي مسعود «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عزّ وجل: نحن أحق بذلك، تجاوزوا عنه. واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبي هريرة بنحوه.

تلذمون صدوركم وتجارون إلى ربكم» فهبط جبريل عليه السلام فقال: إن ربك يقول لك لِمَ تقنط عبادي؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوّقهم[١]. وفي الخبر: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي. فقال: يارب، كيف أحببك إلى خلقك؟ اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل[٢]. ورئي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال: أوقفني الله تعالى بين يديه فقال: ما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: أردت أن أحببك إلى خلقك، فقال: قد غفرت لك. ورئي يحيى بن أكثم بعد موته في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني الله بين يديه وقال: يا شيخ السوء، فعلت وفعلت، وقال: فأخذني من الرعب ما يعلم الله، ثم قلت: يا رب ما هكذا حدثت عنك. فقال: وما حدثت عني؟ فقلت: حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك ﷺ عن جبريل عليه السلام أنك قلت: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء وكنت أظن بك أن لا تعذبني، فقال الله عز وجل: صدق جبريل وصدق نبيي، وصدق أنس، وصدق الزهري، وصدق معمر، وصدق عبد الرزاق وصدقت. قال: فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة، فقلت: يا لها من فرحة. وفي الخبر أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّد عليهم، قال: فيقول له الله تعالى يوم القيامة. اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها[٣]. وقال ﷺ: «إنّ رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي؛ ياحنان يامنان، فيقول الله تعالى لجبريل: اذهب فائتني بعبدي. قال فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى؛ كيف وجدت مكانك؟ فيقول: شر مكان. قال: فيقول ردّوه إلى مكانه. قال: فيمشي ويلتفت إلى ورائه، فيقول الله عزوجل: إلى أي شيء تلتفت! فيقول: لقد رجوت أنّ لا تعيدني إليها بعد إذ أخرجتني منها، فيقول الله تعالى: اذهبوا به إلى الجنة[٤]. فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه».

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أنّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال؛ فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها، فإنّ المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها؛ فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في

---

(١) حديث: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً كثيراً.. الحديث» وفيه «فهبط جبريل.. الحديث» أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة، فألوه متفق عليه من حديث أنس «ورواه بزيادة «ولخرجتم إلى الصعدات» أخرجه أحمد والحاكم، وقد تقدم.

(٢) حديث: «إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحبني وأحب من يحبني... الحديث» لم أجد له أصلاً، وكأنه من الإسرائيليات كالذي قبله.

(٣) حديث: أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم... الحديث، رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم، فذكره مقطوعاً.

(٤) حديث: «إن رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنّان يا منّان... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله، والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس.

التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً. قال علي كرّم الله وجهه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله.

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعاً لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الأخرق الذي يظن أنّ كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان. وحال الرجاء يغلب بشيئين، أحدهما. الأعتبار، والآخر. استقراء الآيات والأخبار والآثار.

أما الأعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعدّ له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود؛ وإنما كان يفوّت به مزية جمال فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد، بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أنّ أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة في الدنيا، حتى انه يكره الانتقال من الدنيا بالموت، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبداً مثلاً أو لا يحشر أصلاً فليست كراهتهم للعدم إلا لأنّ أسباب النعم أغلب لا محالة، وإنما الذي يتمنى الموت نادر، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة، فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلا، فالغالب أنّ أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم، فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء، ومن الاعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء. فقيل له: وما فيها من الرجاء؟ فقال: الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان منها قليل، والدين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه؟

الفن الثاني: استقراء الآيات والأخبار، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر، أما الآيات فقد قال تعالى: ﴿قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وفي قراءة رسول الله ﷺ: «ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم[1]» وقال تعالى: ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ وأخبر تعالى أنّ النار أعدّها لأعدائه، وإنما خوّف بها أولياءه فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده﴾ وقال تعالى: ﴿واتقوا النار التي أعدّت للكافرين﴾ وقال تعالى: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى﴾ وقال عز وجل: ﴿وإنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ ويقال: إن النبي ﷺ لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له: أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية ﴿وإنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم[2]﴾. وفي تفسير

---

(١) حديث: قرأ «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي» أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب.

(٢) حديث: إن النبي ﷺ لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له: أما ترضى وقد أنزل عليك ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على

قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وقال: «لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار» وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول: «أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية، ونحن أهل البيت نقول: أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال: «أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا: الزلازل والفتن، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب فقيل: هذا فداؤك من النار[1]». وفي لفظ آخر: «يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول: هذا فدائي من النار فيلقى فيها[2]» وقال ﷺ: «الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار[3]» وروي في تفسير قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ إنّ الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام: إني أجعل حساب أمتك إليك. قال: «لا يا رب أنت أرحم بهم مني» فقال: «إذن لانخزيك فيهم[4]». وروي عن أنس: أنّ رسول الله ﷺ سأل ربه في ذنوب أمته فقال: «يارب أجعل حسابهم إلي لئلا يطلع على مساوئهم غيري» فأوحى الله تعالى إليه: هم أمتك وهم عبادي، وأنا أرحم بهم منك، لا أجعل حسابهم إلى غيري لئلا تنظر إلى مساوئهم أنت ولا غيرك[5]. وقال ﷺ: «حياتي خير لكم وموتي خير لكم أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع. وأما موتي فإنّ أعمالكم تعرض عليّ فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه، وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله تعالى لكم[6]» وقال ﷺ يوماً: «ياكريم العفو» فقال جبريل عليه السلام: أتدري ما تفسير: ياكريم العفو؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته بدّلها حسنات بكرمه[7]. وسمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة. فقال: «هل تدري ما تمام النعمة؟» قال: لا. قال: «دخول الجنة[8]». قال العلماء: قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى: ﴿وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لم الإسلام دينا﴾ وفي الخبر: «إذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عز وجل لملائكته: أنظروا إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أنّ له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب، أشهدكم أني قد غفرت له[9]». وفي الخبر: «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما

= ظلمهم﴾ لم أجده بهذا اللفظ. وروى ابن أبي حاتم والثعلبي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحد العيش... الحديث».

(١) حديث أبي موسى: «أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجّل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن... الحديث» أخرجه أبو داود دون قوله «فإذا كان يوم القيامة... ألخ» فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف، وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه.

(٢) حديث: «يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي موسى «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول: هذا فداؤك من النار» وفي رواية له «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً.

(٣) حديث: «الحمى من فيح جهنم وهي حظ الموءس من النار» أخرجه أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامه، وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف أسمه.

(٤) حديث: «إن الله أوحى إلى نبيه ﷺ إني أجعل حساب أمتك إليك. فقال: «لا يا رب أنت خير لهم مني... الحديث» في تفسير قوله تعالى ﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله.

(٥) حديث أنس: أنه ﷺ سأل ربه في ذنوب أمته فقال: «يا رب إجعل حسابهم إلّي... الحديث» لم أقف له على أصل.

(٦) حديث: حياتي خير لكم وموتي خير لكم... الحديث. أخرجه البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرج له مسلم ووثقة ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون، ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه بإسناد ضعيف.

(٧) حديث: قال ﷺ يوماً: «يا كريم العفو» فقال جبريل: أتدري ما تفسير يا كريم العفو؟ الحديث. لم أجده عن النبي ﷺ، والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل، هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد. ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال: حدثني بعض الزهاد... فذكره.

(٨) حديث. سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة... الحديث. تقدم.

(٩) حديث: «إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى لملائكته أنظروا إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب...

استغفرني ورجاني[1]». وفي الخبر «لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقراب الأرض مغفرة[2]. وفي الحديث «إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة[3]». وفي لفظ آخر: فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه: «ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات، فتلقى عنه السيئة» وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه». فقال أعرابي: وإن تاب عنه؟ قال: «محى عنه» قال: فإن عاد؟ قال النبي ﷺ: «يكتب عليه» قال الأعرابي: «فإن تاب؟» قال: «محى من صحيفته» قال: إلى متى؟ قال: «إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عزوجل، إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار؛ فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها، فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عزوجل[4]».

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها، وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوّع: أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «نعم معي، إذا حفظت قلبك من اثنتين: الغل، والحسد؛ ولسانك من اثنتين: الغيبة، والكذب؛ وعينيك من اثنتين: النظر إلى ما حرم الله، وأن تزدري بهما مسلما ـ دخلت معي الجنة على راحتي هاتين[5]». وفي الحديث الطويل لأنس: أنّ الأعرابي قال: يارسول الله، من يلي حساب الخلق؟ فقال: «الله تبارك وتعالى». قال: هو بنفسه؟ قال: «نعم» فتبسم الأعرابي؛ فقال ﷺ: «مم ضحكت يا أعرابي؟» فقال: إنّ الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح، فقال النبي ﷺ: «صدق الأعرابي، ألا لا كريم أكرم من الله تعالى، هو أكرم

= الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «إن عبداً أصاب ذنباً يقول: أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي... الحديث» وفي رواية: «أذنب عبد ذنباً فقال... الحديث».

(1) حديث: «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أنس «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك» وقال: حسن.

(2) حديث: «لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة» أخرجه مسلم من حديث أبي ذر «ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة» وللترمذي من حديث أنس الذي قبله: «يا ابن آدم لو لقيتني... الحديث.

(3) حديث: «إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه... الحديث» قال: وفي لفظ آخر «فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه: ألق هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة من تضعيف العشر.. الحديث» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أسامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه «إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال» وليس فيه: أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقي من حسناته واحدة، ولم أجد لذلك أصلا.

(4) حديث أنس: «إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه» فقال أعرابي: فإن تاب عنه؟ قال: «محي عنه» قال: فإن عاد؟... الحديث. وفيه: «إن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار». الحديث أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ: فقال: يا رسول الله إني أذنبت ذنباً. قال: «استغفر ربك» قال: فأستغفر ثم أعود. قال: «فإذا عدت فاستغفر ربك» ثلاث مرات أو أربعاً. قال: فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور». وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منكر الحديث. وروى أيضاً من حديث عقبة بن عامر: أحدنا يذنب؟ قال: «يكتب عليه» قال: ثم يستغفر ويتوب؟ قال «يغفر له ويتاب عليه» قال: فيعود... الحديث. وفيه: «لا يمل الله حتى تملوا» وليس في الحديثين قوله في آخره «فإذا همّ العبد بحسنة... ألخ» وهو في الصحيحن بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه «فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همّ بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة. فإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» زاد مسلم في رواية: «أو محاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك» ولهما نحوه من حديث أبي هريرة.

(5) حديث: جاء رجل فقال: يا رسول الله إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها، وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع... الحديث. تقدم.

الأكرمين». ثم قال: «فقه الأعرابي[1]» وفيه أيضاً «إنّ الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى» قال الأعرابي: ومن أولياء الله تعالى؟ قال: «المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى»، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾وفي بعض الأخبار «المؤمن أفضل من الكعبة[2]» و«المؤمن طيب طاهر[3]» و«المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة[4]» وفي الخبر «خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة[5]». وفي خبر آخر «يقول الله عز وجل: إنما خلقت الخلق ليربحوا عليّ ولم أخلقهم لأربح عليهم[6]» وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ «ما خلق الله تعالى شيئاً إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه[7]» وفي الخبر المشهور: «إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي[8]» وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة[9]». و«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار[10]». و«من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار[11]». و«لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان[12]». وفي خبر آخر «لو علم الكافر سعة الله ما آيس من جنته

---

(١) حديث أنس الطويل: قال أعرابي: يا رسول الله، من يلي حساب الخلق؟ قال: «الله تبارك وتعالى» فقال: هو بنفسه؟ قال: «نعم» فتبسم الأعرابي... الحديث، لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «المؤمن أفضل من الكعبة» أخرجه إبن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ «ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفسي بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً» وشيخه نصر بن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وقد تقدم.

(٣) حديث: «الموءمن طيب طاهر» لم أجده بهذا اللفظ، وفي الصحيحين من حديث حذيفة «الموءمن لا ينجس».

(٤) حديث: «الموءمن أكرم على الله من الملائكة» أخرجه ابن ماجه من رواية أبي المهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ «الموءمن أكرم على الله من بعض الملائكة» وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف.

(٥) حديث: «خلق الله من فضل رحمته سوطاً يسوق به عباده إلى الجنة» لم أجده هكذا، ويغني عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة «عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلاسل».

(٦) حديث: «قال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا عليّ ولم أخلقهم لأربح عليهم» لم أقف له على أصل.

(٧) حديث أبي سعيد: «ما خلق الله شيئاً إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه» أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب، وفيه عبد الرحمن بن كردم جهلة أبو حاتم، وقال صاحب الميزان: ليس بواه ولا بمجهول.

(٨) حديث: «إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي» متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٩) حديث معاذ وأنس «من قال لا إله الا الله دخل الجنة» أخرجه الطبراني في الدعاء بلفظ «من مات يشهد.» وتقدم من حديث معاذ، وهو في اليوم والليلة للنسائي بلفظ «من مات يشهد.. «وقد تقدم من حديث معاذ، ومن حديث أنس أيضا، وتقدم في الأذكار.

(١٠) حديث «من كان آخر كلامه لا إله الا الله لم تمسه النار» أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ «دخل الجنة».

(١١) حديث «من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار» أخرجه الشيخان من حديث أنس أنه ﷺ قال لمعاذ: «ما من عبد يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله الا حرمه الله على النار» وزاد البخاري «صادقا من قلبه» وفي رواية له «من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة» ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ «جعله الله في الجنة» وللنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال: «أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقي الله عبد يؤمن بهما الا حجب عن النار يوم القيامة».

(١٢) حديث: «لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان» أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء «من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار» وفيه انقطاع، وله من حديث عثمان بن عفان «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حرم على النار» قال عمر بن الخطاب: هي كلمة الإخلاص، وإسناد صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار وإخراجهم بالشفاعة، نعم لا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد، وفيه: «فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه» وقال مسلم «من خير» بدل «من إيمان».

أحد[1]». ولما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ قال: «أتدرون أي يوم هذا؟ هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام: قم فابعث بعث النار من ذرّيتك، فيقول: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة قال: فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال: «ما لكم لا تعملون» فقالوا: ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا؟ فقال: «كم أنتم في الأمم؟ أين تاويل وثاريث ومنسك ويأجوج ومأجوج أمم لا يحصيها إلا الله تعالى، إنما أنتم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، وكالرقمة في ذراع الدابة[2]». فانظر كيف كان الخوف يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى، إذ ساقهم بسياط الخوف أولاً، فلما خرج ذلك بهم عن حدّ الاعتدال إلى إفراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال، والقصد والآخر لم يكن مناقضاً للأوّل ولكن ذكر في الأوّل ما رآه سبباً للشفاء واقتصر عليه، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء. ذكر تمام الأمر، فعلى الواعظ أن يقتدي بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة، وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه، وفي الخبر: «لو لم تذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم[3]» وفي لفظ آخر: «لذهب بكم وجاء بخلق يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم» وفي الخبر: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل: وما هو؟ قال: العجب[4]» وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها[5]». وفي الخبر: «ليغفرنّ الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد، حتى أن إبليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه[6]» وفي الخبر: «إن لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعاً وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق، فتحنّ الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها. فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السمٰوات والأرض. قال: فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك[7]». وفي الخبر: «ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته[8]». وقال عليه افضل الصلاة والسلام: «اعملوا وابشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله[9]» وقال ﷺ: «إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي أترونها للمطيعين المتقين بل هي للمتلوثين المخلصين[10]». وقال عليه الصلاة والسلام: «بعثت بالحنيفية السمحة

---

(١) حديث: «لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «لما تلا ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ قال: أتدرون أي يوم هذا؟... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال: حسن صحيح. قلت: هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه. وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد.

(٣) حديث: «لو لم تذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم». وفي لفظ: «لذهب بكم... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي أيوب، واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريباً منه.

(٤) حديث: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب. قيل: ما هو؟ قال: «العجب» أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث أنس، وتقدم في ذم الكبر والعجب.

(٥) حديث: «والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها». متفق عليه من حديث عمر بنحوه.

(٦) حديث: «ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف.

(٧) حديث: إن لله تعالى مائة رحمة... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٨) حديث: «ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٩) حديث: «اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحداً لن ينجيه عمله» تقدم أيضاً.

(١٠) حديث: «إني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي... الحديث» أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة «لكل نبي دعوة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي». ورواه مسلم من حديث أنس، وللترمذي من حديثه. وصححه. وابن ماجه من حديث جابر: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» ولابن ماجه من حديث أبي موسى، ولأحمد من حديث ابن عمر «خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين... الحديث» وفيه من لم يسم.

السهلة[1]». وقال ﷺ: وعلى كل عبد مصطفى «أحب أن يعلم أهل الكتابين أنّ في ديننا سماحة[2]». ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم: ﴿ولا تحمل علينا إصراً﴾ وقال تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال. لما نزل قوله تعالى: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ قال: «يا جبريل، وما الصفح الجميل؟» قال عليه السلام: «إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه» فقال: «يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه» فبكى جبريل وبكى النبي ﷺ، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال: إن ربكما يقرئكما السلام ويقول: كيف أعاتب من عفوت عنه، هذا ما لايشبه كرمي[3].

والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى. وأما الآثار فقد قال علي كرّم الله وجهه: من أذنب ذنباً فستره الله عليه أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة وقال الثوري: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما. وقال بعض السلف: المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كي لا تراه فتشهد عليه. وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه: إن العبد إذا كان مسرفاً على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يا رب حجبت الملائكة صوته، وكذا الثانية والثالثة، حتى إذا قال الرابعة؛ ياربي، قاله الله تعالى: حتى متى تحجبون عني صوت عبدي، قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر له الذنوب غيري، أشهدكم أني قد غفرت له وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه: خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت: يارب اعصمني حتى لا أعصيك أبداً، فهتف بي هاتف من البيت: يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟ وكان الحسن يقول: لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السماوات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب. وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين. ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له: إلى كم تحدث الناس بالرخص؟ فقال: يا أبا يحيى، إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح. وفي حديث ربعي بن حراش عن أخيه ـ وكان من خيار التابعين، وهو ممن تكلم بعد الموت ـ قال: لما مات أخي سجي بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعداً، وقال: إني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح وريحان وربي غير غضبان، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا، وأن محمداً ﷺ ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت، فحملناه ودفناه.

وفي الحديث أن رجلين من بني إسرائيل توخيا في الله تعالى، فكان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره، فكان يقول: دعني وربي، أبعثت عليّ رقيبا، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال: لا يغفر الله لك. قال: فيقول الله تعالى يوم القيامة: أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي، اذهب أنت فقد غفرت لك، ثم يقول للعابد: وأنت فقد أوجبت لك النار. قال: فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته[4].

---

(١) حديث: «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة» أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله «السهلة» وله وللطبراني من حديث ابن عباس «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» وفيه محمد بن إسحق ورواه بالعنعنة.

(٢) حديث: «أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة» رواه أبو عبيد في غريب الحديث، وأحمد.

(٣) حديث محمد بن الحنفية عن علي: لما نزل قوله تعالى ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ قال: «يا جبريل وما الصفح الجميل؟» قال: إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه... الحديث» أخرجه ابن مردويه في تفسيره موقوفاً على علي مختصراً، قال: الرضا بغير عتاب، ولم يذكر بقية الحديث، وفي إسناده نظر.

(٤) حديث: «إن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عزّ وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً... الحديث» رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد.

وروي أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة، فمرّ عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين، فقال اللص في نفسه: هذا نبي الله يمرّ وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا، قال: فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري ويقول في نفسه: مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد. قال: وأحس الحواري به. فقال في نفسه: هذا يمشي إلى جانبي، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام. قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما؛ أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه، فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حوارييه.

وروي عن مسروق أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً فوطيء عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته، قال: فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضباً فقال: «اذهب فلن يغفر الله لك» فأوحى الله تعالى إليه: تتألى عليّ في عبادي، إني قد غفرت له.

ويقرب من هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزل عليه قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية، فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للاسلام[1].

وروي في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة، قال: فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه، فيقول: يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته عليّ في عليين، فيقول الله سبحانه: إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سؤله، وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل، لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاه لإنعامه وإكرامه. ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن، ولذلك قال ﷺ: «سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما[2]». وقال: «إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى؛ فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء[3]».

وقال بكر بن سليم الصوّاف: دخلنا على مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها فقلنا: يا أبا عبد الله، كيف تجدك؟ قال: لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضناه.

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته: يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إياك مع الأعمال؛ لأني اعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

---

(١) حديث ابن عباس: كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزل قوله تعالى ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ فترك الدعاء عليهم... الحديث، أخرجه البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول «اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً» بعد ما يقول «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» فأنزل الله عزّ وجل ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إلى قوله ﴿فإنهم ظالمون﴾ ورواه الترمذي وسماهم أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد «فتاب عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم» وقال حسن غريب. وفي رواية له: «أربعة نفر» ولم يسمهم وقال: «فهداهم الله للإسلام» وقال حسن غريب صحيح.

(٢) حديث: «سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً» لم أجده بهذا اللفظ. وللترمذي من حديث ابن مسعود «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يُسأل» وقال: هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ.

(٣) حديث: «إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاظمه شيء» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة «إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم وليعظم الرغبة، فإن الله عزّ وجل لا يتعاظمه شيء أعطاه» والبخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة» ورواه الترمذي من حديث معاذ وعبادة بن الصامت.

وقيل إن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال: إن أسلمت أضفتك؛ فمرّ المجوسي ، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك؟ فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسي فرده وأضافه؛ فقال له المجوسي ما السبب فيما بدا لك؟ فذكر له؛ فقال له المجوسي : أهكذا يعاملني ثم قال: اعرض علي الإسلام فأسلم.

ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكي أباسهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد، فقال له: كيف حالك؟ فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا.

ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف، فقال له: يا أستاذ، بم نلت هذا؟ فقال: بحسن ظني بربي.

وحكي أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه كأن القيامة قد قامت، وإذا الجبار سبحانه يقول: أين العلماء؟ قال: فجاءوا، ثم قال: ماذا عملتم فيما علمتم؟ قال: فقلنا يارب قصرنا وأسأنا: قال: فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جواباً غيره، فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا به فقد غفرت لكم، ومات بعد ذلك بثلاث ليال.

وقيل: كان رجل شريب جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئاً من الفواكه للمجلس، فمرّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئاً ويقول: من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات، قال: فدفع الغلام إليه الدراهم، فقال منصور: ما الذي تريد أن أدعو لك؟ فقال: لي سيد أريد أن أتخلص منه، فدعا منصور وقال: الأخرى. قال: أن يخلف الله عليّ دراهمي، فدعا، ثم قال: الأخرى. قال: أن يتوب الله على سيدي، فدعا، ثم قال: الأخرى، فقال: أن يغفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم، فدعا منصور، فرجع الغلام فقال له سيده: لم أبطأت؟ فقص عليه القصة. قال: وبم دعا، فقال: سألت لنفسي العتق. فقال له: أذهب فأنت حرّ. قال: وإيش الثاني؟ قال: أن يخلف الله عليّ الدراهم، قال: لك أربعة آلاف درهم، وإيش الثالث؟ قال: أن يتوب الله عليك. قال تبت إلى الله تعالى. قال: وإيش الرابع؟ قال: أن يغفر الله لي ولك وللقوم، قال: هذا الواحد ليس إليّ، فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلاً يقول له: أنت فعلت ما كان إليك، افترى أني لا أفعل ما إليّ، قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين.

وروي عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال: رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة، قال: فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت، فقلت للمرأة: من كان هذا الميت منك؟ قالت: ابني. قلت:ولم يكن لكم جيران؟ قالت: بلى ولكن صغروا أمره.قلت: وإيش كان هذا؟ قالت: مخنثا، قال:فرحمتها وذهبت بها إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثياباً، قال:فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرني، فقلت من أنت؟ فقال:المخنث الذي دفنتموني اليوم رحمني ربي باحتقار الناس إياي.

وقال إبراهيم الأطروش: كنا قعوداً ببغداد مع معروف الكرخي على دجلة، إذ مر أحداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون، فقالوا لمعروف:أما تراهم يعصون الله مجاهرين، ادع الله عليهم، فرفع يديه وقال:إلهي كما فرّحتهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة، فقال القوم: إنما سألناك أن تدعو عليهم! فقال: إذا فرّحهم في الآخرة تاب عليهم، وكان بعض السلف يقول في دعائه: يارب وأي أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما أحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدرّ الرزق حتى كأنك ياربنا لا تغضب.

فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين، فأما الحمقى

المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئا من ذلك، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإنّ أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف، كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام. وأما ضدّ ذلك فيسدّ عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا.

الشطر الثاني من الكتاب: في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف، وبيان درجاته، وبيان أقسام المخاوف، وبيان فضيلة الخوف، وبيان الأفضل من الخوف والرجاء، وبيان دواء الخوف، وبيان معنى سوء الخاتمة، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم، ونسأل الله حسن التوفيق.

بيان حقيقة الخوف

اعلم أنّ الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام: لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال: الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد. وقال أيضاً: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف؛ وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في الشهود، وإنما دوام الشهود غاية المقامات، ولكنا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول: حال الخوف ينتظم أيضاً من علم وحال وعمل. أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويجوّز العفو والإفلات، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقمًا وكونه محفوفاً بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع إليه في حقه، وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوّة الخوف وشدّة تألم القلب، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالباً وإن كان افتراسه بالاختيار، وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه، كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإنّ الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق، وكذا النار على الإحراق؛ فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً. وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ فتكون قوّة خوفه؛ فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه؛ ولذلك قال ﷺ: «أنا أخوفكم لله[1]». وكذلك قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ثم إذا كملت المعرفة أو ورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات. أما في البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء، وقد تنشق به المرارة فيفضي إلى الموت، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس. وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل،

---

(١) حديث: «أنا أخوفكم لله» أخرجه البخاري من حديث أنس «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له» وللشيخين من حديث عائشة «والله أني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

وذلك قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال أبو القاسم الحكيم: من خاف شيئا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه. وقيل لذي النون: متى يكون العبد خائفاً؟ قال: إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام. وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أنّ فيه سما، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرّغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره: هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين بقوّة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوّة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه، وقوّة الخوف بحسب قوّة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال. وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمنع عن المحظورات ويسمي الكف الحاصل عن المحظورات ورعا، فإن زادت قوّته كف عما يتطرّق إليه إمكان التحريم فيكف أيضاً عما لا يتيقن تحريمه ويسمي ذلك تقوى إذ التقوى: أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرّد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق،* وصاحبه جدير بأن يسمى صدّيقا، ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة؛ فإذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدّد له بسبب الكف اسم العفة، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعاً، ووراءه اسم الصديق والمقرّب، وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم؛ فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل، كما أنك تقول: الإنسان إما عربي وإما عجمي، والعربي إما قرشي أو غيره، والقرشي إما هاشمي أو غيره، والهاشمي إما علوي أو غيره، والعلوي إما حسني أو حسيني، فإذا ذكرت أنه حسني مثلاً فقد وصفته بالجميع، وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه، فكذلك إذا قلت صدّيق فقد قلت: إنه تقي وورع وعفيف، فلا ينبغي أن تظنّ أنّ كثرة هذه الأسامي تدل على معان كثيرة متباينة، فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعاني، فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفاً وإقداماً.

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد! وهو غلط، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى، والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي، ولكن ذلك لا يدل على أنّ المبالغة في الضرب محمودة وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال. والمحمود هو الاعتدال والوسط؛ فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألماً مبرحاً فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء، ولست أعني

بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله، وذلك مما قد عز وجوده الآن؛ ولذلك قال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت: «لا» كفرت، وإن قلت: «نعم» كذبت، وأشار به إلى أنّ الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً. وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل. وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل؛ فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل، ولولاه لما كان الخوف كمالاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز. أما الجهل فإنه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأنّ المخوف هو الذي يتردد فيه. وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه؛ فإذن هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي، وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال في ذاته، وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه، كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل، وقد يخرج إلى الموت، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها، وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور، فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم.

* فإن قلت: من خاف فمات من خوفه فهو شهيد، فكيف يكون حاله مذموماً! فاعلم أنّ معنى كونه شهيداً أنّ له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف، فهو بالإضافة إليه فضيلة، فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبله فليس بفضيلة، بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه، وهو محال، فلا ينبغي أن يظن هذا، بل أفضل السعادات وطول العمر في طاعة الله تعالى؛ فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر! كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصدّيقين، فإذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره، فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة، فإذا أثمر الورع فهو أعلى، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصدّيقين: وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقي لغير الله تعالى فيه متسع؛ فهذا أقصى ما يحمد منه، وذلك مع بقاء الصحة والعقل؛ فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه، ولو كان محموداً لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول، ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياماً كثيرة: احفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل.

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة وكما يكره

المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت، فلا بدّ لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروهاً من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه، ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة، فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروهاً لذاته بل لغيره: كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد، أو خوف ضعف القوّة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى، أو خوف زوال رقة القلب وتبدّلها بالقساوة. أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي أتكل عليها وتعزز بها في عباد الله، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء، أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا، أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه. أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل. فهذه كلها مخاوف، ولكل واحد خصوص فائدة: وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس، وهكذا إلى بقية الأقسام. وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة، فإن الأمر فيه مخطر، وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة، لأنّ الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد، فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عماذا يظهر، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد؛ وإليه أشار النبي ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال: «هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص» ثم قبض كفه اليسرى وقال: «هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم، ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة. وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال: كأنهم منهم بل هم هم، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة، السعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله، والأعمال بالخواتيم[1]! وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصدّيقين، وأما الآخر فهو في عرصة الغرور والأمن. إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصدّيقين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية؛ بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته، ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها

---

(١) حديث: «هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال: حسن صحيح غريب.

ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات، فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى، وكذا المطيع فالذي يرفع محمداً ﷺ إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله، فإنّ من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضرورياً، والذي عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضرورياً، فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه، وكيف يحال ذلك على العبد؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل، ووراء هذا المعنى سر القدر لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن أن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة، فقد جاء في الخبر: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود خفني كما تخاف السبع الضاري[1]. فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فإنّ الوقوف على سببه وقوف على سر القدر، ولا يكشف ذلك إلا لأهله. والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حياً كنت أو ميتاً بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة، إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته، ولله المثل الأعلى، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة. الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدّته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدّته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم عن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها. وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين، ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكراً وتعجب منه في نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدّق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم؛ فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له، ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره، فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه.

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أنّ فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار.

---

(١) حديث: «إن الله تعالى أوحى إلى داود: يا داود، خفني كما يخاف السمع الضاري» لم أجد له أصلاً، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات، فأنه عبر عنه بقوله: جاء في الخبر، وكثيراً ما يعبر بذلك عن الإسرائيليات التي هي غير مرفوعة.

أما الاعتبار فسبيله أنّ فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة، إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتيهات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرّب إلى الله زلفى.

وأما بطريق الأقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان، وقال الله تعالى: ﴿وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ وقال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وصفهم بالعلم لخشيتهم. وقال عز وجل: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأنّ الخوف ثمرة العلم، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام: وأما الخائفين فإنّ لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم، ولذلك لما خير رسول الله ﷺ في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول: «أسألك الرفيق الأعلى[1]» فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما، حتى انّ العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها، كما صار الحمد مخصوصاً بالله تعالى والصلاة برسول الله ﷺ، حتى يقال: «الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة على سيدنا محمد ﷺ وآله أجمعين». وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف ـ كما سبق ـ ولذلك قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. ولذلك أوصى الله تعالى الأوّلين والآخرين بالتقوى فقال تعالى: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ وقال عز وجل: ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان فلذلك لا يتصوّر أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه، وقال رسول الله ﷺ في فضيلة التقوى: «وإذا جمع الله الأوّلين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذا هم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول: يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فانصتوا إليّ اليوم، إنما هي أعمالكم ترد عليكم، أيها الناس: إني قد جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم، قلت: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي، أين المتقون؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم

---

(١) حديث: لما خير في مرض موته كان يقول: «أسألك الرفيق الأعلى» متفق عليه من حديث عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح «إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير» فلما نزل به ورأسه في حجري غشي عليه ثم أفاق فأشخص ببصره إلى سقف البيت ثم قال: «أللهم الرفيق الأعلى» وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح... الحديث.

فيدخلون الجنة بغير حساب[1]». وقال عليه الصلاة والسلام: «رأس الحكمة مخافة الله[2]». وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود: «إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي[3]». وقال الفضيل: من خاف الله دله الخوف على كل خير. وقال الشبلي رحمه الله: ما خفت الله يوماً إلا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط. وقال يحيى بن معاذ: ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان: خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين. وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب.

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف، فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسامي، وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى، وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال: ﴿سيذكر من يخشى﴾ وقال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وقال ﷺ: «قال الله عز وجل: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة[4]». وقال ﷺ: «من خاف الله تعالى خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء[5]». وقال ﷺ: «أتمكم عقلا أشدّكم خوفاً لله تعالى، وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً ». وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة. وقال ذو النون رحمه الله تعالى: من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له لبه. وقال ذو النون أيضاً: ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوّش القلب وكان أبو الحسين الضرير يقول: علامة السعادة خوف الشقاوة، لأنّ الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين. وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غداً؟ فقال: أشدهم خوفاً اليوم. وقال سهل رحمه الله: لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال. وقيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنع ؟ نجالس أقواماً يخوّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير! فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً يخوّفونك حتى يدركك أمن؛ خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلباً إلا خرب. وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله: ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾. هو الرجل يسرق ويزني؟ قال: «لا، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه[7]». والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر، وكل ذلك ثناء على الخوف، لأن مذمة الشيء ثناء على ضدّه الذي ينفيه، وضدّ الخوف الأمن، كما أن ضدّ الرجاء اليأس، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك

---

(١) حديث: «إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمعه أدناهم فيقول: يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إليّ اليوم، إنما هي أعمالكم ترد عليكم، يا أيها الناس إني جعلت نسباً. . . الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك بسند ضعيف والثعلبي في التفسير مقتصراً على آخره «إني جعلت نسباً. . . الحديث» من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «رأس الحكمة مخافة الله» رواه أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب، وضعفه من حديث ابن مسعود، ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضاً.

(٣) حديث: «إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي» قاله لابن مسعود: لم أقف له على أصل.

(٤) حديث: «لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين» أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلاً.

(٥) حديث: «من خاف الله خافه كل شيء. . . الحديث» رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً. ورواه إبن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل، وقد تقدم.

(٦) حديث: «أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً. . . الحديث» لم أقف له على أصل، ولم يصح في فضل العقل شيء.

(٧) حديث عائشة: قلت يا رسول الله ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ هو الرجل يسرق ويزني؟ قال: «لا. . . الحديث» رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد. قلت: بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن الرحمن بن حازم عن أبي هريرة.

تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول: كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان، فإنّ كل من رجا محبوباً فلا بدّ وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذاً لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجياً، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف؛ فإذن المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة؛ فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء؛ وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكاً فيه، نعم أحد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظناً، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان لذلك قال تعالى: ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾. وقال عز وجل: ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾. ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء، فقال تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارا﴾. أي لا تخافون، وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه، بل أقول: كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية، فإنّ البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ وقال تعالى: ﴿يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ وقال عز وجل: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون﴾.
وقال ﷺ: «ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئاً من حرّ وجهه إلا حرّمه الله على النار[1]». وقال ﷺ: «إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها[2]». وقال ﷺ: «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع[3]». وقال عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وآبكِ على خطيئتك[4]». وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله أيدخل أحد مَن أمتك الجنة بغير حساب؟ قال: «نعم من ذكر ذنوبه فبكى[5]». وقال ﷺ: «ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهريقت في سبيل الله سبحانه وتعالى[6]». وقال ﷺ: «اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان القلب بذروف الدمع مع خشيتك قبل أن تصير الدموع دماً والأضراس جمراً[7]».

---

(١) حديث: «ما من موءمن يخرج من عينه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب... الحديث» أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٢) حديث: «إذا اقشعر جلد الموءمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه... الحديث» أخرجه الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف.

(٣) حديث: «لا يلج النار عبد بكى من خشية الله... الحديث» أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث قال عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: «أمسك عليك لسانك... الحديث» تقدم.

(٥) حديث عائشة: قلت أيدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب؟ قال: «نعم من ذكر ذنوبه فبكى» لم أقف له على أصل.

(٦) حديث: «ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمعة من خشية الله... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حسن غريب، وقد تقدم.

(٧) حديث: «اللهم ارزقني عينين هطالتين يشفيان القلب بذروف الدمع... الحديث» أخرجه الطبراني في الكبير في الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن، ورواه الحسين المرزوي في زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلاً دون ذكر «لله» وذكر الدارقطني في العلل أن من قال فيه «عن أبيه» وهم، وإنما هو عن سالم بن عبد الله مرسلاً، قال: وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربي وليس بابن عمر انتهى، وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في الكنى وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فإن الراوي له عن سالم عبد الله أبو سلمة، وإنما ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله أعلم. نعم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذين يروى عن سالم المحاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر.

وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله». وذكر منهم «رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه[٨]».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك.

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما تغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة، فإن سالت دموعه أطفأ الله بأوّل قطرة منها بحاراً من النيران، ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة وقال أبو سليمان:البكاء من الخوف، والرجاء والطرب من الشوق.

وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: والذي نفسي بيده؛ لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي أحب إليّ من أن اتصدق بجبل من ذهب.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب من أن أتصدّق بألف دينار. وروي عن حنظلة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فدنت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ وأخذنا في الدنيا، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي، قد نافقت حيث تحوّل عني ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادي. نافق حنظلة، فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: كلا لم ينافق حنظلة، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظلة؛ فقال رسول الله ﷺ: «كلا لم ينافق حنظلة». فقلت:يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه. فقال ﷺ:«ياحنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة في الطريق وعلى فراشكم؛ ولكن يا حنظلة ساعة وساعة[١]».

فإذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف؛ لأنّ جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب.

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أنّ الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر اليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما، وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب: فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان، وهذا لأنّ كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب؛ ففضلهما بحسب الداء الموجود؛ فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل، ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل على التأويل الذي

---

(٨) حديث: «سبعة يظلهم الله في ظله... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(١) حديث حنظلة: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا... الحديث، وفيه «نافق حنظلة الحديث» وفيه «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» أخرجه مسلم مختصراً.

يقال فيه: الخبز أفضل من السكنجبين، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع، وبالسكنجبين مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل؛ لأنّ المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة، ومستقى من بحر الغضب، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء. وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي. فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. وروى أنّ عليا كرّم الله وجهه قال لبعض ولده: يا بني خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي؛ فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه؛ فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثني من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره.

فإن قلت: مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه، بل ينبغي أن يغلب رجاؤه كما سبق في أول كتاب الرجاء، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوّة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه، فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين! فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله، وذلك وإن أوردناه مثالاً فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة، إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرّب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها، وهي في بلاد ليس يدرى أتكثر الصواعق فيها أم لا، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه، والبذر في مسألتنا هو الإيمان ـ وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب ـ وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في المستقبل الزمان وإن سلم في الحال، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله، والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده، وذلك مما لم يجرّب مثله، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرّب، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكى في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة فاستوى خوفه ورجاؤه، فأما أن يغلب رجاؤه فلا، ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً، إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين[1]، فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه؟ وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن

(١) حديث: أن حذيفة كان خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين أخرجه مسلم من حديث حذيفة «في أصحابي إثنا عشر منافقاً» تمامه «لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخيط. . . الحديث».

الخاتمة؟ وقد قال ﷺ: «إنّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر[1]». وفي رواية: «إلا قدر فواق ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار» وقد فواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء، فكيف يؤمن ذلك؟فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه لله في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى: ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ وقال عزو جل: ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ وأين مثل عمر رضي الله عنه؟ فالخلق الموجودة في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط أنّ لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الإنهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدّر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط.

وقد قال يحيى بن معاذ: من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادّكار.

وقال مكحول الدمشقي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئي، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

فإذن لا بد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى، فإنّ من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة، فإن المصير إليه والقدوم بالموت عليه، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه، فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب: فهذا رجل محابه كلها في الدنيا، فالدنيا جنته، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدّر، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وفضلاً عما أعده الله تعالى استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى،

---

(١) حديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر» وفي رواية «الأقدر فواق ناقة... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار» وللبزار وللطبراني في الأوسط «سبعين سنة» وإسناده حسن. وللشيخين في أثناء حديث لابن مسعود «أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع. الحديث» ليس فيه تقدير زمن للعمل بخمسين سنة ولا ذكر «شبر» ولا «فواق ناقة».

ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن، فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا ﷺ إذ قال: «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقرّبني إلى حبك واجعل حبك أحب إليّ من الماء البارد[1]». والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب، ولذلك قال ﷺ: «لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه[2]». وقال تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء» ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه: يابني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به، وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه. وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت: اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أن حببني إلى عبادي. فقال: بماذا؟ قال: بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي، فإذن غاية السعادة أن يموت محباً لله تعالى، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير، فسأله؟ فقال: الآن أفلت، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له: إنه مات البارحة.

بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في حال الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء، لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء؛ والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف، ولذلك قال علي كرم الله وجهه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة، ويؤدي كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدهما مقام سوى الصبر، وبه المجاهدة والتجرّد لله ظاهراً وباطناً، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل، فإذن فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية، ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول: الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله: أنّ الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف، وربما مدّ اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها، فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب؛ فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته. وأما خوف الابن فإيمانه بمجرّد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه، فيعلم أنّ السبع مخوف ولا يعرف وجهه، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين: أحدهما الخوف من عذابه، والثاني الخوف منه؛ فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي

---

(١) حديث: «أللهم إرزقني حبك وحب من أحبك. . . الحديث» أخرجه الترمذي من حديث معاذ، وتقدم في الأذكار والدعوات. . .

(٢) حديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» أخرجه مسلم من حديث جابر، وقد تقدم.

الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ وقوله عز وجل: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ وأما الأوّل فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان، وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة، وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم؛ فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير، وأما الثاني وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف، أعني أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه. قال ذو النون رحمه الله تعالى: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية، ولكن هو بمجرد التقليد أيضاً هي خوف الصبي من الحية تقليداً لأبيه، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب، حتى أن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه، والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدّة طويلة على الاستمرار؛ فإذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعاً في مخالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد ولا يخاف، قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى: هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي. وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم أبى، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعاً بها بالضرورة، فإن كان أبعده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أوّل لا علة له من جهة العبد بل قضي عليه في الأزل، وعن هذا المعنى عبر ﷺ إذ قال: «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما، فحج آدم موسى عليه السلام، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض». فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقرّبك نجيا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ قال: «نعم» قال: افتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليّ قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة، قال ﷺ: «فحج آدم موسى[1]». فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر، ومن سمع هذا فآمن به وصدّق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف؛ فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه، وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقاً، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقاً، والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع؛ لأنّ السبع مسخر: إن سلط عليه الجوع افترس، وإن سلط عليه الغفلة خلي وترك. فإنما

---

(١) حديث: «احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بألفاظ أخر.

يخاف خالق السبع وخالق صفاته، فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع، بل إذا كشف الغطاء علم أنّ الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى، لأنّ المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أنّ سباع الآخرة مثل سباع الدنيا، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلاً يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له، فخلق الجنة وخلق لها أهلاً وسخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا، وخلق النار وخلق لها أهلاً سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء. وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء. أما رسولنا ﷺ فهو سيد الأوّلين والآخرين[١]. وكان أشدّ الناس خوفاً[٢]. حتى روي أنه كان يصلي على طفل؛ ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول: «اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار[٣]». وفي رواية ثانية: أنه سمع قائلاً يقول: هنيئاً لك، عصفور من عصافير الجنة، فغضب وقال: «ما يدريك أنه كذلك، والله إني رسول الله، وما أدري ما يصنع بي! إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم[٤]». وروي أنه ﷺ قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأوّلين لما قالت أم سلمة: هنيئاً لك الجنة، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك: والله لا أزكي أحدا بعد عثمان[٥]، وقال محمد بن خولة الحنفية: والله لا أزكي أحداً غير رسول الله ﷺ ولا أبي الذي ولدني، قال: فثارت الشيعة عليه، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه، وروي في حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمة هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله ﷺ وقتلت في سبيل الله فقال ﷺ « وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره[٦]» وفي حديث آخر: «أنه دخل ﷺ على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيئاً لك الجنة». فقال ﷺ: «من هذه المتألية على الله تعالى؟». فقال المريض: هي أمي يا رسول الله، فقال: «وما يدريك، لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه[٧]». وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم، وهو ﷺ يقول: «شيبتني هود وأخواتها[٨]». سورة الواقعة وإذا

---

(١) حديث: كان سيد الأولين والآخرين. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة «أنا سيد ولد آدم ولا فخر. . . الحديث».

(٢) حديث: كان أشد الناس خوفاً. تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثاً. قوله «والله أني لأخشاكم لله» وقوله «والله أني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

(٣) حديث: أنه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول «اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس أن النبي ﷺ صلى على صبي أو صبية وقال: «لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي» واختلف في إسناده، فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب أن صبياً دفن فقال رسول الله ﷺ: «لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي».

(٤) حديث: أنه سمع قائلة تقول لطفل مات: هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة، فغضب وقال: «ما يدريك. . . الحديث» أخرجه مسلم من حديث عائشة قالت: توفي صبي فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة. . . الحديث. وليس فيه فغضب، وقد تقدم.

(٥) حديث: لما توفى عثمان بن مظعون قالت أم سلمة: هنيئاً لك الجنة. . . الحديث. أخرجه البخاري من حديث أم العلاء لأنصارية وهي القائلة: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، قال: «وما يدريك. . . الحديث» وورد أن التي قالت ذلك أم خارجة بن زيد، ولم أجد فيه ذكر أم سلمة.

(٦) حديث: إن رجلاً من أهل الصفة استشهد فقالت أمه: هنيئاً لك يا بني الجنة. رواه البيهقي في الشعب، إلا أنه قال فقالت أمه: هنيئاً لك الشهادة وهو عند الترمذي، إلا أنه قال: إن رجلاً قال له: أبشر بالجنة، وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف.

(٧) حديث: دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيئاً له الجنة. . . الحديث، تقدم أيضاً.

(٨) حديث: **شيبتني** هود وإخواتها. . . الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس، وهو في **الفضائل** من حديث أبي جحيفة وقد تقدم في كتاب السماع.

الشمس كوّرت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى: ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ ﴿ألا بعداً لثمود﴾ ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ مع علمه ﷺ بأنه لو شاء الله ما أشركوا، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة ﴿ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة﴾ أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة: إما خافضة قوماً كانوا مرفوعين في الدنيا، وإما رافعة قوماً كانوا مخفوضين في الدنيا. وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة انكشاف الخاتمة، وهو قوله تعالى: ﴿وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما احضرت﴾ وفي عم يتساءلون ﴿يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ والقرآن من أوّله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ لكان كافياً، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها، وأشدّ منه قوله تعالى: ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين﴾ وقوله تعالى: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ وقوله تعالى: ﴿سنفرغ لكم أيه الثقلان﴾ وقوله عز وجل: ﴿افأمنوا مكر الله﴾ الآية. وقوله: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ وقوله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ الآيتين. وقوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ الآية. وقوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ الآية. وقوله: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ الآية. وقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ الآيتين. وقوله تعالى: ﴿وقدمناه إلى ما عملوا من عمل﴾ الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ إلى آخر السورة فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ حتى روي أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفاً من الله تعالى، فأوحى الله إليهما لم تبكيان وقد أمنتكما؟ فقالا: ومن يأمن مكرك؟[1]. وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله: «قد أمنتكما» ابتلاء وامتحاناً لهما ومكراً بهما، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر و ما وفيا بقولهما كما أنّ إبراهيم ﷺ لما وضع في المنجنيق قال: حسبي الله وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء، حتى قال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله، فأخبر الله تعالى عنه فقال: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي بموجب قوله: حسبي الله، وبمثل هذا أخبر عن موسى ﷺ حيث قال: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى، قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة؛ إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدّد عليه الأمن وقيل له: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك[2]». فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: دع عنك مناشدتك ربك فإنه وافٍ لك بما وعدك، فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله، وكان مقام رسول الله ﷺ مقام الخوف من مكر الله هو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر؛ وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى، ومن عرف حقيقةالمعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة، ولذلك قال المسيح ﷺ لما قيل له: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ وقال: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم﴾ الآية، فوّض الأمر إلى

---

(١) حديث: أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفاً من الله عزّ وجل، فأوحى الله إليهما: لم تبكيان؟ الحديث، أخرجه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر، ورويناه في مجلس عن أمان أبى سعيد النقاش. بسند ضعيف.

(٢) حديث: قال يوم بدر «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك»: أخرجه البخاري من حديث ابن عباس بلفظ «اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم. . . الحديث».

المشيئة واخرج نفسه بالكلية من البين، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حدّ المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلاً عن التحقيق والاستيقان، وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين، إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل في الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد، ثم يخبر عنه ويقول: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ وقال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم﴾ الآية؛ فكيف لا يخاف ماحق من القول في الأزل ولا يطمع في تداركه ولو كان الأمر أنفاً لكانت الأطماع تمتدّ إلى حيلة فيه، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء خفى السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة، إذ كل ميسر لما خلق له، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعاً وبظاهره وباطنه على الله مقبلاً: كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقاً به؛ ولكنّ خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالاً ولا يمكنها من الانطفاء، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشدّ تقلباً من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب عز وجل: ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف. فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب. قال بعض العارفين: لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد، لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب. وقال بعضهم: لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام، لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار. وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه وكان سهل يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿وقلوبهم وجلة﴾.

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإنّ عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أو على ذنوبي أبكي لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا.

وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال: إذا حضرتني الوفاة فاقعد عند رأسي، فإن رأيتني مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزاً وسكراً وانثره على صبيان أهل البلد، وقل هذا عرس المنفلت، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة. قال: وبم أعلم ذلك؟ فذكر له علامة، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرّقه.

وكان سهل يقول: المريد يخاف أن يبتلي بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلي بالكفر.

وكان أبو زيد يقول: إذا توجهت إلى المسجد فكأن في وسطي زناراً أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار، فهذا لي في كل يوم خمس مرات.

وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال: يا معشر الحواريين، انتم تخافون المعاصي، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر.

وروي في أخبار الأنبياء أن شكا إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف، فأوحى الله تعالى إليه: عبدي، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا؟ فأخذ التراب فوضعه على

رأسه وقال: بلى قد رضيت يارب فاعصمني من الكفر.

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوّة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء. ولسوء الخاتمة أسباب تتقدّم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة، ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن: لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذي هو ضدّ أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلمًا منافقاً، وله علامات كثيرة: قال ﷺ «أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر[1]». وفي لفظ آخر «وإذا عاهد غدر».

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صديق، إذ قال الحسن: إنّ من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونسي كونها منكر بالكلية، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوّة، فكيف الظن بزماننا! حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقاً إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات[2]. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر[3]. وقال بعضهم: علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله، وأن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من الحق. وقيل من النفاق: أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك. وقال رجل لابن عمر رحمه الله: إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم، فقال: كنا نُعدُّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[4]. وروي أنه سمع رجلاً يذم الحجاج ويقع فيه، فقال: أرأيت لو كان الحجاج حاضراً أكنت تتكلم بما تكلمت به؟ قال: لا. قال: كنا نعدّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[5]. وأشدّ من ذلك ما روي أنّ نفراً قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه، فقال: تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا؛ فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[6]. وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق، وكان يقول: إنه يأتي على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة، ويأتي عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة، فقد عرفت بهذا أنّ خوف العارفين من سوء الخاتمة وأنّ سببه أمور تتقدّمه منها البدع. ومنها المعاصي، ومنها النفاق، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك! وإن ظنّ أنه خلا عنه فهو النفاق، إذ قيل: من أمن النفاق فهو منافق. وقال بعضهم لبعض العارفين: إني أخاف على نفسي النفاق، فقال: لو كنت منافقاً لما خفت النفاق، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما، ولذلك

---

(١) حديث: «أربع من كن فيه فهو منافق... الحديث» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم في قواعد العقائد.

(٢) حديث حذيفة: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ، فيصير بها منافقاً... الحديث، أخرجه أحمد من حديث حذيفة، وقد تقدم في قواعد العقائد.

(٣) حديث أصحاب رسول الله ﷺ «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر... الحديث» أخرجه البخاري من حديث أنس وأحمد، والبزار من حديث أبي سعيد، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن فرص وصحح إسناده، وتقدم في التوبة.

(٤) حديث: قال رجل لابن عمر: إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون... الحديث، رواه أحمد والطبراني، وقد تقدم في قواعد العقائد.

(٥) حديث: سمع ابن عمر رجلاً يذم الحجاج ويقع فيه فقال: أرايت لو كان الحجاج حاضراً... الحديث، تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج.

(٦) حديث: إن نَفراً قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه، فلما خرج سكتوا... الحديث، لم أجد له أصلاً.

قال ﷺ: «العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار[١]». والله المستعان.

بيان معنى سوء الخاتمة

فإن قلت: إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة، فما معنى سوء الخاتمة؟ فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم من الأخرى، فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك، وإما الجحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أوالشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبدا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد. والثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها. ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب. ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه؛ فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار: جُزْ يا مؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبي، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه، إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال؛ فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك، وعند ذلك تعظم الحسرة، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت، فإن كان إيمانه في القوة إلى حدّ مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار، ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بدّ وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين.

* فإن قلت: فما ذكرته يقتضي أن تسرع النار إليه عقيب موته، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة؟ فاعلم أنّ كل من انكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان، بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحت به الأخبار وهو؛ أنّ القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة[٢]. وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم[٣]، كما وردت به الأخبار، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة. وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر[٤]. والتعذيب بعده[٥]، ثم المناقشة في الحساب[٦].

---

(١) حديث: «العبد الموءمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى... الحديث» أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وقد تقدم في ذم الدنيا: ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغاً، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس.

(٢) حديث: «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب، وتقدم في الأذكار.

(٣) حديث: «إنه يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر: تقدم في قواعد العقائد.

(٥) حديث عذاب القبر: تقدم فيه.

(٦) حديث: المناقشة في الحساب: تقدم فيه.

ولافتضاح علا ملأ من الأشهاد في القيامة[1]، ثم بعد ذلك خطر الصراط[2] وهول الزبانية[3]. . . إلى آخر ما وردت به الأخبار، فلا يزال الشقي متردداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته «ولا تظنن أن محل الايمان لا يأكله التراب، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الاجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية.

* فإن قلت: فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟ فاعلم أنّ أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها: أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين:

(أحدهما) يتصوّر مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال: كالمبتدع الزاهد فإنّ عاقبته مخطرة جداً، وإن كانت أعماله صالحة ولست أعني مذهباً فأقول إنه بدعة؛ فإنّ بيان ذلك يطول القول فيه، بل أعني بالبدعة: أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه، إما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعوّل وبه يغتر، وإما أخذاً بالتقليد ممن هذا حاله؛ فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادىء سكراته منه، فقد ينكشف به بعض الأمور؛ فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقناً له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص، بل ظن أنّ كل ما اعتقده لا أصل له، إذ لم يكن عنده فرق في إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ وبقوله عز وجل: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ وكما أنه ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتنكشف له الأمور على ما هي عليه، فيكون مثل هذه الحال سبباً للكشف، ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات، وكل ما اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول، فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر ، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق والبله بمعزل عن هذا الخطر، أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الأخر إيماناً مجملاً راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلقة، ولذلك قال ﷺ:«أكثر أهل الجنة البله[4]» ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض

---

(١) حديث الإفتضاح على ملأ الأشهاد في القيامة: رواه أحمد والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد جيد «من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا فضحه الله على رءوس الأشهاد» وفي الصحيحين من حديث ابن عمر «وأما الكافر والمنافق فينادي بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم» والطبراني والعقيلي في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة» وهو حديث طويل منكر.

(٢) حديث خطر الصراط: تقدم في قواعد العقائد.

(٣) حديث هول الزبانية أخرجه الطبراني من حديث أنس: «الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران» قال صاحب الميزان: حديث منكر. وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معضلاً في خرفة جهنم ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب.

(٤) حديث: «أكثر أهل الجنة البله» أخرجه البزار من حديث أنس؛ وقد تقدم.

في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور، وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعاً وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه، ومنعوهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤودة ومسالكه وعرة، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهمْ مضطرب ومتعارض، والقلوب لما ألقي إليها في مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة، وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة، فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعي الكمال أو الإحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم، وتأكد ذلك بطول الألف فيهم، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم، فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرّضوا لما هو خارج عن حدّ طاقتهم: ولكن الآنّ قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظنّ وحسبان، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان، ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين القين ﴿ولتعملن نبأه بعد حين﴾ وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنت ظنك بالايام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقيناً أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث، فقد تعرّض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد، والهلاك عليه أغلب. وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إما مع الادلة التي حرّروها في تعصباتهم أو دون الأدلة، فإن كان شاكاً فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقاً فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص، وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوّة وذلك هو الكبريت الأحمر وأنىّ يتيسر، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة.

(وأما السبب الثاني) فهو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب. ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال يطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعني حب الله ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك. من حيث إنه من الله، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب، كما أنّ الذي يحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً، والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى؛ فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضاً فهو أبعد

عن هذا الخطر، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى، إذ لا يحبه إلا من عرفه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ فإذن كل من فارقته روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهر بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه؟ فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً، فلا يخفي ما يستحقه من الخزي والنكال، وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعاً في لقائه، فلا يخفي ما يلقاه من الفرح والسرور وبمجرّد القدوم فضلاً عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام.

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار، فلها أيضاً سببان:

(أحدهما) كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي، وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة. وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت؟ فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوباً على الله تعالى، فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جداً عن هذا الخطر، والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جداً، ونعرّف هذا بمثال: وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره، حتى انه لا يرى إلا ما يماثل مشاهدته في اليقظة، وحتى ان المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة، ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع، ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه؟ لأنه إنما يظهر في حال النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب، والموت شبه النوم ولكنه فوقه، ولكن سكرات الموت وما يتقدّمه من الغشية قريب من النوم، فيقتضي ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف، فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجح، وكذلك تخالف أيضاً منامات الصالحين منامات الفساق، فتكون غلبة الإلف سبب لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه، فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته، وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها، وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها، كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحسّ منه. أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلاً آخر، وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحاً ويتأمل في شدة التفاوت بينهما، وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان، وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له، وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين، مثل أن ينتقل من شيء ثان، ومنه إلى شيء ثالث، ثم ينسى الثاني، ولا يكون بين الثالث والأوّل مناسبة، ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأوّل مناسبة، فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس، وكذلك عند سكرات الموت، فعلى هذا ـ والعلم عند

الله ـ من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك تراه يومىء إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل اصبعه التي لها عادة بالكشتبان ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمدّ يده إلى المقراض، ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدّة وذخيرة لحالة سكرات الموت، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت. كلمتي الشهادة فيقول: خمسة ستة أربعة، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت وقال بعض العارفين من السلف: العرش جوهرة تتلألأ نوراً، فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها، فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش؛ فربما يرى نفسه على صورة معصية، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف، وما ذكره صحيح، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك، فإن النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوّة، فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولاً كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير، فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة، لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة، حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال: حكيت لشيخي أبي القاسم السكرماني مناماً لي وقلت: رأيتك قلت لي كذا: فقلت: لم ذاك؟ قال: فهجرني شهراً ولم يكلمني وقال: لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال؛ إذ قلما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه؛ فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة، وقد ظهر لك بهذا أنّ الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية؛ فإن كنت تعلم أنّ ذلك محال أو عسير فلا بدّ وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسبب بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك، وقد عرفت بهذا أنّ أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول: إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا! ولذلك قال حامد اللفاف: إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا: كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا. وكان الثوري يوماً يبكي فقيل له :علام تبكي؟ فقال: بكينا على الذنوب زماناً. فالآن نبكي على الإسلام. وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشدّ اضطراباً من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطاماً من أمواج البحر، وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب[1]». ولا يتسع فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور

---

(١) حديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة. . . الحديث» تقدم.

البرق الخاطف. وقال سهل: رأيت كأني أدخلت الجنة، فرأيت ثلثمائة نبي فسألتهم: ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا؟ قالوا: سوء الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها، وكان موت الفجأة مكروها، أما الموت فجأة فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة. وأما الشهادة فلأنها عباوة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب؛ إذ لا يهجم على صف القتال موطناً نفسه على الموت إلا حباً لله وطلباً لمرضاته وبائعاً دنياه بآخرته وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به، إذ قال تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب؛ ومجرّد حب العوض المطلوب في قلبه، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها، فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة، فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار(١).

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك، وإياك أن تسوّف وتقول: سأستعدّ لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل تطريفة، وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك، هذا ما دمت في يقظتك، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول على لسانك فإنّ حركة اللسان بمجرّدها ضعيفة الأثر. واعلم قطعاً أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه، وتحقق قطعاً ويقيناً أنّ الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك، وآمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة، وراقب أنفاسك ولحظاتك، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم، فكيف إذ لم تفعل. والناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطرّ كاره له، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك، إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه، فهما ضرورتان في الجبلة، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك. واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك. وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك، فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره

---

(١) حديث: «المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة» متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري «إن رجلاً قال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وفي رواية: الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء. وفي رواية غضباً.

وجنسه، أما الوقت فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحد فيواظب على الصوم، وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن، وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله، فإنّ الحلال يعزو ولا يفي بجميع الشهوات، وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحرّ والبرد وستر العورة؛ فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة يدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة، وقس بهذا ما تدفع به الحرّ والبرد عن بدنك؛ فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكنف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده. بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفاً والأرض مستقراً؛ فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد، فإن طلبت مسكناً خاصاً طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك، وعمرك هو بضاعتك، ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلاً بينك وبين الابصار، ومن السقف سوى كونه دافعاً للأمطار، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورّطت في مهواة يبعد رقيك منها، وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرّغت لله وقدرت على التزوّد لآخرتك والاستعداد لخاتمتك، وإن جاوزت حدّ الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلكك؛ فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك. واعلم أنّ متسع التدبير والتزوّد والاحتياط هذا العمر القصير، فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك، فإنك تتحقق أنّ عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم: لم اشتدّ بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشياً عليه وبعضهم يخرّ ميتاً إلى الأرض، ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فإنّ قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشدّ قسوة: ﴿وإنّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإنّ منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون﴾.

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روت عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله[١]. وقرأ ﷺ آية في سورة الحاقة فصعق[٢]، وقال تعالى: ﴿وخرّ موسى صعقاً﴾ ورأى رسول الله ﷺ صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق[٣]. وروي أنه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل[٤]. وقال ﷺ:

---

(١) حديث عائشة: كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه... الحديث، متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) حديث: قرأ في سورة الحاقة فصعق، المعروف فيما يروي من هذه القصة أنه قرىء عنده ﴿إنّ لدينا أنكالاً وجحيمًا وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليمًا﴾ فصعق، كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلاً، وهكذا إذ ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم.

(٣) حديث: أنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق: أخرجه البزار من حديث إبن عباس بسند جيد: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته؟ فقال: أدع ربك، فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتف ويسير، فلما رآه صعق. ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلاً بلفظ: فغشي عليه. وفي الصحيحين عن عائشة: رأى جبريل في صورته مرتين. ولهما عن ابن مسعود: رأى جبريل له ستمائة جناح.

(٤) حديث: كان إذا دخل في الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل. رواه أبو داود والترمذي في الشمائل، والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير، وتقدم في كتاب السماع.

«ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرعد فرقا من الجبار[1]». وقيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان، فأوحى الله إليهما؛ ما لكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: يا رب، ما نأمن مكرك؛ فقال الله تعالى: هكذا كونا، لا تأمنا مكري.

وعن محمد بن المنكدر قال: لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق بنو آدم عادت. وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل «ما لي :لا أرى ميكائيل يضحك؟» فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار[2].

ويقال: إنّ لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال: «يا ابن عمر، مالك لا تأكل؟». فقلت: «يا رسول الله لا أشتهيه، فقال لكني أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاماً ولم أجده ولو سألت ربي لأعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم؟». قال:فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ قال فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات، من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فإنّ الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد[3]».

وقال أبو الدرداء: كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن ﷺ إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه.

وقال مجاهد: بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه، فنودي: يا داود أجائع أنت فتطعم؟ أم ظمآن فتسقى؟ أم عار فتكسى؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حرّ جوفه، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال: يارب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته، قال: وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه. ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل، وكان يقول في مناجاته: إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علّي الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتدّت إلّي روحي، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني، فبؤساً للقانطين من رحمتك.

وقال الفضيل: بلغني أنّ داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لا أريدكم، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء. وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول: دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتغال الحشا وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقال عبد العزيز بن عمر: لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته

---

(١) حديث: «ما جاءني جبريل قط إلا وهو ترتعد فرائصه من الجبار» لم أجد هذا اللفظ، وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال: أن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقاً من عذاب الله... الحديث» وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفته.

(٢) حديث أنس أنه ﷺ قال لجبريل:«ما لي لا أرى ميكائيل يضحك» فقال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار. رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد، ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسلاً، وورد ذلك أيضاً في حق اسرافيل. رواه البيهقي في الشعب؛ وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين.

(٣) حديث ابن عمر: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل الحديث. أخرجه ابن مردوية في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر. قال البيهقي: هذا أسناد مجهول، والجراح بن منهال ضعيف.

فقال: إلهي بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين. وروي أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتدّ غمه، فقال: يارب أما ترحم بكائي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال: إلهي وسيدي كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلني الطير على رأسي وأنست الوحوش إلى محرابي، إلهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك، فأوحى الله تعالى إليه: يا دواد ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية، يا داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري، وشكا إلى الوحدة فزوجته حواء أمتي وأسكنته جنتي، عصاني فطردته عن جواري عرياناً ذليلاً، يادواد أسمع مني والحق أقول: اطعتنا فأطعناك، وسألتنا فأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك. وقال يحيى بن أبي كثير: بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية، فأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقري البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع؛ فينادي فيها: ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت، قال: فتأتي الوحوش من البراري ولآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الأوكار وتأتي العذارى من خدورهن، وتجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه، فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس، ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال: يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام، فيأخذ في الدعاء، فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل: يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك! قال فيخرّ داود مغشياً عليه، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر منادياً ينادي ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول: يا من قتله ذكر النار، يا من قتله خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول: يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجي ربه، فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول: يا أبتاه تقوّ بهذا على ما تريد، فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بنى إسرائيل فيكون بينهم. وقال يزيد الرقاشي. خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوّفهم، فخرج في أربعين ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً وما رجع إلا عشرة آلاف، قال: وكان له جاريتان اتخذهما، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف، ونظر إلى مجتهديهم وقد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدّوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس، فهاله ذلك، فرجع إلى أبويه فمرّ بصبيان يلعبون، فقالوا له: يا يحيى، هلم بنا لنعلب فقال: إني لم أخلق للعب، قال: فأتى أبويه فسألهما أن يدرّعاه الشعر ففعلا، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب، فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول: وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك، فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه، فمدح بالبر، فرده أبواه إلى بيت المقدس، فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر، ويبكي

زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه، فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خدّيه وبدت أضراسه للناظرين، فقالت له أمه: يابني لو أذنت لي أن أتخذ لك شيئاً تواري به أضراسك عن الناظرين فأذن لها، فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خدّيه، فكان إذا قام يصلي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال: اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين، فقال له زكريا يوماً: يابني إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقرّ عيناي بك، فقال يحيى: يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء. فقال زكريا عليه السلام: يا بني فأبك.

وقال المسيح عليه السلام: معاشر الحواريين، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا. بحق أقول لكم: إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل.

وقيل: كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل، فيأتيه جبريل فيقول له: ربك يقرئك السلام ويقول: هل رأيت خليلا يخاف خليله؟ فيقول:يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي، فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقرّبين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف

روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً.

وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: وددت لو أني شجرة تعضد وكذلك قال طلحة.

وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أني إذا مت لم أبعث.

وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسياً منسياً.

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه، فكان يعاد أياماً. وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال يا ليتني كنت هذه التبنة، ياليتني لم أك شيئاً مذكوراً، يا ليتني كنت نسياً منسياً، يا ليتني لم تلدني أمي. وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتق الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. ولما قرأ عمر رضي الله عنه: ﴿إذا الشمس كوّرت﴾ وانتهى إلى قوله تعالى؛ ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ خرّ مغشياً عليه. ومر يوماً بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة ﴿والطور﴾ فوقف يستمع، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إنّ عذاب ربك لواقع ما له من دافع﴾ نزل عن حمار واستند إلى حائط ومكث زماناً، ورجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه.

وقال علي كرّم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم. لقد كانوا يصحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله فكأن بالقوم باتوا غافلين، ثم قام، فما رؤي بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم.

وقال عمران بن حصين: وددت أن أكون رماداً تنسفني الرياح في يوم عاصف.

وقال أبو عبيده بن الجراح رضي الله عنه: وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقي.

وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه، فيقولون له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وقال موسى بن مسعود: كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القارىء يوماً ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق..﴾ الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: وعزتك لا عصيتك جهدي أبدا، فأعني بتوفيقك على طاعتك.

وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئاً من القرآن: لشدّة خوفه، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياماً، حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ فقال:أنا من المجرمين ولست من المتقين، أعد عليّ القول أيها القارىء، فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة.

وقرىء عند يحيى البكاء: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة.

وقال مالك بن دينار: بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: يا رب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها! يا رب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار؟ وتبكي؛ فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر، قال مالك: فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخاً أقول: ثكلت مالكا أمه.

وروي أن الفضيل رؤي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن غفرت، ثم انقلب مع الناس.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين؟ فقال: قلوبهم بالخوف فرحة، وأعينهم باكية، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي الله ربنا موقفنا.

ومرّ الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس؛ فقال له الحسن: يا فتى، هل مررت بالصراط؟ قال: لا. قال: فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال: لا. قال فما هذا الضحك؟ قال:فما رؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكاً.

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزاً على قدميه. فيقال له: «لو أطمأننت؟ فيقول: تلك جلسة الآمن، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى».

وقال عمر بن عبد العزيز: إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى.

وقال مالك بن دينار: لقد هممت إذ أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي: ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي! ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي! ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى ﷺ ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه!

وقال السري: إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات مخافة أن يكون قد أسود وجهي. وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر اليّ نظر السخط وأعمالي تدل على ذلك.

وخرج ابن المبارك يوماً على أصحابه فقال: إني اجترأت البارحة على الله سألته الجنة.

وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها: يا بني إني أعرفك صغيراً طيباً وكبيراً طيباً، وكأنك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليلك ونهارك! فقال: يا أماه، ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع عليّ وأنا على بعض ذنوبي فمقتني وقال: وعزتي وجلالي لا غفرت لك.

وقال الفضيل: إني لا أغبط نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرّباً ولا عبداً صالحاً، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة، إنما أغبط من لم يخلق.

وروي: أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار، فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت، فجاء النبي ﷺ فدخل عليه واعتنقه فخر ميتاً، فقال ﷺ: «جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فتت كبده[1]».

وروي عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول: يا ليت أمي لم تلدني، فقالت له أمه: يا ميسرة، إن الله تعالى قد أحسن إليك: هداك إلى الإسلام، قال: أجل ولكن الله قد بين لنا إنا واردو النار ولم يبين لنا إنا صادرون عنها.

وقيل لفرقد السبخي: أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل! فقال: بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح، فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعاً في يوم واحد.

وكان عطاء السلمي من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو. وقيل له في مرضه: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعاً للشهوة: إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة. وأنه رفع رأسه يوماً ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق، وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ. وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال: هذا من أجلي يصيبهم، لو مات عطاء لاستراح الناس. وقال عطاء: خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورّمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤوسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين، فبينما هم يمشون إذ مرّ أحد بمكان فخر مغشياً عليه، فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقاً، فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره؟ فقال: إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان.

وقال صالح المري: قرأت على رجل من المتعبدين: ﴿يوم نقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ فصعق ثم أفاق فقال: زدني يا صالح فإني أجد غما، فقرأت؛ ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ فخر ميتاً.

وروي أن زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ خرّ مغشياً عليه، فحمل ميتاً. ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال: عظني يا يزيد؛ فقال:يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لست أوّل خليفة يموت، فبكى ثم قال: زدني، قال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت، فبكى ثم قال: زدني يا يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل، فخرّ مغشياً عليه.

وقال ميمون بن مهران؛ لما نزلت هذه الآية: ﴿وإنّ جهنم لموعدهم أجمعين﴾ صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هارباً ثلاثة أيام لا يقدرون عليه[2].

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول: يا ابناه، ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا؟ فصعق داود وسقط مكانه.

---

(١) حديث: أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت... الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الخائفين من حديث حذيفة، والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر.

(٢) حديث ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ صاح سلمان الفارسي: لم أقف له على أصل.

وقيل: مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمى فقال: هذا رجل قطع الخوف كبده، ثم جاء وجس عروقه ثم قال: ما علمت أن في الملة الحنيفية مثله.

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: سألت الله عز وجل أن يفتح عليّ باباً من الخوف، ففتح فخفت على عقلي؛ فقلت: يارب على قدر ما أطيق، فسكن قلبي.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه، وكأنه أشار إلى معنى قوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا[1]».

وقال العنبري: اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوّة وهو يبكي ولحيته ترجف، فقال: عليكم بالقرآن، عليكم بالصلاة، ويحكم! ليس هذا زمان حديث، إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق، إنما هذا زمان: احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر.

ورؤي الفضيل يوماً وهو يمشي، فقيل له: إلى أين؟ قال: لا أدري، وكان يمشي والهاً من الخوف.

وقال ذرّ بن عمر لأبيه عمر بن ذر: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب، فقال: يا بني ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة.

وحكي أنّ قوماً وقفوا بعابد وهو يبكي فقالوا: ما الذي يبكيك يرحمك الله؟ قال: قرحة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا: وما هي؟ قال: روعة النداء بالعرض على الله عز وجل.

وكان الخوّاص يبكي ويقول في مناجاته: قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني.

وقال صالح المري: قدم علينا ابن السماك مرة فقال: أرني شيئاً من بعض عجائب عبادكم، فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له، فاستأذنا عليه، فإذا رجل يعمل خوصاً، فقرأت عليه: ﴿إن الأغلال في أعناقهم * في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ فشهق الرجل شهقة وخرّ مغشياً عليه، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله، وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخرّ مغشياً عليه، فذهبنا واستأذنا على ثالث، فقال: ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا، فقرأت: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا فأدرته على ستة أنفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشياً عليه؛ ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا فإذا امرأة من داخل الخص تقول: ادخلوا، فدخلنا فإذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا، فقلت بصوت عال: ألا إنّ للخلق غداً مقاماً، فقال الشيخ: بين يدي من ويحك! ثم بقي مبهوتاً فاتحاً فاه شاخصاً بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت، فقالت امرأته: اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم؟ فإذا ثلاثة قد أفاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى. وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتاً متحيراً لا يؤدي فرضاً فلما كان بعد ثلاث عقل.

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال، وكان قد حلف أن لا يضحك أبداً ولا ينام مضطجعاً ولا يأكل سمناً أبداً، فما رؤي ضاحكاً ولا مضطجعاً ولا أكل سمناً حتى مات رحمه الله.

وقال الحجاج لسعيد بن جبير: بلغني أنك لم تضحك قط! فقال. كيف أضحك وجهنم قد سعرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدّت.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد كيف أصبحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم

---

(١) حديث: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» تقدم في قواعد العقائد.

بخشبة؟ على أي حال يكون؟ قال الرجل: على حال شديدة. قال الحسن: حالي أشدّ من حالهم.

ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها: فرقدت فاستبكت في منامها، ثم انتبهت فقالت: يا أمير المؤمنين، إني والله رأيت عجباً، قال: وما ذلك؟ قالت: رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جيء بالصراط ووضع على متنها، فقال: هيه، قالت: فجيء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم فقال عمر:هي، قالت: ثم جيء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم، فقال عمر: هيه قالت: ثم جيء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك، فقال عمر: هيه قالت: ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين: فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خرّ مغشياً عليه، فقامت إليه فجعلت تنادي في أذنه: يا أمير المؤمنين، إني رأيتك والله قد نجوت! إني رأيتك والله قد نجوت قال: وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه. ويحكى أنّ أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه، فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقاً فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إنّ المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه.

وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول: طير ذكر جهنم نوم الخائفين.

وقال الحسن البصـري رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، يا ليتني كنت ذلك الرجل، وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة. وروي أنه ما ضحك أربعين سنة؛ قال: وكنت إذا رأيته قاعداً كأنه أسير قد قدّم لتضرب عنقه، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها، فإذا سكت كأنّ النار تسعر بين عينيه. وعوتب في شدّة حزنه وخوفه فقال: ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد أطلع فيّ على بعض ما يكره فمقتني فقال: اذهب فلا غفرت لك؛ فأنا أعمل في غير معتمل.

وعن ابن السماك قال: وعظت يوماً في مجلس، فقام شاب من القوم فقال: يا أبا العباس، لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لا نسمع غيرها. قلت: وما هي رحمك الله؟ قال:قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد، فأتيته أعوده فقلت: يا أخي ما الذي أرى بك؟ فقال: يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. قال: ثم مات رحمه الله فرأيته في المنام فقلت: يا أخي ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة. قلت بماذا ؟ قال: بالكلمة.

فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين، ونحن أجدر بالخوف منهم، لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدّتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا، فلا قرب الرحيل ينبهنا، ولا كثرة الذنوب تحرّكنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوّفنا، ولا خطرالخاتمة يزعجنا؛ فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا، إن كان تحريك اللسان بمجرّد السؤال دون الاستعداد ينفعنا.

ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا. وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وشهرنا، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللهم ارزقنا، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا، والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول: ﴿وإن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ ﴿ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾ ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم﴾ ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا

يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا، فما هذه إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجيرنا، فيسأل الله تعالى أن يتوب علينا، بل نسأله أن يشوّق إلى التوبة سرائر قلوبنا، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل، إذا سمعنا الوعظ بكينا، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا؛ علامة للخذلان أعظم من هذا؛ فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله.

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فإنّ القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغني. ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني وكان من خيار العباد ـ أنه رآه على باب بيت المقدس واقفاً كهيئة المحزون من شدّة الوله ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء، فقال عيسى: لما رأيته هالني منظره، فقلت: أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك، فقال: يا أخي بماذا أوصيك، إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل، فهو في المخالفة ليله وإن أمن المغترون، وفي الحزن نهار. وإن فرح البطالون. ثم ولى وتركني فقلت: لو زدتني شيئاً عسى أن ينفعني؟ فقال: الظمآن يجزيه من الماء أيسره، وقد صدق فإنّ القلب الصافي يحرّكه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ، وما ذكره من تقديره أن احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق؛ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحوناً بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها، وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها؛ فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقه لمعانيها، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلاً عن ظاهر بشرتك، والسلام.

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تسبح له الرمال، وتسجد له الظلال، وتتدكدك من هيبته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال، ما استقبح دون مبادىء إشراقه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن جور شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال، وهي متلفلفة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال، ثم لا تجتزىء معهم بالخلف في مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال، زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل.

(أما بعد) فإنّ الدنيا عدوّة لله وجل بعرورها ضل من ضل، وبمكرها زل من زل، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات وأس القربات. وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات. فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها على العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهداً، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة. ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول:

الشطر الأول من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقر مطلقاً، وبيان خصوص فضيلة الفقراء، وبيان فضيلة الفقير على الغني، وبيان أدب الفقير في فقره، وبيان أدبه في قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغني المحرّم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق بلطفه وكرمه.

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً، وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً، وإذا فهمت هذا لم تشك في أنّ كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده؛ فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغني المطلق، ولا يتصوّر أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحد، فليس في الوجود إلا غني واحد، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدّوا وجودهم بالدوام، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى: ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾ هذا معنى الفقر مطلقاً، ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص، وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر، لأن حاجاته لا حصر لها. ومن جملة ما يتوصل إليه بالمال، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط، فنقول: كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقه، ثم يتصوّر أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر. ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها:

(الحالة الأولى) وهي العليا: أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره وشغله وهو الزهد، واسم صاحبه الزاهد.

(الثانية) أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

(الثالثة) أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه صفواً عفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

(الرابعة) أن يكون تركه الطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

(الخامسة) أن يكون ما فقده من المال مضطرّاً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرّ كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة، فهذه خمسة أحوال: أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصوّر ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها

إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرّقتها من يومها فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرّقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرِّق بين أن تكون في يده أو في يد غيره وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد، فإنّ من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه: فهو إذن فقير من وجه، وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضاً، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه. وليس فاقداً له ليحتاج إلى الدخول في يديه، فغناه إلى العموم أميل، فهو إلى الغني الذي هو وصف الله تعالى أقرب، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان، ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنياً بل مستغنياً، ليبقى الغنى اسمًا لمن له الغنى المطلق عن كل شيء وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجوداً أو عدماً فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه، فإنّ القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حرّ، والله تعالى هو الذي أحله من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق، والقلوب متقلبة بين الرق والحرّية في أوقات متقاربة، لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن، فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقاً عليه مع هذا الكمال إلا مجازاً.

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقرّبين، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصاناً، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا، كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجاباً، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولاً بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوباً عنه، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى، والمشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص، ولكن أحدهما أخف من الآخر، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضاً وحباً، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب، إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود؛ فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها فهما، سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها، ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها، وليس محموداً بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها، فلا ينبغي أن تظنّ أن بغض الدنيا مقصود في عينه، بل الدنيا عائق عن الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق

عن الحج، فإذن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني، بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر، ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد، فهكذا ينبغي أن يكون المال؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم: علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء، على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدوّ يوسوس ٍي أن اللص قد أخذها، قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية: قدا زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها، فبين أنّ كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان.

فإن قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار؟ فأقول: كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففرّوا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يدبرونه مع أنفسهم، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه، لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضع وما هربوا منها[1]، إذ كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر، وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات، وهذا حال الضعفاء، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال؛ وهذا حكم جميع الخلق، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء، وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك؛ إذ لو اقتدوا به في الأخذ هلكوا، كما يفرّ الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذ رأوها فيهلكون، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء، فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص. وأما المضطرّ فيتصوّر في حقه أيضاً الزهد والرضا والقناعة ودرجة تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال، واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة. أما تسمية المستغني فقيراً فلا وجه لها بهذا المعنى؛ بل إن سمي فقيراً فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجاً إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّ بها؛ فانه أحق باسم العبد من الغافلين. وإن كان اسم العبد عاماً للخلق فكذلك اسم الفقير عام، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير، فاسم الفقير مشترك بين هذين

---

(1) حديث: إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف، وقد تقدم في اداب المعيشة من عند البخاري تعليقاً مجزوماً به من حديث أنس: أتى النبي ﷺ بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فقلما كان يرى أحد إلا أعطاه. ووصله عمر بن البحيري في صحيحه من هذا الوجه . وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف: قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدومه. . . الحديث، ولهما من حديث جابر: لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثاً، فلم يقدم حتى توفى رسول الله ﷺ، فأمر أبو بكر منادياً فنادى: من كان له على رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا، فقلت: إن النبي ﷺ وعدني، فحثا لي ثلاثاً.

المعنيين، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله ﷺ: «أعوذ بك من الفقر[1]». وقوله عليه السلام: «كاد الفقر أن يكون كفراً[2]». لا يناقض قوله؛ «أحيني مسكينا وأمتني مسكينا[3]». إذ فقر المضطّر هو الذي استعاذ منه، والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه ﷺ وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء.

بيان فضيلة الفقر مطلقاً

أما من الآيات فيدل عليه قولَه تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر.

وأما الأخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى: روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابة: «أي الناس خير؟» فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله. فقال: «نعم الرجل هذا وليس به» قالوا: «فمن خير الناس يا رسول الله؟» قال: «فقير يعطي جهده[4]». وقال ﷺ لبلال: «الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً[5]». وقال ﷺ: «إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال[6]». وفي الخبر المشهور «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام[7]». وفي حديث آخر «بأربعين خريفاً[8]». أي أربعين سنة، فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغني الحريص، والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدمّ الفقير الزاهد على الغني الراغب. وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرّفك بالضرورة تفاوتاً بين الفقراء في درجاتهم، وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد، إن هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة، ولا تظنن أن تقدير رسول الله ﷺ يجري على لسانه جزافاً وبالاتفاق، بل لا يستنطق ﷺ إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وهذا كقوله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[9]» فإنه تقدير تحقيق لا محالة، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين، فأما بالتحقيق فلا، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره، وهو يختص بأنواع من الخواص: أحدها أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة، لا كما يعلمه غيره بل مخالفاً له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف. والثاني: أن له في نفسه صفة بها تتم له

---

(١) حديث: «أعوذ بك من الفقر» تقدم في الأذكار والدعوات.

(٢) حديث: «كاد الفقر أن يكون كفراً» تقدم في ذم الحسد.

(٣) حديث: «أللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً» رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم.

(٤) حديث ابن عمر أنه ﷺ قال لأصحابه: أي الناس خير؟ فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله. فقال: نعم الرجل هذا وليس به قالوا: فمن خير الناس؟ قال: فقير يعطي جهده، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصراً على المرفوع منه دون سوءاله لأصحابه وسؤالهم له.

(٥) حديث: قال لبلال «الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً» أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال. ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ «مت فقيراً ولا تمت غنياً» وكلاهما ضعيف.

(٦) حديث: «إن يحب الفقير المتعفف أباً للعيال» أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم.

(٧) حديث: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح وقد تقدم.

(٨) حديث دخولهم قبل أربعين خريفاً: أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، إلا أنه قال: فقراء المهاجرين، والترمذي من حديث جابر وأنس.

(٩) حديث: « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد، ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ «رؤيا المؤمن جزء... الحديث» وقد تقدم.

الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى. والثالث أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات. والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين، ويمكننا أيضاً أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندري تحقيقاً أنه الذي أراده رسول الله ﷺ أم لا، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير، فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلاً على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به، والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله ﷺ على سبيل الاتفاق، وحاشا منصب النبوّة عن ذلك ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال ﷺ: «خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعا تضجعاً في الجنة ضعفاؤها»[1]. وقال ﷺ: «إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني: الفقر والجهاد[2]» وروي أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد. إن الله عزوجل يقرأ عليك السلام ويقول: «أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا[3]».

وتكون معك أينما كنت، فأطرق رسول الله ﷺ ثم قال: «يا جبريل، إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له» فقال له جبريل: «يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت».

وروي أن المسيح ﷺ مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة، فأيقظه وقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى، فقال ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها، فقال له:قم إذن يا حبيبي.

ومر موسى ﷺ برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة، فقال: يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها.

وعن أبي رافع أنه قال: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال: «قل له: يقول لك محمد أسلفني أو بعني دقيقاً إلى هلال رجب» قال فأتيته فقال: لا والله إلا برهن، فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: «أما والله إني لأمين في أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأديت إليه، اذهب بدرعي هذا إليه فارهنه، فلما خرجت نزلت هذه الآية: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا[4]﴾. الآية، وهذه الآية تعزية لرسول الله ﷺ عن الدنيا، وقال ﷺ:

---

(١) حديث: «خير الأمة فقراؤها، وأسرعها تضجعاً في الجنة ضعفاؤها» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: إن لي حرفتين اثنتين... الحديث» وفيه «الفقر والجهاد» لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: أن جبريل نزل فقال: إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً... الحديث، وفيه «إن الدنيا دار من لا دار له... الحديث» هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة: «عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً» الحديث وقال: حسن ولأحمد من حديث عائشة: «الدنيا دار من لا دار له... الحديث» وقد تقدم في ذم الدنيا.

(٤) حديث أبي رافع: ورد على رسول الله ﷺ ضيف لم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر... الحديث في نزول قوله تعالى ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

«الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خدّ الفرس[1]». وقال ﷺ:«من أصبح منكم معافى في جسمه آمناً في سربه عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها[2]». وقال كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحبا بشعار الصالحين.

وقال عطاء الخراساني: مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتاناً، فقال: بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء، ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها. فقال النبي ﷺ: «يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال: رضيت يا رب.

وقال نبينا ﷺ:«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» وفي لفظ آخر: «فقلت أين الأغنياء؟ حبسهم الجد». وفي حديث آخر:«فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ما شأنهن؟ فقيل: شغلهنّ الأحمران الذهب والزعفران[3]». وقال ﷺ:«تحفة المؤمن في الدنيا الفقر[4]».

وفي الخبر: «آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه[5]». وفي حديث آخر «رأيته يدخل الجنة زحفاً[6]».

وقال المسيح ﷺ:بشدة يدخل الغني الجنة.

وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه. قيل: وما اقتناه؟ قال: لم يترك له أهلاً ولا مالاً[7]».

وفي الخبر: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل:مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل:ذنب عجلت عقوبته[8]».

وقال موسى عليه السلام: يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير فقير، فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد، ويمكن أن يراد به الشديد الضر.

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه: إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء، وكان أحب الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال له:يا مسكين. ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً يجيئون إليك ولا نجيء، ونجيء إليك ولا يجيئون، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذرّ وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي ﷺ إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدّة الحر؛ فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتدّ ذلك على الأغنياء منهم الأفرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن

---

(١) حديث: «الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس» رواه الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، رواه ابن عدي في الكامل هكذا.

(٢) حديث: «من أصبح منكم معافى في جسمه... الحديث أخرجه الترمذي وقد تقدم.

(٣) حديث: «أطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء... الحديث» تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره.

(٤) حديث: «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر» رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به، ورواه أبو منصور أيضاً فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جداً.

(٥) حديث: «آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان. الحديث» تقدم، وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد، وفيه نكارة.

(٦) حديث: رأيته يعني عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفاً تقدم وهو ضعيف.

(٧) حديث: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني.

(٨) حديث: «إذا رأيت الفقر مقبلاً مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال: قال رسول الله ﷺ:«أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى...» فذكره بزيادة في أوله. ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم، فأجابهم رسول الله ﷺ أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد؛ فنزل عليه قوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾ يعني الفقراء ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ يعني الأغنياء ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ يعني الأغنياء إلى قوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر[1]﴾ الآية.

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش، فشق ذلك على النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عبس وتولى﴾ أن جاءه الأعمى: وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾ يعني ابن مكتوم ﴿أما من استغنى فأنت له تصدى[2]﴾ يعني هذا الشريف.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك عليّ ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة، اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك فيّ أو كساك فيّ يريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك، والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة[3]».

وقال عليه السلام: «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإنّ لهم دولة». قالوا: يارسول الله، وما دولتهم؟ قال: «إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة[4]». وقال ﷺ: «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال، ونظرت في أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم، ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل؛ فقلت يا رب ما شأنهم؟ قال: أما النساء فأضرّ بهن الأحمران الذهب والحرير، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب، وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف، ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي، فقلت: ما خلفك عني؟ قال: يارسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أني لا أراك، فقلت: ولم؟ قال: كنت أحاسب بمالي[5]». فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله ﷺ وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة[6]، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إلا من قال بالمال هكذا»[7]. ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحدّ.

---

(١) حديث: قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ. اجعل لنا يوماً ولهم يوماً... الحديث في نزول قوله تعالى ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم...﴾ الآية، تقدم من حديث خباب، وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا، وهذه الزيادة من حديث سلمان.

(٢) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى ﴿عبس وتولى﴾ أخرجه الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) حديث: «يوءتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا، فيقول:وعزتي وجلالي ما زويت عنك الدنيا لهوانك علي» الحديث أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف «يقول الله عزّ وجل يوم القيامة ادنوا مني أحبائي، فتقول الملائكة: ومن أحباؤك؟ فيقول: فقراء المسلمين، فيدنون منه فيقول: أما إني لم أزو الدنيا منكم لهوان كان بكم عليّ ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم، فتملوا عليّ ما شئتم اليوم... الحديث دون آخر الحديث، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية، وسيأتي في الحديث الذي بعده.

(٤) حديث: «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة... الحديث» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف «اتخذوا عند الفقراء أيادي، فإن لهم دولة يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: سيروا إلى الفقراء، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في الدنيا.

(٥) حديث: «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي، فنظرت فإذا بلال، ونظرت إلى أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه، وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر.

(٦) حديث: عثمان عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد، قال الترمذي: حسن صحيح.

(٧) حديث: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم.

ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئاً فقال: «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم[(١)]».

وقال ﷺ :«ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره[(٢)]».

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: «يا عمران، إن لك عندنا منزلة وجاها، فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة، فقرع الباب وقال: «السلام عليكم، أأدخل؟» فقالت: ادخل يا رسول الله. قال: «أنا ومن معي؟» قالت: ومن معك يا رسول الله؟ قال: «عمران» فقالت فاطمة: والذي بعثك بالحق نبياً ما عليّ إلا عباءة قال: «اصنعي بها هكذا وهكذا». وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: «شدّي على رأسك» ثم اذنت له فدخل فقال: «السلام عليكم يا أبنتاه، كيف أصبحت؟» قالت: أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «لا تجزعي يا ابنتاه فوالله ماذقت طعاماً منذ ثلاث، وإني لأكرم على الله منك، ولو سألت ربي لأطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا، ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: «أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة» قالت: فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران؟ قال: «آسية سيدة نساء عالمها، ومريم سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب» ثم قال لها: «اقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيداً في الدنيا سيداً في الآخرة[(٣)]».

وروي عن علي كرم الله وجهه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال: بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والخيانة من ولاة الأحكام، والشوكة من الأعداء[(٤)]».

وأما الآثار: فقد قال الدرداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشدّ حبساً أو قال أشدّ حساباً من ذي الدرهم. وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار، فجاء حزيناً كئيباً فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشدّ من ذلك، ثم قال: أريني درعك الخلق فشقه وجعله صرراً وفرقه، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، حتى أنّ الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج[(٥)]».

وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد.

---

(١) حديث: دخل على رجل فقير ولم ير له شيئاً فقال: «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم» لم أجده.

(٢) حديث: «ألا أخبركم عن ملوك الجنة... الحديث» متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصراً ولم يقل «ملوك» وقد تقدم، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ، «ألا أخبركم عن ملوك الجنة... الحديث» دون قوله «أغبر أشعث».

(٣) حديث عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: «يا عمران، إن لك عندنا منزلة وجاهاً، فهل لك في عيادة فاطمة؟ الحديث» تقدم.

(٤) حديث: «إذا بغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جهالة، وهو منكر.

(٥) حديث سعيد بن عامر: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام... الحديث» وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيباً حزيناً وفرقها، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال: «تسعين عاماً» وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه، وفي رواية له «بأربعين سنة» وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه، وقد تقدم.

وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخط، لو كنت غنياً لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله.

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً.

وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر.

وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وفي الأخبار عن الكتب السالفة: أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صبا.

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرّق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما، وإنّ درعها لمرقوع، وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحمًا تفطرين عليه! وكانت صائمة، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله ﷺ وقال: «إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه[1]».

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً - رضي الله عنه.

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به[2]». وقال ﷺ: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا[3]». فالأوّل القانع وهذا الراضي، ويكاد يشعر هذا بمفهومه: أنّ الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أنّ له ثواباً كما سيأتي تحقيقه، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة[4]».

وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى[5]». وقال ﷺ: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً[6]». وقال: «ما من أحد غني ولا

---

(١) حديث: قال لعائشة: «إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء... الحديث» أخرجه الترمذي وقال غريب، والحاكم وصححه نحواً من حديثها، وقد تقدم.

(٢) حديث: «طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به» رواه مسلم، وقد تقدم.

(٣) حديث: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم... الحديث» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وهو ضعيف جداً، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث.

(٤) حديث: «إن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجنة حب المساكين... الحديث» رواه الدارقطني في غرائب مالك، وأبو بكر ابن الهلال في مكارم الأخلاق، وابن عدي في الكامل، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر.

(٥) حديث: «أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله» لم أجده بهذا اللفظ، وتقدم عند ابن ماجه حديث «إن الله يحب الفقير المتعفف».

(٦) حديث: «اللهم إجعل رزق آل محمد كفافاً» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بلفظ «قوتاً» وقد تقدم.

فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا[1]». وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون. وقال ﷺ: «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً[2]». وقال ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: ومن هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدري، أدخلوهم الجنة. فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون[3]». فهذا في القانع والراضي. وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أنّ القناعة يضادها الطمع. وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الطمع فقر واليأس غنى، وإنه من ييئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم.

وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان؛ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال نعم. قال فشبعت؟ قال نعم، قال ثم نمت طيبا؟ قال نعم. فقال إبراهيم في نفسه، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى. قال من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال الحسن رحمه الله: لعن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدّقوه، ثم قرأ: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾.

وكان أبو ذرّ رضي الله عنه يوماً جالساً في الناس فأتته امرأته فقالت له: اتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة، فقال: يا هذه، إن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا ينجو منها إلا كل مخف، فرجعت وهي راضية.

وقال ذو النون رحمه الله: أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له. وقيل لبعض الحكماء: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس.

وروي أنّ الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك.

---

(١) حديث: «ما من أحد غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا» أخرجه إبن ماجه من حديث أنس. وقد تقدم.

(٢) حديث: «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً» لم أجده بهذا اللفظ.

(٣) حديث: «يقول الله يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: ومن هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين... الحديث» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

وقد قيل في القناعة:

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس ... واقنع بيأس فإن العز في الياس
واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... إن الغني من استغنى عن الناس

وقد قيل في هذا المعنى أيضاً:

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه ... مقدرا أي باب منه يغلقه
مفكراً كيف تأتيه منيته ... أغاديا أم بها يسرى فتطرقه
جمعت مالا فقل لي هل جمعت له ... يا جامع المال أياماً تفرّقه
المال عندك مخزون لوارثه ... ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة ... أنّ الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه ... والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يبق في ظلها هم يؤرقه

بيان فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أنّ الناس قد اختلفوا في هذا، فذهب الجنيد والخوّاص والأكثرون إلى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء: الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر. ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته محنة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبينا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر ـ ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأنّ ذلك لا يمكن إلا بتفصيل.

فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقاً لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر، ولا بدّ فيه من تفصيل فنقول إنما يتصوّر الشك في مقامين (أحدهما) فقير صابر ليس بحريص على الطلب، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ليس حريصاً على إمساك المال (والثاني) فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أنّ الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص، أما الأوّل فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير، لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال، والغني متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه، وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه، فأما الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصوّر أن يفضل على الفقير القانع، وقد يشهد له ما روي في الخبر: أنّ الفقراء شكوا إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد، فعلمهم كلمات في التسبيح، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه، فعاد الفقراء إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال عليه السلام: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[1]».

وقد استشهد ابن عطاء أيضاً لما سئل عن ذلك فقال: الغنى أفضل لأنه وصف الحق، أما دليله الأوّل ففيه نظر؛ لأنّ الخبر قد ورد مفصلاً تفصيلاً يدل على خلاف ذلك: وهو أنّ ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني، وأنّ فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث الفقراء رسولاً إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رسول الفقراء إليك؛ فقال: «مرحباً بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم». قال: قالوا يا رسول الله إنّ الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم؛ فقال النبي ﷺ: «بلغ عني الفقراء أنّ لمن صبَر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء: أما خصلة واحدة: فإن في الجنة غرفاً ينظر إليها أهل

---

(١) حديث: شكى الفقراء إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات. . . الحديث، وفي آخر: فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه.

الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخلها إلا نبي فقير، أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير، والثانية: يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، والثالثة؛ إذا قال الغني: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البر كلها» فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ، فقالوا: رضينا رضينا[1]. فهذا يدل على أنّ قوله: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم. وأما قوله: إنّ الغنى وصف الحق، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال: أترى أنّ الله تعالى غني بالأسباب والأعراض، فانقطع ولم ينطق، وأجاب آخرون فقالوا: إنّ التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، ثم قالوا: بل هذا يدل على أنّ الفقر أفضل لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال تعالى فيما روي عن نبينا ﷺ: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته[2]». وقال سهل: حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها، إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر، فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى، والجهل والغفلة وصف العبد، وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر: وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، ولا الفقر مطلوباً لعينه لكن لأنّ فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه، وكم من غني لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل كما الغني قد يكون من الشواغل، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب، والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها؛ فإذن إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد؛ إذ فتنة السراء أشدّ من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا يقدر، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر. وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادراً.

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر ـ والضراء أصلح للكل دون النادر ـ زجر الشرع عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه، حتى قال المسيح عليه السلام: لا تنظروا إلى أموال اهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم.

---

(١) حديث زيد بن أسلم عن أنس: بعث الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولاً: إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا تقدر عليه... الحديث، وفيه «بلغ عني الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء... الحديث». لم أجده هكذا بهذا السياق، والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل الله به عليهم أغنياءهم، فقال: «يا معشر الفقراء ألا أبشركم إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام» وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري» تقدم في العلم وغيره.

وقال بعض العلماء: تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان.

وفي الخبر: «إنّ لكل أمة عجلا وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم[١]». وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضاً، واستواء المال والماء، والذهب والحجر إنما يتصوّر للأنبياء عليهم السلام والأولياء؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة، إن كان النبي ﷺ يقول للدنيا: «إليك عني[٢]». إذ كانت تتمثل له بزينتها. وكان علي كرم الله وجهه يقول: يا صفراء غري غيري، ويا بيضاء غري غيري، وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادىء الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه، وذلك هو الغنى المطلق، إذ قال عليه الصلاة والسلام: «ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس[٣]». وإذا كان ذمك بعيداً فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدّقوا به وصرفوه إلى الخيرات، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم، وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة؟ وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله، إذ لا يتصوّر قلب فارغ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان، فالمتردد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها، فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور، فإنّ الغني ربما يظنّ أنه منقطع القلب عن المال، ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده، فليجرّب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه، فإن وجد لقلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغروراً، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كنت مستكنه فيه، فتحقق إذن أنه كان مغروراً، وأنّ العشق كان مستكناً في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء، وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل، لأنّ علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإنّ حركات اللسان ليست مرادة لأعيابها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول، ولذلك قال بعض السلف: مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها: أفضل من عبادة غني ألف عام.

وعن الضحاك قال: من دخل السوق فرأى شيئاً يشتهيه فصبر واحتسب، كان خيراً له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى.

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله: ادع الله لي فقد أضر بي العيال فقال: إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت، فإنّ دعاءك أفضل من دعائي. وكان يقول: مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء. وقد كانوا يكرهون سماع علم

---

(١) حديث: «لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم» رواه أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة.

(٢) حديث: كان يقول للدنيا: «إليك عني. . . الحديث» رواه الحاكم مع اختلاف. وقد تقدم.

(٣) حديث: «ليس الغنى عن كثرة العرض. . . الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي، والزهد فيما جاوز الكفاف. وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أنّ فقد المال أصلح من وجوده هذا، مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالاً وينفق طيباً، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره، ومن نوقش الحساب فقد عذب، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولاً بالحساب كما رآه رسول الله ﷺ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أحب أنّ لي حانوتاً على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين ديناراً وأتصدّق بها في سبيل الله تعالى: قيل: وما تكره؟ قال: سوء الحساب. ولذلك قال سفيان رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء: اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب، وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح، ولكن إذا كان العبد غنياً عن وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوي عنده كلاهما. فأما إذا كان غنياً بوجوده ومفتقراً إلى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى، لأن الله تعالى غني بذاته لا بما يتصوّر زواله والمال يتصوّر زواله بأن يسرق، وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنياً بالاعراض والأسباب صحيح في ذم غني يريد بقاء المال، وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد، بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى. وقد سمعت بعض المشايخ يقول: إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له: أي يكون له من كل واحد نصيب، وأما التكبر فلا يليق بالعبد، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به نعم قد يراد التكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر، والمطيع أكبر من العاصي، والعالم أكبر من الجاهل، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات، وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة في حقه، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقوف على الخاتمة، وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر؛ إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر، فلم يكن ذلك لائقاً به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصوّر أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كمالاً في حقه لأنه في صفات الله تعالى، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصاناً في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصوّر في العبد من صفات الله تعالى، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء، فإذن لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهنا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغني الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة، أما الغني بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلاً، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغني الشاكر.

المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريص

ولنفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده، فله حالة الفقد وحالة الوجود، فأي حالتيه أفضل؟ فنقول: ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بدّ منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل، لأنّ الفقر يشغله بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل؛ والمكفي هو القادر، ولذلك قال ﷺ: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا» وقال: «كاد الفقر أن يكون كفراً». أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بدّ منه. وإن كان المجلوب فوق

الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين؛ فحالة الفقر أفضل وأصلح، لأنهما استويا في الحرص وحب المال، واستويا في أنّ كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرّض لمعصية بسبب الفقر والغنى؛ ولكن افترقا في أنّ الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي ينبغي الخلاص منه، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشدّ ركوناً إلى الدنيا؛ فحاله أشدّ لا محالة؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا، وقد قال ﷺ: «إنّ روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه[1]». وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه؛ وكل من فارق محبوباً فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصاً عليها، فإذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين: أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم، فيكون الوجود مزيداً له؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم؛ والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفراً، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصي؛ ولو مات جوعاً لكانت معاصيه أقل؛ فالأصلح له أن يموت جوعاً ولا يجد ما يضطرّ إليه أيضاً؛ فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر. ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه، وفي غني دونه في الحرص على حفظ المال، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره، فهذا في محل النظر، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوّة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده؛ والعلم عند الله تعالى فيه.

بيان آداب الفقير في فقره

اعلم أنّ للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها.

فأما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ـ وإن كان كارهاً للفقر ـ كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجام ولا كارهاً للحجام، بل ربما يتقلد منه منة، فهذا أقل درجاته وهو واجب، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر، وهو معنى قوله عليه السلام: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا» وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به، وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعلمه بغوائل الغنى، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف. وقد قال علي كرّم الله وجهه: إنّ لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علاماته ـ إذا كان عقوبة ـ أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء، وهذا يدل أنّ كل فقير فليس بمحمود، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته، إذ قيل: ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له: خذه على ثلاثة أثلاث: شغل وهم وطول حساب.

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففي الحديث: «إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال». وقال تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من

---

(١) حديث: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقة» تقدم

التعفف﴾. وقال سفيان: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة. وقال بعضهم: ستر الفقر من كنوز البر.

وأما في الأعمال فأدبه: أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، بل يتكبر عليه. قال علي كرّم الله وجهه: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عزوجل، فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادىء الطمع. قال الثوري رحمه الله: إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. وقال بعض العارفين: إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضل. وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء ,طمعاً في العطاء.

وأما أدبه في أفعاله: فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإنّ ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غني: روى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم» قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدّق بها، وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف[1]». وينبغي أن لا يدّخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي، وفي الادخار ثلاث درجات: (إحداها) أن لا يدّخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصدّيقين، (والثانية) أن يدّخر لأربعين يوماً فإنّ ما زاد عليه داخل في طول الأمل، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوماً، وهذه درجة المتقين. (والثالثة) أن يدّخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته، وغنى الخصوص في أربعين يوماً، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة. وقد قسم النبي ﷺ نساءه على مثل هذه الأقسام، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل، وبعضهن قوت أربعين يوماً وليلة وهو قسم عائشة وحفصة.

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال. وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه، وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب.

وأما غرض المعطى فلا يخلو: إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة، والذكر والرياء والسمعة إما على التجرّد وإما ممزوجاً ببقية الأغراض.

أما الأوّل ـ وهو الهدية ـ فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ[2]. ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة، فإن كان فيها منة فالأولى تركها، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض؛ فقد أهدي إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش، فقبل السمن والأقط ورد الكبش[3]. وكان ﷺ يقبل من بعض

---

(١) حديث زيد بن أسلم: «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف» قيل: وكيف يا رسول الله؟ قال: «أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف... الحديث» أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة متصلاً، وقد تقدم في الزكاة، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلاً.

(٢) حديث أن قبول الهدية سنة: تقدم أنه ﷺ كان يقبل الهدية.

(٣) حديث: أهدى إلى النبي ﷺ سمن وأقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد الكبش. أخرجه أحمد في أثناء حديث ليعلي بن مرة: وأهدت إليه كبشين وشيئاً من سمن وأقط، فقال النبي ﷺ «خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر» وإسناده جيد. وقال وكيع: مرة عن يعلي بن مرة عن أبيه.

الناس ويرد على بعض[1]. وقال: «لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي[2]». وفعل هذا جماعة من التابعين. وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسين درهماً فقال: حدثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال: «من أتاه رزق من غير مسألة فرده فأنما يرده على الله[3]». ثم فتح الصرة فأخذ منا درهماً ورد سائرها. وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضاً ولكن حمل إليه رجل كيساً ورزمة من رقيق ثياب خراسان، فرد ذلك وقال: من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق. وهذا يدل على أنّ أمر العالم والواعظ أشدّ في قبول العطاء. وقد كان الحسن يقبل من أصحابه. وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول: اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا، وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته، فإن علم أنه يمازجه منه فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين. وقال بشر: ما سألت أحداً قط شيئاً إلا سريا السقطى لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب. وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال: أفرّقه على الفقراء، فقال: ما أريد هذا. قال:ومتى أعيش حتى آكل هذا؟ قال: ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلاوت والطيبات، فقبل ذلك منه، فقال الخراساني: ما أجد في بغداد أمن علي منك، فقال الجنيد: ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك.

الثاني: أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة. وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارفاً لمعصية في السر يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرّب إلى الله بالتصدق عليه، فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن، فإنّ أخذه حرام محض لا شبهة فيه.

الثالث: أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله، إذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد. وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول: لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت. وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال: إنما أرد صلتهم إشفاقاً عليهم ونصحاً لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بدّ منه أو هو مستغن عنه، فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ، قال النبي ﷺ: «ما المعطي من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجاً[4]». وقال ﷺ: «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا

---

(١) حديث: كان يقبل من بعض الناس ويرد علي بعض رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة، «وأيم الله لا أقبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجرياً. . . الحديث» فيه محمد بن إسحق ورواه بالعنعنة.

(٢) حديث: «لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: روى من غير وجه عن أبي هريرة، قلت: ورجاله ثقات.

(٣) حديث عطاء مرسلاً: «من أتاه رزق من غير وسيلة فرده فإنما يرد على الله عزّ وجل» لم أجده مرسلاً هكذا، ولأحمد وأبي يعلي والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهنمي (من بلغه معروف من أخيه من غير مسئلة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه) ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة «من آتاه الله من هذا المال شيئاً من غير أن يسأله فيقبله» وفي الصحيحين من حديث عمر «ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه الحديث».

(٤) حديث: «ما المعطي من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً» رواه الطبراني من حديث ابن عمر، وقد تقدم في الزكاة.

استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه[1]». وفي لفظ آخر «فلا يرده». وقال بعض العلماء: من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط. وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئاً فرده مرة، فقال له السري: يا أحمد، احذر آفة الرد فإنها أشدّ من آفة الأخذ، فقال له أحمد: أعد علي ما قلت! فأعاده، فقال أحمد: ما رددت عليك إلا لأنّ عندي قوت شهر، فاحبسه لي عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلي، وقد قال بعض العلماء: يخاف في الرد مع الحاجة عقوب من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أوغيره؛ فأما إذا كان ما أتاه زائداًعلى حاجته فلا يخلو: إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالباً طريق الآخرة، فإنّ ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ثم له مقامان: (أحدهما) أن يأخذ في العلانية ويرد في السر، أو يأخذ في العلانية ويفرّق في السر، وهذا مقام الصديقين؛ وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من آطمأنت نفسه بالرياضة. (والثاني) أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه. أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية؛ وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمهما الله، فإنما كان لاستغنائه عنه، إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره؛ فإنّ في ذلك آفات وأخطاراً، والورع يكون حذراً من مظانّ الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه، وقال بعض المجاورين بمكة: كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي: أنا جائع كما ترى عريان كما ترى، فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه، فقلت في نفسي: لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هذا؛ فحملتها إليه، فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال: أربعة ثمن مئزرين، ودرهم أنفقه ثلاثة فلا حاجة بي إلى الباقي فرده. قال: فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان، فهجس في نفسي منه شيء. فالتفت إلي فأخذ بيدي. فأطافني معه أسبوعاً كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين: منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، ولم يظهر ذلك للناس، فقال. هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأنّ هذه أثقال وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة، والمقصود من هذا: أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقاً بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء. قال الله تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾. وقد قال ﷺ: «لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يسكنه، فما زاد فهو حساب[2]».

فإذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرّض للحساب، وإن عصيت الله فأنت متعرّض للعقاب. ومن الاختبار أيضاً: أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرّباً إلى الله تعالى وكسراً لصلة النفس فتأتيك عفواً صفواً لنمتحن بها قوّة عقلك، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها، فرّد ذلك مهم وهو الزهد، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصدّيقون: وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدّخره، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار، فربما يحلو في قلبك

---

(١) حديث: «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه» وفي لفظ أخر «فلا يرده» تقدما قبل هذا بحديث.

(٢) حديث: «لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب» أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال: «وجاف الخبز والماء» بدل قوله «طعام يقيم صلبه» وقال صحيح.

فتمسكه فيكون فتنة عليك. وقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك. و من كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظنّ بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة، فإن رزقه الله من حلال قضاه، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة، وقد قال تعالى: ﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾. قيل معناه: ليبع أحد ثوبيه. وقيل معناه فليستقرض بجاهه، فذلك مما آتاه الله. وقال بعضهم: إن لله تعالى عباداً ينفقون على قدر بضائعهم، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظنّ بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف: الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء، فقيل: من هؤلاء؟ فقال: أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى، وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله تعالى، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى، فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطى فليأخذه، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي؛ لأن المعطي واسطة قد سخر للعطاء، وهو مضطرّ إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات. وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقاً في خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة، فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول: من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدّمته فطعامي عليه حرام، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شاباً منهم كان دونهم في الدرجة، فقال صاحب المنزل الشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم. وقال موسى عليه السلام: يا رب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوماً ويعشيني هذا ليلة؟ فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي، أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه.

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة؛ وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة إذ قال ﷺ «للسائل حق ولو جاء على فرس[1]». وفي الحديث «ردوا السائل ولو بظلف محرق[2]». ولو كان السؤال حراماً مطلقاً لما جاز إعانة المتعدّى على عدوانه والإعطاء إعانة، فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بد فهو حرام، وإنما قلنا أن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة.

(الأول) إظهار الشكوى من الله تعالى، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو من الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيده، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة.

(الثاني) أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤول.

---

(١) حديث: «للسائق حق إن جاء على فرس» رواه أبو داود من حديث الحسين بن علي، ومن حديث علي، وفي الأول يعلي بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بلغة عن أحمد بن حنبل قال: أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها «للسائل حق. . . الحديث» فإنه لا يصح عن أحمد، فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده.

(٢) حديث: «ردوا السائل ولو بظلف محرق» رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، والنسائي واللفظ له من حديث أم بجيد. وقال ابن عبد البر. حديث مضطرب.

(الثالث) أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله ﷺ:«مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها[1]» فانظر كيف سماها فاحشة، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال ﷺ:«من سأل عن غني فإنما يستكثر من جمر جهنم[2]». «ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم» وفي لفظ آخر «كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه[3]». وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد. وبايع رسول الله ﷺ قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئاً[4]». وكان ﷺ يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ويقول:«من سألنا أعطيناه؛ ومن استغنى أغناه الله، ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا[5]». وقال ﷺ:«استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير» قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومني[6]». وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه: عش الرجل، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال: ألم أقل لك عش الرجل؟ قال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال: لست سائلاً ولكنك تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرّة وقال: لا تعد. ولولا أنّ سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخلاته، ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول: أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير، وأما أخذه ماله فهو مصادرة و الشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازة؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده؟ أفترى أنه لم يعلم أنّ المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضباً في معصية الله وحاشاه، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله، وهيهات فإن ذلك أيضاً معصية، بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنياً عن السؤال، وعلم أن من أعطاه شيئاً فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج، وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم، فبقي مالاً لا مالك له، فوجب صرفه إلى المصالح، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذباً كأخذ العلوي بقوله إني علوي وهو كاذب. فإنه لا يملك ما يأخذه، كأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه ـ وقد ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا

---

(١) حديث: «مسئلة الناس من الفواحش، وما أحل الله من الفواحش غيرها» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم. . . الحديث» رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية «مقتصراً على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة، ولمسلم من حديث أبي هريرة:«من يسأل الناس أموالهم تكثر فإنما يسأل جمراً. . . الحديث». وللبزار والطبراني من حديث مسعود بن عمر: «ولا يزال العبد يسأل وهو غني حتى يخلق وجهه» وفي إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم» وإسناده جيد.

(٣) حديث: «من سأل وله ما يغنيه كانت مسئلته خدوشاً وكدوحاً في وجهه» رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود، وتقدم في الزكاة.

(٤) حديث: بايع قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفية:«ولا تسألوا الناس شيئاً» أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي.

(٥) حديث: «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا» أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه، وباقيهم ثقات.

(٦) حديث: «إستغنوا عن الناس وما قلّ من السؤال فهو خير. . . الحديث» أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس «استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك، وإسناده صحيح، وله في حديث «فتعففوا ولو بحزم الحطب» وفيه من لم يسم، وليس فيه: وما قلّ من السؤال. . . الخ.

يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء، وقد قرّرناه في مواضع، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر.

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة، فاعلم أن الشيء. إما أن يكون مضطراً إليه، أو محتاجاً إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة. أو مستغنى عنه، فهذه أربعة أحوال.

أما المضطرّ إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحاً، والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب، فإن القادر على الكسب وهو بطال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة.

وأما المستغني فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله وأمثاله، فسؤاله حرام قطعاً، وهذان طرفان واضحان.

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف، وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي إلى حدّ الضرورة، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة، فهذا أيضاً ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضاً حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروهاً مهما صدق في السؤال وقال: ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أطيقه ولكن يشق علي، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى.

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤال قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسئول فهو حرام، لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة.

فإن قلت: فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج، ولكن يقول: أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة للنفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس، فيخرج به عن حدّ الشكوى، وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله، أو الرجل السخي الذي قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك، فإنّ الذل لازم للمنة لا محالة. وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصاً بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضاً بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة، وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام، فهذا إيذاء، فإنه ربما يبذل كرهاً خوفاً من الملامة، ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة. وأما إذا كان يسأل شخصاً معيناً فينبغي أن لا يصرح بل يعرض تعريضاً يبقى له سبيلاً إلى التغافل إن أراد، فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذ به، و ينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه، فإنّ الحياء من السائل يؤذي كما أنّ الرياء مع غير السائل يؤذي.

فإن قلت: فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة؟ فأقول: ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام، وضرب الباطن أشدّ نكاية في قلوب العقلاء، ولا يجوز أن يقال: هو في الظاهر قد رضي به وقد

قال ﷺ «إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر[1]». فإن هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات، إذلا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال، فاضطرّوا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب، ولكن الضرورة دعت إليه، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى، والحاكم فيه أحكم الحاكمين، والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك، فإنّ المفتى معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة، ومفتى القلوب هم علماء الآخرة، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة، كما أنّ بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فإذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه، فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى.

* فإن قلت: فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه، فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضياً؟ فأقول: لهذا ترك المتقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السري رحمة الله عليهما وقال: لأني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب، وإنما عظم النكير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا، لأنّ الأذى إنما يحل بضرورة: وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة، فكان الامتناع طريق الورعين، ومن أرباب القلوب من كان واثقاً ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه، ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضاً ويرد بعضاً، كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأقط، وكان هذا يأتيهم من غير سؤال، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة، ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاه أو طلباً للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلا في موضعين: أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة: سليمان، وموسى، والخضر عليهم السلام. ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم. والثاني: السؤال من الأصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال، وحدّ إباحة السؤال أن تعلم أن المسؤول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتداك دون السؤال، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك، فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن، وحالة لا يشك في الكراهة، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق، وفي الثانية سحت، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته، فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله ﷺ: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه[2]». وقد أوتي جوامع الكلم، لأنّ من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أيدي الناس، وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطي بدينه، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطي بدينه فيكون ما يأخذه حراماً، وإن

---

(١) حديث: «إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر» لم أجد له أصلاً، وكذا قال المزي لما سئل عنه.

(٢) حديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه» تقدم.

أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل؟ وأين من يقتصر في السؤال على حدّ الضرورة، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أنّ جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأنّ الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو مورّثك، فإذن بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده، فإنه على ما يشاء قدير.

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله ﷺ:«من سأل عن ظهر غني فإنما يسأل جمرا فليستقل منه أو ليستكثر» صريح في التحريم، ولكن حدّ الغني مشكل وتقديره عسير، وليس إلينا وضع المقادير، بل يستدرك ذلك بالتوفيق، وقد ورد في الحديث «استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره. قالوا: وما هو قال: غداء يوم وعشاء ليلة[1]». وفي حديث آخر «من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافاً[2]». وورد في لفظ آخر:«أربعون درهماً» ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة، فإنّ الحق في نفسه لا يكون إلا واحداً والتقدير ممتنع، وغاية الممكن فيه تقريب، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين، فنقول: قال رسول الله ﷺ:«لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري به عورته، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب» فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضاً. وأما المقادير فالثوب يراعي فيه ما يليق بذوي الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعاً، ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفر فيما يكفي فيه الخزف، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه مالم يكن في غاية البعد عن العادة. وأما الطعام فقدره في اليوم مدّ وهو ما قدّره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير. والأدم على الدوام فضلة، وقطعة بالكلية إضرار، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة. وأما المسكن فأقله ما يجزىء من حيث المقدار وذلك من غير زينة. فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غني، وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شك فيه. فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات:(إحداها) ما يحتاج إليه في غد (والثانية) ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين يوماً. (والثالثة) ما يحتاج إليه في السنة، ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنه فسؤاله حرام، فإن ذلك غاية الغني وعليه ينزل التقدير بخمسين درهماً في الحديث، فإن خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة، فإن كان قادراً على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر. وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال، لأنّ أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطراً عاجزاً عما يعينه، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية، وتكون

---

(١) حديث: «استغنوا بغنى الله» قالوا: وما هو؟ قال: «غداء يوم وعشاء ليلة» تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا: ما يغنيه؟ قال: «ما يغديه أو يعشيه» ولأحمد من حديث علي بإسناد حسن: قالوا وما ظهر غني؟ قال: «عشاء ليلته» وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافاً» وفي لفظ آخر «أربعون درهماً» تقدما في الزكاة.

كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدّة التي فيها يحتاج إلى السؤال، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى، فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكاً طريق الآخرة، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ وقال عز وجل: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشدّ من حال من ملك مالاً موروثاً وادخره لحاجة وراء السنة، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ، فهذا مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ، فهذا مع المقرّبين في جنات الفردوس. وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين.

فإذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة.

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال: تركتهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا - وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء، فقال شقيق: هكذا تركت كلاب بلخ عندنا، فقال له إبراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال: الفقراء عندنا إن منعوا شكروا، وإن أعطوا آثروا. فقبل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ.

فإذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة، فلا بدّ لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها، ومن أسفل سافلين إلى أعلى أعليين، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد إلى أسفل سافلين، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعاً، وإنما الشك فيمن عرف ذلك، فإنه ربما لا يقدر عليه، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيداً لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإنّ مثل هذه الأعمال بالنيات، وذلك كما روي: أنّ بعضهم رأى أبا إسحاق النوري رحمه الله يمدّ يده ويسأل الناس في بعض المواضع، قال: فاستعظمت ذلك واستقبحته له، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال: لا يعظم هذا عليك، فإنّ النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم، وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم. وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ: «يد المعطى هي العليا[1]». فقال بعضهم: يد المعطى هي يد الآخذ للمال لأنه يعطي الثواب والقدر له لا لما يأخذه، ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال: احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره، فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم؟ واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى النوري فقال: هات الميزان، فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئاً وأخذ ما زاد على المائة قال: فزاد تعجبي، فسألته فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه: وزن المائة لنفسه طلباً لثواب الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عزوجل فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ماجعله لنفسه. قال: فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال: أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم

---

(١) حديث: «يد المعطى هي العليا» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل، كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه. و من أنكره بعد أن طال أجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً، وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خالياً عن حظ واف من الجهل، بل البصير أحد رجلين: إما رجل سالك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين، ولعلم اليقين أيضاً رتبة وإن كان دون عين اليقين، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين:﴿آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾.

الشطر الثاني من الكتاب في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد، وبيان فضيلة الزهد، وبيان درجات الزهد واقسامه، وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والمسكن والأثاث وضروب المعيشة، وبيان علامة الزهد.

بيان حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل، وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مراداً لعينه، وإن لم يكن صادراً عن حال سمي إسلاماً ولم يسم إيماناً والعلم هو السبب في حال يجري مجرى المثمر، والعمل يجري من الحال مجرّى الثمرة، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل: أما الحال فنعني بها ما يسمى زاهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره؛ فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زاهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً، فإذن يستدعي حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من الموغوب عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً، إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهداً، وإنما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من المبيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحباً، ولذلك قال الله تعالى : ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾ معناه باعوه، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم؛ وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعاً في العوض، فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطن خاصة وإن كان هو للميل في وضع اللسان. ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصوّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال، والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضاً زاهد ولكنه

دون الأول، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقاً، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهد صحيح، كما أنّ التوبة عن بعض المعاصي صحيحة، فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات. فإذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال، وبالترك يتبين زوال الرغبة، ولذلك قيل لابن المبارك: يازاهد، فقال :الزاهد عمر بن عبد العزيز إذا جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففي ماذا زهدت؟. وأما العلم الذي هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصوّر أن تزول الرغبة عن المبيع، فكذلك من عرف أنّ ما عند الله باق وأنّ الآخرة خير وأبقى، أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى، كما تكون الجواهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً. ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلىء، فهكذا مثال الدنيا والآخرة، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة، حتى إنّ من قوى يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله تعالى: ﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى: ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به﴾ فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر: وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا، إما لضعف علمه ويقينه، وإما لاستسلام الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت: وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عزوجل: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير﴾ فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه، ولما لم يتصوّر الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له النبي ﷺ :«لا تقل هكذا، ولكن قل: أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك[1]». وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير. والعبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً، لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس، والله تعالى غني بذاته عن كل ما هو سواه، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراه متفاوتاً بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدّماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات، ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن؛ فإذا وفى بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به؛ فإن الذي بايعه بهذا

---

(١) حديث: قال رجل: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له: «لا تقل هكذا، ولكن قل: أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك» ذكره صاحب الفردوس مختصراً «اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك» من حديث أبي القصير ولم يخرجه ولده.

البيع وفى بالعهد، فمن سلم حاضرا في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد، وما دام ممسكاً للدنيا لا يصح زهده أصلاً، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا: ﴿ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾ وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك، ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه، بل عند التسليم والبيع، فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج: فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد، لأن ما لا يقدر عليه لا يقوى على تركه، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله، فإنك إذا لم تجرّب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدّر ولا خوف من الخلق وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات، فإياك أن تثق بوعدها في المباحات، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها، أن تجرّبها مرة بعد مرة في حال القدرة، فإذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما، ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة. قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة: ألا ترى إلى ان ابن الحائك هذا لا نفتي في مسألة إلا رد علينا ـ يعني أبا حنيفة، فقال ابن شبرمة: لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها، وهربت منا فطلبناها، وكذلك قال جميع المسليمن على عهد رسول الله ﷺ: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم[1]﴾. قال ابن مسعود رحمه الله: قال لي رسول الله ﷺ: أنت منهم ـ يعني من القليل. قال: وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾[2]. واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوّة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة؛ فأما كل نوع من الترك فإنه يتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة؛ فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق، ولكن لا يكون زهداً؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ واهنأ من المال، و كما أن ترك ا لمال على سبيل السلم طمعاً في العوض ليس من الزهد، فكذلك تركه طمعاً في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لما في حفظ المال من المشقة والعناء، والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلاً، بل هو استعجال حظ آخر للنفس؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفواً عفواً وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا قوات حظ للنفس، فتركها خوفاً من أن يأنس بها، فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله، ويكون مشركاً في حب الله تعالى غيره. أو تركها طمعاً في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة، وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعاً في الحور العين، وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة

---

(١) ـ حديث قال المسلمون: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه، حتى نزل قوله تعالى ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾ الآية: لم أقف له على أصل.

(٢) حديث إبن مسعود: ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ الآية أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن.

على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفواً لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى، وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً.

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته .. إلى قوله تعالى.. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن﴾ فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء، وقال تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا. وقال عزوجل:﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ قيل: معناه أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال. وقال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ وقال تعالى: ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ فوصف الكفار بذلك، فمفهومه أنّ المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا.

وأما الأخبار: فما ورد منها في ذم الدنيا كثير، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربع المهلكات، إذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات، وهو المعني بالزهد، وقد قال رسول الله ﷺ:«من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرّق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة[(١)]». وقال ﷺ:«إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتاً وزهداً في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة[(٢)]». وقال تعالى : ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ ولذلك قيل:من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال:قلنا:يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان قلنا: يا رسول الله وما محموم القلب؟ قال: «التقى النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد» قلنا: يا رسول الله، فمن على أثره؟ قال: «الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة[(٣)]». ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا. وقال ﷺ:«إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا[(٤)]». فجعل الزهد سبباً للمحبة، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات، ومفهومه أيضاً أن من محب الدنيا متعرّض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت «الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة، فأن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا[(٥)]». ولما قال حارثة لرسول الله ﷺ: أنا مؤمن حقاً قال: «وما حقيقة إيمانك؟» قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزاً، فقال ﷺ:«عرفت فالزم عبد نوّر الله قلبه بالإيمان[(٦)]». فانظر كيف

---

(١) حديث: «من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه.

(٢) حديث: «إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة» رواه إبن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف.

(٣) حديث: قلنا يا رسول الله وما محموم القلب؟ قال: «التقي النقي... الحديث» رواه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله: يا رسول الله فمن على أثره، وقد تقدم، ورواه بهذه الزيادة بالإسناد المذكور الخرائطي في مكارم الأخلاق.

(٤) حديث: «إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا» رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه، وقد تقدم.

(٥) حديث: «الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة، فإن صادقا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا» لم أجد له أصلاً.

(٦) حديث: لما قال له حارثه: أنا مؤمن حقاً، فقال: «وما حقيقة إيمانك... الحديث» أخرجه البزار من حديث أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك، وكلا الحديثين ضعيف.

بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين، وكيف زكاه رسول الله ﷺ إذ قال: عبد نوّر الله قلبه بالإيمان. ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ وقيل له: ما هذا الشرح؟ قال: «إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح» قيل: يا رسول الله. وهل لذلك من علامة؟ قال: «نعم، التجافي عن دار الغرور؛ والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله[1]» فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للاسلام وهو التجافي عن دار الغرور؟ وقال ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء قالوا: إنا لنستحي منه تعالى، فقال: «ليس كذلك تبنون مالا تسكنون» وتجمعون مالا تأكلون[2]». فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال: «وما علامة إيمانكم؟» فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبنوا مالاتسكنون، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون[3]». فجعل الزهد تكملة لإيمانهم. وقال جابر رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة» فقام إليه علي كرّم الله وجهه فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله مالا يخلط بها غيرها؟ صفة لنا فسره لنا، فقال «حب الدنيا طلباً لها واتباعاً لها، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبابرة، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة[4]». وفي الخبر: «السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن، والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك [5]». وقال أيضاً: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار[6]». والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد. والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة. وروى عن ابن المسيب عن أبي ذرّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرّفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام[7]». وروى أنه ﷺ مر في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر، واعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: ﴿وإذا العشار عطلت﴾ قال: فأعرض عنها رسول الله ﷺ وغض بصره، فقيل له: يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها؟ فقال: «قد نهاني الله عن ذلك» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به﴾ الآية[8]. وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: ألا تستطعم الله فنطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع؛ فقال: يا عائشة، والذي نفسي بيده

---

(١) حديث: سئل عن قوله تعالى ﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾. . . الحديث. أخرجه الحاكم، وقد تقدم.

(٢) حديث: «استحيوا من الله حق الحياء. . . الحديث» رواه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف.

(٣) حديث: لما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال: «وما علامة إيمانكم. . . الحديث» رواه الخطيب وابن عساكر في تاريخهما بإسناد ضعيف من حديث جابر.

(٤) حديث جابر: «من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئاً وجبت له الجنة» لم أره من حديث جابر، وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف.

(٥) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن. . . الحديث» ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٦) حديث: «السخي قريب من الله. . . الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٧) حديث أبي ذر: «من زهد الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه. . . الحديث» لم أره من حديث أبي ذر، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلاً، ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري: «من زهد في الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه وعلى لسانه» وقال: حديث منكر. وقال الذهبي: بباطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصراً من حديث أبي أيوب «من أخلص لله» وكلها ضعيفة.

(٨) حديث: مر في أصحابه بشار من النوق حفل. . . الحديث. وفيه: ثم تلا قوله تعالى ﴿ولا تمدن عينيك﴾ الآية: لم أجد له أصلاً.

لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجرها حيث شئت من الأرض؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها؛ يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد؛ يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض إلا أن يكلفني ما كلفهم؛ فقال: ﴿فاصبر كما صبرأولوا العزم من الرسل﴾ والله مالي بد من طاعته وإني والله لأصبرنّ كما صبروا بجهدي ولا قوّة إلا بالله[1]». وروى عن عمر رضي الله عنه: أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها: البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر، فقال عمر: يا حفصة؛ ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت: بلى قال ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة، وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبي ﷺ لبث في النبوّة كذا كذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرّبتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان ينام على عباءة مثنبة فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال: «منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخرة فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج[2]. وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طريقاً، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد.

---

(١) حديث مسروق عن عائشة قلت: يا رسول الله، ألا تستطعم ربك فيطعمك، قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع... الحديث. وفيه: «يا عائشة، إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصراً: «يا عائشة إن الله لم يرضى من أولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم، فقال تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ ومجالد مختلف في الإحتجاج به

(٢) حديث: أن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة: ألبس لين الثياب إذا قدمت عليك الوفود... الحديث بطوله، وفيه: ناشدتك الله هل تعلمين كذا: يذكرها ما كان عليه النبي ﷺ حتى أبكاها وبكى... ألخ. لم أجده هكذا مجموعاً في حديث، وهو مفرق في عدة أحاديث؛ فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه، وفيه عمرو بن عبد الله القدري متروك الحديث، وللترمذي من حديث عائشة قالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قلت: لم؟ قالت: أذكر الحال التي فارق رسول الله ﷺ الدنيا عليها، والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم. وقال: حديث حسن، وللشيخين من حديثها: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعاً حتى قبض. وللبخاري من حديث أنس: كان لا يأكل على خوان... الحديث، وتقدم في آداب الأكل، وللترمذي في الشمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت: ما كان فراش النبي ﷺ؟ مسح نثنيه ثنتين فينام عليه... الحديث. ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة: أنها كانت تفرش للنبي ﷺ عباءة باثنتين... الحديث، وتقدما في آداب المعيشة. وللبزار من حديث أبي الدرداء قال: كان رسول الله ﷺ لا ينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد. وقال: لا نعلم يروي بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد. قال يونس بن بكير: قد حدث عن سعيد بن ميسره البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها. قلت: فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحيى القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم. ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد الفطر في جزئه المشهور: فعقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف، وتقدم في آداب المعيشة.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد كان الأنبياء قبلي يبتلي أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة، وإن كان أحدهم ليبتلي بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم[1]».

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خصرة البقل ترى في بطنه من الهزال؛ فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة.

وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ قال ﷺ: «تباً للدنيا تباً للدينار والدرهم» فقلنا: يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة، فأي شيء ندخر؟ فقال ﷺ: «ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته[2]».

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث: هما لا يفارق قلبه أبداً وفقراً لا يستغنى أبداً وحرصاً لا يشبع أبداً[3]».

وقال النبي ﷺ: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف؛ وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته[4]».

وقال المسيح ﷺ: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وقيل له: يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتاً لعبد الله فيه؟ قال: اذهبوا فابنوا بيتاً على الماء، فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال: وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا؟.

وقال النبي ﷺ: «إن ربي عزوجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً» فقلت: لا يارب ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي ﷺ: «ياجبريل، والذي بعثك الحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق، فلم يكن كلامه أسرع من أن سمع هدّة من السماء أفظعته، فقال رسول الله ﷺ: «أمر الله القيامة أن تقوم؟». «قال: لا، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال: إنّ الله عزوجل سمع ما ذكرت فبعثني بمفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامه

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري: «كان الأنبياء يبتلي أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباء». الحديث... بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك دون قوله: وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل.

(٢) حديث عمر: لما نزل قوله تعالى ﴿والذين يكثرون الذهب والفضة» الآية، قال: «تباً للدينار والدرهم... الحديث» وفيه: فأي شيء ندخر؟ أخرجه الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله: «تباً للدينار والدرهم» والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان، وإنما قال المصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي ﷺ: أي المال يتخذ؟ كما في رواية ابن ماجه، وكما رواه البزار من حديث ابن عباس.

(٣) حديث حذيفة: «من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث... الحديث» لم أجده من حديث حذيفة، أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن: من أشرق في قلبه حب الدنيا التاظ منها بثلاث: شقاء لا ينفد عناه، وحرص لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وفي آخره زيادة.

(٤) حديث: «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرته» لم أجد له إسناداً، وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن أبي طلحة مرسلاً: «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته، وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله» ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس، وعلي بن أبي طلحة أخرج له مسلم. وروى عن ابن عباس، لكن روايته عنه مرسلة، فالحديث إذن معضل.

زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فعلت، وإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً. فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال: «نبياً عبداً» ثلاثا[1].

وقال ﷺ: «إذا أراد الله لعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه[2]».

وقال ﷺ لرجل: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس[3]».

وقال صلوات الله عليه: «من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا[4]».

وقال ﷺ: «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن خاف من النار لها عن الشهوات، ومن ترقب الموت ترك اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات[5]».

ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهم ا لسلام: «أربع لا يدركن إلا بتعب؛ الصمت وهو أوّل العبادة، والتواضع، وكثرة الذكر، وقلة الشيء[6]». وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن، فإنّ الأنبياء ما بعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان.

وأما الآثار؛ فقد جاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عزوجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم. وفي لفظ آخر: مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم، لستم بها صادقين.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا. وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين: أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيراً منكم. قيل: ولم ذلك؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا منكم

وقال عمر رضي الله عنه. الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد.

وقال بلال بن سعد: كفى به ذنباً أنّ الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها.

وقال رجل لسفيان: أشتهي أن أرى عالماً زاهداً، فقال: ويحك: تلك ضالة لا توجد.

وقال وهب بن منبه: إنّ للجنة ثمانية أبواب، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوّابون يقولون: وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة.

وقال يوسف بن أسباط-رحمه الله: إني لأشتهي من الله ثلاث خصال: أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم، ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فأعطى ذلك كله.

وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها، فقال له بنوه: قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال: أتدرون ما مثلى ومثلكم؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني، موتوا يا أهلي جوعاً خير لكم من أن تذبحوا فضيلا!

وقال عبيد بن عميرة: كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر، وليس له ولد

---

(١) حديث ابن عباس: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل معه فصعدا على الصفا».. الحديث في نزول إسرافيل. وقوله: إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة. الحديث. تقدم مختصراً.

(٢) حديث: «إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله «ورغبه في الآخرة» وزاد «فقهه في الدين» وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله... الحديث» تقدم.

(٤) حديث: «من أراد أن يؤتيه الله علمًا بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا» لم أجد له أصلاً.

(٥) حديث: «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات... الحديث» رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب.

(٦) حديث: «أربع لا يدركن إلا بتعب: الصمت وهو أول العبادة... الحديث» رواه الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم.

يموت ولا بيت يخرب ولا يدّخر لغد، أينما أدركه المساء نام.

وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم: هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بدّ لنا من الطعام والثياب والحطب!

فقال لها أبو حازم: من هذا كله بدّ، ولكن لا بدّ لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار.

وقيل للحسن: لم لا تغسل ثيابك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك

وقال إبراهيم ابن أدهم: قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا.

وقال بعض السلف: نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا، وكأنه التفت إلى معنى قوله ﷺ: «إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه[1]». فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدي إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدي إلى السقم.

وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترح لا دار فرح، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء.

وقال سهل: لا يخلص العمل المتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء: الجوع، والعرى، والفقر والذل.

وقال الحسن البصري: أدركت أقواماً وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب. كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم. كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه.

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه، وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فيه

اعلم أنّ الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوّته على درجات ثلاث: (الدرجة الأولى) وهي السفلى منها: أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذيب أوّلاً نفسه ثم كيسه والزاهد أولاً يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه، والمتزهد على خطر، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير. (الدرجة الثانية): الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده، ويظن في

---

(١) حديث: «إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا... الحديث» تقدم.

نفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، وهذا أيضاً نقصان (الدرجة الثالثة) وهي العليا: أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً. إذ عرف أنّ الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفه وأخذ جوهرة، فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى، ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هوالكمال في الزهد. وسببه كمال المعرفة، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أنّ تارك الخزفة بالجوهرة أمن من طلب اقالة في البيع.

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم: في أي شيء تتكلم؟ قال: في الزهد، قال: في أي شيء؟ قال:في الدنيا. فنفض يده وقال: ظننت أنه يتكلم في شيء، والدنيا لا شيء، إيش يزهد فيها.

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع، ثم يبقى ثفلها في المعدة، ثم تنتهي إلى النتن والقذر، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعني ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، إذ لا نسبة للمتناهى إلى ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب، ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد، فكيف ومدّة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدّرة غير صافيه، فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد، فإذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتداً به، ولا يراه شيئاً معتدّا به إلا لقصور معرفته، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة، فهذا تفاوت درجات الزهد، وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده.

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات: (الدرجة السفلى) أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار، إذ فيها «إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء[1]». فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم. (الدرجة الثانية) أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها، وهذا زهد الراجين،فإنّ هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له (الدرجة الثالثة) وهي العليا: أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى؛ وهو الذي أصبح وهمومه هم واحد؛ وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده، وكل مطلوب معبود؛ وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلب غير الله من الشرك الخفي، وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه، وكما أنّ من عرف الدينار

---

(١) حديث: «إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه بصدرت رواء» أخرجه أحمد من حديث ابن عباس: «التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غني، ومؤمن فقير. . . الحديث» وفيه: «إني حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال مني العرف ما لوورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء» وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد: حديثه مثله.

والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أنّ الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره، ولا تظنن أنّ أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل. فنقول: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمل للجمل. أما الآجمال في الدرجة الأولى: فهو كل ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضاً، والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها. وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب، إذ معنى الجاه: هو ملك القلوب القدرة عليها، كما أنّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عزوجل: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين: فقال تعالى: ﴿وإنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال: ﴿ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنة هي المأوى﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه. وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى.

فالحاصل أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء؛ فإنّ من أراد شيئاً أراد دوامه، ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها، ولذلك لما كتب عليهم القتال: ﴿قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ فقال تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين. أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتىإنّ خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول: كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعاً في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز، فلما ماتعدّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات، وهكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأما المنافقون، ففرّوا من

الزحف خوفاً من الموت فقيل لهم: ﴿إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم﴾ فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، فأولئك الذي اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. وأما المخلصون، فإنّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلاً أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به، فهذا بيان المزهود فيه.

وإذا فهمت هذا علمت أنّ ما ذكره المتكلمون في حدّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه، فقال بشر رحمه الله تعالى: الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة. وقال قاسم الجوعي: الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف، فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي المهيجة لأكثر الشهوات. وقال الفضيل: الزهد في الدنيا هو القناعة، وهذا إشارة إلى المال خاصة. وقال الثوري: الزهد هو قصر الأمل، وهو جامع لجميع الشهوات، فإنّ من يميل إلى الشهوات يحدّث نفسه بالبقاء فيطول أمله، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها. وقال أويس: إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه، وما قصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد. وقال أويس أيضاً: الزهد هو ترك الطلب للمضمون، وهو إشارة إلى الرزق وقال أهل الحديث: حب الدنيا هو العمل بالرأي والمعقول، والزهد إنما هو أتباع العلم ولزوم السنة، وهذا إن أريد به الرأي الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات، فإنّ من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة، وقد طوّلوها حتى ينقضي عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده، وقال الحسن: الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال، هذا أفضل مني، فذهب إلى أنّ الزهد هو التواضع، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد. وقال بعضهم: الزهد هو طلب الحلال، وأين هذا ممن يقول: الزهد هو ترك الطلب كما قال: أويس، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول: من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد.

وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة، وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحداً ولا يتصوّر أن يختلف، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل: ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال: سمعنا في الزهد كلاماً كثيراً، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عزوجل، وقد فصل مرة وقال: من تزوّج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدّا للزهد، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى: ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ فقال: هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال: إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة، فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف الزهود فيه؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة، كما قاله إبراهيم بن أدهم: فالفرض: هو الزهد في الحرام. والنفل: هو الزهد في الحلال. والسلامة: هو الزهد في الشبهات. وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد، إذ قيل لمالك بن أنس: ما الزهد؟ قال: التقوى، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات، لا سيما خفايا الرياء فإنّ ذلك لا يطلع عليه إلا

سماسرة العلماء، بل الأحوال الظاهرة أيضاً درجات الزهد فيها لا تتناهى، فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجراً في نومه فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك؟ قال: ما الذي تجدد؟ قال: توسدك الحجر: أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم، فرمى الحجر وقال: خذه مع ما تركته لك. وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركاً للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس، فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى، آثرت علي الدنيا، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه. وقال أحمد رحمه الله تعالى: الزهد زهد أويس، بلغ من العرى أن جلس في قوصرة. وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط، فقال: ما أقمتني أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط، فإذن درجّات الزهد ظاهراً وباطناً لا حصر لها، وأقل درجاته: الزهد في كل شبهة ومحظور. وقال قوم: الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور، فليس ذلك من درجاته في شيء، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصوّر الزهد الآن.

* فإن قلت: مهما كان الصحيح هو أنّ الزهدّ ترك ما سوى الله فكيف يتصوّر ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى؟ فاعلم أنّ معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكراً وفكراً، ولا يتصوّر ذلك إلا مع البقاء، ولا بقاء إلا بضروريات النفس؛ فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلاً بغير الله؛ فإنّ مالا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضاً عن الحج، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج، ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحرّ والبرد المهلك باللباس والمسكن، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى، فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد، وإن قلت: فلابدّ أن أتلذذ بالأكل عند الجوع؛ فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ، فإنّ شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش، ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصوداً عنده ومطلوباً بالقصد، فلا يكون القلب منصرفاً إليه؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره، ولقد كان في الخائفين من طلب موضعاً لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس، ويشرب الماء الحارّ ويقول: من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط، فإنه وإن كان شاقاً فمدّته قريبة والاحتماء مدّة يسيرة للتنعم على التأبيد، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة.

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم؛ فالفضول كالخيل المسوّمة مثلاً، إذا غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضروري، والمهم أيضاً يتطرّق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته، فلا بدّ من بيان وجه الزهد فيه، والمهمات ستة أمور: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه. يطلب لأغراض. وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق وكيفية

الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة.

(الأول المطعم) ولابدّ للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به، وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله؛ أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّة الجوع وخوف المرض، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدّخر من غدائه لعشائه، وهذه هي الدرجة العليا. (الدرجة الثانية) أن يدّخر لشهر أو أربعين يوماً. (الدرجة الثالثة) أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهداً محال؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدًا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائي فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مدّ واحد: وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت، ولو الخبز من النخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البر غير منخول، فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلاً عن أوائله. وأما الأدم: فأقله الملح أو البقل والخل، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان، وأعلاه اللحم أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فإن صار دائمًا أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلاً، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائمًا، وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات، ولينظر إلى أحوال رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار. قيل لها: فيم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء[(١)]. وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم.

وقال الحسن: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض. ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد، وأجلس كما تجلس العبيد[(٢)]».

وقال المسيح عليه السلام: بحق أقول لكم، إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير.

وقال الفضيل: ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر[(٣)].

وكان المسيح ﷺ يقول: يا بني إسرائيل، عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر، فإنكم لن تقوموا بشكره. وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده.

---

(١) حديث عائشة: كانت تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة؛ كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان... الحديث. وفي رواية له: ما يوقد فيه بنار. ولأحمد: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار. وفي رواية له: ثلاثة أهلة.

(٢) حديث الحسن: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار الحديث، تقدم دون قوله: «إنما أنا عبد» فإنه ليس من حديث الحسن، إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم.

(٣) حديث: ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر، تقدم.

ولما أتى النبي ﷺ أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل، فوضع القدح من يده وقال؛ «أما إني لست أحرمه ولكن أتركه تواضعاً لله تعالى[1]».

وأتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال: اعزلوا عني حسابها. وقد قال يحيى ابن معاذ الرازي: الزاهد الصادق قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والرب أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله؛ والعبادة حرفته والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى.

(المهم الثاني) الملبس. وأقل درجته: ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة. وهو كساء يتغطى به. وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه. أن يكون معه منديل وسراويل. وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد. وشرط الزاهد: أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه. بل يلزمه القعود في البيت. فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع ألوان الزهد من حيث المقدار. أما الجنس فأقله المسوح الخشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ. وأما من حيث الوقت، فأقصاه ما يستر سنة، وأقله ما يبقى يوماً، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه، وأوسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد، وإلا إذا كان المطلوب خشونته، ثم قد يتبع ذلك قوّته ودوامه؛ فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدّق به، فإن أمسكه لم يكن زاهداً بل كان محباً للدنيا، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس: قال أبو بردة: أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين[2]. وقال ﷺ «إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس[3]» وقال عمرو بن الأسود العنسي: لا ألبس مشهوراً أبداً، ولا أنام بليل أبداً على دثار أبداً، ولا أركب على مأثور أبداً، ولا أملأ جوفي من طعام أبداً فقال عمر: من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى عمرو بن الأسود[4]. وفي الخبر ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيباً[5]». واشترى رسول الله ﷺ ثوباً بأربعة دراهم[6].

وكانت قيمة ثوبيه عشرة[7]. وكان إزاره أربعة أذرع ونصفاً[8]. واشترى سراويل بثلاثة دراهم[9]. وكان

---

(١) حديث: «لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده» . . الحديث، تقدم.

(٢) حديث أخرجت عائشة كساء ملدأ وازاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين. رواه الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة.

(٣) حديث: «إن الله يحب المتبذل لا يبالي ما لبس» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث عمر: «من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود» رواه أحمد بإسناد جيد.

(٥) حديث: «ما من عبد لبس ثوب الشهرة. . . الحديث» رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله «وإن كان عنده حبيباً».

(٦) حديث «شترى رسول الله ﷺ ثوباً بأربعة دراهم» أخرجه أبو يعلي من حديث أبي هريرة، قال:دخلت يوماً السوق مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البزازين فاشتري سراويل بأربعة دراهم» . . الحديث، وإسناده ضعيف.

(٧) حديث «كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم» لم أجده.

(٨) حديث «كان إزاره أربعة أذرع ونصفاً» أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من رواية عروة بن الزبير مرسلاً: كان رداء رسول الله ﷺ أربعة أذرع، وعرضه ذراعان ونصف» . . الحديث وفيه ابن لهيعة. وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة: كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر، وفيه محمد بن عمر الواقدي.

(٩) حديث: «اشترى سراويل بثلاثة دراهم» المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم تقدم عند أبي يعلي، وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه. قال الترمذي: حسن صحيح.

يلبس شملتين بيضاوين من صوف[1]. وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ. وفي الخبر: كان قميص رسول الله ﷺ كأنه قميص زيات[2]. ولبس رسول الله ﷺ يوماً واحداً ثوباً سيراء من سندس قيمته مائتا درهم[3]. فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجباً ـ وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية، فأراد أن يكرمه بلبسه، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرم لبس الحرير والديباج. وكأنه إنما لبسه أولاً تأكيداً للتحريم، كما لبس خاتماً من ذهب يوماً ثم نزعه[4]. فحرم لبسه على الرجال، وكما قال لعائشة في شأن بريرة: «اشترطي لأهلها الولاء[5]». فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرّمه، وكما أباح المتعة ثلاثاً ثم حرّمها لتأكيد أمر النكاح[6]. وقد صلى رسول الله ﷺ في خميصة لها علم، فلما سلم قال: شغلني النظر إلى هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيته[7]. يعني كساءه فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه، فلما سلم قال: «أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فإني نظرت إليه في الصلاة». ولبس خاتماً من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال «شغلني هذا عنكم، نظرة إليه ونظرة إليكم[8]». وكان ﷺ قد احتذى مرة نعلين جديدين؛ فأعجبه حسنهما، فخر ساجداً وقال: «أعجبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يمقتني» ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه[9]. وعن سنان بن سعد قال: حيكت لرسول الله ﷺ جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال: «انظروا ما أحسنها! ما ألينها!» قال: فقام إليه أعرابي فقال: يا رسول الله هبها لي، وكان رسول الله ﷺ إذا سئل شيئاً لم يبخل به، قال: فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى، فمات ﷺ وهي في المحاكة[10]. وعن جابر قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: «يا فاطمة؛ تجرّعي مرارة الدنيا لنعيم الأبد، فأنزل الله عليه ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى[11]﴾. وقال ﷺ: «إنّ من خيار أمتي فيما أنبأني الملأ الأعلى قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله تعالى، ويبكون سراً من خوف عذابه، مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة، يلبسون الخلقان

---

(1) حديث: «كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ. تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحبرة. وأما لبسه الحال ففي الصحيحين من حديث البراء: رأيته في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلل اليمن وقال: رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل. وفي الصحيحين من حديث عائشة: أنه ﷺ قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن، وتقدم في آداب المعيشة. ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمثة: وعليه بردان أخضران، سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي. وللبزار من حديث قدامة الكلابي: وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف، قاله الذهبي.

(2) حديث: «كان قميصه كأنه قميص زيات» أخرجه الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف: كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات.

(3) حديث: «لبس يوما واحداً ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه». الحديث.

(4) حديث: «لبس يوماً خاتماً من ذهب ثم نزعه. متفق عليه وقد تقدم.

(5) حديث: «قال لعائشة في شأن بريرة: «اشترطي لأهلها... الحديث» متفق عليه من حديثها.

(6) حديث: «أباح المتعة ثلاثاً ثم حرمها. أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

(7) حديث: «صلى في خميصة لها علم»... الحديث، متفق عليه، وقد تقدم في الصلاة.

(8) حديث: «لبس خاتماً فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال: «شغلني هذا عنكم».. الحديث» تقدم.

(9) حديث: «إحتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما».. الحديث، تقدم.

(10) حديث سنان بن سعد «حيكت لرسول الله ﷺ جبة صوف من صوف أنمار».. الحديث، رواه أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله: وأمر أن يحاك له أخرى، فهي عند الطبراني فقط، وفيه زمعة بن صالح ضعيف، ويقع في كثير من نسخ الإحياء. سيار بن سعد وهو غلط.

(11) حديث جابر «دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى».. الحديث. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف

ويتبعون الرهبان؛ أجسامهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش[١]. فهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ في الملابس وقد أوصى أمته عامة باتباعه، إذ قال: «من أحبني فليستن بسنتي[٢]». وقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ[٣]». وقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ وأوصى رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها خاصة وقال: «إن أردت اللحاق بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعي ثوباً حتى ترقعيه[٤]». وعدّ على قميص عمر رضي الله عنه أثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم. واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوباً بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كمية من الرسغين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه. وقال الثوري وغيره: ألبس من الثياب مالا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال، وكان يقول: إن الفقير ليمرّ بي وأنا أصلي فأدعه يجوز، ويمرّ بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم: قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوالق. وقال ابن شبرمة: خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته. وقال بعض السلف: البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة، ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني: الثياب ثلاثة: ثوب لله وهو ما يستر العورة، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه، وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم: من رق ثوبه رق دينه. وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهماً، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه. وقال بعض السلف: أوّل النسك الزي، وفي الخبر «البذاذة من الإيمان». وفي الخبر «من ترك ثوب جمال وهو يقدرعليه تواضعاً لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقاً على الله أن يدخر له من عبقري الجنة في تخات الياقوت» وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي. ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ، فقال: انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ـ وكان عليه ثياب رقاق، وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذرّ في بزته، فجعل يتكلم في الزهد، فوضع أبي ذرّ راحته على فيه وجعل يضرط به، فغضب ابن عامر، فشكاه إلى عمر فقال: أنت صنعت بنفسك، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال علي كرّم الله وجهه: إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره. ولما عوتب في خشونة لباسه قال: هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدي به المسلم. ونهى ﷺ عن التنعم وقال: «إن لله تعالى عباداً ليسوا بالمتنعمين[٥]». ورؤي فضالة بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافياً فقيل له: أنت الأمير وتفعل هذا؟ فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن الإفاء، وأمرنا أن نختفي أحياناً[٦]. وقال علي لعمر رضي الله عنهما: إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع. وقال عمر: اخشوشنوا وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر، وقال علي كرم الله وجهه: من تزيا بري قوم فهو منهم. وقال رسول الله ﷺ: «إنّ من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدّقون في الكلام[٧]». وقال ﷺ: «أزرة المؤمن إلى أنصاف

---

(١) حديث «إن من خيار أمتي فيما آتاني العلي الأعلى قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة ربهم، ويبكون سراً من خوف عذابه» . . الحديث، تقدم، وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه.

(٢) حديث: «من أحبني فليستسن بسنتي» تقدم في النكاح.

(٣) حديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين . . . الحديث» رواه أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية.

(٤) حديث: قال لعائشة: «إن أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء» أخرجه الترمذي وقال: غريب، والحاكم وصححه من حديث عائشة، وقد تقدم.

(٥) حديث: نهى عن التنعم وقال: «إن لله عباداً ليسوا بالمتنعمين» أخرجه أحمد من حديث معاذ، وقد تقدم.

(٦) حديث فضالة بن عبيد: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاه، وأمرنا أن نحتفي أحياناً. أخرجه أبو داود بإسناد جيد.

(٧) حديث: «إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم. . . الحديث» رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام. . . الحديث» وآخره «أولئك شرار أمتي» وقد تقدم.

ساقيه، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما أسفل من ذلك ففي النار، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطرا[١]». وقال أبو سليمان الداراني: قال رسول الله ﷺ:«لا يلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق[٢]». وقال الأوزاعي: لباس الصوف في السفر سنة، وفي الحضر بدعة. ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف؛ فقال له قتيبة: ما دعاك إلى مدرعة الصوف؟ فسكت فقال: أكلمك ولا تجيبني! فقال أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي، أو فقراً فأشكو ربي. وقال أبو سليمان: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً أوحى إليه: أن وار عورتك من الأرض، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحداً سوى السراويل؛ فإنه كان يتخذ سروالين! فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: مالك لا تلبس الجيد من الثياب؟ فقال:وما للعبد والثوب الحسن، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبداً. ويروي عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي. وقال الحسن لفرقد السبخي: تحسب أن لك فضلاً على الناس بكسائك، بلغني أنّ أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا: وقال يحيى بن معين: أرأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها، فقلت: إنك تكسي خيراً من هذا! فقال: ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة، فجعل يحيى ابن معين يحدّث بها ويبكي.

(المهم الثالث) المسكن، وللزهد، فيه أيضاً ثلاث درجات (أعلاها) أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة. (وأوسطها) أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه مثل كوخ مبني من سعف أو خص أو ما يشبهه (وأدناها) أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة؛ فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد، فإن طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حدّ للزهد في المسكن؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكاً أو مستأجراً أو مستعاراً، والزهد مدخل في جميع ذلك. وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حدّ الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذي، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جداً، وقد قيل: أوّل شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله ﷺ التدريز والتشييد، يعني بالتدريز: كيف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلا والتشييد: هو البنيان بالجص والآجر، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد[٣]. وقد جاء في الخبر:«يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشي البرود اليمانية» وأمر رسول الله ﷺ العباس:أن يهدم علية كان قد علا بها[٤]. ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال: «لمن هذه؟» قالوا لفلان: فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه ﷺ فأخبر، فذهب فهدمها؛ فمر رسول الله ﷺ

---

(١) حديث: «إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقه... الحديث» رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضاً النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي: كلا الحديثين محفوظ.

(٢) حديث أبي سليمان «لا يلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق» لم أجد له إسناداً.

(٣) حديث: «كانت الثياب تشل شلاً وكانوا يبنون بالسعف والجريد. أما شل الثياب من غير كف فروى الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ. وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة: فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة... الحديث، ولهما من حديث أبي سعيد: كان المسجد على عريش فوكف المسجد.

(٤) حديث: «أمر العباس أن يهدم علية له كان قد علاها» رواه الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي ﷺ: «إهدمها... الحديث» وهو منقطع.

بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير(١).

وقال الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة(٢). وقال النبي ﷺ «إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الماء والطين(٣)». وقال عبد الله بن عمر: مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصا، فقال: «ما هذا؟» قلنا: خص لنا قد وهي فقال: أرى الأمر أعجل من ذلك(٤)». واتخذ نوح عليه السلام بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيت؟ فقال: هذا كثير لمن يموت وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحته؟ فقال: كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله. وقال النبي ﷺ: «من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة(٥)». وفي الخبر: «كل نفقة في الأرض يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين(٦)». وفي قوله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ إنه الرياسة والتطاول في البنيان. وقال ﷺ: كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكنّ من حرّ أو برد(٧)». وقال ﷺ للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله: «اتسع في السماء(٨)». أي في الجنة، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر، فكبر وقال: ماكنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون؛ يعني قول فرعون: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ يعني به الآجر، ويقال: إنّ فرعون هو أوّل من بني له بالجص والآجر، وأوّل من عمله هامان، ثم تبعهما الجبابرة، وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعاً في بعض الأمصار فقال: أدركت هذا المسجد مبنياً من الجريد والسعف، ثم رأيته من رهص، ثم رأيته الآن مبنياً باللبن، فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص، وكان أصحاب الرهص خير من أصحاب اللبن. وكان من السلف من يبني داره مراراً في مدة عمر لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه، فإذا رجع أعاده، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال: لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه. وقال الفضيل: إني لم أعجب ممن بنى وترك، ولكن أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البرازين، يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم.

---

(١) حديث: مر بجنبذة معلاة فقال: «لمن هذه؟» فقالوا: لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه... الحديث. أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ: فرأى فيه مشرفة الحديث، والجنبذة القبة.

(٢) حديث الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة. الحديث» رواه ابن حبان في الثقات، وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسلاً، وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة، «من سأل عني أو سره أن ينظر إليّ فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة... الحديث» وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: «إذا أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الماء والطين» رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد «خضر له في الطين واللبن حتى يبني».

(٤) حديث عبد الله بن عمر: «مرّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصاً لنا قد وهي الحديث» رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه.

(٥) حديث: «من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله» رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع.

(٦) حديث «كل نفقة العبد يؤجر عليهم إلا ما أنفقه في الماء والطين» رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرث بإسناد جيد بلفظ: إلا في التراب أو قال في البناء.

(٧) حديث: «كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد» رواه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ «إلا مالا» يعني ما لا بد منه.

(٨) حديث: قال للرجل الذي شكى إليه ضيق منزله: «اتسع في السماء» قال المصنف: أي في الجنة. رواه أبو داود في المراسيل من رواية اليسع بن المغيرة قال: شكى خالد بن الوليد فذكره، وقد وصله الطبراني فقال عن اليسع بن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد، إلا أنه قال: إرفع إلى السماء واسأل الله السعة، وفي إسناده لين.

(المهم الرابع) أثاث البيت، وللزهد فيه أيضاً درجات (أعلاها) حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنساناً يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز، وهذا حكم كل أثاث، فإنه إنما يراد لمقصود، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة. وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به (وأوسطها) أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف (وأعلاها) أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف[1]. وقال الفضيل: ما كان فراش رسول ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف[2]. وروى: أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط، فجلس، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام، فدمعت عينا عمر، فقال له النبي ﷺ «ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب؟» قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم عل سرير مرمول بالشريط؟ فقال ﷺ:«أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة». قال: بلى يا رسول الله؟ قال: فذلك كذلك[3]». ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بدّ لك من متاع ما دمت ههنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه. ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي، ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي. ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي، فقال عمر: صدقت رحمك الله وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها ستر وفي يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله ﷺ، فسأله أبو رافع فقال: «من أجل الستر والسوارين». فأرسلت بهما بلالاً إلى رسول الله ﷺ، وقالت: قد تصدّقت بهما فضعهما حيث ترى، فقال: «اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة» فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم، فدخل عليها ﷺ فقال: «بأبي أنت قد أحسنت[4]». ورأى رسول الله ﷺ على باب عائشة سترا فهتكه وقال: «كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلي به إلى آل فلان[5]». وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشاً جديداً وقد كان ﷺ ينام على عباءة

(١) حديث عائشة «كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف» رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، وابن ماجه.

(٢) حديث «ماكان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف» رواه الترمذي في الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة، وقد تقدم، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه.

(٣) حديث: «دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مهمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه... الحديث، متفق عليه من حديثه، وقد تقدم.

(٤) حديث: قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها ستراً وفي يديها قلبين من فضة فرجع».. الحديث، لم أره مجموعاً ولأبي داود وابن ماجة من حديث سفينة بإسناد جيد: أنه ﷺ جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة لعلي: أنظر فأرجعه. الحديث رواه النسائي من حديث ثوبان بإسنا جيد قال: جاءت إبنة هبيرة إلى النبي ﷺ وفي يدها فتخ من ذهب... الحديث. وفيه: أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب. وفيه: «يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار» وأنه خرج ولم يقعد، فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبداً فأعتقته، فلما سمع قال:«الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار».

(٥) حديث: رأى على باب عائشة ستراً فهتكه... الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه، والنسائي في الكبرى من حديثها.

مثنية؛ فما زال يتقلب ليلته، فلما أصبح قال لها: «أعيدي العباءة الخلقة ونحي هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة[1]». وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلاً فبيتها، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل. قالت عائشة رضي الله عنها: فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال: «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده[2]». وقال الحسن؛ أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوباً قط: كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

(المهم الخامس) المنكح، وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته، وإليه ذهب سهل ابن عبد الله وقال: قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال: كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية. والصحيح ما قالت أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم، والمرأة قد تكون شاغلاً عن الله. وكشف الحق فيه: أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح، فيكون ترك النكاح من الزهد، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب، فكيف يكون تركه من الزهد؟ وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازاً عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازاً من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً، فإنّ الولد مقصود لبقاء نسله، وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات، واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازاً من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لأن في ترك ذلك فوات بدنه، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله، فلا يجوز أن يترك النكاح زهداً في لذته من غير خوف آفة أخرى، وهذا ما عناه سهل لا محالة، ولأجله نكح رسول الله ﷺ. وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن[3]. فلا معنى لزهده فيهن حذراً من مجرّد لذة الوقاع والنظر، ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك.

وقال أبو سليمان: الزهد في النساء: أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة.

وقال الجنيد رحمه الله: أحب للمريد المبتدي أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث والتزوّج. وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه؛ فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعاً.

(المهم السادس) ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه: أما الجاه فمعناه ملك القلوب

---

(١) حديث: «فرشت له عائشة ذات ليلة فراشاً جديداً. وفيه: كان ينام على عباءة مثنية... الحديث، رواه ابن حبان في كتاب أخلاق النبي ﷺ من حديثها قالت: دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه صوف، فدخل على رسول الله ﷺ فقال: ما هذا... الحديث» وفيه: أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته، وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه، والمعروف من حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل.

(٢) حديث: «أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليله.. الحديث، وفيه: «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده، أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما فعلت بالذهب؟» فجاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول: «ما ظن محمد... الحديث» وزاد «إنفقها» وفي رواية: سبعة أو تسعة دنانير، وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح: دخل علي رسول الله ﷺ وهو شاهم الوجه، قالت: فحسبت ذلك من جوع، فقلت: يا نبي الله، مالك شاهم الوجه؟ فقال: «من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفراش» وفي رواية «أمسينا ولم ننفقها».

(٣) حديث: «كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن، تقدم في النكاح.

بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه؛ وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عمق لها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم، فأما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده المستأجر قدر، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة، وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان، وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب، والخاص في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار، فكيف بين المسلمين، فأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى بعض الأحوال، فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر وأولى من علاجه بطلب الجاه، فإذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلاً، واليسير منه داع إلى الكثير، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره. وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه، فإن كان كسوباً فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام، هذا شرط الزهد؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعاً، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوّة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكل ما يفضل عن كفاية سنته، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد، فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله، فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا: إنه خرج من حدّ الزهاد نعني به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافةإلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، وقد قال أبو سليمان: لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء: معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه. كل ذلك في عياله، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضاً فيما يخرج عن حدّ الاعتدال، وليتعلم من رسول الله ﷺ: إذا انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين، لأنّ ذلك من الزينة لا من الحاجة، فإذاً ما يضطرّ الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور، بل الزائد على الحاجة سم قاتل، والمقتصر على الضرورة دواء نافع، ومهما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمّاً قاتلاً فهو مضر، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعاً لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه، والدواء فرض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم، وهو من الفرق الناجية لا محالة. والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط. ويدل عليه ما روى أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئاً فلم يقرضه، فرجع مهموماً، فأوحى الله تعالى إليه: لو سألت خليلك لأعطاك، فقال: يا رب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئاً، فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا. فإذن قدر الحاجة من الدين، وما وراء ذلك وبال في الآخرة، وهو في الدنيا أيضاً كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداء له، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معيناً لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج

على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصاً فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراءاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيداً بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، ولو ترك محبوباً من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة. فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره، فما ظنك بألم يتمكن أوّلاً من صميم القلب مخصوصاً به لا بطريق السراية إليه من غيره، فهذا أوّل عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالو الجحيم﴾ فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه؟ فنسأل الله تعالى أن يقرّر في أسماعنا ما نفث في روع رسول الله ﷺ، حيث قيل له: أحبب من أحببت فإنك مفارقه[1]. وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر:

كدود كدود القز ينسج دائماً ويهلك غمّاً وسط ما هو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه: رفضوا الدنيا بالكلية، حتى قال الحسن: رأيت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم. وفي لفظ آخر: كانوا بالبلاء أشدّ فرحاً منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا اشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان أحدهم يعرض لهم المال الحلال فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يفسد على قلبي، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى: ﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ وقال عزوجل: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾. وقال تعالى: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ فأسال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام: احملني معك في سياحتك، فقال: اخرج مالك والحقني. فقال: لا أستطيع، فقال عيسى عليه السلام: بعجب يدخل الغني الجنة ـ أو قال بشدّة. وقال بعضهم: ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات؛ ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب، يقول أحدهم بالمشرق: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً. ويقول اللذان بالمغرب، أحدهما: لدوا للموت وابنوا للخراب. ويقول الآخر: كلوا وتمتعوا لطول الحساب.

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظنّ أن تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإنّ ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديراً لا باب له، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة،

---

(١) حديث: نفث في روعه أحبب من أحببت فانك مفارقه، تقدم.

بل لا بدّ من الزهد في المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة، كما قال الخوّاص في وصف المدعين إذ قال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموّهون بذلك على الناس ليهدي إليهم مثل لباسهم، لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطي المساكين، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم. هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالاً لهم، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى. فهذا كله كلام الخواص رحمه الله؛ فإذن معرفة الزهد أمر مشكل، بل حال الزهد على الزاهد مشكل.

وينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات (العلامة الأولى) أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ بل ينبغي أن يكون بالضدّ من ذلك: وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده (العلامة الثانية) أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأوّل علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه (العلامة الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره، ولذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضي بهم الزهد؟ فقال: إلى الأنس بالله؛ فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان.

وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا لم ينظر إليها ولم يعمل لها، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي.

وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس - وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ وأن يكون في أحد هذين المقامين، ومقامه الأوّل أن يشغل نفسه بنفسه، وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم، ولا يستدل بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً.

قال ابن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان: أكان داود الطائي زاهداً؟ قال: نعم. قلت: قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين ديناراً فأنفقها في عشرين سنة، فكيف كان زاهداً وهو يمسك الدنانير؟ فقال: أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد، وأراد بالحقيقة الغاية، فإنّ الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس. ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه، وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجراً كما فعله المسيح عليه السلام. فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل، فإن أمثالنا لا يستجريء على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه. وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود المجاوز لكل كمال.

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغني والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة: مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها.

وقيل يحيى بن معاذ: علامةالزهد: السخاء بالموجود.

وقال ابن خفيف: علامته وجود الراحة في الخروج من الملك. وقال أيضاً: الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف.

وقال أبو سليمان: الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم.

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله: علامة الزهد قصر الأمل. وقال سري: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه. ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه.

وقال النصراباذي: الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد ثلاث: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة. وقال أيضاً: الزاهد لله يسعطك الخل والخردل، والعارف يشمك المسك والعنبر. وقال له رجل: متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضاً: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ما شطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها. وقال السري: مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلغه ولم أطقه.

وقال الفضيل رحمه الله: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت. الرافع السماء بغير عماد، المقدر فيها أرزاق العباد. الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداه والاعتمام على مدبر سواه، فلم يعبدوا إلا إياه علمًا بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغي عندهم الرزق، وأنه ما من ذرّة إلا إلى الله خلقها، وما من دابة إلا على الله رزقها؛ فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

والصلاة على محمد قامع الأباطيل، الهادي إلى سواء السبيل،ة وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرا.

(أما بعد) فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالى درجات المقرّبين وهو في نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل، ووجه غموضه من حيث الفهم أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع،والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير في وجه العقل، وانغماس في غمرة الجهل، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدّة الخفاء إلا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا. ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة، ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأوّل من الكتاب، ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني.

بيان فضيلة التوكل

أما من الآيات، فقد قال تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ وقال عزوجل: ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ وقال تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿إنّ الله يحب

المتوكلين﴾ وأعظم بمقام مرسوم بمحبة الله تعالى صاحبه، ومضمون كفاية الله تعالى ملابسه، فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه: فقد فاز الفوز العظيم، فإنّ المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب. وقال تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل: هو المكذب لهذه الآية. فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق، كقوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ وقال عزوجل: ﴿ومن يتوكل على الله فإنّ الله عزيز حكيم﴾ أي عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ به والتجأ إلى ذمامه وحماه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره. وقال تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ بين أنّ كل ما سوى الله تعالى عبد مسْخر. حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه. وقال تعالى: ﴿إنّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه﴾ وقال عزوجل: ﴿ولله خزائن السمٰوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ وقال عزوجل: ﴿يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار.

وأما الأخبار، فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود:أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيأتهم، فقيل لي: أرضيت؟ قلت: نعم، قيل: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. قيل: من هم يا رسول الله، قال الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة وقال. يا رسول اللهادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله ﷺ:«اللهم أجعله منهم» فقام آخر فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة[(١)]» وقال ﷺ:«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا[(٢)]» وقال ﷺ:«من انقطع إلى الله عزوجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب: ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها[(٣)]» وقال ﷺ:«من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه[(٤)]» ويروي عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال: «قوموا إلى الصلاة» ويقول:«بهذا أمرني ربي عزوجل« قال عزوجل: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها[(٥)]﴾. الآية. وقال ﷺ:«لم يتوكل من استرقى واكتوى[(٦)]».

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمي إلى النار بالمنجنيق: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل، إذ قال ذلك حين أخذ يرمي، فأنزل الله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾.

---

(١) حديث ابن مسعود: «أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل... الحديث» رواه ابن منيع بإسناد حسن، واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس.

(٢) حديث: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير... الحديث» أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر، وقد تقدم.

(٣) حديث: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة... الحديث» أخرجه الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا، ومن طريقه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصير ولم يسمع منه، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم.

(٤) حديث: «من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده» رواه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٥) حديث: كان إذا أصاب أهله خصاصة قال: «قوموا إلى الصلاة» ويقول: «بهذا أمرني ربي» قال تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ رواه الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية. ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه.

(٦) حديث: «لم يتوكل من استرقى واكتوى» أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبير والطبراني واللفظ له، إلا أنه قال: أو من حديث المغيرة بن شعبة، وقال الترمذي: «من اكتوت أو استرقى فقد بريء من التوكل» وقال النسائي: ما توكل من اكتوى أو استرقى.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والارض إلا جعلت له مخرجا.

وأما الآثار. فقد قال سعيد بن جبير: لدغتني عقرب فأقسمت على أمي لتسترقين، فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ.

وقرأ الخوّاص قوله تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ إلى آخر، فقال: ما ينبغي العبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى.

وقيل لبعض العلماء في منامه: من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته. وقال بعض العلماء: لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك.

وقال يحيى بن معاذ: في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أنّ الرزق مأمور بطلب العبد.

وقال إبراهيم بن أدهم: سألت بعض الرهبان: من أين تأكل؟ فقال لي: هذا العلم ليس عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني؟.

وقال هرم بن حيان لأويس القرني: أين تأمرني أن أكون؟ فأومأ إلى الشام. قال هرم: كيف المعيشة؟ قال أويس: أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة.

وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلا وجدت إلى كل خير سبيلا. نسأل الله تعالى حسن الأدب.

بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من باب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل.

فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق، وكل تصديق بالقلب فهو علم، وإذا قوي سمي يقينا، ولكن أبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له». والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك: «له الملك» والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك: «وله الحمد» فمن قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل، أعني أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول، وهو من علم المكاشفة؛ ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال، ولا يتم علم المعاملة إلا بها، فإذن لا نتعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له، فنقول:

للتوحيد أربع مراتب، وينقسم إلى لب، وإلى لب اللب، وإلى قشر، وإلى قشر القشر. ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإنّ له قشرتين، وله لب، وللب دهن هو لب اللب، فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه: «لا إله إلا الله» وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين. والثانية: أن يصدّق بمعنى اللفظ قلبه كما صدّق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام. والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقرّبين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار. والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصدّيقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى: أنه فني عن رؤية نفسه والخلق؛ فالأوّل موحد بمجرّد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان. والثاني موحد بمعنى: أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ

صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقدته، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضاً إحكام هذه العقدة وشدّها على القلب وتسمى كلاما، والعارف به يسمى متكلما، وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته. والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلًا واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه. ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه، لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإنّ تلك رتبة العوام والمتكلمين، إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة. والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد؛ فالأوّل كالقشرة العليا من الجوز، والثاني كالقشرة السفلى، والثالث كاللب، والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أنّ القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مرّ المذاق، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر، وإن اتخذ حطبا اطفأ النار وأكثر الدخان، وإن ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدّة على الجوز للصون ثم يرمي به عنه فكذلك التوحيد بمجرّد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن؛ لكنه ينفع مدّة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت: والقشرة السفلى هي القلب والبدن. وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرّد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب، وكذلك مجرّد الاعتقاد من غير كشف كثر النفع بالإضافه إلى مجرّد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ وبقوله عزوجل: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ وكما أنّ اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق.

فإن قلت: كيف يتصوّر أن لا يشاهد إلا واحد وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة: فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أنّ هذه غاية علوم المكاشفات. وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن. وهو أنّ الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أنّ الإنسان كثير أن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد؛ فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد، وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه، والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع، والملتفت إلى الكثرة في تفرقه، فكذلك كل ما في الوجود من الخلق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخر سواه كثير، وبعضها أشدّ كثرة من بعض، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً، ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق، فيكون لك من حيث

إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوّة وإن لم تكن نبياً كان لك نصيب منه بقدر قوّة إيمانك. وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر، والدوام نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخوّاص يدور في الأسفار فقال: فيماذا أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لاصحح حالتي في التوكل وقد كان من المتوكلين؛ فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكأنّ الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال.

فإن قلت: فلا بدّ لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه! فأقول: أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه، وليس التوكل أيضاً مبنياً عليه، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأوّل وهو النفاق فواضح وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في عالم الكلام، وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه. وأما الثالث: فهو الذي يبنى عليه التوكل، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب. وحاصله: أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم المنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عزوجل لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة من ملكوت السموات والارض، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصدّك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين: أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات. والثاني الالتفات إلى الجمادات، وأما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه، وعلى الغيم في نزول المطر، وعلى البرد في اجتماع الغيم، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها: وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور، ولذلك قال تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ قيل: معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا. ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أنّ الريح هو الهواء والهواء لا يتحرّك بنفسه ما لم يحرّكه محرّك، وكذلك محرّكه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأوّل الذي لا محرّك له ولا هو متحرك في نفسه عزوجل؛ فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعاً بالعفو عنه وتخليته، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول. لولا القلم لما تخلصت، فيرى نجاته من القلم لا من محرّك القلم وهو غاية الجهل. ومن علم أنّ القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض، وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب، بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أنّ الملك الموقع هو الكاتب التوقيع، والحق أنّ الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى﴾ فإذا انكشف لك أنّ جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائباً وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك، فأتاك في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول: كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره؛ فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك، وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك، فكيف لا تخافه، وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه، ويقول له أيضاً: نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له، وعند هذا زل أقدام الأكثرون إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخراً

مضطراً، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخراً، وعرفوا أنّ غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسوّد الكاغد، ولم يمتدّ بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً عن صاحب اليد فغلطت وظنت أنّ القلم هو المسوّد للبياض. وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهراً وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض. بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون. ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز بالأصوات، فإنّ الحمار شريك فيه، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم، وإنما أريد به سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي.

فإن قلت: فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت، وكيف سبحت وقدّست، وكيف شهدت على نفسها بالعجز؟ فاعلم أنّ لكل ذرّة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى، فإنها كلمات تستمدّ من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر﴾ الآية، ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت، وإفشاء السر لؤم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، وهل رأيت قط أميناً على أسرار ملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسره على ملأ من الخلق، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا[1]». بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون. ولما نهى عن إفشاء سر القدر[2] ولما قال: «إذذكر النجوم فأمسكوا، وإذ ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا[3]»، ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار[4]». فإذن عن حكايات مناجاة ذرّات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان (أحدهما) استحالة إفشاء السر (والثاني) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية. ولكنا في المثال الذي كنا فيه ـ وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدراً يسيراً يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه؛ ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن حروفاً وأصواتاً، ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول: قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر: ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً والآن قد ظهر عليه السواد؟ فلم سودت وجهك؟ وما السبب فيه؟ فقال الكاغد: ما أنصفتني في هذه المقالة! فإني ما سوّدت وجهي بنفسي ولكن سل الحبر فإنه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلماً عدواناً! فقال: صدقت. فسأل الحبر عن ذلك؟ فقال: ما أنصفتني فإني كنت في المحبرة وادعاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها، فاعتدى علي القلم بطمعه الفاسد، واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبدّدني كما ترى على ساحة بيضاء. فالسؤال عليه لا علي! فقال: صدقت، ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطانه فقال: سل اليد والأصابع فإني كنت قصباً نابتاً على شط الأنهار متنزهاً بين خضرة الأشجار، فجاءتني اليد بسكين فنحت عن قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنابيبي، ثم برتني وشقت رأسي؛ ثم غمستني في سواد الحبر ومرارته وهي

---

(١) حديث: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً... الحديث» تقدم في غير مرة.

(٢) حديث: النهي عن إفشاء سر القدر: رواه ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر: «القدر سر الله فلا تفشوا لله عزّ وجل سره» لفظ أبي نعيم، وقال ابن عدي «لا تكلموا في القدر فإنه سر الله الحديث» وهو ضعيف، وقد تقدم.

(٣) حديث: «إذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث» أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء. وتقدم في العلم.

(٤) حديث: أنه خصّ حذيفة ببعض الأسرار، تقدم.

تستخدمني وتمشيني على قمة راسي، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك، فتنح عني وسل من قهرني، فقال: صدقت، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له، فقالت اليد: ما أنا إلا لحم وعظم ودم، وهل رأيت لحمًا يظلم أو جسمًا يتحرّك بنفسه؟ وإنما أنا مركب مسخر ركبني فارس يقالْ له: القدرة والعزة، فهي التي ترددني، وتجول بي في نواحي الأرض، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدّى شيء منها مكانه ولا يتحرّك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر، أما ترى أيدي الموق تساويني في صورة اللحم والعظم والدم، ثم لا معاملة بينها وبين القلم، فأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم، فسل القدرة عن شأني فإني مركب أزعجني من ركبني، فقال:صدقت ثم سأل القدرة عن شأنها في استعماها`اليد وكثرة استخدامها وترديدها، فقالت: دع عنك لومي ومعاتبتي، فكم من لائم ملوم، وكم من ملوم لا ذنب له، وكيف خفي عليك أمري؟ وكيف ظننت أني ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك، وما كنت أحرّكها ولا استسخرها. بل كنت نائمة ساكنة نوماً ظنّ الظانون بي أني ميتة أو معدومة، لأني ما كنت أتحرك ولا أحرّك حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني، فكانت لي قوّة على مساعدته، ولم تكن لي قوّة على مخالفته، وهذا الموكل يسمى الإرادة، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله، إذ أزعجني من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأني، فقال: صدقت، ثم سأل الإرادة ما الذى جرّأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقاً لم تجد عنه مخلصاً ولا مناصاً، فقالت الإرادة: لا تعجل علي فلعل لنا عذراً وأنت تلوم، فإني ما انتهضت بنفسي ولكن أنهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل، ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته،لكني أدري أني في دعة وسكون ما لم يرد علي هذا الوارد القاهر، وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفاً وألزمت طاعته إلزاماً، بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة، لعمري ما دام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه، فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه، فسلْ العلم عن شأني ودع عني عتابك.

فإني كما قال القائل:

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال:صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً لهم ومعاتباً إياهم عن استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة، فقال العقل: أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت، وقال القلب: أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت، وقال العلم: أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي، فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني، فسل القلم لأنّ الخط لا يكون إلا بالقلم، فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال: قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره، ولكن كنت أطيب نفساً بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً لا في الفوائد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال: فأما قولك: إني خط ونقش، وإنما خطي قلم فلست أفهمه فإني لا أعلم قلمًا إلا من القصب، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب، ولا خطاً إلا بالحبر، ولا سراجاً إلا من النار، وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئاً: أسمع جعجعة ولا أرى طحناً: فقال له القلم: أن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف، وأعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة: فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه، فما هذا بعشك، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له، وإن

كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد. واعلم آن العوالم في طريقك هذا ثلاثة: عالم الملك والشهادة أوّلها، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة، والثاني عالم الملكوت وهو ورائي؛ فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله وفيه المهامة الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة، ولا أدري كيف تسلم فيها، والثالث هو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزلة القدرة والإرادة والعلم، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت؛ لأنّ عالم الملك أسهل منه طريقاً، وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء، فلا هي في حدّ اضطراب الماء، ولا هي في حدّ سكون الأرض وثبوتها، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة؛ فإن جاوزت قوّته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت؛ فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشي في عالم الملكوت من غير تتعتع؛ فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي، وأوّل عالم الملكوت ماشهده القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء، أما سمعت قول رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام «لو أزداد يقينا لمشى على الهواء[1]». لما قيل له إنه كان يمشي على الماء، فقال السالك السائل: قد تحيرت في أمري وأستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق، ولست أدري أطيق قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا؟ فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدّقه نحوي فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن يكون أهلاً لهذا الطريق، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع باباً من أبوب الملكوت كوشف بالقلم، أما ترى أنّ النبي ﷺ في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾. فقال السالك: لقد فتحت بصري وحدقته، فوالله ما أرى قصباً ولا خشباً، ولا أعلم قلمًا إلا كذلك، فقال العلم: لقد أبعدت النجعة، أما سمعت أنّ متاع البيت يشبه رب البيت، أما علمت أنّ الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلمه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط، وهذه أمور الهية من عالم الملكوت، فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولا كلامه بصوت وحرف، ولا خطه رقم ورسم، ولا حبره زاج وعفص، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثاً بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه، مذبذباً بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها؟ ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه؟ فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ:«إن الله خلق آدم على صورته» الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبهاً مطلقاً، كما يقال: كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلعب بالتوراة، وإ فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا الأبصار فكن منزهاً صرفاً ومقسّاً فحلاً، واطو الطريق فإنك بالواد المقدّس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحي، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تنادي بما نودي به موسى ﴿إني أنا ربك﴾ فلما سمع السالك من العلم ذاك استشعر قصور نفسه وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه، فاشتعل قلبه ناراً من حدّة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسه نار، فلما نفخ فيه العلم بحدّته اشتعل زيته فأصبح نوراً على نور، فقال له العلم: اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي، فإذا هو كما وصفه العلم في ا لتنزيه: ما هو من خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم، وكأن له في كل قلب رأساً ولا رأس له،

---

(١) حديث: قيل له إن عيسى يمشي على الماء، قال: «لو إزداد يقيناً لمشي على الهواء» تقدم.

فقضى منه العجب وقال: نعم الرفيق العلم، فجزاه الله تعالى عني خيراً، إذ الآن ظهر لي. صدق أنبائه عن أوصاف القلم؛ فإني أراه قلمًا لا كالأقلام؛ فعند هذا ودع العلم وشكره وقال: قد طال مقامي عندك ومراداتي لك، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه، فسافر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى أشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات؟ فقال: أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد؟ قال: لم أنس ذلك. قال؟ فجوابي مثله جوابه قال: كيف وأنت لا تشبهه؟ قال القلم: أما سمعت أنّ الله تعالى خلق آدم على صورته؟ قال نعم. قال:فسل عن شأني الملقب بيمين الملك فأني في قبضته، وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر؛ فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة. فقال: فمن يمين الملك؟ فقال القلم: أما سمعت قوله تعالى ﴿والسمٰوات مطويات بيمينه﴾؟ قال: نعم. قال: والأقلام أيضاً في قبضة يمينه هو الذي يرددها، فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه، بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه، والجملة فيه أنه يمين كالإيمان، ويد لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع؛ فرأى القلم محرّكاً في قبضته، فظهر له عذر القلم، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم؟ فقال: جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة، إذ اليد لا حكم لها في نفسها وإنما محرّكها القدرة لا محالة، فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت: إنما أنا صفة فاسأل القادر، إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء خجاب سرادقات الحضرة ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسألون﴾ فغشيته هيبة الحضرة، فخر صعقاً يضطرب في غشيته، فلما أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك، وما لي إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك، فأقول: اشرح لي صدري لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأثني عليك؛ فنودي من وراء الحجاب: إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء، بل إرجع إليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه، وما قاله لك. فقله: فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال: «سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك[1]». فقال: إلهي، إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك، فنودي: إياك أن تتخطى رقاب الصدّيقين، فأرجع إلى الصيّق الأكبر فاقتد به؛ فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، أما سمعته يقول: العجز عن درك الإدراك إدراك؛ فيكفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا؛ فعند ذلك رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها: اقبلوا عذري فإني كنت غريباً حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة، فما كان إنكاري عليكم إلا عن قصور وجهل، والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أنّ المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، مرددون في قبضته وهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن؛ فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له: كيف يكون هو الأوّل والآخر وهما وصفان متناقضان، وكيف يكون هو الظاهر والباطن؛ فالأول ليس بآخر، والظاهر ليس بباطن؛ فقال: هوالأوّل بالإضافة إلى الموجودات، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فإنهم لا يزالون مترقين من منزلٍ إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة، فيكون ذلك آخر السفر، فهو آخر في المشاهدة أوّل في الوجود، وهو باطن بالإضافة

---

(١) حديث: «سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» تقدم.

إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت، فهذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل: أعني من انكشف له أنّ الفاعل واحد.

فإن قلت: قد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتني على الإيمان بعالم الملكوت، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه؟ فأقول: أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له: إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس، فإن قال: وأنا منهم فإني لا أهتدي إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئاً سواه، فيقال: إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس، فإنهم قالوا: ما نراه لا نثق به، فلعلنا نراه في المنام. فإن قال: وأنا من جملتهم فإني شاك أيضاً في المحسوسات فيقال: هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه، فيترك أياماً قلائل، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء: هذا حكم الجاحد. وأما الذي لا يجحد ولكن لا يفهم، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت، فإن وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة، فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك ﷺ بخواص أصحابه؛ فإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرّات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإنّ في عالم الشهادة أيضاً توحيداً، إذ يعلم كل أحد أنّ المنزل يفسد بصاحبين، والبلد يفسد بأميرين، فيقال له على حدّ عقله: إلّه العالم واحد والمدبر واحد، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله، وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حدّ عادتهم في المحاورة.

فإن قلت: فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلاً فيه؟ فأقول: نعم؛ فإن الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالباً، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده. وأما الذي شاهد الطريق وسالكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقيناً وإن كان يزداد وضوحاً، كما أنّ الذي يرى إنساناً في وقت الإسفار لا يزداد يقيناً عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحاً في تفصيل خلقته، وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري؛ فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ بل ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ فإن البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب السامرى لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان، فلما نظروا إلى عجل السامرى وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله: ﴿هذا إلّهكم وإلّه موسى﴾ ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولا ولا يمت لهم ضراً ولا نفعاً: فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل، لأنّ كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير. وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا نجد فيه اختلافاً وتضاداً أصلا.

فإن قلت: ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أنّ الوسائط والأسباب مسخرات، وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الإنسان فإنه يتحرّك إن شاء ويسكن إن شاء، فكيف يكون مسخراً؟ فاعلم أنه لو كان مع هذا

يشاء إن أراد أن يشاء، ولا يشاء أن لم يرد أن يشاء، لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط، ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه، إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية، وإذا لم تكن إليه المشيئة فمهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحرّكة ضرورة عند انجزام المشيئة. فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب. فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض. وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة، فهو مضطر في الجميع.

فإن قلت: فهذا جبر محض والجبر يناقض الأختيار، وأنت لا تنكر الأختيار فكيف يكون مجبوراً مختاراً؟ فأقول: لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور، فهو إذن مجبور على الاختيار، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار فلنشرح الأختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً يليق بما ذكر متطفلاً وتابعاً فإنّ هذا الكتاب لم نقصد به إلا علم المعاملة، ولكن أقول لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه، إذ يقال: الإنسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق في الماء والتنفس والكتابة، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة، ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات: فنسمي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعياً، ونسمي تنفسه فعلاً إرادياً، ونسمي كتابته فعلاً أختيارياً، والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لا محالة وقد يكون الخرق بعد التخطي ضرورياً، والتنفس في معناه فإنّ نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن؛ فمهما كان الثقل موجوداً وجد الأنخراق بعده وليس الثقل إليه، وكذلك الإرادة ليست إليه، ولذلك لوقصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطراراً، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أنّ تغميض الأجفان اضطراراً فعل إرادي، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة، وحدثت الحركة بها، ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضرورياً. وأما الثالث ـ وهو الأختيار ـ فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق، وهو الذي يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وتارة لا يشاء، فيظن من هذا أنّ الأمر إليه، وهذا للجهل بمعنى الأختيار فلنكشف عنه وبيانه: أنّ الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك، والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك ا لظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد، وإلى ما قد يتردد العقل فيه؛ فالذي نقطع به من غير تردد أن من يقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدنك بسيف، فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق، فلا جرم تنبعث الإرادة بالعلم. والقدرة بالإرادة، وتحصل حركة الأجفان بالدفع، وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة، ويكون ذلك بالإرادة، ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية فكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك، فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية فكر، فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان؛ فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير، أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة، ولم ينتظر في إنبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه، إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية، فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيما له في إدراكه توقف، وعن هذا قيل: إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين، ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلاً لم يمكنه لا لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً، وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق؛ فإنّ العقل

هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأن تردده بين شر الشرين؛ فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه، كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمي بنفسه من السطح مثلاً وإن مهلكاً ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرمي نفسه، فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ولا تنبعث له داعية البتة، لأنّ داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس، والقدرة مسخرة للداعية، والحركة مسخرة للقدرة، والكل مقدّر بالضرورة فيه من حيث لا يدري، فإنما هو محل ومجري لهذه الأمور، فأما أن يكون منه فكلا ولا، فإذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه، ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فإذا هو مجبور على الاختيار، ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض، وفعل الله تعالى اختيار محض، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة، لأنه لما كان فناً ثالثاً وائتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه، وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد، فإنّ ذلك في حقه محال، وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن ان تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه.

فإن قلت: فهل تقول إن العلم ولد الإرادة، والإرادة ولدت القدرة، والقدرة ولدت الحركة، وأن كل متأخر حدث من المتقدّم؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى، وإن ابيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على معنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية، وهو الأصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فإنهم وقفوا على كنه معناه، والكافة وقفوا على مجرّد لفظة مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق، وبيان ذلك يطول، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة، وكما يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب، ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدّم متقدّم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم، وكذلك جميع أفعال الله تعالى، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين ـ تعالى الله عن قول الجاهلين علواً كبيراً. وإلى هذا أشار قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين. ماخلقناهما إلا بالحق﴾ فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث، وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه، والمشروط قبل الشرط محال، والمحال لا يوصف بكونه مقدوراً، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة، ولا يتأخر عنها إلا الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم، وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق، ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق، بل كل ذلك بحكمة وتدبير، وتفهيم ذلك عسير، ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالاً يقرب مباديء الحق من الأفهام الضعيفة، وذلك بأن نقدّر إنساناً محدثاً قد انغمس في الماء إلى رقبته، فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاق له، فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه، فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث، فربما يظن الجاهل أنّ الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيبه، إذ يقول: كان الماء ملاقياً ولم يكن رافعاً والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل، بل حصل ارتفاع

الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فإذن غسل الوجه هوالرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم، وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه، والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة، فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدّرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات، فلنترك جميع ذلك فإنّ مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل، فإنّ الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجوّ وعليه التوكل والاعتماد، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد، واستيفاء ذلك في عمر نوح محال، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه، وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله، وما أخف مؤنته على اللسان! وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب! وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم.

فإن قلت: فكيف الجمع بين التوحيد والشرع: ومعنى التوحيد: أن لا فاعل إلا الله تعالى؛ ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد؛ فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا؟ وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم؟ فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذ كان للفاعل معنى واحد، وإن كان له معنيان ويكون الأسم مجملاً مردداً بينهما لم يتناقض، كما يقال: قتل الأمير فلاناً، ويقال: قتله الجلاد، ولكن الأمير قاتل بمعنى، والجلاد قاتل بمعنى آخر؛ فكذلك العبد فاعل بمعنى، والله عزوجل فاعل بمعنى آخر؛ فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد. ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم، فارتبطت القدرة بالإرادة، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع، وكل ماله ارتباط بقدرة فإنّ محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط، كما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً؛ لأنّ القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين، فلذلك سمي فعلاً لهما، فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين، ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرةإلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه، فقال الله تعالى في الموت ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ ثم قال عزوجل: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ وقال تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ أضاف إلينا ثم قال تعالى: ﴿أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً﴾ وقال عزوجل: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا﴾ ثم قال تعالى: ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ وكان النافخ جبريل عليه السلام، وكما قال تعالى: ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ قيل في التفسير: معناه إذا قرأه عليك جبريل. وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه، والتعذيب هو عين القتل، بل صرح وقال تعالى: ﴿فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم﴾ وقال تعالى: ﴿وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى﴾ وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهراً، ولكن معناه• وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به رامياً إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به رامياً، إذ هما معنيان مختلفان. وقال الله تعالى: ﴿الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ ثم قال: ﴿الرحمن علم القرآن﴾ وقال: ﴿علمه البيان﴾ وقال: ﴿ثم إنّ علينا بيانه﴾ وقال: ﴿أفرأيتم ما تمنون؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ ثم قال رسول الله ﷺ في وصف ملك الأرحام: «إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصوّرها جسداً، فيقول، يارب، أذكر أم أنثى، أسوي، أم معوّج؟ فيقول الله تعالى: «ما شاء ويخلق الملك[1]». وفي لفظ آخر: «ويصوّر الملك ثم ينفخ

---

(١) حديث: وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسداً... الحديث، رواه البزار وابن عدي من حديث عائشة: «إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول: يا رب ماذا... الحديث» وفي آخره «فما من شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم» وفي سنده جهالة. وقال ابن عدي: إنه منكر، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه.

فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة». وقد قال بعض السلف: إنّ الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحاً يلج في جسم، ولذلك سمي روحاً، وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم، فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرّد، وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة وآلآيات في الأرض والسموات، ثم قال: ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ وقال: ﴿شهد الله أنه لا إلّه إلا هو﴾ فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضاً بل طرق الاستدلال مختلفة. فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت، ثم فوّض الموت والحياة إلى ملكين، ففي الخبر: «أنّ ملكي الموت والحياة تناظرا، فقال ملك الموت: أما أميت الأحياء، وقال ملك الحياة. أنا أحي الموتى، فأوحى الله تعالى إليهما: كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع، وأنا المميت والمحيي لا يميت ولا يحيي سواي[1]». فإذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذ فهمت، ولذلك قال ﷺ الذي ناوله التمرة: «خذها، لو لم تأتها لأتتك[2]». أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة، ومعلوم أنّ التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها وكذلك لما قال التائب: أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد، فقال ﷺ: «عرف الحق لأهله[3]». فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز والمستعير في كلامه، وللتجوّز وجه كما أنّ للحقيقة وجهاً، واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع، ولكن ظن أنّ الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلاً بحركته وظن أنه تحقيق، وتوهم أنّ نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد، فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أنّ الأمر بالعكس وقالوا: إنّ الفاعل قد وضعته أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل إلا الله، فالأسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز. أي تتجوّز به عما وضعه اللغوي له، ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً أو اتفاقاً صدّقه رسول الله ﷺ فقال: «أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل[4]». أي كل ما لا قوام له بنفسه ـ وإنما قوامه بغيره ـ فهو باعتباره نفسه باطل، وإنما حقيقة وحقيقته بغيره لا بنفسه، فإذن لا حق بالحقيقة إلى الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء، فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته، فهو الحق وما سواه باطل، ولذلك قال سهل: يامسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا؛ كن الآن كما لم تكن فإنه اليوم كما كان.

فإن قلت: فقد ظهر الآن أن الكل جبر، فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا، وكيف غضبه على فعل نفسه؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول بإعادته، فهذا هوالقدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب، ولا يتم

---

(١) حديث: «إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت: أنا أميت الأحياء، وقال ملك الحياة: أنا أحيي الأموات، فأوحى الله إليهما: أن كونا على عملكما. . . الحديث» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: قال الذي ناوله التمره «حذها لو لم تأتها لأتتك» أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل ابن شرحبيل، ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح.

(٣) حديث: إنه قال للذي قال: أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد «عرف الحق لأهله» تقدم في الزكاة.

(٤) حديث: «أصدق بيت قالته العرب بيت لبد: * ألا كل شيء ما خلا الله باطل * متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «قال الشاعر» وفي رواية لمسلم «أشعر كلمة تكلمت بها العرب».

حال التوكل كما سيأتي إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة السب إلى حسن نظر الكفيل، وهذا الإيمان أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول، فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه. وهو أن يصدّق تصديقاً يقيناً لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عزوجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهي لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة عقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرّفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرّة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلى به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض - إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر - ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره، إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة، وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل، وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فإنّ الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً، وكما أن قطع اليد إذ تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص، فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة، فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه، وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين، ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون.

والحاصل أنّ الخير والشر مقضى به، وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمة ولا معقب لقضائه وأمره، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطئك لم يكن ليصيبك.

ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل، ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الشطر الثاني من الكتاب

في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل، وبيان ما قاله الشيوخ في حدّ التوكل، وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والمعيل، وبيان التوكل بقدر الادخار وبيان التوكل في دفع المضارّ، وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوي وغيره، والله الموفق برحمته.

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أنّ مقام التوكل ينتظم من، علم وحال، وعمل. وذكرنا العلم.

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبادة عنه، وإنما العلم أصله والعمل ثمرته، وقد أكثر الخائضون في بيان حدّ التوكل واختلفت عباراتهم، وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه كما جرت عادة أهل التصوّف به، ولا فائدة في النقل والإكثار، فلنكشف الغطاء عنه ونقول:

التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكل أمره إلى فلان أي فوّضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكول إليه وكيلاً، ويسمى المفوض إليه متكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده. ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول: من أدعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثقاً به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور: منتهى الهداية، ومنتهى القوّة، ومنهى الفصاحة، ومنهى الشفقة. أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً. وأما القدرة والقوّة فليستجرىء على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به: وأما الفصاحة فهي أيضاً من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الافصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه: فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس: وأما منتهى الشفقة فيكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود، فإنّ قدرته لا تغني دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ولا يبالي به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك؛ فإن كان شاكاً في الأربعة أو في واحدة منها أو جوّز أنّ يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله، بل بقى منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدّة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوّة اعتقاده لهذه الخصال فيه، ولاعتقادات والظنون في القوّة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين في قوّة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه، كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية، وكذلك سائر الخصال يتصوّر أن يحصل القطع به، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقدرهم بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى، فإن ثبت في نفسك كشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكال لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوّته فإنه لا حول ولا قوّة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة القدرة، فإنّ الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين: إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين، فإنّ من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله، ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه جماد في الحال وأنّ سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادراً عليه، كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السنور أسدا وإن كان قادراً عليه، ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش أو المبيت معه في

البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعيف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل، وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه، فإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الميت بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة؛ وذلك لا يكون في البداية أصلاً، وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب، فإنّ اليهودي مطمئن القلب إلى تهوّده، وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً، وإنما يتبعون الظنّ وما تهوي الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين، إلا أنهم معرضون عنه، فإذن الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل، كما أنّ ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب، وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى؛ وقد قيل: مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته إنسان مثله، وقد قال ﷺ: «من استعز بالعبيد أذله الله تعالى[1]». وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أنّ تلك الحالة لها في القوّة والضعف ثلاث درجات:

(الدرجة الأولى) ما ذكرناه: وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل.

(الثانية) وهي أقوى: أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه: يا أماه، وأول خاطر يخطر في قلبه أمه فإنها مفزعه، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له، ويظن أنه طبع من حيث إنّ الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه، ولكن كل ذلك وراء الإدراك، فمن كان باله إلى الله عزوجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً: فإنّ الطفل متوكل على أمه. والفرق بين هذا وبين الأول: أن هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته، بل إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه. وأما الأوّل فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانياً عن توكله لأنّ له التفاتاً إلى توكله وشعوراً به، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل: ما أدناه؟ قال: ترك الأماني. قيل: وأوسطه؟ قال:ترك الاختيار، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية. وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال: لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه.

(الثالثة) وهي أعلاها: أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا من أنه يرى نفسه ميتاً تحرّكه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت، وهو الذي قوي يقينه بأنه مجري للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات، وأن كلا يحدث جبراً فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه، ويفارق الصبي فإنّ الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها، بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه، وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته، وأنه يعطي ابتداء أفضل مما يسئل، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق، والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط.

---

(١) حديث: «من اعتز بالعبيد أذله الله» أخرجه العقيلي في الضعفاء، وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر، أورده العقيلي في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي وقال: لا يتابع على حديثه، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال: يخالف في روايته.

فإن قلت: فهذه الأحوال هل يتصور وجودها. فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر، والمقام الثاني والثالث أعزها، والأوّل أقرب إلى الإمكان، ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه، بل يكاد لا يكون المقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجل، فإنّ انبساط القلب إلا ملاحظة الحول والقوّة والأسباب طبع وانقباضه عارض، كما أنّ انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض. والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة، فإنّ البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم، وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوّة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم، وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوماً ويومين، والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول.

فإن قلت: فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال؟ فاعلم إنّ المقام الثالث ينفي التدبير رأساً ما دامت الحالة باقية، بل يكون صاحبها كالمبهوت. والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط. والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسننه دون صريح إشارته، فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له: لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور، ولا يكون هذا مناقضاً توكله عليه، إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوّته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره، بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له؛ إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر؛ فقوله وأما المعلوم من عادته واطراد سننه: فهو أن يعلم من عادته أن لا يحاج الخصم إلا من السجل، فتمام توكله إن كان متوكلاً عليه: أن يكون معولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها: وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته؛ فإذن لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل، ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاً في توكله فكيف يكون فعله نقصاً فيه، نعم بعد أن حضر وفاء باشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظراً إلى محاجته فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوّته إذ لم يبق له حول ولا قوّة، وقد كان فزعه إلى حوله وقوّته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته، وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري، وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأنّ كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الأعمال، فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوّته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى؛ فإذن لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوّته بل من حيث إن الوكيل جعله معتمداً لمحاجته، وعرّفه ذلك بإشارته وسنته، فإذن لا حول ولا قوّة إلا بالوكيل، إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته، بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله، وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوّة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد، فإذن لا حول ولا قوّة إلا بالله

حقاً وصدقاً، فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوّة إلا بالله[1]، وذلك قد يستبعد فيقال: كيف يعطي هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان

---

(١) أحاديث ثواب قول:لا حول ولا قوة إلا بالله: تقدمت في الدعوات.

وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها؟ وهيهات فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد، ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة (لا إله إلا الله) وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى، إذ في هذه الكلمة إضافة إلى شيئين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه، فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب (لا إله إلا الله) بالإضافة إلى هذا، وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين، فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات، وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين، وإلى اللبين الاشارة بقوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله صادقاً من قلبه مخلصاً وجبت له الجنة[1]». وحيث أطلق من غير الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع، والمراد به المقيد بالعمل الصالح، فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضاً حديث ولكنه حديث نفس، وإنما الصدق والإخلاص وراءهما، ولا ينصب سريرالملك إلا للمقرّبين وهم المخلصون، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلا بالملك، أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال: ﴿على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين﴾ ولما انتهى إلى أصحاب اليمين ما زاد في ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار والحور والعين، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح، ويتصور ذلك للبهائم على الدوام، وأين لذات البهائم من لذة الملك، والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين، ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة، أفترى أنّ أحوال البهائم ـ وهي مسيبة في الرياض متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد ـ أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوي الكمال مغبوطة ـ من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين، هيهات هيهات ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام! وليس يخفى أنّ شبه كل شيء منجذب إليه، وأنّ النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة، فهو بالبهائم أشبه من بالملائكة لا محالة، وهؤلاء هم الذين يقال فيهم ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ وإنما كانوا أضل لأن الانعام ليس في قوّتها طلب درجة الملائكة، فتركها الطلب للعجز. وأما الإنسان ففي قوّته ذلك، والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال. وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول:(لا إلّه إلا الله) ومعنى قول:(لاحول ولا قوة إلا بالله) وإن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل.

فإن قلت: ليس في قولك: (لا حول ولا قوة إلا بالله) إلا نسبة شيئين إلى الله، فلو قال قائل: السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟ فأقول: لا لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفهما بالصغر تجوزاً، فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى، فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعي أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدّة نظره، فهي مهلكة مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون إذا أثبتوا لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى، فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذي يصدق قول:لا حول ولا قوّة إلا بالله، وقد ذكرنا أنه ليس في

---

(١) حديث: «من قال لا إله إلا الله صادقاً مخلصاً من قلبه وجبت له الجنة» رواه الطبراني من حديث زيد بن أرقم، وأبو يعلي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

التوحيد إلا عقبتان (إحداهما) النظر إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات (والثانية) النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعني ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها؛ فإذاً رجع حال التوكل إلى التبري من الحول والقوّة والتوكل على الواحد الحق، وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى.

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليتبين أنّ شيئاً منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال، فقد قال أبو موسى الديلي قلت لأبي يزيد: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ قلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرك، فقال أبو يزيد: نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل، فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث، وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذي هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة، وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطاً في المقام الأوّل من التوكل؛ فقد أحترز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سدّ منافذ الحيات[1]. إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره، أو يقال: إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله ﷺ لا في حق نفسه، وإنما يزول التوكل بتحرّك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه وللنظر في هذا مجال، ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل، فإنّ حركة السر من الحيات هو الخوف، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات، إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله، فإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير.

وسئل ذو النون المصري عن التوكل؟ فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب، فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له: زدنا! فقال: إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية، وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط.

وسئل حمدون القصار عن التوكل؟ فقال: إن كان لك عشرةآلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك، وهذا إشارة إلى مجرّد الإيمان بسعة القدرة، وأن في المقدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة.

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل؟ فقال: التعلق بالله تعالى في كل حال، فقال السائل: زدني! فقال: ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك، فالأوّل عام للمقامات الثلاث، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة، وهو مثل توكل إبراهيم ﷺ إذ قال له جبريل عليه السلام: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك، فيكون هو المتولي لذلك، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره، وهو حال عزيز في نفسه، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز.

وقال أبو سعيد الخراز: التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب، ولعله يشير إلى المقام الثاني، فسكونه بلا اضطراب؛ إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به، واضطراب بلا سكون: إشارة إلى فزعه

---

(١) حديث: إن أبا بكر سد منافذ الحيات في الغار شفقة على النبي ﷺ. تقدم.

إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها.

وقال أبو علي الدقاق. التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، والمسلم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضي بحكمه. وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه، فإنّ العلم هو الأصل، والوعد يتبعه، والحكم يتبع الوعد، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك؛ وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلا نطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل، فهذا ما يتعلق بحال التوكل، والله الموفق برحمته ولطفه.

بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال، والحال يثمر الأعمال، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال، فإنّ ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين، بل نكشف الغطاء عنه ونقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده، وسعي العبد باختياره إما لأن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضالاً قد نزل به كالتداوي من المرض، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه؛ أو دفع الضارّ أو قطعه، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقروناً بشواهد الشرع.

(الفن الأوّل: في جلب النافع) فنقول فيه: الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات؛ مقطوع به، ومظنون ظناً يوثق به، وموهوم وهماً لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه.

(الدرجة الأولى) المقطوع به، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف، كما أنّ الطعام إذا كان موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمدّ اليد إليه وتقول أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي ومدّ اليد إليه سعي وحرك وكذلك مضغة بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعاً دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، أو يسخر ملكاً ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك: فقد جهلت سنة الله تعالى، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام: فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه، أليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم. أما العلم؛ فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوّة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك. وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج؟ وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك؟ وكيف تعول على حضور الطعام، وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرّق بينك وبين طعامك. وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول، فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فإنه متوكل.

(الدرجة الثانية) الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أنّ المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيداً، كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً ويكون سفره من غيره استصحاب زاد، فهذا ليس شرطاً في التوكل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأوّلين ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق، ولكن فعل ذلك جائز. وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص.

فإن قلت: فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة، فاعلم أنّ ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين (أحدهما) أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسوّاها على الصبر عن الطعام أسبوعاً وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق وتشوّش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى (والثاني) أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة؛ فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجتزيء به فيحيا به مجاهداً نفسه. والمجاهدة عماد التوكل، وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين. والدليل عليه: أنّ الخواص كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول: هذا لا يقدح في التوكل. وسببه أنه علم أنّ البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض، وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة؛ فإنّ المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام، وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يخترق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة في البوادي غالباً عند كل صلاة، ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي، فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضاً يلتحق بالدرجة الثانية، لأنه مظنون ظناً ليس مقطوعاً به، لأنه يحتمل أن لا يخترق الثوب أو يعطيه إنسان ثوباً أو يجد على رأس البئر من يسقيه، ولا يحتمل أنّ يتحرّك الطعام ممضوغاً إلى فيه، فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأوّل، ولهذا نقول: لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلاً، فهو آثم به ساع في هلاك نفسه، كما روي أنّ زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعاً وقال: لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي، فقعد سبعة فكاد يموت ولم يأته رزق، فقال: يارب إن أحييتني فائتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك، فأوحى الله جل ذكره إليه: عزتي لا أرزقنك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس. فدخل المصر وقعد، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه. أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا! أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتي، فإذن التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عزوجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من قبل، ولكنّ الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية، فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب.

فإن قلت: ما قولك في القعود في البلد بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأنه كفعل صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكاً نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكاً نفسه حتى يكون فعله حراماً، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام، وإلافتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حراماً إلا أن يشرف على الموت: فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل، وهو من مقامات التوكل؛ وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه، فإنّ الرزق يأتيه لا محالة، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء: وهو أنّ العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من الموت لأدركه، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصياً، ولقال له: يا جاهل، كيف أخلقك ولا أرزقك؟ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رزاق ولا مميت إلا الله تعالى. وقال ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً ولزالت

بدعائكم الجبال[1]». وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم؛ فإن قلتم: نحن أكبر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي: المتوكلون تجري أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وديرهم مشغولون مكدرون. وقال بعضهم: العبيد كلهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار، وبعضهم بامتهان كالصناع، وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة (الدرجة الثالثة) ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاءها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصى في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها، وهو الذي فيه الناس كلهم: أعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح، فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطير والكي بالإضافة إلى إزالة الضارّ، فإن النبي ﷺ وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئاً، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب، وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها. وقال سهل في التوكل: إنه ترك التدبير وقال: إنّ الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه، وإنما حجابهم بتدبيرهم، ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية، فإذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج، وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل. وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً، والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات:

(الأول) مقام الخواص ونظرائه، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعاً وما فوقه، أو تيسير حشيش له أو قوت، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك، فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعاً، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده.

(المقام الثاني) أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار، وهذا أضعف من الأوّل، لكنه أيضاً متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية، ولكنه بالقعود في الأمصار متعرّض لأسباب الرزق، فإن ذلك من الأسباب الجالبة، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى سكان البلد، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم.

(المقام الثالث) أن يخرج ويكتسب اكتساباً على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب، وهذا السعي لا يخرجه أيضاً عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوّته وجاهه وبضاعته، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له، بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع، فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرّك؟ وإلى ماذا يميل؟ وبم يحكم؟ ثم إن كان هذا المكتسب مكتسباً لعياله أو ليفرّق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع؛ فحال هذا أشرف

---

(1) حديث: «لو توكلتم على الله حق توكله... الحديث» وزاد في آخره «ولزالت بدعائكم الجبال» وقد تقدما قريباً دون هذه الزيادة، فرواها الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد فيه لين: لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال» ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسلاً دون قوله «لمشيتم على البحور» وقال: هذا منقطع.

من حال القاعد في بيته، والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضياف إليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصدّيق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذاً الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي، حتى كرهه المسلمون قالوا: كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوّة؟ فقال: لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى، ويستحيل أن يقال: لم يكن الصديق في مقام التوكل؛ فمن أولى بهذا المقام منه؟ فدل على أنه كان متوكلاً لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد. وقال أبو جعفر الحداد ـ وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من المتوكلين: أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق: كنت أكتسب في كل يوم ديناراً ولا أبيت منه دانقاً ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام، بل أخرجه كله قبل الليل. وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته وكان يقول: أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي. واعلم أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف، ولكن يقوى بالحال والعلم، كتوكل المكتسب؛ وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم، لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقاً، فهو كدخول السوق، ولا يكون داخل السوق متوكلاً إلا بشروط كثيرة كما سبق.

فإن قلت: فما الأفضل أن يقعد في بيته، أو يخرج ويكتسب؟ فاعلم أنه إن كان يتفرّغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئاً بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى، فالقعود له أولى. وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب، وتركه أهم من ترك الكسب، وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرق إليه نفوسهم: كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئاً فضلاً عما كان استأجره عليه، فرده، فلما ولى قال له أحمد: الحقه وأعطه فإنه يقبل، فلحقه وأعطاه فأخذه، فسأل أحمد عن ذلك؟ قال: كان قد استشرفت نفسه فرد، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ. وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئاً. وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره: رأيت الخضر ورضي بصحبتي ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصاً في توكلي، فإذن المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلاً.

فإن قلت: فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية؟ فأقول: علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوّق أمر من أموره كان راضياً به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً، فإنّ من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه، وكان بشر يعمل المغازل فتركها، وذلك لأنّ البعادي كاتبه قال: بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها. وقيل: تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها. وقيل: فعل ذلك لما مات عياله، كما كان لسفيان خمسون ديناراً يتجر فيها، فلما مات عياله فرّقها.

فإن قلت: فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أنّ الكسب بغير بضاعة لا

يمكن؟ فأقول: بأن يعلم أنّ الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة، وأنّ كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة، وأن يوطن نفسه على أنّ الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه، فإن أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سبباً لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به، وغايته أن يموت جوعاً، فينبغي أن يعتقد أنّ الموت جوعاً خير له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته، فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها، ففي الخبر «إنّ العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيباً حزيناً يتطير بجاره وابن عمه: من سبقني؟ من دهاني؟ وما هي إلا رحمة رحمة الله بها[1]» ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً: فإني لا أدري أيهما خير لي، ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصوّر منه التوكل؛ ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فإني ما شممت منه رائحة، هكذا كلامه مع علوّ قدره، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال: ما أدركته، ولعله أراد إدراك أقصاه، وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدّره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد: لم يكمل حال التوكل؛ فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور ـ كما سبق ـ وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبني على أصولها من الإيمان. وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين، ولذلك قال سهل: من طعن على التكسب فقد طعن على السنة، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد.

فإن قلت: فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظنّ بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية؟ فأقول: نعم، هو أن تعرف أنّ سوء الظنّ تلقين الشيطان، وحسن الظن تلقين الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ فإنّ الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان، ولذلك قيل: الشفيق بسوء الظن مولع، وإذا انضم إليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضاً تبطل التوكل، فقد حكي عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم، فقال له الإمام: لو اكتسبت لكان أفضل لك، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثاً، فقال في الرابعة: يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين، فقال: إن كان صادقاً في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك، فقال: يا هذا لو لم تكن إماماً تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق وقال إمام المسجد لبعض المصلين: من أين تأكل؟ فقال: يا شيخ أصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك.

وينفع حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية: أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه، وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعاً، كما روى عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم إبراهيم بن أدهم، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب، فنظر إلى إبراهيم وقال: يا حذيفة، أرى بك الجوع، فقلت: هو ما رأى الشيخ، فقال: على بدواة وقرطاس، فجئت به إليه فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود إليه بكل حال، والمشار إليه بكل معنى، وكتب شعراً:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر   أنا جائع أنا ضائع أنا عاري

---

(١) حديث: «إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه.. الحديث» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جداً نحوه، إلا أنه قال «إن العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا... الحديث» بنحوه.

هي ستة وأنا الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقعة فقال: أخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفع الرقعة إلى أوّل من يلقاك، فخرجت فأول من لقيني كان رجلاً على بغله. فناولته الرقعة فأخذها، فلما وقف عليها بكى وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار، ثم لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة فقال: هذا نصراني، فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمسها فإنه يجيء الساعة، فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم.

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري: جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثتني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئاً يسكن ضعفي، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها، فوجدت في قلبي منها وحشة وكأنّ قائلاً يقول لي: جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة، فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت، فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة وقال: هذه لك، فقلت كيف خصصتني بها؟ قال: اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق، فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين، وأنت أول من لقيته، فقلت: افتحها، ففتحها فإذا فيها سميد مصري ولوز مقشور وسكر كعاب، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى أصحابك هدية مني إليكم، وقد قبلتها، ثم قلت في نفسي؛ رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي.

وقال ممشاد الدينوري، كان علي دين فاشتغل قلبي بسبب، فرأيت في النوم كأن قائلاً يقول:يا بخيل، أخذت علينا هذا المقدار من الدين، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء، فما حاسبت بعد ذلك بقالاً ولاقصاباً ولا غيرهما.

وحكى عن بنان الحمال قال: كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد؛ فجاءتني امرأة وقالت لي: يا بنان، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لا يرزقك، قال فرميت بزادي ثم أتى علي ثلاث لم آكل، فوجدت خلخالاً في الطريق فقلت في نفسي: أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطيني شيئاً فأرده عليه، فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لي: أنت تاجر تقول عسى يجيء صاحبه فآخذ منه شيئا! ثم رمت لي شيئاً من الدراهم وقالت: أنفقها، فاكتفيت بها إلى قريب مكلة.

وحكي أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا: هو ذا يجيء النفير فنشتري ما يوافق، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا: إنها تصلح له، فقالوا لصاحبها، بكم هذه، فقال: إنها ليست للبيع، فألحوا عليه فقال: إنها لبنان الحمل أهدتها إليه امرأة من سمرقند، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة.

وقيل: كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعه قرص فقال: إن أكلته مت، فوكل الله عزوجل به ملكاً وقال: إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده.

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت البادية بغير زاد فأصابتني فاقة، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في نفسي أن سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة واريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعت صوتاً في نصف الليل عالياً: يا أهل المرحلة، إن لله تعالى ولياً حبس نفسه في هذا الرمل فألحقوه، فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية.

وروى أنّ رجلاً لازم باب عمر رضي الله عنه فإذا هو بقائل يقول: يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى؟ اذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر، فإذا هو قد

اعتزل واشتغل بالعبادة، فجاءه عمر فقال له: إني قد اشتقت إليك فما الذي شغلك عني؟ فقال: إني قرأت القرآن فاغناني عن عمر وآل عمر، فقال عمر: رحمك الله فما الذي وجدت فيه، فقال وجدت فيه ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فبكى عمر وقال: صدقت، فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه،

وقال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث، فقلت لا والله لا أستغيث، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعالى حتى نسدّ رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد، فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر، فهممت أن أصيح فقلت في نفسي: إلى من أصيح هو أقرب منهما وسكنت فبينا أن بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك، فتعلقت به فأخرجني، فإذا هو سبع، فمرّ وهتف بي هاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن، نجيناك من التلف بالتلف، فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى	وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطف في أمري فأبديت شاهدي	إلى غائبي واللطف يدرك باللطف
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما	تبشوني بالغيب أنك في الكف
أراك وبي من هيبتي لك وحشة	فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحي محبا أنت في الحب حتفه	وذا عجب كون الحياه مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر، وإذا قوي الإيمان وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر، وقوى الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عزوجل ولذلك حبسه عنه: تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات، وإلا فلا يتم أصلا.

بيان توكل المعيل

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد، لأنّ المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين (أحدهما) قدرته على الجوع أسبوعاً من غير استشراف وضيق نفس (والآخر) أبواب من الإيمان ذكرناها، من جملتها: أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأته رزقه، علمًا بأنّ رزقه الموت والجوع، وهو إن كان نقصاً في الدنيا فهو زيادة في الآخرة، فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له: وهو رزق الآخرة، وأنّ هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضياً بذلك وأنه كذا قضى وقدّر له، بهذا يتم التوكل للمنفرد، ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع، ولا يمكن أن يقرّر عندهم الإيمان بالتوحيد وأنّ الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادراً، وكذا سائر أبواب الإيمان، فإذن لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث، كتوكل أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه إذ خرج للكسب، فأما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم أو الصعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم فهذا حرام، وقد يفضي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذاً بهم، بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدّة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقاً وغنيمة في الآخرة، فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضاً عيال عنده، ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدّة، فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوّش عليه عبادته لم يجز له التوكل، ولذلك روى أنّ أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي مدّ يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام. فقال له. لا يصلح لك التصوّف. الزم السوق أي لا تصوّف إلا مع التوكل. ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام، وقال أبو علي الروذباري: إذا قال الفقير بعد خمسة أيام: أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب، فإذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله؛ وإنما يفارقهم في شيء واحد: وهو أن له

تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله، وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعاً عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدّة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادراً وملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر، والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي، وكل ذلك ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسباباً، وذلك لضعف إيمانهم وشدّة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل، ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقاً أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاءه الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطروا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدرّ له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضغ، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة، فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت، فإنه لم يكن قادراً على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته، نعم كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جداً فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق عليه واحد والآن المشفق عليه ألف وزيادة، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجاً، ولو رأوه يتيمًا لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه، فما رؤى إلى الآن في سني الخصب يتيم قد مات جوعاً مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحد والمشفق الآن ألف، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالاً هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرّك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ... ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت: الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزاً بصباه، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلايلتفتون إليه ويقولون: هو مثلنا فليجتهد لنفسه؟ فأقول: إن كان هذا القادر بطالاً فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإنّ التوكل من مقامات الدين يستعان به على التفرّغ لله تعالى؛ فما للبطال والتوكل؟ وإن كان مشتغلاً بالله ملازماً لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكفلونه ذلك، بل اشتغاله بالله تعالى يقرّر حبه في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته، وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس، وما رؤي إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعاً ولا يرى قط، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه ، فإن

من كان لله تعالى كان الله عزوجل له، ومن اشتغل بالله عزوجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها، فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيراً كافياً لأهل الملك والملكوت. فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب، نعم ما دبره تدبيراً يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة، وقد يقع ذلك أيضاً في بعض الأحوال لكن دبره تدبيراً يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة، والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة، وليس ذلك من طريق الآخرة، وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب، وهو في الغالب أيضاً ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادراً، وفي النادر أيضاً قد يحصل بغير اضطراب: فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته، فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز عبداً من عباده رزقه وإن سكن إلا نادراً ندوراً عظيماً يتصور مثله في حق المضطرب؛ فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال: وددت أن أهل البصرة في عيالي، وأن حبة بدينار. وقال وهيب بن الورد: لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً واهتممت برزقي لظننت أني مشرك. فإذا فهمت هذه الأمور فهمت ان التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين: الإفلاس عن وجود المقام ذوقاً، والإفلاس عن الإيمان به علماً؛ فإذن عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا تحتسب، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ الآية، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة؛ فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأنّ إلى ضمانه؛ فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق، بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدي إليها، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء. قال الله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ وأسرار السماء لا يطلع عليها، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال: ماذا تطلبون؟ قالوا: نطلب الرزق، فقال: إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه. قالوا: نسأل الله. قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه، فقالوا: ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون. فقال: التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة. وقال أحمد بن عيسى الخرّاز: كنت في البادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاماً، فقلت: ليس هذا من أفعال المتوكلين، فطالبتني أن أسأل الله صبراً، فلما هممت بذلك سمعت هاتفاً يهتف بي ويقول:

ويزعم أنه منا قريب ... وأنا لا نضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهداً ... كأنا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أنّ من انكسرت نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى: كان مطمئن النفس أبداً واثقاً بالله عزوجل؛ فإنّ أسوأ حاله أن يموت، ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئناً فإذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب، والذي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي دبرها صادق، فاقنع وجرّب تشاهد صدق الوعد تحقيقاً بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك، ولا تكن في توكلك منتظراً للأسباب بل لمسبب الأسباب، كما لا تكون منتظراً لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم، والمحرّك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه، وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصار وهو خامل. وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم

فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ، وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام، بل يأتيه أضعافه، فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب، فالاهتمام بالرزق قبيح بذوي الدين وهو بالعلماء أقبح لأنّ شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة إن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن: فإنّ الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرّب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عزوجل وإعانة للمعطي على نيل الثواب، ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أنّ الرزق ليس على قدر الأسباب، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيمًا عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال: أراد الصانع أن يدل على نفسه، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أنّ العقل رزق صاحبه: فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم، قال الشاعر:

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا   هلكن إذن من جهلهن البهائم

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلماناً كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضه رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفاً رغيفاً تجتهدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم، وأمر منادياً حتى نادى فيه أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلماني إذ خرجوا إليكم، بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم: فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فإذا فتح باب الميدان وخرج اتبعته بغلام يكون موكلاً به إلى أن أتقدم لعقوبته في ميعاد معلوم عندي ولكن أخفيه، ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فإني أختصه بخلعة سنية في الميعاد المذكور لعقوبة الآخر، ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له، ومن أخطأه غلماني فما أوصلوا إليه شيئاً فبات الليلة جائعاً غير متسخط للغلمان ولا قائلاً ليته أوصل إليّ رغيفاً فإني غداً أستوزره وأفوّض ملكي إليه فانقسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة؛ وقالوا: من اليوم إلى غد فرج! ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين، فسيقت العقوبة إليهم في الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة، وقسم قالوا: إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفاً واحداً ونقنع به؛ فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة؛ وقسم رابع اختفوا في زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا: إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد، وإن أخطأونا قاسينا شدّة الجوع الليلة، فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك، فما نفعهم ذلك، إذا تبعهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفاً واحداً، وجرى مثل ذلك أياماً حتى اتفق على الندور أن أختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش، فباتوا في جوع شديد، فقال أثنان منهم: ليتنا تعرّضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر، وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة، فهذا مثال الخلق، والميدان هو الحياة في الدنيا، وباب الميدان الموت والميعاد المجهول يوم القيامة، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعاً راضياً من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة، لأنّ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، والمتعلق بالغلمان هو المعتدي في الأسباب، والغلمان المسخرون هم الأسباب، والجالس في ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات

والمساجد على هيئة السكون، والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور، فإن مات واحد منهم جائعاً راضياً فله الشهادة والقرب من الله تعالى، وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرّضين للسبب بمجرّد حضورهم واشتهارهم، وساح في البوادي ثلاثة، وتسخط منهم اثنان، وفاز بالقرب واحد، ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة، وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف.

(الفن الثاني في التعرّض لأسباب الادخار) فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في الادخار ثلاثة أحوال (الأولى) أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعاً، ويلبس إن كان عارياً، ويشتري مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً، ويفرق الباقي في الحال، ولا يأخذه ولا يدّخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدّخره على هذه النية، فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقاً وهي الدرجة العليا(الحالة الثانية) المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل: أن يدّخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكلين أصلاً؛ وقد قيل: لا يدّخر من الحيوانات إلا ثلاثة: الفأرة، والنملة، وابن آدم (الحالة الثالثة) أن يدّخر لأربعين يوماً فما دونها، فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين؟ اختلفوا فيه: فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حدّ التوكل. وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوماً ويخرج بما يزيد على الأربعين. وقال أبو طالب المكي: لا يخرج عن حدّ التوكل بالزيادة على الأربعين أيضاً، وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار، نعم يجوز أن يظن أنّ أصل الادخار يناقض التوكل، فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوّزع على تلك الرتبة، وتلك الرتبة لها بداية ونهاية، ويسمى أصحاب النهايات: السابقين ، وأصحاب البدايات: أصحاب اليمين، ثم أصحاب اليمين أيضاً على درجات، وكذلك السابقون، وأعالي درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين، فلا معنى للتقدير في مثل هذا؛ بل التحقيق أنّ التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل؛ وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس، فإنّ ذلك كالممتنع وجوده؛ أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل؛ الأمل وقصره، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات، وأقصاه ما يتصوّر أن يكون عمر الإنسان، وبينهما درجات لا حصر لها، فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة، وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام: بعيد؛ فإنّ تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوماً لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور، كما قال عليه السلام:«إنّ الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً[1]». لأنّ استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفاً على مدّة مبلغها ما ذكر، فإذن ما وراء السنة لا يدّخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهرة الأسباب، فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب، فإنّ أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرّر بتكرّر السنين غالباً، ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهراً ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر، بل هو بينهما في الرتبة، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل، فالأفضل أن لا يدّخر أصلاً، وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر، وقد روى في الفقير الذي أمر ﷺ علياً كرّم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته، فلما دفنه قال لأصحابه:«إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية». قلنا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «كان صوّاماً قوّاماً كثير الذكر لله تعالى

---

(١) حديث: «خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود الفارسي بإسناد ضعيف جداً وهو باطل.

غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه، وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه، ثم قال ﷺ، بل أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر[1]». الحديث، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك، فإنّ ادخاره لا ينقص الدرجة، وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف، وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرق نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق، فإن كان يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى، بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافياً بقدر كفايته وكان لا يتفرّغ قلبه إلا به فذلك له أولى، لأنّ المقصود إصلاح القلب ليتجرّد لذكر الله، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه، والمحذور ما يشغل عن الله عزوجل، وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها، ولذلك بعث رسول الله ﷺ إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات، فلم يأمر التجار بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أنّ فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى، وعمدة الاشتغال بالله عزوجل القلب، فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته، كما أنّ صواب القوي ترك الادخار، وهذا كله حكم المنفرد؛ فأما المعيل فلا يخرج عن حدّ التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم، وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل، لأنّ الأسباب تتكرّر عند تكرّر السنين؛ فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه، وذلك يناقض قوّة التوكل، فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة. وقد ادخر رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة[2]، ونهى أم أيمن وغيرهما أن تدّخر له شيئاً لغد[3]. ونهى بلالاً عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها، فقال ﷺ:«أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا[5]» وقال ﷺ:«إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ[4]» اقتداء بسيد المتوكلين ﷺ، وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول «ما يدريني لعلي لا أبلغه[6]». وكان ﷺ لو اخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره، ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليمًا للأقوياء من أمته، فإنّ أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوّته، وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته، بل أخبر: «إنّ الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه[7]». «تطييباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات، فما أرسل رسول الله ﷺ إلا رحمة للعالمين كلهم عليه اختلاف أصنافهم ودرجاتهم، وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر، ويدل على ما روى أبو أمامة الباهلي: أن بعض أصحاب الصفة توفي فما وجد له كفن، فقال ﷺ:«فتشوا ثوبه». فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال ﷺ:«كيتان[8]». وقد كان غيره من المسلمين

---

(١) حديث: أنه قال في حق الفقير الذي أمر علياً أو أسامة فغسله وكفنه ببردته: أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر. . . الحديث. وفي آخره «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر» لم أجد له أصلاً، وتقدم آخر الحديث قبل هذا.

(٢) حديث: أدخر لعياله قوت سنة، متفق عليه، وتقدم في الزكاة.

(٣) حديث: نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لغد: تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها.

(٤) حديث: نهى بلالاً عن الإدخار وقال: «إنفق بلالا ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً». رواه البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال: دخل عليه النبي ﷺ وعنده صبر من تمر، فقال ذلك. وروى أبو يعلي والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة، وكلها ضعيفة. وأما ما ذكره المصنف من أنه أدخر كسرة خبز، فلم أره.

(٥) حديث: قال لبلال:«إذا سئلت فلا تمنع، وإذا أعطيت فلا تخبأ» رواه الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة.

(٦) حديث أنه ﷺ بال وتيمم مع قرب الماء ويقول: «ما يدريني لعلي لا أبلغه» أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(٧) حديث: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه. . . الحديث» أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمر وقد تقدم.

(٨) حديث أبي أمامة: توفى بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخلة إزاره، فقال ﷺ «كيتان» رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه.

يموت ويخلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه، وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين: (أحدهما) أنه أراد كيتين من النار، كما قال تعالى: ﴿تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس (والثاني) أن لا يكون ذلك عن تلبيس، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه، وذلك لا يكون عن تلبيس، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة، إذ لا يؤتي أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص بقدره من الآخرة.
وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدّخر ليس من ضرورته بطلان التوكل، فيشهد له ما روى عن بشر. قال الحسين المغازلي من أصحابه: كنت عنده ضحوة من النهار، فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين، فقام إليه بشر، قال: وما رأيته قام لأحد غيره، قال: ودفع إلي كفا من دراهم وقال: اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب، وما قال لي قط مثل ذلك، قال: فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره، قال: فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير، فأخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف، فعجبت من ذلك وكرهته له، فقال لي بشر: لعلك أنكرت فعله؟ قلت: نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن، فقال: ذاك أخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلمنا أنّ التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار.

(الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرّض للخوف) اعلم أنّ الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً؛ أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجاري السيل من الوادي أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر، فكل ذلك منهى عنه، وصاحبه قد عرّض نفسه للهلاك بغير فائدة، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها، ومظنونة، وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية؛ فإنّ الكي والرقية قد تقدم به على المحذور دفعاً لما يتوقع، وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة، ورسول الله ﷺ لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة، والجبة تلبس دفعاً للبرد المتوقع، وكذلك كل ما في معناها من الأسباب، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلاً عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهييجاً لقوّة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة، ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر، قال الله تعالى: ﴿فاتخذه وكيلاً واصبر على ما يقولون﴾ وقال تعالى: ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ وقال عزوجل: ﴿ودع أذاهم وتوكل على الله﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿فاصبر كما صبرأولوا العزم من الرسل﴾ وقال تعالى: ﴿نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ وهذا في أذى الناس، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب، فترك دفعها ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه، ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانته على الدين، وترتب الأسباب ههنا كترتبها في الكسب وجلب المنافع فلا نطول بالإعادة وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير، لأن هذه أسباب عرفت سنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً، ولذلك قال ﷺ للأعرابي:لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله «اعقلها وتوكل[1]». وقال تعالى: ﴿خذوا حذركم﴾ وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ وقال سبحانه: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل﴾ وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فأسر بعبادي ليلاً﴾ والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب، واختفاء رسول الله ﷺ في الغار اختفاء

---

(١) حديث: «اعقلها وتوكل» أخرجه الترمذي من حديث أنس، قال يحيى القطان: منكر. ورواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد «قيدها».

عن أعين الأعداء دفعاً للضرر[1]، وأخذ السلاح في الصلاة فليس دافعاً قطعاً كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعاً، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع، وإنما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه.

فإن قلت: فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرّك. فأقول: وقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه فلا ينبغي أن يغرّك ذلك المقام؛ فإنه وإن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطاً في التوكل، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها.

فإن قلت: وهل من علامة أعلم بها أني قد وصلت إليها؟. فأقول: الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه: أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى الغضب، فلا يزال يعضك ويعض غيرك، فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلي لم يستشل إلا بإشارتك وكان مسخراً لك، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع، وكلب دارك أولى أن يكون مسخراً لك من كلب البوادي، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك، فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر.

فإن قلت: فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذراً من العدّو وأغلق بابه حذراً من اللص وعقل بعيره حذراً من أن ينطلق، فبأي اعتبار يكون متوكلاً فأقول: يكون متوكلاً بالعلم والحال، فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه؛ فكم من باب يغلق ولا ينفع، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت، وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب؛ فلا تتكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب، كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضرو أحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل يتكل على كفاية الوكيل وقوّته، وأما الحال فهو أن يكون راضياً بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول؛ اللهم إن سلطت علي ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك، فإني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها، أو عارية ووديعة فتستردها، ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري، وكيفما قضيت فأنا راض به، وما أغلقت الباب تحصناً من قضائك وتسخطاً له، بل جرياً على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب؛ فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح واغلاق الباب، ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى، وإن لم يجده بل وجده مسروقاً نظر إلى قلبه، فإن وجده راضياً أو فرحاً بذلك عالماً أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه، وإن تألم قلبه به ووجد قوّة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل؛ لأن التوكل مقام بعد الزهد، ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي، بل يكون على العكس منه، فكيف يصح له التوكل؟ نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس، وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه، فقد كانت السرقة مزيداً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوي؛ فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدّق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها؛ فإنها خدّاعة أمارة بالسوء مدعية للخير.

فإن قلت: فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول: المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدّوه وغير ذلك من ضرورات

---

(١) حديث: اختفى رسول الله ﷺ عن أعين الأعداء دفعاً للضرر، تقدم في قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة.

المعيشة من أثاث البيت، وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله، وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده، وإنما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة؛ لأنّ سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع، والخروج عن سنة الله عزوجل ليس شرطاً في التوكل، ولذلك كان الخوّاص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين.

فإن قلت: فكيف يتصوّر أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه، فإن كان لا يشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه، وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه؟ فأقول: إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع، ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه، فاستدل على ذلك بتيسير الله عزوجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعاً به، إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر؛ فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه، لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به، فيقول: لولا أنّ الله عزوجل علم أنّ الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني، فبمثل هذا الظن يتصوّر أن يندفع عنه الحزن، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفاً، وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله، فإن قدّم إليه الغذاء فرح وقال: لولا أنه يعرف أنّ الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قرّبه إلي، وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضاً فرح وقال: لولا أنّ الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه، وكل من لا يعتقد لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلاً. ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب، فإنه لا يدري أي الأسباب خير له، كما قال عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً؛ فإني لا أدري أيهما خير لي؛ فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق فإنه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان! وكم من غني يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيراً!

بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه (الأول) أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسك من الجيران الحفظ مع الغلق، وكجمعه أغلاقاً كثيرة؛ فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشدّه بشريط ويقول: لولا الكلاب ما شددته أيضاً (الثاني) أن لا يترك في البيت متاعاً يحرّض عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم، ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال: خذها لا حاجة لي إليها. قال: لم؟ قال: يوسوس إلى العدّو أن اللص يأخذها، فكأنه احترز من أن يعصي السارق: ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها، ولذلك قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها (الثالث) أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول: ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو في سبيل الله تعالى، وإن كان فقيراً فهو عليه صدقة، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى، فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير (إحداهما) أن يكون ماله مانعاً من المعصية، فإنه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل (والثانية) أن لا يظلم مسلماً آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر، ومهما ينوي حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوي دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين

وامتثل قوله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً[1]» ونصر الظالم: أن تمنعه من الظلم، وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له، وليتحقق أنّ هذه النية لا تضره بوجه من الوجود إذ ليس فيها ما يسلط السارق وبغير القضاء الأزلي. ولكن يتحقق بالزهد نيته، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضاً، كما روى عن رسول الله ﷺ.فيمن ترك العزل فأقرّ النطفه قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له[2]». لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه، فلو خلق لكان ثوابه على فعله، وفعله لم ينعدم، فكذلك أمر السرقة (الرابع) أنه إذا وجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول: لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى، ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عزوجل، فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين؛ وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه، فإنه قد قدّمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة، فإن أعيد عليه، فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عزوجل، وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم، لأن الملك لا يزول بمجرّد تلك النية، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين.

وقد روي أنّ ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا، ثم قال: في سبيل الله تعالى، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنّ ناقتك في مكان كذا فلبس نعله وقام، ثم قال: استغفر الله وجلس، فقيل له: ألا تذهب فتأخذها! فقال: إني كنت قلت في سبيل الله.

وقال بعض الشيوخ: رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازلي فيها فرأيتها، قال: وهو مع ذلك كئيب حزين! فقلت: قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين! فتنفس الصعداء ثم قال: نعم إني لا أزال حزيناً إلى يوم القيامة. قلت: ولم؟ قال:إني لما رأيت منازلي في الجنة رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت، ففرحت بها، فلما هممت بدخولها نادى منادي من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هي لمن أمضى السبيل، فقلت:وما إمضاء السبيل؟ فقيل لي: كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ترجع فيه، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك.

وحكي عن بعض العباد بمكة:أنه كان نائماً إلى جنب رجل معه هميانه، فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به، فقال له:كم كان في هميانك؟ فذكر له، فحمله من البيت ووزنه من عنده، ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحاً معه، فجاء هو وأصحاب معه وردوا الذهب، فأبى وقال:خذه حلالاً طيباً، فما كنت لأعود في مال أخرجته في سبيل الله عزوجل، فلم يقبل، فالحوا عليه، فدعا ابنه وجعل يصره صررا ويبعث به إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء.

فهكذا كانت أخلاق السلف، وكذلك من أخذ رغيفاً ليعطيه فقيراً فغاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجه فيعطيه فقيراً آخر، وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات (الخامس) وهو أقل الدرجات أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ، فإن فعل باطل توكله ودل على كراهته وتأسفه على ما فات، وبطل زهده، ولو بالغ بطل أجره أيضاً فيما أصيب به؛ ففي الخبر:«من دعا على ظالمه فقد انتصر[3]». وحكى أنّ الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفاً وكان قائماً يصلي، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه، فجاءه قوم يعزونه فقال: أما إني قد كنت رأيت وهو يحله: قيل: وما منعك أن تزجره؟ قال: كنت فيما هو أحب إلى من ذلك ـ يعني الصلاة ـ فجعلوا يدعون عليه فقال: لا تفعلوا وقولوا خيراً فإني قد جعلتها صدقة عليه.

---

(١) حديث: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» متفق عليه من حديث أنس، وقد تقدم.

(٢) حديث: «من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام... الحديث» لم أجد له أصلاً.

(٣) حديث: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر». تقدم.

وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له: ألا تدعو على ظالمك! قال: ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه. قيل: أرأيت لو رد عليك؟ قال: لا آخذه ولا أنظر إليه لأني كنت قد أحللته له.

وقيل لآخر: ادع الله على ظالمك، فقال: ما ظلمني أحد، ثم قال: إنما ظلم نفسه، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شراً.

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه، فقال: لا تغرق في شتمه، فإنّ الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه.

وفي الخبر:«إنّ العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم[1]». (السادس) أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرّضه لعذاب الله تعالى، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً وجعل ذلك نقصاً في دنياه لا نقصاً في دينه، فقد شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال: إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين.

وسرق من علي بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن، فقال: أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا والله ولكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة.

وقيل لبعضهم: ادع على من ظلمك، فقال: إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه؛ فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين.

(الفن الرابع: في السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله) اعلم أنّ الأسباب المزيلة للمرض أيضاً تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب، أعني معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب، وإلى موهوم كالكي والرقية. أما المقطوع فليس من التوكل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت. وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله ﷺ المتوكلين، وأقواها الكي، ويليه الرقية، والطيرة آخر درجاتها، والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب، وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضاً للتوكل بخلاف الموهوم، وتركه ليس محظوراًبخلاف المقطوع، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين، ويدل على أنّ التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله ﷺ قوله وأمره به؛ أما قوله فقد قال ﷺ:«ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام[2]». يعني الموت. وقال عليه السلام: «تداووا عباد الله فإنّ الله خلق الداء والدواء[3]». وسئل عن الدواء والرقي هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله[4]». وفي الخبر المشهور:«ما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا مرامتك بالحجامة[5]». وفي

---

(١) حديث: «إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة... الحديث» تقدم.

(٢) حديث: «ما من داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهلة إلا السأم» رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله «إلا السام» وهو عند ابن ماجه مختصراً دون قوله «عرفه... إلى آخره» وإسناده حسن، وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك «إلا الهرم» وللطبراني في الأوسط والبزار من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف، والبخاري من حديث أبي هريرة «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» ولمسلم من حديث جابر «لكل داء دواء».

(٣) حديث: «تداووا عباد الله...» رواه الترمذي وصححه. وابن مساجة واللفظ له من حديث أسامة ابن شريك.

(٤) حديث: سئل عن الدواء والرقي هل يرد من قدر الله فقال: «هي من قدر الله...» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزامة، وقيل عن أبي خزامة عن أبيه، قال الترمذي: وهذا أصح.

(٥) حديث: «ما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة» رواه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب، ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف.

الحديث أنه أمر بها وقال: «احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم[1]» فذكر أنّ تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى، وبين أنّ إخراج الدم خلاص منه إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت، وليس من شرط التوكل ترك ذلك، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلاً. وفي خبر مقطوع: «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة[2]». وأما امره ﷺ فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي وبالحمية[3]، وقطع لسعد بن معاذ عرقاً[4]. أي فصده، وكوى سعد بن زرارة[5]، وقال لعلي رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين: «لا تأكل من هذا» يعني الرطب «وكل من هذا فإنه أوفق لك[6]». يعني سلقا قد طبخ بدقيق شعير. وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين: «تأكل تمراً وأنت أرمد» فقال: «إني آكل من الجانب الآخر، فتبسم ﷺ[7]». وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة[8]. قيل: السنا المكي وتداوى ﷺ غير مرة من العقرب وغيرها[9]. وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء[10]. وفي خبر: أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء، وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً[11]، وماروى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر، وقد صنف في ذلك كتاب وسمي طب النبي ﷺ. وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات: أن موسى عليه السلام

---

(١) حديث: «احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين... الحديث» أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفاً، ورفعه الترمذي بلفظ «إن خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة... الحديث» دون ذكر التبيغ، وقال: حسن غريب، وقال البزار: إن طريقة المتقدمة أحسن من هذا الطريق، ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف «من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر... الحديث».

(٢) حديث: «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة» رواه الطبراني من حديث معقل بن يسار، وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادهما واحد اختلف على راويه في الصحابي، وكلاهما فيه زين العمى وهو ضعيف.

(٣) حديث: أمره بالتداوي لغير واحد من الصحابة. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه «تداووا... الحديث» وسيأتي في قصة علي وصهيب في الحمية بعده.

(٤) حديث: قطع عرقاً لسعد ابن معاذ، أخرجه مسلم من حديث جابر قال: رمى سعد في فحسمه النبي ﷺ بيده بمشقص... الحديث.

(٥) حديث: أنه كوى أسعد بن زرارة، رواه الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف، ومن حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل.

(٦) حديث: قال لعلي وكان رمداً: «لا تأكل من هذا... الحديث» رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه من حديث أم المنذر.

(٧) حديث: قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمراً وأنت رمد... الحديث» تقدم في آفات اللسان.

(٨) حديث: من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة، أخرجه ابن عدي من حديث عائشة وقال: إنه منكر، وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

(٩) حديث: أنه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها، رواه الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله ﷺ لدغته عقرب فغشي عليه فرقاه الناس... الحديث، وله في الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى تقمح كفاً من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً، ولأبي يعلي والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي ﷺ احتجم بعد ماسم، وفيه جابر الجعفي ضعفه الجمهور.

(١٠) حديث: كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فيغلفه بالحناء، أخرجه البزار وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة، وقد اختلف في أسناده على الأحوص بن حكيم: كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناه، رواه الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى، قال الترمذي: غريب.

(١١) حديث: جعل على قرحة خرجت بيده تراباً، رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة: كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي ﷺ بيده هكذا، ووضع سفيان بن عيينة الراوي سبابته بالأرض ثم رفعها وقال: «بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفي سقيمنا».

اعتل بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته؛ فقالو له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال: لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء، فطالت علته فقالوا له: إن دواء هذه العلة معروف مجرّب، وإنا نتداوى به فنبرأ، فقال: لا أتداوى، وأقامت علته، فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي وجلالي لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك، فقال لهم: داووني بما ذكرتم، فداووه فبرأ، فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟.

وروي في خبر آخر: أنّ نبياً من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها، فأوحى الله تعالى إليه: كل البيض. وشكا نبي آخر الضعف، فأوحى الله تعالى إليه: كل اللحم باللبن فإن فيهما القوّة، قيل: هو الضعف عن الجماع.

وقد روي أنّ قوماً شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم، فأوحى الله تعالى إليه: مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع، إذ فيه يصور الله تعالى الولد، وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل، والنفساء الرطب.

فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب، فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء، والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين (أحدهما) أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح يدركه كافة الناس، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص، فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول (والثاني) أن الدواء يسهل والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها، وربما يفوّت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال. وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطاً كثيرة، وقد يتفق من العوارض ما يوجب داء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشيئين، وإلا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب، وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره، وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته، فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء؛ فقد روى عن موسى ﷺ أنه قال: يا رب، ممن الداء والدواء؟ فقال تعالى: مني. قال: فما يصنع الأطباء؟ قال: يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتى يأتي شفائي أو قضائي؛ فإذن معنى التوكل مع التداوي التوكل بالعلم والحال، كما سبق في فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع، فأما ترك التداوي رأساً فليس شرطاً فيه.

«فإن قلت: فالكي أيضاً من الأسباب الظاهرة النفع. فأقول: ليس كذلك، إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقي المبردات للمحرور. وأما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه، وقلما يعتاد الكي في أكثر البلاد، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب؛ فهذا من الأسباب الموهومة كالرقي، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه إحراق النار في الحال مع الاستغناء عنه فإنه ما من وجع يعالج بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق، فالإحراق بالنار جرح مخرّب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتها بعيدة ولا يسدّ مسدّهما غيرهما، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الكي دون الرقي[1]». وكل واحد منهما بعيد عن التوكل. وروى أنّ عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكي فامتنع، فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتى اكتوى، فكان يقول. كنت أرى نوراً وأسمع صوتاً وتسلم على الملائكة، فلما اكتويت انقطع ذلك عني، وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت، ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى، فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة. وقال لمطرف بن عبد الله: ألم

---

(١) حديث: نهى رسول الله ﷺ عن الكي دون الرقي، رواه البخاري من حديث ابن عباس «وأنهى أمتي عن الكي» وفي الصحيحين من حديث عائشة: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من كل ذي حمة.

تر إلى الملائكة التي كان أكرمني الله بها قد ردها الله تعالى علي! بعد أن كان أخبره بفقدها؛ فإذن الكي وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالمتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير، ثم هو مذموم، ويدل ذلك على شدّة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها، والله أعلم.

بيان أن ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله ﷺ

اعلم أن الذين تداووا من السلف لا ينحصرون، ولكن قد ترك التداوي أيضاً جماعة من الأكابر، فربما يظن أنّ ذلك نقصان، لأنه لو كان كمالاً لتركه رسول الله ﷺ، إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله.

وقد روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له: لو دعونا لك طبيباً؟ فقال: الطبيب قد نظر إلي وقال: إني فعال لما أريد. وقيل لأبي الدرداء في مرضه: ماتشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرة ربي قالوا ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني.

وقيل لأبي ذرّ وقد رمدت عيناه: لو داويتهما؟ قال: إني عنهما مشغول؛ فقيل: لو سألت الله تعالى أن يعافيك؟ فقال: أسأله فيما هو أهم علي منهما.

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج، فقيل له:لو تداويت؟ فقال: قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً وكان فيهم الأطباء، فهلك المداوى والمداوي، ولم تغن الرقي شيئاً.

وكان أحمد بن حنبل يقول: أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره وإن كان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضاً إذا سأله.

وقيل لسهل: متى يصح للعبد التوكل؟ قال: إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه.

فإذا منهم من ترك التداوي وراءه، ومنهم من كرهه، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله ﷺ وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوي. فنقول: إن لترك التداوي أسباباً (السبب الأوّل) أن يكون المرض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه، ويكون ذلك معلوماً عنده تارة برؤيا صادقة، وتارة بحدس وظنّ، وتارة بكشف محقق، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوي من هذا السبب، فإنه كان من المكاشفين، فإنه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث: إنما هنّ أختاك، وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملاً فولدت أنثى، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضاً بانتهاء أجله، وإلا فلا يظن به إنكار التداوي وقد شاهد رسول الله ﷺ تداوى وأمر به (السبب الثاني) أن يكون المريض مشغولاً بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه، فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوي شغلا بحاله، وعليه يدل كلام أبي ذرّ إذ قال: إني عنهما مشغول وكلام أبي الدرداء إذ قال: إنما اشتكي ذنوبي فكان تألم قلبه خوفاً من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض، ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته، أو كالخائف الذي يحمل إلى ملك من لملوك ليقتل إذا قيل له: ألا تأكل وأنت جائع؟ فيقول: أنا مشغول عن ألم الجوع، فلا يكون ذلك إنكاراً لكون الأكل نافعاً من الجوع ولا طعناً فيمن أكل، ويقرب من هذا اشتعال سهل حيث قيل له: ما القوت؟ فقال: هو ذكر الحي القيوم، فقيل: إنما سألناك عن القوام؟ فقال: القوام هو العلم. قيل: سألناك عن الغذاء؟ قال: الغذاء هو الذكر. قيل: سألناك عن طعمة الجسد؟ قال: مالك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخراً: إذ دخل عليه علة فرده إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها (السبب الثالث) أن تكون العلة مزمنة والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع جار مجرى الكي والرقية، فيتركه المتوكل؛ وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال: ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوي. أي أن الدواء غير موثوق به، وهذا قد

يكون كذلك في نفسه، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له، فلا يغلب على ظنه كونه نافعاً، ولا شك في أنّ الطبيب المجرّب أشدّ اعتقاداً إلى الأدوية من غيره، فتكون الثقة والظنّ بحسب الاعتقاد، والاعتقاد بحسب التجربة، وأكثر من ترك التداوي من العباد والزهاد، هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئاً موهوماً لا أصل له، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب، غير صحيح في البعض، ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظراً واحداً، فيرى التداوي تعمقاً في الأسباب كالكي والرقي، فيتركه (السبب الرابع) أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى، أو ليجرب نفسه في القدرة على الصبر. فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره. فقد قال ﷺ:«نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدّد عليه البلاء. وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء[1]». وفي الخبر:«إنّ الله تعالى يجرّب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، لا يزيد، ومنهم دون ذلك، ومنهم من يخرج أسود محترقاً[2]». وفي حديث من طريق أهل البيت «إن الله تعالى إذ أحب عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه[3]». وقال ﷺ:«تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون[4]». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تجد المؤمن أصح شيء قلباً وأمرضه جسمًا، وتجد المنافق أصح شيء جسمًا وأمرضه قلباً، فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسي العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أنّ الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه، وإنما يمنع المرض جوارحه، وعلموا أنّ صلاتهم قعوداً مثلاً مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياماً مع العافية والصحة، ففي الخبر:«إن الله تعالى يقول لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحمًا خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي[5]». وقال ﷺ:«أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس[6]». فقيل: معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ وكان سهل يقول: ترك التداوي وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوي لأجل الطاعات. وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها، وكان يداوي الناس منها، وكان إذا رأى العبد يصلي من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول: صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوي للقوّة والصلاة قائماً، وسئل عن شرب الدواء فقال: كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف، ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل، لأنه إن أخذ شيئاً من الدواء ولو

---

(١) حديث: «نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل... الحديث» رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه علي شرط مسلم نحوه مع اختلاف، وقد تقدم مختصراً، ورواه الحاكم أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) حديث: «إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه... الحديث» رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

(٣) حديث: من طريق أهل البيت: إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه... الحديث» ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسنده، وللطبراني من حديث أبي عنبة «إذا أراد الله بعبد خيراً ابتلاه، وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالاً ولا ولداً» وسنده ضعيف.

(٤) حديث: «تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون» أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة، والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة، وهو صدر حديث «إن الرجل تكون له المنزلة عند الله... الحديث» وقد تقدم.

(٥) حديث: «إن الله يقول للملائكة: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فإنه في وثاقي... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر، وقد تقدم.

(٦) حديث: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس» تقدم ولم أجده مرفوعاً.

كان الماء البارد يسأل عنه لم أخذه؟ ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه. وكان مذهبه ومذهب البصر بين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأنّ ذرّة من أعمال القلوب: مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالباً مدهشاً. وقال سهل رحمه الله علل الأجسام رحمة الله وعلل القلوب عقوبة.

السبب الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها، فيرى المرض إذا طال تكفيراً فيترك التداوي خوفاً من أن يسرع زوال المرض فقد قال ﷺ «لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الأرض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة[1]». وفي الخبر «حمى يوم كفارة سنة[2]». فقيل لأنها تهدّ قوّة سنة وقيل للإنسان ثلاثمائة وستون مفصلاً فتدخل الحمى جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم. ولما ذكر ﷺ كفارة الذنوب بالحمى، سأل زيد بن ثابت ربه عزوجل أن لا يزال محموماً فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله، وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزايلهم[3]. ولما قال ﷺ «من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثواباً دون الجنة[4]». وقال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى. وقال عيسى عليه السلام، لا يكون عالماً من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه. وروي أنّ موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال: يا رب ارحمه فقال تعالى: كيف أرحمه فيما به أرحمه ـ أي به أكفر ذنوبه ـ وأزيد في درجاته.

السبب السادس: أن يستشعر العبد في نفسه مبادي البطر والطغيان بطول مدّة التداوي خوفاً من أن يعالجه زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان، أو طول الأمل والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخيرات، فإنّ الصحة عبارة عن قوّة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرّك الشهوات وتدعو إلى المعاصي، وأقلها أن تدعو إلى التنعم في المباحات، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات، وإذا أراد الله بعبد خيراً لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب، ولذلك قيل: لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة. وقد روي «أن الله تعالى يقول: الفقر سجن والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلقي». فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأي خير يزيد عليه؟ ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المعاصي، فقد قال بعض العارفين لإنسان؛ كيف كنت بعدي؟ قال: في عافية، قال: إن كنت لم تعص الله عزوجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأي داء أدوأ من المعصية؟ ما عوفي من عصى الله وقال علي كرّم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد: ما هذا الذي أظهروه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم، فقال: كل يوم لا يعصى الله عزوجل فيه فهو لنا عيد.

وقال تعالى: ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ قيل العوافي: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ وكذلك إذا استغنى بالعافية. قال بعضهم: إنما قال فرعون: أنا ربكم الأعلى لطول العافية، لأنه لبث أربعمائة سنة لم

---

(١) حديث: «لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشي على الأرض كالبردة ما عليه خطيئة» أخرجه أبو يعلى وابن عدي من حديث أبي هريرة، والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال «الصداع» بدل «الحمى» وللطبراني في الأوسط من حديث أنس «مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفائها ولونها» وأسانيده ضعيفة.

(٢) حديث: «حمى يوم كفارة سنة» رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال «ليلة» بدل «يوم».

(٣) حديث: لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموماً... الحديث، وسأل ذلك طائفة من الأنصار: أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد: أن رجلاً من المسلمين قال يا رسول الله: أرأيت هذه الأمراض تصيبنا مالنا فيها قال «كفارات» قال أبي: وإن قلت؟ قال: «فإن شوكة فما فوقها» قال: فدعا أبي أن لا يفارقه الوعك حتى يموت... الحديث، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي بن كعب أنه قال: يا رسول الله، ما جزاء الحمى؟ قال: تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق، فقال: اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجاً في سبيلك ولا خروجاً إلى بيتك ولا لمسجد نبيك... الحديث، والإسناد مجهول، قاله علي بن المديني.

(٤) حديث: «من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثواباً دون الجنة» تقدم المرفوع منه دون قوله: فلقد كان في الأنصار من يتمنى العمى...

يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية ـ لعنه الله ـ ولو أخذته الشقيقة يوماً لشغلته عن الفضول فضلاً عن دعوى الربوبية. وقال ﷺ «أكثروا من ذكر هاذم اللذات[1]». وقيل: الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف.

وقال تعالى: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرّتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون﴾ قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها. ويقال: إنّ العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت: يا غافل جاءك مني رسول بعد رسول فلم تجب.

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال. وقالوا: لا يخلو المؤمن في كل أربعين يوماً أن يروّع روعة أو يصاب ببلية حتى روي أنّ عمار بن ياسر تزوّج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها، وأنّ النبي ﷺ «عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى هم أن يتزوّجها، فقيل وإنها ما مرضت قط، فقال لا حاجة لي فيها[2]». وذكر رسول الله ﷺ الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره، فقال رجل: وما الصداع ما أعرفه؟ فقال ﷺ «إليك عني من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا وهذا[3]». لأنه ورد في الخبر «الحمى حظ كل مؤمن من النار[4]».

وفي حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما: قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال «نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة[5]». وفي لفظ آخر «الذي ذنوبه فتحزنه» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا لأنفسهم مزيداً فيها لا من حث رأوا التداوي نقصاناً؟ وكيف يكون نقصاناً وقد فعل ذلك ﷺ؟.

بيان الرد على من قال: ترك التداوي أفضل بكل حال

فلو قال قائل: إنما فعله رسول الله ﷺ ليسنّ لغيره وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء؟ فيقال: ينبغي أن يكون من شروط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبغ الدم.

فإن قيل: إنّ ذلك أيضاً شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه، إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأي فرق بينهما؟. فإن قال: وذلك أيضاً شرط التوكل؟ فيقال: ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لا قائل به. ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته. ويدل على أنّ ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون، فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتاً عظيماً ووباء ذريعاً، فافترق الناس فرقتين، فقال بعضهم: لا ندخل على الوباء فنلقي بأيدينا إلى التهلكة، وقالت طائفة أخرى: بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدرالله تعالى ولا نفرّ من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت﴾ فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه. فقال: نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له المخالفون في

---

(١) حديث: «أكثروا ذكر هاذم اللذات» أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى همّ أن يتزوجها، فقيل: فإنها ما مرضت قط، فقال: «لا حاجة لي فيها» أخرجه أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد.

(٣) حديث: ذكر رسول الله ﷺ الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره، فقال رجل: وما الصداع، ما أعرفه؟ فقال: «إليك عني... الحديث» رواه أبو داود من حديث عامر البرام أخي الخضر بنحوه، وفي إسناده من لم يسم.

(٤) حديث: «الحمى حظ كل مؤمن من النار» رواه البزار من حديث عائشة، وأحمد من حديث أبي أمامة والطبراني في الأوسط من حديث أنس، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود، وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان.

(٥) حديث أنس وعائشة: قيل يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال: «نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة» لم أقف له على إسناد.

رأيه: أنفرّ من قدر الله تعالى، قال عمر: نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، ثم ضرب لهم مثلاً، فقال: أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط وادياً له شعبتان: إحداهما مخصبة: والأخرى مجدبة، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى؟ فقالوا: نعم، ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه ـ وكان غائباً ـ فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك، فقال: عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله ﷺ، فقال عمر: الله أكبر، فقال عبد الرحمن: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه[1]». ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه، ورجع من الجابية بالناس. فإذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شرط التوكل؟.

فإن قلت: فلم نهى عن الخروج من البلد الذي فيه الوباء، وسبب الوباء في الطب الهواء، وأظهر طرق التداوي الفرار من المضر، والهواء هو المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح، وهذا لا يدل على المقصود، ولكن الذي ينقدح فيه ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقي ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له، فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن، فالخروج من البلد لا يخلص غالباً من الأثر الذي استحكم من قبل، ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقي والطيرة وغيرهما، ولو تجرّد هذا المعنى لكان مناقضاً للتوكل ولم يكن منهياً عنه، ولكن صار منهياً عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقي في البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتها بأنفسهم فيكون ذلك سعياً في إهلاكهم تحقيقاً، وخلاصهم منتظراً كما أنّ خلاص الأصحاء منتظر؛ فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعاً بالخلاص وهو قاطع في إهلاك الباقين، والمسلمون كالبنيان يشدّ بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه. فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم. نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإعانة، ولا ينهي عن الدخول لأنه تعرّض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين، وبهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف[2]. لأنّ فيه كسراً لقلوب بقية المسلمين وسعياً في إهلاكهم. فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه، وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك.

فإن قلت: ففي ترك التداوي فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله ﷺ التداوي لينال الفضل؟ فنقول: فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها، أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضيين والمتوكلين، أو قصرت بصيرته عن الإطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوماً كالرقي، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوي وكان التداوي يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع؛ فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوي، وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله ﷺ: بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذ كان حاله يقتضي أن

---

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف: «إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه... الحديث» وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلغهم أن بالشام وباء... الحديث، رواه البخاري.

(٢) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفار من الزحف: رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد، ومن حديث جابر بإسناد ضعيف، وقد تقدم.

نكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها، فإنه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب، ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أنّ الرغبة في المال نقص، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالاً فهي أيضاً نقص بالإضافة إلى من يستوي عنده وجود المال وعدمه، فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر، وكان حاله ﷺ استواء المدر والذهب عنده، وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فأنه منتهى قوتهم لا لخوفه على نفسه من إمساكه، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغرّه الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها[1]. فكذلك يستوي عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة، وإنما لم يترك استعمال الدواء جرياً على سنة الله تعالى وترخيصاً لأمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف ادخار الأموال فإنّ ذلك يعظم ضرره. نعم التداوي لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعاً دون خالق الدواء وهذا قد نهي عنه، ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصي وذلك منهي عنه، والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك، واحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعاً بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سبباً للنفع كما لا يرى الماء مروياً ولا الخبز مشبعاً، فحكم التداوي في مقصوده كحكم الكسب، فإنه إن اكتسب للإستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها، وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه، فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوي قد يكون أفضل في بعض الأحوال، وأن التداوي قد يكون أفضل في بعض، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والنيات، وأن واحداً من الفعل والترك ليس شرطاً في التوكل إلا ترك الموهومات كالكي والرقي فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالمتوكلين.

بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتمانه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات: لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عزوجل فكتمانه أسلم عن الآفات.

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد، ومقاصد الإظهار ثلاثة:

الأوّل: أن يكون غرضه التداوي فيحتاج إلى ذكره للطبيب، فيذكره لا في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى. فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المطبب أوجاعه، وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول: إنما أصف قدرة الله تعالى في.

الثاني: أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدي به وكان مكيناً في المعرفة، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها، فيتحدّث به كما يتحدّث بالنعم. قال الحسن البصري: إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى.

الثالث: أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى، وذلك يحسن ممن تليق به القوّة والشجاعة ويستبعد منه العجز، كما روي أنه قيل لعلي في مرضه رضي الله عنه كيف أنت؟ قال: بشرّ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية، فقال: اتجلد على الله؟ فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوّة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي ﷺ إياه حيث مرض علي كرّم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقوّل: اللهم صبرني على البلاء، فقال له ﷺ «لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية[2]».

فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة - ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة

---

(١) حديث: أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها. تقدم، ولفظه: عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها.

(٢) حديث: مرض علي فسمعه رسول الله ﷺ وهو يقول: اللهم صبرني على البلاء، فقال: «لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية» تقدم مع اختلاف.

لفعل الله تعالى، فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه، لأنه ربما يوهم الشكاية، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة، ومن ترك التداوي توكلاً فلا وجه في حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء، وقد قال بعضهم: من بث لم يصبر، وقيل في معنى قوله ﴿فصبر جميل﴾ لا شكوى فيه. وقيل ليعقوب عليه السلام: ما الذي أذهب بصرك؟ قال: مر الزمان وطول الأحزان! فأوحى الله تعالى إليه. تفرّغت لشكواي إلى عبادي، فقال: يا رب أتوب إليك: وروي عن طاوس ومجاهد أنهما قالا: يكتب على المريض أنينه في مرضه، وكانوا يكوهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل: ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه، فجعل الأنين حظه منه.

وفي الخبر «إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعوّاده فإن حمد الله وأثنى بخير دعوا له وإن شكا وذكر شراً قالا كذلك تكون[1]» وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام، فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم، منهم: فضيل ووهيب وبشر، وكان فضيل يقول: أشتهي أن أمرض بلا عوّاد، وقال؛ لا أكره العلة إلا لأجل العواد. رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه. يتلوه إن شاء الله تعالى: كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا. والله سبحانه وتعالى الموفق

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الإلتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته، وصفى اسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته، فلكما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما اغبر في وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته، فبقيت بين الرد والقبول والصدّ والوصول غرقى في بحر معرفته، ومحترقة بنار محبته، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوّته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيراً.

أما بعد: فإنّ المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدّمة من مقدّماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال؛ لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال. ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه. ولا بدّ من كشف الغطاء عن هذا الأمر.

ونحن نذكر في هذا الكتاب: بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أنّ أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوّية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت

---

(١) حديث: «إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين أنظرا ما يقول لعواده. . . الحديث» تقدم.

الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى، ثم بيان معنى الإنبساط في الأنس، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته، ثم بيان حقيقته، ثم بيان أنّ الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب.

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلم أنّ الأمة مجمعة على أنّ الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض، وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته؟ فلا بدّ وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب. ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عزوجل ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه. وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة؛ إذ قال أبو رزين العقيلي: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال «أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما[(١)]». وفي حديث آخر «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما[(٢)]». وفي حديث آخر «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين[(٣)]». وفي رواية «ومن نفسه» كيف وقد قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وإخوانكم﴾ الآية. وإنما أجري ذلك في معرض التهديد والإنكار. وقد أمر رسول الله ﷺ بالمحبة فقال: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني لحب الله إياي[(٤)]». ويروى أنّ رجلاً قال: يا رسول الله إني أحبك، فقال ﷺ «استعدّ للفقر». فقال إني أحب الله تعالى، فقال استعدّ للبلاء[(٥)]». وعن عمر رضي الله عنه قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال النبي ﷺ «انظروا إلى هذا الرجل الذي نوّر الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون[(٦)]».

وفي الخبر المشهور «إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال يا ملك الموت الآن فاقبض[(٧)]». وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه.

وقد قال نبينا ﷺ في دعائه «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقرّبني إلى حبك واجعل

---

(١) حديث أبي رزين العقيلي: أنه قال يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما» أخرجه أحمد بزيادة في أوله

(٢) حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» متفق عليه من حديث أنس بلفظ، لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله، وذكره بزيادة.

(٣) حديث: «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين» وفي رواية «ومن نفسه» متفق عليه من حديث أنس، واللفظ لمسلم دون قوله «ومن نفسه» وقال البخاري «من والده وولده» وله من حديث عبد الله بن هشام: قال عمر يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي» فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي، فقال: «الآن يا عمر».

(٤) حديث: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب.

(٥) حديث: إن رجلاً قال يا رسول الله إني أحبك، فقال: «استعد للفقر... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ: «فأعد للفقر تجفافاً» دون آخر الحديث وقال حسن غريب.

(٦) حديث عمر قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به... الحديث، أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد حسن.

(٧) حديث: إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلاً يقبض خليله... الحديث، لم أجد له أصلاً.

حبك أحب إليّ من الماء البارد[1]». وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال «ما أعددت لها» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله ﷺ «المرء مع من أحب[2]». قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال الحسن؛ من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن. وقال أبو سليمان الداراني: إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا؟.

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا الخوف من النار، فقال: حق على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشدّ نحولاً وتغيراً فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا: الشوق إلى الجنة، فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً كأن وجوههم المرائي من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا؛ نحب الله عزوجل، فقال أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون. وقال عبد الواحد بن زيد: مررت برجل قائم في الثلج فقلت أما تجد البرد؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد. وعن سري السقطي: تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فإنهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً.

وقال هرم بن حيان: المؤمن إذا عرف ربه عزوجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروّحه في الآخرة. وقال يحيى بن معاذ: عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده؟ ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه؟ وفي بعض الكتب: عبدي أنا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محباً. وقال يحيى بن معاذ: مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب. وقال يحيى بن معاذ؛ إلهي إني مقيم بفنائك مشغول بثنائك، صغيراً أخذتني إليك وسربلتني بمعرفتك وأمكنتني من لطفك ونقلتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ورضاً وحباً تسقيني من حياضك وتهملني في رياضك ملازماً لأمرك ومشغوفاً بقولك، ولما طر شاربي ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيراً، فلي ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك همهمة لأني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف.

وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار مالا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به.

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أنّ المطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها، ثم معرفة شروطها وأسبابها، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى:

فأوّل ما ينبغي أن يتحقق؛ أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه، ولذلك لم يتصوّر أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك. ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى

---

(۱) حديث: «اللهم إرزقني حبك وحب من يحبك... الحديث» تقدم.

(۲) حديث: قال أعرابي يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها... الحديث» متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه.

ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ. فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً. فإذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به، ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلاً إليه، ومعنى كونه مبغوضاً أن في الطبع نفرة عنه. فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقاً. والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فإذا قوي سمي مقتاً فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته.

(الأصل الثاني) أن الحب لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم. فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعوم، ولذة اللمس في اللين والنعومة.

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة، أي كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله ﷺ «حبب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعل قرّة عيني في الصلاة[1]». فسمى الطيب محبوباً ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه؛ بل للشم فقط، وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهنّ إلا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع، وسمى الصلاة قرّة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس، بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب. ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان، فإن كان الحب مقصوراً على مدركات الحواس الخمس ـ حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب ـ فإذن قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات، فلا مشاحة فيه وهيهات، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشدّ إدراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في أدراكه لذة ـ كما سيأتي تفصيله ـ فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً.

(الأصل الثالث) أنّ الإنسان لا يخفي أنه يحب نفسه ولا يخفي أنه قد يحب غيره لأجل نفسه، وهل يتصوّر أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه؟ هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصوّر أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته. والحق أنّ ذلك متصوّر وموجود فلنبين أسباب المحبة وأقسامها، وبيانه أنّ المحبوب الأوّل عند كل حي: نفسه وذاته، ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده؟ وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه؟ فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل، لا لمجرّد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرّد الحذر من سكرات الموت، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لذلك، ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم في الحياة. ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأنّ فيه زوال البلاء، فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب، وكما أنّ دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضاً محبوب لأن الناقص فاقد للكمال. والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه. والهلاك والعدم ممقوت في الصفات. وكمال الوجود كما أنه ممقوت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب، كما

---

(١) حديث: «حبب إلّي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء... الحديث» أخرجه النسائي من حديث أنس دون قوله «ثلاث» وقد تقدم.

أن الدوام أصل الوجود محبوب. وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

فإذن المحبوب الأوّل للإنسان ذاته، ثم سلامة أعضاءه، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقائه. فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها، والمال محبوب لأنه أيضاً آلة في دوام الوجود وكماله وكذا سائر الأسباب. فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها حتى أنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له، فلفرط حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً نعم لو خير بين قتله وقتل ولده - وكان طبعه باقياً على اعتداله - آثر بقاء نفسه على بقاء ولده، لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاء المحقق، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه فإنه يرى نفسه كثيراً بهم قوياً بسببهم متجملاً بكمالهم، فإنّ العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة. فإذن المحبوب الأوّل عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله، والمكروه عنده ضدّه ذلك. فهذا هو أوّل الأسباب.

السبب الثاني: الإحسان؛ فإن الإنسان عبد الإحسان، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وقال رسول الله ﷺ «اللهم لا تجعل لفاجر عليّ يداً فيحبه قلبي[1]». إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطراراً لا يستطاع دفعه، وهو جبلة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها. وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة. وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأوّل، فإن المحسن من أمدّ: بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود، إلا أنّ الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له كالطبيب يكون سبباً في دوام صحة الأعضاء، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة، إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب الصحة وكذلك العلم محبوب والأُستاذ محبوب، ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب. وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام. فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه. فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقاً بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقاً، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد، ويتطرّق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه.

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحسن، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال، لأنّ إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصوّر إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضاً لذيذ فيجوز أن يكون محبوباً لذاته، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية؟ وقد كان رسول الله ﷺ يعجبه الخضرة والماء الجاري[2]. والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ

---

(١) حديث: «اللهم لا تجعل لكافر عليّ يداً فيحبه قلبي» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس: من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع، وقد تقدم.

(٢) حديث: كان يعجبه الخضرة والماء الجاري . . . أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري، وإسناده ضعيف.

وراء النظر. فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله ﷺ «إن الله جميل يحب الجمال[1]».

(الأصل الرابع) في بيان معنى الحسن والجمال؛ اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون، وكون البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان، فإنّ الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا ملوّناً مقدّر فلا يتصوّر حسنه، وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوباً. وهذا خطأ ظاهر فإنّ الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة، فإنا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن، بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن، فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة؟ ومعلوم أنّ العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة. وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء؟ فلا بدّ من البحث عنه. وهذا البحث يطول، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه، فنصرح بالحق ونقول: كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرّ وفرّ عليه، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكن شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضدّه، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به. فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا نحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء.

فإن قلت: فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات، وليس ينكر الحسن والجمال المحسوسات، ولا ينكر حصول اللذة بإدراكها حسنها، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس؟ فاعلم أنّ الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال: هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته، وآية ذلك وأنّ الأمر كذلك أنّ الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا، بل حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم؛ حتى أنّ الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدّ العشق فيحمله ذلك على أن تنفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه. فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب، وليت شعري من يحب الشافعي مثلاً فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته، فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة، فإنّ صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً مع التراب، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لإفادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم، وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة، فأما الحواس فقاصرة عنها. وكذلك من يحب أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه ويفضله على غيره،

---

(١) حديث: «إن الله جميل يحب الجمال» رواه مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

أو يحب علياً رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره. فمعلوم أنّ من يحب الصدّيق رضي الله تعالى عنه مثلاً ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدّل وانعدم، ولكن بقي ما كان الصدّيق به صديقاً وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الجميلة، فكان الحب باقياً ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور. وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذ علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين، وهما غير مدركين بالحس، ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقية، وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوباً لأجله فإذن الجمال موجود في السير، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حباً فالمحبوب مصدر السير الجميلة، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس، حتى إن الصبي المخلى وطبعه إذ أردنا أن نحبب إليه غائباً أو حاضراً أو ميتاً لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة. فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه، فهل غلب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح التي لا تدرك بالحواس؟ بل لما وصف الناس حاتماً بالسخاء ووصفوا خالداً بالشجاعة أحبتهم القلوب حباً ضرورياً، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأي الديار. فإذن ليس حب الإنسان مقصوراً على من أحسن إليه، بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب، والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة؛ فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها، ومن كانت الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشاً مصوراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة.

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرّد تناسب الأرواح كما قال ﷺ «فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف[1]». وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضاً من عجائب أُسباب الحب فإذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب: وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه. وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه. وحبه من كان محسناً في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسناً إليه. وحبه لكل ما هو جميل في ذاته؛ سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة. وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن، فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوباً لا محالة غاية الحب، وتكون قوّة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوّة هذه الخلال في نفسها، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات. فتبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصوّر كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى، وحب

---

(١) حديث: «فما تعارف منها ائتلف» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم في آداب الصحبة.

الرسول ﷺ محمود لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء لأنّ محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه. وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة في حق الله تعالى، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له. ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرة ضدّ ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً، وبان أن التحقيق يقتضي أن لا نحب أحداً غير الله تعالى.

فأما السبب الأوّل: وهو حب الإنسان وبقاءه وكمائه ودوام وجوده، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حي، ولا يتصوّر أن ينفك عنها، وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله، فهو المخترع الموجد له وهو المبقي له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه ذو خلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من جيث ذاته لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقاًموجداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوّماً لغيره، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوّتها، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصوّر أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟ ومعلوم أن المبتلي بحرّ الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإنّ الكل من آثار قدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أنّ النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها، وهو خطأ محض إذا انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق. فإذن إن كان حب الإنسان نفسه ضرورياً فحبه لمن به قوامه أوّلاً ودوامه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضروري، إن عرف ذلك كذلك ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفة وقصر نظره على شهواته ومحسوساته، وهو عالم الشهادة الذي يشاركه البهائم في التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة، فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

وأما السبب الثاني: وهو حبه من أحسن عليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته وانتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شر الأشرار عنه وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه فإن محبوب لا محالة عنده وهذا بعينه يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أنّ المحسن إليه هو الله تعالى فقط، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدّها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾ وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر، ولكنا نقتصر الآن على بيان أنّ الإحسان من الناس غير متصوّر إلا بالمجاز، وإنما المحسن هو الله تعالى. ولنفرض ذلك فيمن أنعم

عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فإنك تظن أنّ هذا الإحسان منه، لاوهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك، فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذي حببك إليه وصرف وجه إليك وألقى في نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله. ومهما سلط الله عليه الدواعي وقرّر في نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطرّاً في التسليم لا يستطيع مخالفته، فالمحسن هو الذي اضطرّه لك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطرّ في ذلك اضطراراً مجرى الماء في جريان الماء فيه، فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر، فإنه لا يتصوّر الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه، أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له البذل إما آجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة، وكما أنّ الإنسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد إنسان إلا لغرض له فيه، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده، وأما أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال، فقد استسخرك في القبض للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده من ماله، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتة. فإذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين.

(أحدهما) أنه مضطرّ بتسليط الله الدواعي عليه فلا قدرة له على المخالفة، فهو جار مجرى خازن الأمير فإنه لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه، لأنه من جهة الأمير مضطرّ إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبه من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه وألقى في نفسه أنّحظه ديناً ودنيا في بذله فبذله لذلك. (والثاني) أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر، وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها، فالإحسان في الجود، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل، وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم ولأجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز، ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان، فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله تعالى، إذ الإحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده، وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته.

وأما السبب الثالث: وهو حبك المحسن في نفسه وإلى لم يصل إليك إحسانه. وهذا أيضاً موجود في الطباع. فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضاً بعيد عنك؛ فإنك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلاً إلى الأوّل وهو الحب، ونفرة عن الثاني وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأوّل وآمن من شر الثاني لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما: فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك، وهذا أيضاً يقتضي حب الله تعالى بل يقتضي أن لا يحب غيره أصلاً إلا من حيث يتعلق منه بسبب، فإنّ الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق؛ أولاً: بإيجادهم، وثانياً: بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم، وثالثاً: بترفيههم وتنعيمهم بخلق

الأسباب التي هي في مظانّ حاجاتهم وإن لم تكن في مظانّ الضرورة، ورابعاً. بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم.

ومثال الضروري من الأعضاء: الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه: العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة.

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان الماء والغذاء ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد: خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمه التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة.

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش. فإذن هو المحسن؛ فكيف يكون غيره محسناً وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته؟ فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان، فالحب بهذه العلة لغيره أيضاً جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى.

وأما السبب الرابع: وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال من وراء إدراك الجمال: فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة، والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختص يدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا. وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب. ومثال هذا في المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوي المكارم السنية والأخلاق المرضية، فإن ذلك متصور مع تشوّش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدرك. نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه، فمن يحب رسول الله ﷺ أو الصدّيق رضي الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقاش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجمل، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدراً. وأجل المعلومات هو الله تعالى، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى، وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به.

فإذن جمال صفات الصدّيقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور (أحدها) علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه. (والثاني) قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة (والثالث) تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر، وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى.

أما العلم؛ فأين علم الأوّلين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السمٰوات ولا في الأرض؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عزوجل ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى: ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾ فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكمالا الموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى فعلوم العلماء

جهل بالإضافة إلى علمه، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تتقاضاه معيشته. والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصوّر في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية.

وأما صفة القدرة: فهي أيضاً كمال والعجز نقص، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيذ، حتى أن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصرف في قلبه اهتزازاً وفرحاً والارتياحاً ضرورياً بمجرّد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حباً في القلب ضرورياً للمتصف به فإنه نوع كمال، فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، فأعظم الأشخاص قوّة وأوسعهم ملكاً وأقواهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ـ ما منتهى قدرته؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه على بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصم وبدنه من المرض، ولا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته، فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والارض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها، فلا قدرة له على ذرّة منها. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة، ثم تلك الغبرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه، فيستحيل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر، والسمٰوات مطويات بيمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرّة وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء، فإن كان يتصوّر أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلاً.

وأما صفة التنزة عن العيوب والنقائص والتقدّس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة، والأنبياء والصدّيقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصوّر كمال التقدّس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والإكرام.

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخراً مضطراً هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإنّ منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبداً مسخراً لغيره قائماً بغيره وذلك محال في حق غيره، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدّس عن العيوب. وشرح وجوه التقدّس والتنزه في حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطوّل بذكره. فهذا الوصف أيضاً إن كان كمالاً وجمالاً محبوباً فلا تتم حقيقته إلا له، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقاً بل بالإضافة إلى ما هو أشدّ منه نقصاناً، كما أنّ للفرس

كمالاً بالإضافة إلى الحمار وللإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس. وأصل النقص شامل للكل وإنما يتفاوتون في درجات النقصان.

فإذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندّ له، الفرد الذي لا ضدّ له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لاراد لحكمه ولا معقب لقضائه، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّه في السمٰوات والأرض، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة، الأزلي الذي لا أول لوجوده، الأبدي الذي لا آخر لبقائه، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به، جبار السمٰوات والأرض، خالق الجماد والحيوان والنبات، المنفرد بالعزة والجبروت، والمتوحد بالملك والملكوت، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الألسنة، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوّة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك[1]». وقال سيد الصدّيقين رضي الله تعالى عنه: العجز عن درك الإدراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقاً ويجعله مجازاً؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أن ينكر كون الله تعالى موصوفاً بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوباً بالطبع عند من أدركه؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون؛ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان لأنّ الإحسان يزيد وينقص. ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنّ أود الأوداء إليّ من عبدني بغير نوال لكن ليعطي الربوبية حقها. وفي الزبور: من أظلم ممن عبدني لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أطاع. ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا: نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم: مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتم. ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا: نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله فقال: أنتم أولياء الله حقاً معكم أمرت أن أقيم. وقال أبو حازم: إني لأستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل. وفي الخبر «لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل، ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل[2]».

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل. ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح. وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوّة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه. وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبةالصبي الصبي في معنى الصبا، وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه كما ترى من الإتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي ﷺ إذ قال «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فالتعارف هو التناسب، والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضاً يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى

---

(١) حديث: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» تقدم.

(٢) حديث: «لا يكونن أحدكم كالأجير السوء وإن لم يعط أجراً لم يعمل» لم أجد له أصلاً.

المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك.

فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عزوجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة. فكل ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات.

وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومىء إليها قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حدّ عقول الخلق. وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾ ولذلك أسجد له ملائكته. ويشير إليه قوله تعالى: ﴿إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله ﷺ «إنّ الله خلق آدم على صورته[1]». حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوّروا، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام «مرضت فلم تعدني فقال يا رب وكيف ذلك؟ قال مرض عبدي فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده[2]». وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى «لا يزال يتقرّب العبد إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به[3]». وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه إلى القاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول، حتى قال بعضهم: أنا الحق. وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا: هو الإله وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون: اتحد به. وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل و استحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون. ولعل أبا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل:

لازلت أنـزل من ودادك مـنـزلاً   تتحـير الألـبـاب عـنـد نـزولـه

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقي أصوله حتى تشققت قدماه وتورّمتا ومات من ذلك. وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجوداً. فهذه هي المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً وفي أعلى الدرجات لا في أدناها، فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط، ثم كل من يحب من ا لخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غير لمشاركته إياه في السبب، والشركة نقصان في الحب وغض من كماله. ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجوداً، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكاناً، فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرّق النقصان إلى حبه كما لا تتطرّق الشركة إلى صفاته. فهو المستحق - إذاً لأصل المحبة - ولكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

---

(١) حديث: «إن الله خلق آدم على صورته» تقدم.

(٢) حديث قوله تعالى: «مرضت فلم تعدني، فقال: وكيف ذاك! قال: مرض فلان... الحديث» تقدم.

(٣) حديث قوله تعالى: «لا يزال يتقرب العبد إليّ بالنوافل حتى أحبه... الحديث» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم
وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوّة وغريزة لذة ولذتها في نيلها المقتضي طبعها الذي خلقت له فإن هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان عبثاً بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع. فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها، وغريزة شهوة الطعام مثلاً خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبعها، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها. فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين، ولا معنى للإشتغال بالأسامي فإنّ الإصطلاحات مختلفة، والضعيف يظنّ أن الإختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة، كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية، ولنسم تلك الغريزة عقلاً بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تذم، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها. كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به، والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به، وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدّي بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة. فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به، ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السمٰوات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك، فإن اطلع على أسرار الوزر وتدبيره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس، فإن كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير، وكان تمدّحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشدّ وحبه له أكثر لأن لذته فيه أعظم. فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها. وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟ وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادي جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين؟ فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الإطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والإطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها؟ وأحرى ما تستشعر به النفوس عند

الإتصاف به كمالها وجمالها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين أنّ العلم لذيذ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته ـ من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين ـ فينبغي أن يعلم أنّ لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعني لذة الشهوات والغضب ولذة سائر الحواس الخمس، فإنّ اللذات مختلفة بالنوع أوّلاً، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع، ولذة المعرفة للذة الرياسة. وهي مختلفة بالضعف والقوّة كمخالفة لذة الشبق والمغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال. وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمرّ اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل، فيعلم به أنّ لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول:

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس، وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق، والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الإستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة، وإن كان عالي الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياماً كثيرة: فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من الطعومات الطيبة. نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي، أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أنّ لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وغاية العبارة عنه أن يقال: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾ وأنه أعدّ لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرّد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذي يرأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكونه مشوباً بالكدورات التي لا يتصوّر الخلو عنها، وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بدّ من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فإنها خالية من المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها، وإنما عرضها من حيث التقدير السمٰوات والأرض، وإذا خرج النظر عن المقدّرات فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السمٰوات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها، إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة، ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي، وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدمها فلا ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ الآية. ولا تظن أنّ هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر «إنّ الشهيد يتمنى في الآخرة أن يرّد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء[1]».

---

(١) حديث: «إن الشهيد يتمنى أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى... الحديث» متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم، وليس فيه «وإن الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء... الحديث».

فإذن جميع أقطار ملكوت السمٰوات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السمٰوات والأرض. وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة متنزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوي الكمال من لذات الحواس كلها، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين، لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف. ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها، فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية، فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى. فهذا القدر ينبهك على أنّ معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء وأنه لا لذة فوقها.

ولهذا قال أبو سليمان الداراني: إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له: أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت فقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. وفي أخبار عيسى عليه السلام: إذا رأيت الفتى مشغوفاً بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه. ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال: ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق؟ فقال: تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان، قلت: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه. وعن علي بن الموفق قال: رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة، فرأيت رجلاً قاعداً على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل، ورأيت رجلاً قائماً على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضاً ويرد بعضاً، قال: ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطوف، فقلت لرضوان: من هذا؟ قال: معروف الكرخي عبد الله لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته بل حباً له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة. وذكر أن الآخرين: بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل. ولذلك قال أبو سليمان: من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غداً مشغول بربه. وقال الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه وقالت في معنى المحبة نظماً:

أحبك حبين حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى: حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة وبحبه لما هو أهل له: الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكياً عن ربه تعالى؛ «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1]». وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية، ولذلك قال بعضهم: إني أقول يا رب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب؛ وهل رأيت جليساً ينادي جليسه؟ وقال: إذا بلغ الرجل في هذا العالم الغاية رماه الخلق بالحجارة؛ أي يخرج كلامه عن حدّ عقولهم فيرون ما يقوله جنوناً أو كفراً. فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط، فهي قرّة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقاً بنعيمها، فلو ألقي في النار لم يحس لها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل؟ وأي معنى لو عدّ الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم؟ بل من عرف الله عرف أنّ اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت الناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

ولذلك قال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ... ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإنّ الجنة معدن تمتع الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط.

ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما نذكره: وهو أن الصبي في أوّل حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها، ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر، وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر﴾ الآية. ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها، فكل متأخر فهو أقوى، وهذا هو الأخير، إذ يظهر حب اللعب في سنّ التمييز، وحب النساء والزينة في سنّ البلوغ، وحب الرياسة بعد العشرين، وحب العلوم بقرب الأربعين، وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة؛ فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى. والعارفون يقولون: ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون﴾.

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال؛ كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة والمتشكلة من

---

(١) حديث: قال ﷺ حاكياً عن ربه تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت... الحديث» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

أشخاص الحيوان والنبات، وإلى ما لا يدخل في الخيال، كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها. ومن رأى إنساناً ثم غض بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة، وإنما الإفتراق بمزيد الوضوح والكشف، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً، وهو كشخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء؛ فإنه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف. فإذن الخيال أو الإدراك والرؤية هو الإستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف، وسمي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلاً أستحق أن يسمى رؤية.

وإذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان (إحداهما) أولى (والثانية) استكمال لها. وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئي، فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية. وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف، وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر والمرئي، ولا بدّ من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرّد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البَشرية، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار. والقول في سبب كونها حجاباً يطول ولا يليق بهذا العلم. ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لن تراني﴾ وقال تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ أي في الدنيا والصحيح أن رسول الله ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعراج[1]. فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة، فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهر فلا تقبل الإصلاح والتصقيل، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ـ نعوذ بالله من ذلك ـ ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضاً يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به، ويكون العرض على النار بقدرالحاجة إلى التزكية، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين ـ كما وردت به الأخبار ـ سبعة آلاف سنة[2]. ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما، وإن قلت: ولذلك قال الله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها، فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة ـ وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه فإنه واقع بعد القيامة؛ ووقت القيامة مجهول ـ فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لأنّ فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى، فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلي المرآة بالإضافة إلى ما تخيله. وهذه المشاهدة والتجلي هي

---

(١) حديث: أنه ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعراج في الصحيح، هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة، ففي الصحيحين: أنها قالت من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب. ولمسلم من حديث أبي ذر: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نوراني أراه» وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي ﷺ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد: ما زلت له منكراً. وقال ابن خزيمة: في القلب من صحة إسناده شيء، مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر «رأيته نوراً أنى أراه» ورجال إسنادها رجال الصحيح.

(٢) حديث: «إن أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة» أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة «إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتي... الحديث» وفيه «وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة» وإسناده ضعيف.

التي تسمى رؤية، فإذن الرؤية حق، بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصوّر مخصوص بجهة ومكان، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر وتقدير شكل وصورة، فتراه في الآخرة كذلك. بل أقول: المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، كما ضربناه من المثال في استكمال الخيال بالرؤية. فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضاً جهة وصورة لأنها هي بعينها لا تفترق منها إلا في زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعاً ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع؟ فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر، إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوّتها وضعفها، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة[1]». فلا ينبغي أن يظنّ أنّ غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر، بل لا يجد إلا عشرة عشيرة إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيرة، ولما فضل من الناس بسر وقر في صدره فضل لا محالة بتجل انفرد به، وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السمٰوات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعاً؛ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفناه من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب؛ وسائر الخلق مشغولون به. ولذلك لما قيل لرابعة: ما تقولين في الجنة؟ فقالت الجار ثم الدار. فبينت أنه ليس في قلبها التفاوت إلى الجنة بل إلى رب الجنة. وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة مالم يصحبه من الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به؛ كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإنّ ذلك منتهى لذته، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره، بل ربما يتأذى به. فإذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته؛ فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان.

فإن قلت: فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها، لأنّ لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حدّ قريب لا ينتهي في القوّة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها؟ فاعلم أن هذا الإستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها؟ وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها؟ فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله

(١) حديث: «أن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة» أخرجه ابن عدي من حديث جابر. وقال باطل بهذا الإسناد وفي الميزان الذهبي أن الدارقطني رواه عن المحامل عن علي بن عبدة وقال الدارقطني أن علي بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة.

تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته، ولا لذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها، ولا للذةاللمس باليد إلى لذة الوقاع.

وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول: لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب (أحدها) كمال جمال المعشوق ونقصانه، فإنّ اللذة في النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة. (والثاني) كمال قوّة الحب والشهوة والعشق؛ فليس التذاذ من اشتدّ عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه. (والثالث) كمال الإدراك، فليس التذاذ برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعده كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرّد. (والرابع) اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب؛ فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرّد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بمهم من المهمات.

فقدّر عاشقاً ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه، فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سليمًا فارغاً وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتدّ بها، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة. فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن، وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتها إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور، والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذهالمشوّشات ولا يتصوّر أن يخلو عنها البتة. نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب ينفطر لعظمته، ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم؛ بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوّشه وينغصه، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة ﴿وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت، ولا يكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإنّ المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له، فالإحاطة بكنه جلال الله محال، فكلما كثرت المعرفة الله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت؛ كثر النعيم في الآخرة وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن، كثر الزرع وحسن، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا، ولا يزرع إلا في صعيد القلب، ولا حصاد إلا في الآخرة. ولهذا قال رسول الله ﷺ «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله[1]» لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرّد لطلب، ويستدعي ذلك زماناً لا محالة فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفاً في المعرفة بالغاً إلى منتهى ما يسر له، ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصراً عما تحتمله قوّته لو عمر، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة.

---

(١) حديث: «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله» أخرجه إبراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن إبن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله» ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في صحبته ولأحمد من حديث جابر «إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة» والترمذي من حديث أبي بكرة: أن رجلاً قال يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله» قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم.

وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدينا إن اتسعت أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت. وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة. فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة. والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة، ومعنى العشق فإنه المحبة المفرطة القوية، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوي النقصان، كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان.

* فإن قلت: فهذه الرؤيا محلها القلب أو العين في الآخرة؟ فاعلم أنّ الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو جهته، بل يقصد الرؤيا ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له، والحق فيه أنّ القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا من حكم الجواز، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع[1]. والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر، وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره، إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم.

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه! وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ومكدّر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع! إلا أن هذا النعيم على قدر قوّة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوّة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الإستهتار الذي يسمى عشقاً فلذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بسببين (أحدهما) قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب، فإنّ القلب مثل الإناء لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ وكمال الحب في أن يحب الله عزوجل بكل قلبه وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره. فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله، وبقدر ما يبقي من الماء في الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه. وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم﴾ وبقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ بل هو معنى قولك «لا إله إلا الله» أي لا معبود ولا محبوب سواه، فكل محبوب فإنه معبود، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به. وكل محب فهو مقيد بما يحبه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ وقال ﷺ «أبغض إله عبد في الأرض الهوى» ولذلك قال عليه السلام: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة[2]». ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب، فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلي من السجن ومكن من المحبوب وروّح بالأمن أبد الآباد، فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوّة حب الدنيا ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمتنزهات حتى إن المنفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرّض لنقصان

---

(١) حديث: «رؤية الله في الآخرة حقيقة» متفق عليه من حديث أبي هريرة: أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر... الحديث».

(٢) حديث: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» تقدم.

حب الله تعالى بسببه، فيقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله، ولا يؤتي أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا يبعد بالضرورة من المغرب بقدرة، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرتها، فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب، وقد انكشف ذلك لذوي القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين، وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء. فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدّمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله، وأوّله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما. ثم ينجرّ ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط، حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فكل ذلك مقدّمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة. وإليه الإشارة بقوله عليه السلام«الطهور شطر الإيمان[1]». كما ذكرناه في أوّل كتاب الطهارة.

(السبب الثاني) لقوة المحبة «قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب». وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني. ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال: ﴿ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾. أي المعرفة ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أوّلاً من الدنيا ثم إدامة طهارته، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة، وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل، فالعلم هو الأوّل وهو الآخر، وإنما الأوّل علم المعاملة وغرضه العمل، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه، ومهما أحبه حصلت اللذة، فاللذة تبع المحبة بالضرورة، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم والجدّ البالغ في الطلب والنظر المستمرّ في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته.

والواصلون إلى هذه الرتبةينقسمون إلى (الأقوياء) ويكون أوّل معرفتهم بالله تعالى، ثم به يعرفون غيره. وإلى (الضعفاء) ويكون أوّل معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل. وإلى الأوّل الإشارة بقوله تعالى: ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ وبقوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ ومنه نظر بعضهم حيث قيل له: بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي ولولا ربي لما عرفت ربي، وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ الآية وبقوله عزوجل: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السمٰوات والأرض﴾ وبقوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السمٰوات والأرض﴾ وبقوله تعالى: ﴿الذي خلق سبع سمٰوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

فإن قلت: كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة فاعلم أن الطريق الأعلى هو الإستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض، والكلام فيه خارج عن حدّ فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيراده في الكتب، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حدّ الأفهام؛ وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس، والمانع من ذكر هذا

---

(١) حديث: «الطهور شطر الإيمان» أخرجه مسلم حديث أبي مالك من الأشعري وقد تقدم.

اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية، إذ ما من ذرّة من أعلى السمٰوات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة و لا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول:

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها، فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها - أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات - فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هي مركوزة فيه، فإنه لا نسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة، وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع، ثم السموات السبع في الكرسي كخلقة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك. فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير، وما أحقرّ الأرض كلها بالإضافة إليها! بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار! فقد قال رسول الله ﷺ «الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض[1]». ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزية صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض، ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب - الذي هو جزء من الأرض - وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأض، ودع عنك جميع ذلك، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه، فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات! إذ خلق له خرطوماً مثل خرطومه، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحه، وأخرج يده ورجله، وشق سمعه وبصره؟ ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة الماسكة والهاضمة ما ركب في سائر الحيوانات، هذا في شكله وصفاته، ثم أنظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرّفه أن غذاءه دم الإنسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان! وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدّد الرأس! وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد منها! ثم كيف قوّاه حتى يغرز فيه الخرطوم! وكيف علمه المص والتجرّع للدم! وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوّفاً حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه! ثم كيف عرّفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته! وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب! ثم إذا سكنت اليد يعود! ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه.

وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار - خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه. وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق احدهما على الآخر، وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الأهداب، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار. وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين، ولأجل ضعف إبصارها تراها تتهافت على السراج لأنّ بصره ضعيف فهي تطلب ضوء

(١) حديث: «الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض» لم أجد له أصلاً.

النهار، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظنّ أنه في بيت مظلم وأنّ السراج كوّة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء، فلا يزال يطلب الضوء ويرمي بنفسه إليه فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها، فاعلم أنّ جهل الإنسان أعظم من جهلها، بل صورة الآدمي في الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار، إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أنّ تحتها السم الناقع القاتل، فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكاً مؤبداً، فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش! فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدّة مديدة، ولذلك كان ينادي رسول الله ﷺ ويقول: «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش[1]». فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأوّلون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته، فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى.

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره، فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء، ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار، وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصاً وهو أميرها، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها ـ حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة ـ لقضيت منها عجباً آخر العجب إن كنت بصيراً في نفسك وفارغاً من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك. ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدّس، فلا تبني بيتاً مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدّساً لخاصية في الشكل المسدّس يقصر فهم المهندسين عن دركها، وهو أنّ أوسع الأشكال وأحواها: المستديرة وما يقرب منها، فإنّ المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستديرة مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإنّ الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الإحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدّس، وهذه خاصية هذه الشكل، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفاً به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه!

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات، فإنّ القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه، ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه، بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علمًا في جنب علم الله تعالى، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأهل الطريقين، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة، فإن كنت طالباً سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك، واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير، ولكن تنال بذلك اليسير ملكاً عظيمًا لا آخر له.

---

(١) حديث: «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش» متفق عليه من حديث أبي هريرة «مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه» لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر «وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدي».

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب

اعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لاشتراكهم في أصل المحبة، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقونها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيلون هم الضالون، والعارفون بالحقائق هم المقرّبون. وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى: ﴿فأما إن كان من المقرّبين فروح وريحان وجنة نعيم﴾ الآية. فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالاً فنقول: أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حب الشافعي ـ رحمه الله ـ الفقهاء منهم والعوام، لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله، ولكن العامي يعرف علمه مجملاً والفقيه يعرفه مفصلاً، فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وحبه له أشدّ فإنّ من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال إليه قلبه، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعتها ازداد به معرفة وازداد له حباً. وكذا سائر الصناعات والفضائل. والعامي قد يسمع أنّ فلاناً مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل، والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه، والعامي يعلم ذلك ويعتقده: وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه، حتى يرى في البعوض ـ مثلاً ـ من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حباً، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعاً استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله، وازداد به معرفة وله حباً. وبحر هذه المعرفة ـ أعني معرفة عجائب صنع الله تعالى ـ بحر لا ساحل له، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصر له، ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب، فإنّ من يحب الله مثلاً لكونه محسناً إليه منعمًا عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته، إذ تتغير بتغير الإحسان، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء. وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه. فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة. والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة. ولذلك قال تعالى: ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ .

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أوّل المعارف وأسبقها إلى الإفهام وأسهلها على العقول، وترى الأمر بالضدّ من ذلك، فلا بدّ من بيان السبب فيه. وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال: وهو أنا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط مثلاً كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات؛ فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته. أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته، فلو نظرنا إلى كل ما في العالم سواه لم نعرف به صفته، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي

واضح، ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض، بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة - وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته. والموجودات المدركة لا حصر لها، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس لها يشهد إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده؛ فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصوّر في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله؟ إذ كل ذرّة فإنها تنادي بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرّك لها، يشهد بذلك أوّلاً تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة، فإنه نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أنّ يد الكاتب لم تتحرّك بنفسها، ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه.

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان (أحدهما) خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفي مثاله (والآخر) ما يتناهى وضوحه، وهذا كما أنّ الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره ولكن لشدّة ظهوره فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره فلا نرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره.

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الإستغراق والشمول، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السمٰوات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإنّ الأشياء تستبان بأضدادها وما عم وجوده حتى أنه لا ضدّ له عسر إدراكه، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر. ومثاله: نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظنّ أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما، فإنا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين، فعلمنا أنّ الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور، هذا مع أنّ النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره، انظر كيف تصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضدّه؟ فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدّت السمٰوات والأرض وبطل الملك والملكوت، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين. ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدّة الظهور خفاء، فهذا هو السبب في قصور الأفهام.

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره؛ يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله. وأفعاله أثر من الآثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها. ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه

الفاعل. ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزاً له إلى غيره كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف. ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف. وكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه لامن حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظراً إلا في الله ولا عارفاً إلا بالله ولا محباً إلا له، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبداً لله، فهذا الذي يقال فيه إنه فني في التوحيد وإنه فني عن نفسه. وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن. فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم. فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس، ولذلك إذ رأى على سبيل الفجأة حيواناً غريباً أو نباتاً غريباً أو فعلاً من أفعال الله تعالى خارقاً للعادة عجيباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً فقال: «سبحان الله» وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها، ولو فرض أكمه بلغ عاقلاً ثم انقشعت غشاوة عينه فامتدّ بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة العجائب لخالقها.

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الإنهماك في الشهوات هو الذي سدّ على الخلق سبيل الإستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة، فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكباً لحماره وهو يطلب حماره، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة. فهذا سر هذا الأمر فليحقق. ولذلك قيل:

فقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ... فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أنّ من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بدّ وأن ينكر حقيقة الشوق، إذ لا يتصوّر الشوق إلا إلى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى، وكون العارف مضطرّاً إليه بطريق الإعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار. أما الإعتبار فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحب، فكل محبوب يشتاق إليه في غيبته لا محالة، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه، فإن الشوق طلب وتشوق إلى أمر والموجود لا يطلب. ولكن بيانه أنّ الشوق لا يتصوّر إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، فأما ما لا يدرك أصلاً فلا يشتاق إليه، فإنّ من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه ولا يتصوّر أن يشتاق إليه، وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصوّر أن يكون له شوق، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهداته

فنقول مثلاً: من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصوّر أن يشتاق إليه، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية، فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته، وتمام الإنكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه (والثاني) أن يرى وجه محبوبه ولا

يرى شعره مثلاً ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته، وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضواً وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له مالم يره قط.

والوجهان جميعاً متصوران في حق الله تعالى، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية ـ وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الإتضاح، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات، فإنّ الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات، وهي مكدرات للمعارف ومنغصات، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة، وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين. فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحاً أما (الثاني) أن الأمور الإلهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة. والعارف بعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة.

والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن في الدنيا. وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال: قلت ذات يوم؛ يا رب إن أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك فقد أضرّبي القلق، قال: فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه، فقلت يا رب تهت في حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلمني ما أقول، فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك. فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة.

وأما الشوق الثاني فيشبه: أن لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة، إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرةمن جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لا نهاية له. ولا يزال العبد عالماً بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه، لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال، فهو يجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية، فلا يزال النعيم واللذة متزايداً أبدا الآباد، وتكون لذة ما يتجدّد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل: وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلاً، فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفاً على حدّ لا يتضاعف ولكن يكون مستمرًا على الدوام. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ محتمل لهذا المعنى، وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزوّد من الدنيا أصلَ النور، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الإستكمال والإشراق، فيكون هو المراد بتمامه. وقوله تعالى: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم ـ قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾ يدل على أن الأنوار لا بدّ وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقاً، فأما أن يتجدّد نور فلا، والحكم في هذا برجم الظنون محظراً، ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علمًا ورشداً ويرينا الحق حقاً. فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه.

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى، فما اشتهر من دعاء رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك[1]». وقال أبو الدرداء لكعب: أخبرني عن أخص آية ـ يعني في التوراة ـ فقال: يقول الله تعالى: (طال

---

(١) حديث: أنه كان يقول في دعائه «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت... الحديث» أخرجه أحمد والحاكم وتقدم في الدعوات.

شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم لأشدّ شوقاً) قال: ومكتوب إلى جانبها؛ من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا. وفي أخبار دواد عليه السلام: إنّ الله تعالى قال ياداود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني وجليس لمن جالسني ومؤنس لمن أنس بذكري وصاحب لمن صاحبني ومختار لمن اختارني ،مطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حباً لا يتقدّمه أحد من خلقي، ،،، طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني؛ فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كَرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وائنسوا بي أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة إبراهيم خليلي وموسى نجي ومحمد صفي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي.

وروي عن بعض السلف: أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصدّيقين إن لي عباداً من عبادي يحبوني وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكروني وأذكرهم وينظرون إلي وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك، قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليَّ أقدامهم وافترشوا إليَّ وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إليّ بإنعامي فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي، أول ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السمٰوات والأرض وما فيها في موازينهم لا ستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، فترى من أقبلت عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه؛ يا داود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إليّ، قال: يارب من المشتاقون إليك؟ قال: إن المشتاقين إليّ الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إليَّ خرقاً ينظرون إليّ، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي، ثم أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي، فأقول إني لم أدعكم لتسجدوا لي ولكني دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إليَّ وأباهي بكم أهل الشوق إليَّ فإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض، يا داود إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدّثي، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إليَّ يزدادون في كل يوم شوقاً، قال داود؛ يا رب أرني أهل محبتك، فقال: يا داود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول، فإذا أتيتهم فأقرئهم مني السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم. فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عزوجل، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرّقوا عنه، فقال داود: إني رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود؛ إني رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة؟ ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة؟ قال: فجرت الدموع على خدودهم، فقال شيخهم: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك. وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنوعبيدك أفنجترىء على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتمم بذلك المنة علينا. وقال الآخر: نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بجودك. وقال الآخر: من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر في عظمتك أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك؟ وطلبتنا الدنوّ من نورك. وقال الآخر: كلت ألسنتنا عن دعائك؛ لعظم شأنك، وقربك من

أوليائك، وكثرة منتك على أهل محبتك. وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك؛ وفرّغتنا للاشتغال بك، فأغفر لنا تقصيرنا في شكرك، وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك. وقال الآخر: كيف يجترىء العبد على سيده؟ إذ أمرتنا بالدعاء بجودك ـ فهب لنا نوراً نهتدي به في الظلمات من أطباق السمٰوات وقال آخر: ندعوك أن تقبل علينا وديمه عندنا. وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا. وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيء من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الإشتغال بالآخرة. وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك. فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سرباً فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي. فقال داود: يارب بم نالوا هذا منك؟ قال: بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بي ومناجاتهم لي وإنّ هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرّغ قلبه لي واختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظروا إليّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقرّبه من نور وجهي، إن مرض مرّضته كما تمرّض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكري، فإذا فعلت ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يفتر عن الإشتغال بي، يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي لا يرى غيري ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكري أباهي به ملائكتي وأهل سمٰواتي يزداد خوفاً وعبادة، وعزتي وجلالي يا داود لأقعدته في الفردوس ولأشفين صدره من النظر إليّ حتى يرضى وفوق الرضا.

وفي أخبار داود أيضاً. قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي ما ضركم إذا احتجبت عن خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي. وفي أخبار داود أيضاً إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإنّ حبي وحبها لا يجتمعان في قلب. يا داود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال، أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به، وأمّاما أشكل عليك فقلدنيه حقاً على أني أسارع إلي سياستك وتقويمك وأكن قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشدائد وإني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدي وأنه لا غنى به عني، فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها، أضف الأشياء إليّ لا تضاد عملك فتكون متعنياً ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتي حدّاً فليس لها غاية، ومتى طلبت مني الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة مني حدّاً ثم أعلم بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ضعني بين عينيك وانظر إلي ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها فإني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويف، تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين، فلم علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها. داود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيداً، ومن كتبته عندي جهيداً لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين. يا داود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محبتي لا تؤيس عبادي من رحمتي، اقطع شهوتك لي فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقي ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتي، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنى

ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عني فإني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها. يا داود لا تجعل بيني وبينك عالماً يحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم، وإياك والتجربة في الإفطار فإنّ محبتي للصوم إدمانة. يا داود تحبب إلي بمعاداة نفسك أمنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت عليك به وإني أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي.

أوحى الله تعالى إلى داود: يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين علي يا داود أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلي، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق.

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أنّ شواهد القرآن متظاهرة على أنّ الله تعالى يحب عبده فلا بدّ من معرفة معنى ذلك، ولنقدم الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وقال تعالى: ﴿إنّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ وقال تعالى: ﴿إنّ الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين﴾ ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ وقد روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله تعالى عبداً لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا ﴿إن الله يحب التوّابين﴾[1]». ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾ وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب[2]». وقال رسول الله ﷺ «من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه[3]». وقال عليه السلام «قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به[4]». الحديث. وقال زيد بن أسلم: إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول؛ اعمل ما شئت فقد غفرت لك. وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر.

وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط. وقد بينا أنّ الإحسان موفق للنفس، والجمال موافق أيضاً، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر.

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً، بل الأسامي كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً، حتى إن اسم «الوجود» الذي هو أعم الأسماء اشتراكاً لا

---

(١) حديث أنس: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة.

(٢) حديث: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب... الحديث» أخرجه الحاكم وصحح إسناده والبيهقي في الشعب من حدبث ابن مسعود.

(٣) حديث: «من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله «ومن أكثر... إلى آخره» ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة.

(٤) حديث: «قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه... الحديث» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

يشمل الخالق والخلق على وجه واحد، بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع. وإنما الإستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما، لأن يكون فيه أصلاً، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخرة وليس كذلك اسم الوجود الله ولا لخلقه، وهذا التباعد في سائر الأسامي أظهر كالعلم والإرادة والقدرة وغيرهما فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق. وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامي أولاً للخلق فإنّ الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الإستعارة والتجوّز والنقل. والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالاً فتلتذ بنيله، وهذا محال على الله تعالى، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبداً وأزلاً، ولا يتصور تجدّده ولا زواله، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى لما قرىء عليه قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ فقال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه، على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره، فمن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو إذن لا يحب إلا نفسه، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤوّل ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب، وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى: «لا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه». فيكونّ تقرّبه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه.

ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرّب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه، إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهيء أسباب طعامه وشرابه، فيقال: إن الملك يحبه، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له. وقد يقرب عبداً ولا يمنعه من الدخول عليه لا للإنتفاع به ولا للإستنجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق المرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافر الحظ من قربه، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال: قد أحبه، وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال: قد توصل وحبب نفسه إلى الملك. فحب اللهللعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول. وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدّد القرب، فإنّ الحبيب هو القريب من الله تعالى، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية، فهو قرب بالصفة لا بالمكان، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغير، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدّد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً إذ صار قريباً بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى، إذ التغير عليه محال، بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال.

ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحرّكهما جميعاً، وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرّك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير في الآخر، بل القرب في الصفات أيضاً كذلك، فإنّ التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرّك بالنزول إلى درجة تلميذه، والتلميذ متحرّك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم، فلا يزال دائباً في التغير والترقي إلى أن يقرب من أستاذه، والأستاذ ثابت غير متغير، فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب، فكلما صار أكمل صفة وأتم علماً وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوّة في قهر الشيطان وقمع

الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال، ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله. نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال، فإنه لا نهاية لكماله، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي إلا إلى حدّ محدود فلا مطمع له في المساواة، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال.

فإذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه.

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته، وإذا أدرك منه شيئاً يلتذ به، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى.

فإن قلت: محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله؟ فأقول: يستدل عليه بعلاماته. وقد قال ﷺ «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه». قيل: وما اقتناه؟ قال: «لم يترك له أهلاً ولا مالاً[1]». فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره. قيل لعيسى عليه السلام: لم لا تشتري حماراً فتركبه؟ فقال: أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار. وفي الخبر «إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه[2]». وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يصافيك. وقال بعض المريدين لأستاذه: قد طولعت بشيء من المحبة، فقال: يا بني هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه؟ قال: فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه. وقد قال رسول الله ﷺ «إذا أحب الله تعالى عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه[3]». وقد قال: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه[4]». فأخص علاماته حبه لله تعالى فإنّ ذلك يدل على حب الله تعالى له.

وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدّد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هماً واحداً والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته. فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد. فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله تعالى فإنها أيضاً من علامات حب الله تعالى للعبد.

القول في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أنّ المحبة يدّعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة. والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح. وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهي كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام، فلا يتصوّر أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محباً للموت

---

(١) حديث «إذا أحب الله عبداً ابتلاه... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني وقد تقدم.

(٢) حديث: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه... الحديث» ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٣) حديث: «إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ «إذا أراد الله بعبد خيراً».

(٤) حديث: «إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف.

غير فارّ منه، فإنّ المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة. قال ﷺ «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه[1]». وقال حذيفة عند الموت: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم. وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدّم حب لقاء الله على السجود. وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله، حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال تعالى: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ وقال عزوجل: ﴿يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما: الحق ثقيل وهو مع ثقله مريء والباطل خفيف وهو مع خفته وبيء، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه. ويروى عن إسحق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدثني أبي أنّ عبد الله ابن جحش قال له يوم أحد: ألا ندعو الله؟ فخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال: يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدّو غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ويبقر بطني، فإذا لقيتك غداً قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك يارب وفي رسولك، فتقول صدقت قال سعد: فلقد رأيته آخر النهار وإنّ أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط[2]. قال سعيد ابن المسيب: أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوّله. وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان: لا يكره الموت إلا مريب، لأنّ الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه. وقال البويطي لبعض الزهاد: أتحب الموت؟ فكأنه توقف فقال لو كنت صادقاً لأحببته، وتلا قوله تعالى: ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ فقال الرجل: فقد قال النبي ﷺ «لا يتمنين أحدكم الموت[3]» فقال: إنما قاله لضر نزل به لأنّ الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه.

فإن قلت: من لا يحب الموت فهل يتصوّر أن يكون محباً لله فأقول: كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأنّ الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة، فإنّ الناس متفاوتون في الحب. ويدل على التفاوت ما روي أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوّج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا؛ أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى؟ فقال: والله لقد أنكحته إياها وإني لأعلم أنه خير منها، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله، فقالوا: وكيف وهي أختك وهو مولاك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم[4]». فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضاً غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها.

وأما السبب الثاني للكراهة؛ فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه

---

(١) حديث. «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة.

(٢) حديث إسحٰق بن سعد ابن أبي وقاص قال: حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: ألا ندعو الله؟ فخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال: يا رب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غداً فلقني رجلاً شديداً حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجدع أنفي وأذني... الحديث» أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد.

(٣) حديث: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به... الحديث» متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم.

(٤) حديث أبي حذيفة بن عتبة: أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك. وفيه: فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم» لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم في الحلية المرفوع منه من حديث عمر» أن سالماً يحب الله حقاً من قلبه» وفي رواية له «أن سالماً شديد الحب لله عزّ وجل لم لم يخف الله عزّ وجل ما عصاه» وفيه عبد الله بن لهيعة.

عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلاً، وعلامته لدؤوب في العمل واستغراق الهم في الإستعداد.

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ومتقرّباً إليه بالنوافل وطالباً عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه. وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار فقال: ﴿يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾. ومن بقي مستقرّاً على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه، بل يترك المحب هوى نفسه كما قيل:

أريـد وصـالـه ويـريـد هـجـري فـأتـرك مـا أريـد لمـا يـريـد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب، كما روي أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى، فكان يدعوه إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاًسوّفت به إلى النهار وقالت: يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما إذا عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلاً، حتى قال لها: إن الله جل ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين، فقالت: أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلني طريقاً إليه فطاعة لأمر الله تعالى، فعندها سكنت إليه. فإذن من أحب الله لا يعصيه، ولذلك قال ابن المبارك فيه:

تعصي الإلـه وأنت تـظهـر حبـه هـذا لعمـري في الفعـال بـديـع
لـو كـان حبـك صادقـاً لأطعتـه إن المـحـب لمـن يحـب مـطيـع

وفي هذا المعنى قيل أيضاً:

وأتـرك مـا أهـوى لمـا قـد هـويتـه فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

وقال سهل رحمه الله تعالى: علامة الحب إيثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عزوجل صار حبيباً وإنما الحبيب من اجتنب المناهي: وهو كما قال: لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه، وإنما عدّوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته. ولذلك قال تعالى: ﴿والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾.

فإن قلت: فالعصيان هل يضاد أصل المحبة؟ فأقول؛ إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره؟ وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه. ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة. ويدل عليه ما روي أنّ نعيمان كان يؤتي به رسول الله ﷺ في كل قليل فيحدّه في معصية يرتكبها إلى أن أتى به يوماً فحدّه، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به رسول الله ﷺ؟ فقال ﷺ «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله[1]». فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حباً متوسطاً، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي. وبالجملة في دعوى المحبة خطر، ولذلك قال الفضيل: إذا قيل لك أتحب الله تعالى؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت. ولقد قال بعض العلماء: ليس في الجنة نعيم

---

(١) حديث: أتي بنعيمان يوماً فحده فلعنه رجل قال: ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» أخرجه البخاري وقد تقدم.

أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشدّ من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك.

ومنها أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به، فعلامة حب الله؛ حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله ﷺ وحب كل من ينسب إليه، فإنّ من يحب إنساناً يحب كلب محلته. فالمحبة إذا قويت تعدّت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه، وذلك ليس شركة في الحبفإنّ من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله، وكلامه لأنه كلامه، فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه، فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحبة ولذلك قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ وقال رسول الله ﷺ «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لله تعالى[1]». وقال سفيان: من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله. وحكي عن بعض المريدين قال: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلاً ونهاراً ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال: فسمعت قائلاً يقول في المنام؛ إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي، قال: فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالي. وقال ابن مسعود: لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عزوجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وقال سهل ـ رحمة الله تعالى عليه ـ علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة، بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زاداً وبلغة إلى الآخرة.

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته؟ قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله. وفي أخبار داود عليه السلام: لا تستأنس إلى أحد من خلقي، فإني إنما أقطع عني رجلين رجل استبطأ ثوابي فانقطع ورجلاً نسيني فرضي بحاله، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران، ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشاً من الله تعالى ساقطاً عن درجة محبته. وفي قصة برخ ـ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام ـ أنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام. إنّ برخاً نعم العبد هو لي إلا أنّ فيه عيباً، قال: يارب وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبني لم يسكن إلى شيء وروي أنّ عابداً عبد الله تعالى في غيضة دهراً طويلاً فنظر إلى طائر وقد عشش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها، فقال: لو حوّلت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال: ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً. فإذن علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الإستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة. وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذة المناجاة، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه، وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا مالم تكرّر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان فإنه

---

(١) حديث: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه... الحديث» تقدم.

يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه. فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ قال: هشت إليه واستأنست به. وقال الصدّيق رضي الله تعالى عنه: من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال مطرف بن أبي بكر: الحب لا يسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قد كذب من ادّعى محبتي إذا جنه الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها أنا ذا موجود لمن طلبني. وقال موسى عليه السلام: يارب أين أنت فأقصدك؟ فقال: إذا قصدت فقد وصلت. وقال يحيى بن معاذ؛ من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضاً: من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب؛ يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق.

ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عزوجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة. قال بعض العارفين: إن لله عباداً أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذا كان ملك مليكهم تاماً، وما شاء كان، فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم. وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب، ويسأله ويقول: رب بأي ذنب قطعت برّك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة، وتكون هفوته سبباً لتجدّد ذكره وصفاء قلبه. ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئاً إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أنّ المحبوب لم يقدّر له إلا ما فيه خيرته، ويذكر قوله: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾.

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة. ثم تنعمت به عشرين سنة. وقال الجنيد: علامة المحب دوام النشاط والدؤوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه. وقال بعضهم: العمل على المحبة لا يدخله الفتور. وقال بعض العلماء: والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل. فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات، فإنّ العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقاً على بدنه. ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشغل به، فهكذا يكون حب الله تعالى، فإن كل حب صار غالباً قهر لا محالة ما هو دونه، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته، و إن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه. وقيل لبعض المحبين ـ وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ـ ما كان سبب حالك هذه في المحبة؟ فقال: سمعت يوماً محباً وقد خلا بمحبوبه وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كله! فقال له المحبوب: إن كنت تحبني فأيش تنفق علي؟ قال: يا سيدي أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك فقلت: هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبيد لمعبود؟ فكل هذا بسببه.

ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحيماً بهم شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف، وبه وصف الله أولياءه إذ قال الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ويأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره، ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا، فانظر إلى هذا المثال فإنّ الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلاً، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه، فإن نام أخذه معه في ثيابه، فإذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه. وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدّة غضبه أنه يهلك نفسه، فهذه علامات المحبة، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه، إذا يمزج

شرابه بقدر من شراب المقرّبين كما قال تعالى في الأبرار: ﴿إنَّ الأبرار لفي نعيم﴾. ثم قال: ﴿يُسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقرّبون﴾ فإذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقرّبين. والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان، كما إن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال: ﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾. ثم قال؛ ﴿يشهده المقرّبون﴾ فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقرّبون، وكما أنّ الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقرّبين ومشاهدتهم لهم، فكذلك يكون حالهم في الآخرة ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة. كما بدأنا أوّل خلق نعيده﴾ وكما قال تعالى: ﴿جزآء وفاقا﴾ أي وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب. وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره ـ وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ إن الله لا يظلم مثقال ذرّة وإن تَكُ حسنة يضاعفها ـ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾. فمن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور. مكن من الجنة ليتبوّأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان؛ فهناك تنتهي لذته في الآخرة لأنه إنما يعطي كل إنسان في المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذ عينه. ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق: أنزل ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ فالأبرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان. والمقرّبون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرّة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون، وللمجالسة أقوام آخرون، ولذلك قال رسول الله ﷺ «أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب[1]». ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال: ﴿وما أدراك ما عليون﴾ كما قال تعالى: ﴿القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة﴾.

ومنها أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم، وقد يظنّ أنّ الخوف يضاد الحب وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أنّ إدراك الجمال يوجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشدّ من بعض، فأوّلها خوف الإعراض، وأشدّ منه خوف الحجاب، وأشدّ منه خوف الإبعاد، وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين[2]. إذ سمع قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لثمود ـ ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾. وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به، فحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد، ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد، فإنا قدّمنا أن درجات القرب لا نهاية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قرباً، ولذلك قال رسول الله ﷺ «من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون[3]». وكذلك قال عليه السلام: «إنه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة[4]». وإنما كان استغفاره من القدم الأوّل فإنه كان بعداً بالإضافة إلى القدم الثاني، ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والإلتفات إلى غير المحبوب، كما روي أنّ الله تعالى يقول: إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي. فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرّد الدعوى والعجب

---

(١) حديث: «أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب» أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصراً على الشعار الأول، وقد تقدم، والشطر الثاني من كلام أحمد بن أبي الحواري ولعله أدرج فيه.

(٢) حديث «شيبتني هود» أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة.

(٣) حديث: «من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون» لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله أوصني، فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد.

(٤) حديث: «إنه ليغان على قلبي» متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم.

والركون إلى ما ظهر من مبادىء اللطف، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الإحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة، ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته سمع إبراهيم بن أدهم قائلاً يقول وهو في سياحة وكان على الجبل:

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فات فهب لنا ما فات منا

فاضطرب وغشي عليه فلم يفق يوماً وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال: سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبداً فكنت عبداً واسترحت.

ثم خوف السلو عنه فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد، فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته. والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوّة البشر الإطلاع عليها، فإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان، فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان، وكما أنّ من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة، فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والإستغناء وذلك من مقدّمات المكر والشقاء والحرمان. ثم خوف الإستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والإعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها. وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت ـ نعوذ بالله منه ـ وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء لمراقبة دليل صدق الحب، فإنّ من أحب شيئاً خاف لا محالة فقده فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته. وقد قال بعض العارفين: من عبد الله تعالى بمحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والإستيحاش، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقرّبه ومكنه وعلمه، فالمحب لا يخلو عن خوف والخائف لا يخلو عن محبة، ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبين، وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحب، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر، فإنما الخوف يعد له ويخفف وقعه على القلب. فقد روي في بعض الأخبار: أنّ بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرّة من معرفته، ففعل ذلك، فهام في الجبال وحار عقله وله قلبه وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال: يا رب أنقصه من الذرّة بعضها، فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيناه جزءاً من مائة ألف جزء من المعرفة، وذلك أنّ مائة ألف عبد سألوني شيئاً من المحبة في الوقت الذي سألني هذا، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته، فقسمت ذرّة من المعرفة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك، فقال: سبحانك يا أحكم الحاكمين أنقصه مما أعطيته! فأذهب الله عنه جملة الجزء، وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين، وقد قيل في وصف حال العارف:

قريب الوجد ذو مرمى بعيد عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت عن الأبصار إلا للشهيد

يـرى الأعيـاد في الأوقـات تجـرى | لـه في كـل يـوم ألـف عـيـد
ولـلأحـبـاب أفـراح بـعـيـد | ولا يجـد الـسـرور لـه بـعـيـد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتاً يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره. وهي هذه الأبيات:

سـرت بـأنـاس في الغيـوب قلوبهم | فحلوا بـقـرب المـاجـد المتفضـل
عـراصاً بقرب الله في ظل قدسه | تجـول بهـا أرواحـهـم وتـنـقـل
مـواردهم فيهـا عـلى العـز والنهي | ومصـدرهم عنهـا لمـا هـو أكمـل
تـروح بـعـز مفـرد من صفـاتـه | وفي حلل التـوحيـد تمشي وتـرفـل
ومن بعد هـذا مـا تـدق صفـاتـه | ومـا كتمـه أولى لـديـه وأعـدل
سـأكتم من علمي بـه مـا يصونـه | وأبـذل منـه مـا أرى الحق يـبـذل
وأعـطي عبـاد الله منـه حقـوقهم | وأمنـع منـه مـا أرى المنـع يفضـل
عـلى أن لـلرحمـن سـراً يـصـونـه | إلى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلم لمن لم ينكشف له، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا، بل لو أكل الناس كهلم الحلال أربعين يوماً لخربت الدنيا لزهدهم فيها، وبطلت الأسواق والمعايش، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ،ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم، ولكن لله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم، كما أن له في الخير أسراراً وحكمًا، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته.

ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقي من إظهار الوجد والمحبة تعظيمًا للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيرة على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الإفتراء وتعظم العقوبة عليه في العقبى وتتعجل عليه البلوى في الدنيا. نعم قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور، وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه. فالقادر على الكتمان يقول:

وقالوا: قريب، قلت: ما أنا صانع | بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري؟
فمـالي منـه غـير ذكـر بـخـاطـر | يهيج نار الحب والشوق في صدري!

والعاجز عنه يقول:

يخـفـي فـيـبـدي الـدمـع أسـراره | ويـظـهـر الـوجـد عـلـيـه الـنـفـس

ويقول أيضاً:

ومن قلبـه مـع غيـره كيف حـالـه | ومن سـره في جفنـه كيـف يكتم؟

وقد قال بعض العارفين؛ أكثر الناس من الله بعاً أكثرهم إشارة به. كأنه أراد: من يكثر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عزوجل. ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ـ ممن كان يذكر المحبة ـ فرآه مبتلي ببلاء فقال: لا يحبه من وجد ألم ضره! فقال الرجل: لكني أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره، فقال ذو النون: ولكني أقول: لا يحبه من شهر نفسه بحبه، فقال الرجل: أُستغفر الله وأتوب إليه.

فإن قلت: المحبة منتهى المقامات وإظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر؟ فاعلم أنّ المحبة محمودة وظهورها محمود أيضاً وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار، وحق المحب أن ينم على حبه الخفي أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله. وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب، بل ينبغي أن يكون قصد المحب إطلاع الحبيب فقط، فأما إرادته إطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه، كما ورد في الإنجيل؛ إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك. فالذي يرى الخفيات يجزيك علانية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك. فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه. حكي أن رجلاً رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخي رحمه الله فتبسم ثم قال: يا أخي له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين! فهذا الذي رأيته من مجانينهم. ومما يكره: التظاهر بالحب، بسبب أنّ المحب إن كان عارفاً ـ وعرف أحوال الملائكة في حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذي به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ـ لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعاً أنه من أخس المحبين في مملكته وأنّ حبه أنقص من حب كل محب لله. قال بعض المكاشفين من المحبين: عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أنّ لي عند الله شيئاً فذكر أشياء من مكاشفات آيات السمٰوات في قصة طويلة قال في آخرها: فبلغت صفاً من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، فقلت: من أنتم فقالوا؛ نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلاثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره، قال: فاستحييت من أعمالي فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفاً عنه في جهنم.

فإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى. نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته؛ كماحكي عن الجنيد أنه قال: مرض أستاذنا السري رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا، فوصف لنا طبيب حاذق. فأخذ قارورة مائة فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه ملياً ثم قال لي: أراه بول عاشق! قال الجنيد: فصعقت وغشي علي ووقعت القارورة من يدي، ثم رجعت إلى السري فأخبرته، فتبسم قال: قاتله الله ما أبصره! قلت: يا أستاذ وتبين المحبة في البول! قال: نعم. وقد قال السري مرة؛ لو شئت أقول؛ ما أيبس جلدي على عظمي ولا سل جسمي إلا حبه! ثم غشي عليه. وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدّمات الغشية. فهذه مجامع علامات الحب وثمراته.

ومنها: الأنس والرضا ـ كما سيأتي.

وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب، ومالا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق. نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه. والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين، ولذلك قال الجنيد: الناس في محبة الله تعالى عام وخاص، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان؛ فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرّد بالملك. ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه إذا استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم، نعم من الناس من يحب هواه. وعدوّ الله إبليس ـ وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل ـ فيظن أنه محب لله عزوجل وهو الذي فقدت فيه هذه العلامات، أو يلبس بها نفاقاً ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه. وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال: يا دوست ـ أي يا حبيب ـ فقيل له: قد لا يكون حبيباً فكيف تقول هذا؟ فقال في أذن القائل سراً: لا يخلوا إما أن يكون مؤمناً أو منافقاً: فإن كان مؤمناً فهو حبيب الله عزوجل، وإن كان منافقاً فهو

حبيب إبليس: وقد قال أبو تراب النخشبي ـ في علامات المحبة ـ أبياتاً:

لا تخدعن فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أي ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسماً ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهماً ... لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفاً ... متحفظاً من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ:

ومن الدلائل أن تراه مشمراً ... في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكياً ... أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلماً ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضياً ... بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أنّ الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة، إلا أن هذه آثار مختلفة على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الإطلاع على كنه الجلال انبعث إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه، وتسمى هذه الحالة في الإنزعاج شوقاً وهو بالإضافة إلى أمر غائب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد؛ استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنساً، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تأمله خوفاً. وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها، فالأنس معناه استبشار القلب فرحه بمطالعة الجمال، حتى إنه إذا غلب وتجرّد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرّق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له: أنت مشتاق؟ فقال: لا إنما الشوق إلى غائب، فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف.

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الإنفراد والخلوة، كما حكي أن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهراً لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه. ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه: يامن آنسني بذكره وأوحشني من خلقه، وقال الله عزوجل لداود عليه السلام: كن لي مشتاقاً وبي متأنساً ومن سواي مستوحشاً

وقيل لرابعة؛ بم نلت هذه المنزلة؟ قالت؛ بتركي ما لا يعنيني وأنسي بمن لم يزل. وقال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة؟ فقال: يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة، فقلت يا راهب ما أقل ما تجده في الوحدة؟ قال: الراحة من مدارة الناس والسلامة من شرهم، قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود وخلصت المعاملة، قلت؛ ومتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم فصار هماً واحد في الطاعة، وقال بعض الحكماء: عجباً للخلائق كيف أرادوا بك بدلاً؟ عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك؟.

فإن قلت: فما علامة الأنس؟ فاعلم أنّ علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر، فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة وغائب في حضور، مخالط بالبدن منفرد بالقلب، مستغرق بعذوبة الذكر، كما قال علي كرّم الله وجهه في وصفهم: هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه. فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهده.

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى انكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه؛ وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القرب ومنهم أحمد بن غالب، يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا، وقال: ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصوّر. وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر، فإن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أنّ الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل:

الأنس بالله لا يحويه بطال ... وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب ... وكلهم صفوة لله عمال

بيان معنى الإنبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوّشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر.

ومثاله: مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل؛ بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام وليستسقي لهم في سبعين ألفاً، فأوحى الله عزوجل إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عزوجل فسلم عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا. فخرج فقال في كلامه: ما هذا من فعالك ولا هذا من حلمك؟ وما الذي بدا لك! أنقصت عليك عيونك أن عاندت الرياح عن طاعتك أم نفد ما عندك أم أشتدّ غضبك على المذنبين؟ ألست كنت غفاراً قبل خلق الخطائين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف، أم ترينا أنك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر وأنبت الله

تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، قال: فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفني؟ فهم موسى عليه السلام به، فأوحى الله تعالى إليه: إن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن قال: احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة، فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخص، قال: فأتي بشيخ فقال؛ يا شيخ ما بال خصك لم يحترق؟ قال: إني أقسمت على ربي عزوجل أن لا يحرقه، فقال أبو موسى رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون في أمتي قوم شعثة رؤوسهم، دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم[1]». قال: ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخوّاص فجعل يتخطى النار، فقال له أمير البصرة: انظر لا تحترق بالنار، فقال: إني أقسمت على ربي عزوجل أن لا يحرقني بالنار، قال: فاعزم على النار أن تطفأ، قال؛ فعزم عليها فطفئت. وكان أبو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو حفص. ما أصابك؟ فقال: ضل حماري ولا أملك غيره، قال: فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة مالم ترد عليه حماره، قال: فظهر حماره في الوقت ومرّ أبو حفص رحمه الله.

فهذا وأمثاله يجري لذوي الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله: أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة. لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك. وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تخالجهم زهو بسيدهم ... والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عمّا سواه له ... يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما، ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت وفهمت، فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الإعتبار، فإنما هي عند ذوي الإعتبار من الأسماء.

فأوّل القصص. قصة آدم عليه السلام وإبليس أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا في الإجتباء والعصمة. أما إبليس فأبلس عن رحمته، وقيل إنه من المبعدين. وأما آدم عليه السلام فقيل فيه: ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾.

وقد عاتب الله نبيه ﷺ في الإعراض عن عبد والإقبال على عبد، وهما في العبودية سيان ولكن في الحال مختلفان، فقال: ﴿وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنده تلهى﴾. وقال في الآخر ﴿أما من استغنى فأنت له تصدى﴾ وكذلك أمره بالقعود مع طائفة، فقال عزوجل: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ وأمره بالإعراض عن غيرهم، فقال: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ حتى قال: ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ وقال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ .

فكذلك الإنبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض. فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام: ﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ وقوله في التعليل والإعتذار لما قيل له: ﴿اذهب إلى فرعون﴾ فقال: ﴿ولهم عليَّ ذنب﴾ وقوله: ﴿إني أخاف أنّ يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾ وقوله: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل، ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لما أقيم مقام القبض

---

(١) حديث الحسن عن أبي موسى: «يكون في أمتي قوم شعثة رؤوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة.

والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت ـ في ظلمات ثلاث ـ ونودي عليه إلى يوم القيامة: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعرآء وهو مذموم﴾. قال الحسن: العراء هو القيامة. ونهى نبينا ﷺ أن يقتدي به. وقيل له: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾.

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد، وقد قال تعالى: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ وقد قال: ﴿منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولإدلاله سلم على نفسه، فقال: ﴿والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس.

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه، فقال: ﴿وسلام عليه﴾.

وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء: قد عددت من أوّل قوله تعالى: ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾ إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفاً وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ـ فغفر لهم عفا عنهم ولم يحتمل العزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر، حتى قيل محي من ديوان النبوّة! وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك. وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته في الجوارح فعفا عنه. فقد روي أنّ الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام: يا رأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرّة بعد مرّة فوعزتي وجلالي لئن أخذته عصفة من عصفاتي عليه لأتركنه مثلة لمن معه ونكالاً لمن بعده، فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا كثيباً من رمل، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال: إلهي وسيدي أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تتب علي وكيف أستعصم؟ إن لم تعصمني لأعودنّ، فأوحى الله تعالى إليه: صدقت يا آصف أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد تبت عليك وأنا التواب الرحيم، وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه.

وفي الخبر: إنّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة كم من ذنب واجهتني به غفرته لك قد أهلكت في دونه أمة من الأمم. فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الأزلية.

وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرّف إليهم بالتقديس فيقول؛ ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول: ﴿الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر﴾ وتارة يتعرّف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوّة فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ـ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾.

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي: الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده. ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله ﷺ بثلث القرآن فقال: «من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن[1]». لأن منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور؛ لا يكون حاصلاً منه من هو نظيره وشبهه. ودل عليه قوله:

---

(١) حديث: «من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن» أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه.

﴿لم يلد﴾ ولا يكون حاصلاً ممن هو نظيره وشبهه. ودل عليه قوله: ﴿ولم يولد﴾ ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلاً له ولا فرعاً من هو مثله. ودل عليه قوله: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ ويجمع جميع ذلك قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ وجملته تفصيل قول: «لا إله إلا الله». فهذه أسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرآن: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: نوّروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأوّلين والآخرين، وهو كما قال، ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر وأنه خارج عن حدّ استطاعة البشر. وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار، فكن حريصاً على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه. فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم.

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته

اعلم أنّ الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقرّبين وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإبهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين، فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى. ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله ﷺ لابن عباس حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل[1]». فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا، ثم بحكايات أحوال الراضين، ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوّره فيما يخالف الهوى، ثم نذكر ما يظنّ أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي.

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ وقد قال تعالى: ﴿هل جزآء الإحسان إلا الإحسان﴾ ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى. وقال تعالى: ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال: ﴿إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ فكما أنّ مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان.

وفي الحديث: «إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك[2]». فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل. وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه. وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر، فلما امروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أنّ الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب. وقال الله تعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ قال بعض المفسرين: يأتي أهل الجنة

---

(١) حديث دعائه لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، متفق عليه دون قوله «وعلمه التأويل» ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم.

(٢) حديث: «إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك» أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه «فيتجلى لهم يقول أنا الذين صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل إكرامي فسلوني فيسألونه الرضا... الحديث» ورواه أبو يعلى بلفظ «ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك... الحديث» ورجاله رجال الصحيح.

في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين؛ إحـداها؛ هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾. والثانية؛ السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً وهو قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ والثالثة: يقول الله تعالى: إني عنكم راض فيكون ذلك افضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أي من النعيم الذي هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد.

وأما من الأخبار: فقد روي أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه «ما أنتم». فقالوا: مؤمنون، فقال: «ما علامة إيمانكم» فقالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء، فقال: «مؤمنون ورب الكعبة[1]». وفي خبر آخر أنه قال: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء[2]». وفي الخبر «طوبي لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به[3]». وقال ﷺ «من رضي من الله تعالى بالقليل من الرزق رضي الله تعالى منه بالقليل من العمل[4]». وقال أيضاً «إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه». وقال أيضاً «إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاؤ وا فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون. ما رأينا حساباً، فتقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ، فتقول: ناشدناكم الله حدّثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا، فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا[5]». وقال ﷺ «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا[6]».

وفي أخبار موسى عليه السلام؛ إنّ بني إسرائيل قالوا له: سل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا، فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم. ويشهد لهذا ما روي عن نبينا ﷺ أنه قال: «من أحب أن يعلم ماله عند الله عزوجل فلينظر ما لله عزوجل عنده، فإنّ الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه[7]».

وفي أخبار داود عليه السلام؛ ما لأوليائي والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود إنّ محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون.

وروي أنّ موسى عليه السلام قال: يارب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه: إن رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره، قال: يارب دلني عليه، قال: فإنّ رضاي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة موسى عليه السلام أي رب أى خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب

---

(١) حديث: سأل طائفة من أصحابه «ما أنتم» فقالوا: مؤمنون فقال: «ملا علامة إيمانكم... الحديث» تقدم.

(٢) حديث: أنه قال في حديث آخر «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء» تقدم أيضاً.

(٣) حديث: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به» أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد بلفظ «وقنع» وقال صحيح وقد تقدم.

(٤) حديث: «من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل» رويناه في أمالي المحاملي بإسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب ومن طريق المحاملي رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

(٥) حديث: «إذا كان ينبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها» رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن علي القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن، وللأحاديث الصحيحة في الورود وغيره.

(٦) حديث: «أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا» تقدم.

(٧) حدبث: «من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ما لله عنده... الحديث» أخرجه الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ «منزلته» و «منزلة الله».

سالمني، قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي. وقد روي ما هو أشدّ من ذلك وهو أنّ الله تعالى قال: «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربا سواي[1]». ومثله في الشدّة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ أنه قال: قال الله تعالى قدّرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع، فمن رضي فله الرضا مني حتى يلقاني ومن سخط فله السخط مني حتى يلقاني[2]». وفي الخبر المشهور «يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر على يديه، وويل لمن قال لمن وكيف[3]».

وفي الأخبار السالفة أن نبياً من الأنبياء شكا إلى الله عزوجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكو، هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدّرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالي لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوّة. وروي أنّ آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ـ يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه ـ فقال له بعض ولده: يا أبت! ما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا! فقال: يا بني إني رأيت مالم تروا، وعلمت مالم تعلموا، إني تحرّكت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، فأخاف أن أتحرّك أخرى فيصيبني مالا أعلم. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته، ولا قال في شيء كان ليته لم يكن، ولا في شيء لم يكن ليته كان، وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله يقول دعوه لو قضي شيء لكان[4]. ويروى أنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام؛ يا داود إنك تريد وأريد إنما يكون ما أريد، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

وأما الآثار: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما. أوّل من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال. وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر، وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله. وقال ميمون بن مهران: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وقال الفضيل: إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز بن أبي رواد؛ ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل ولا في لبس الصوف والشعر، ولكنّ الشأن في الرضا عن الله عزوجل وقال عبد الله بن مسعود: لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان. ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع. فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة، فقال: إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني.

وروي في الإسرائيليات؛ أن عابداً عبد الله دهراً طويلاً فأري في المنام: فلانة الراعية رفيقتك في الجنة؛ فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثاً لينظر إلى عملها، فكان يبيت قائماً وتبيت نائمة ويظل صائماً وتظل

---

(١) حديث: «قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي. . . الحديث» أخرجه الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الداري مقتصراً على قوله «من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليلتمس رباً سواي» وإسناده ضعيف.

(٢) حديث: «قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضي فله الرضا. . الحديث لم أجده بهذا اللفظ. وللطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة. «خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين. . الحديث» وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: «يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه. . . الحديث» أخرجه ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف.

(٤) حديث أنس: خدمت النبي ﷺ فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته. . . الحديث. متفق عليه وقد تقدم.

مفطرة. فقال: أما لك عمل غير ما رأيت؟ فقالت: ما هو والله إلا ما رأيت لا اعرف غيره، فلم يزل يقول. تذكري، حتى قالت: خصيلة واحدة هي فيّ؛ إن كنت في شدّة لم أتمنّ أن أكون في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة، وإن كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل، فوضع العابد يده على رأسه وقال: أهذه خصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد.

وعن بعض السلف: إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه، وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر. وقال عمر رضي الله عنه. ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء. وقال الثوري يوماً عند رابعة: اللهم ارض عني، فقالت: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض؟ فقال؛ أستغفر الله، فقال جعفر بن سليمان الضبعي: فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعالى؟ قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة. وكان الفضيل يقول: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى. وقال أحمد بن أبي الحواري: قال أبو سليمان الداراني إنّ الله عزوجل من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليهم قلت: وكيف ذاك؟ قال: أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت: نعم، قال: فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه. وقال سهل: حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عزوجل. وقد قال النبي ﷺ «إن الله عزوجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط[1]».

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

أعلم أنّ من قال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أنّ الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهين.

(أحدهما) أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحسن، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها. ومثاله: الرجل المحارب فإنه في حال غضبة أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بألم ذلك لشغل قلبه. بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به. وكل ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفي به لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه! فكيف إذا أصابه من حبيبه؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم، فإنّ الحب أيضاً يتصوّر تضاعفه في القوّة كما يتصوّر تضاعق الألم، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجري عليه. فقد روي أن امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه، فقيل له في ذلك فقال: يا دوست ضرب الحبيب لا يوجع!

(وأما الوجه الثاني) فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه مريداً له ـ أعني بعقله ـ وإن كان كارهاً بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به

---

(١) حديث: «إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا. . . الحديث» أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود إلا أنه قال «بقسطه» وقد تقدم.

وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم. وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضياً بها. ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه. هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه، ولا يجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً، وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة. وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كبيراً فترى الصغير كبيراً والكبير صغيرا والبعيد قريباً والقبيح جميلاً، فإذا تصوّر استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت؟ حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الإعتبار، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم.

فقد قال شقيق البلخي: من يرى ثواب الشدّة لا يشتهي المخرج منها؟ وقال الجنيد: سألت سرياً السقطي هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا، قلت وإن ضرب بالسيف! قال: نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ـ ضربة على ضربة. وقال بعضهم: أحببت كل شيء يحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار. وقال بشر بن الحارث: مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس، فتبعته فقلت له: لم ضربت؟ فقال لأني عاشق، فقلت له ولم سكت؟ قال لأنّ معشوقي كان بحذائي ينظر إلي، فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر! قال فزعق زعقة خرّ ميتاً وقال يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله؟ إذ لاحظت جلاله هابت وإذا لاحظت جماله تاهت! وقال بشر: قصدت عبادان في بدايتي فإذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه، فرفعت رأسه فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام، فلما أفاق قال من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعني إرباً إرباً ما ازددت له إلا حباً؟ قال بشر فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها. وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث إنّ أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غداء إلا النظر إلى وجه يوسف الصدّيق عليه السلام، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع. بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهنّ لاستهتارهنّ بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك. وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شاباً وفي يده مدية وهو ينادي بأعلى صوته والنا س حوله وهو يقول:

يوم الفراق من القيامة أطول ... والموت من ألم التفرق أجمل
قالوا الرحيل فقلت لست براحل ... لكن مهجتي التي تترحل

ثم بقر بالمدية بطنه وخرّ ميتاً، فسألت عنه وعن أمره فقيل لي إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوماً واحداً. ويروى أنّ يونس عليه السلام قال لجبريل: دلني على أعبد أهل الأرض؟ فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول إلهي متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول. ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتدّ وجده عليه حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث، فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشدّ سروراً أبداً منه، فقيل له في ذلك فقال ابن عمر: إنما كان

حزني رحمة له، فلما وقع أمر الله رضينا به. وقال مسروق. كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم، قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له وكان الرجل صالحاً فقال: عيسى أن يكون خيراً، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيراً ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، قال: وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى. فإذن من عرف خفيّ لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال. ويروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني مما ابتلي به كثيراً من خلقه، فقال له عيسى: يا هذا أي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك؟ فقال: ياروح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال له: صدقت هات يدك، فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه. وقطع عروة بن الزبير رجله ـ من ركبته ـ من أكلة خرجت بها ثم قال: الحمد لله الذي أخذ مني واحدة وابحث لئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت، ثم لم يدع ورده تلك الليلة. وكان ابن مسعود يقول: الفقر والغنى مطبتان ما أبالي أيتهما ركبت؟ إن كان الفقر فإنّ فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل. وقال أبو سليمان الداراني: قلت قد نلت من كل مقام حالاً إلا الرضا فما لي منه إلا مشام الريح، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضياً. وقيل لعارف آخر: هل نلت غاية الرضا عنه؟ فقال: أما الغاية فلا، ولكن مقام الرضا قد نلته، لو جعلني جسراً على جهنم يعبر الخلائق علي إلى الجنة ثم ملأ بي جهنم ـ تحلة لقسمة وبدلاً من خليقته ـ لأحببت ذلك من حكمة ورضيت به من قسمة. وهذا كلام من علم أنّ الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار، فإن بقي إحساس فيعمره ما يحصل من لذته في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار. واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان بعيداً من أحوالنا الضعيفة، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظنّ أنّ ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء.
وقال الروذباري: قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمشقي: قول فلان؛ وددت أنّ جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه؛ ما معناه؟ فقال: يا هذا إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف، قال: ثم غشي عليه. وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ـ قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ـ فدخل عليهم مطرف وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة! قال: لا تبك فإنّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إلي! ثم قال: أحدّثك شيئاً لعل الله أن ينفعك به، واكتم علي حتى أموت، إنّ الملائكة تزورني فآنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة! فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضياً به؟ قال: ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده، فرأينا ثوباً ملقى فما ظننا أن تحته شيئاً حتى كشف، فقالت له امرأته: أهلي فداؤك ما نطعمك. ما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ولا أسيغ شراباً منذ كذا، فذكر أياماً، وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ـ وقد كان كف بصره ـ جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا ـ وكان مجاب الدعوة ـ قاله عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرّفت إليه فعرفني وقال: أنت قارىء أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: ياعم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك! فتبسم وقال: يابني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري! وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر، فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك، فقال: اعتراضي عليه فيما

قضى أشدّ علي من ذهاب ولدي. وعن بعض العباد أنه قال: إني أذنبت ذنباً عظيماً فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة ـ وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من الذنب ـ فقيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشيء كان، ليته لم يكن. وقال بعض السلف: لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه ليته لم يقضه. وقيل لعبد الواحد بن زيد: ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة، فقصده فقال له: يا حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به؟ قال: لا، قال أنست به؟ قال: لا، قال فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال نعم، قال لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة! ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب، وإنما أنت تعدّ في طبقات أصحاب اليمين، لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم. ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة، فقال من أنتم؟ فقالوا محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما بالكم ادعيتم محبتي إن صدقتم فاصبروا على بلائي!

وللشبلي رحمه الله تعالى:

إن المحبة للرحمن أسكرني ... وهل رأيت محباً غير سكران؟

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقى الله عزوجل مصدّقاً ولعله قد كذبه، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها، ولو كان بها شلل ظل يواريها؛ يعني بذلك أنّ الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه. وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقيل للسري؛ احترق السوق وما احترق دكانك! فقال الحمد لله، ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين! فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفاراً من قوله الحمد لله.

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعاً أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين. ومهما كان ذلك ممكناً في حب الخلق وحظوظهم كان ممكناً في حق الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعاً. وإمكانه من وجهين (أحدهما) الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظاراً للشفاء. (والثاني) الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له؛ فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب، فيكونّ ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه. كما قيل:

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم، وقد يستولي الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم؛ فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه! لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه.

وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال: كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية، وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت:

علامة ذل الهوى ... على العاشقين البكا
ولا سيما عاشق ... إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى: أحسنت والله يا سيدتي أفتأذنين لي أن أموت! فقالت: مت راشداً! قال: فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه، فحركناه، فإذا هو ميت. وقال الجنيد: رأيت رجلاً متعلقاً بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة، فالتفت إليه الصبي وقال له: إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي؟ فقال: قد علم الله أني صادق فيما أورده، حتى لو قلت لي مت لمت، فقال: إن كنت صادقاً فمت، قال: فتنحى الرجل

وغمض عينيه فوجد ميتاً. وقال سمنون المحب: كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيساً، فبينا هو يحرّك القدر إذ قالت الجارية آه! قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرّك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه! فقالت الجارية ما هذا؟ قال هذا مكان قولك ـ آه. وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال رأيت بالبصرة شاباً على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول:

من مات عشقاً فليمت هكذا　　لا خير في عشق بلا موت!

ثم رمى بنفسه إلى الأرض، فحملوه ميتاً. فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر، وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال. نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة، فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضاً هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضاً. وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عزوجل فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع.

فأما الدعاء فقد تعبدنا به، وكثرة دعوات رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام ـ على ما نقلناه في كتاب الدعوات تدل عليه. ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلى المقامات من الرضا. وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال: ﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ وقال تعالى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم﴾ وفي الخبر المشهور «من شهد منكراً فرضي به فكأنه قد فعله». وفي الحديث «الدال على الشر كفاعله[1]». وعن ابن مسعود إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه وقيل وكيف ذلك؟ قال يبلغه فيرضى به وفي الخبر: «لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكاً في قتله[2]». وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة في الخيرات وتوقي الشرور فقال تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ وقال النبي ﷺ «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها في الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق[3]». وفي لفظ آخر «ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل».

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ وقال تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ وفي الخبر «إن الله تعالى أخذ

---

(١) حديث: «الدال على الشر كفاعله» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جداً.

(٢) حديث: «لو أن رجلاً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر في المغرب كان شريكاً في قتله» لم أجد له أصلاً بهذا اللفظ ولابن عدي من حديث أبي هريرة «من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها» وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف.

(٣) حديث: «لا حسد إلا في اثنتين... الحديث» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم.

الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن[1]». وقال عليه السلام المرء مع من أحب[2]». وقال؛ «من أحب قوماً ووالاهم حشر معهم يوم القيامة[3]». وقال عليه السلام «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله[4]». وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة، وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلا نعيده».

فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى[5]. فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟ فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض، بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذ تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من وجه؛ إذ قد يموت عدوّك الذي هو أيضاً عدوّ بعض أعدائك وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدوّ عدوّك وترضاه من حيث إنه مات عدوّك. وكذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته؛ فيرضى به من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتاً عند الله وبغيضاً عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال: فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدي محبيه. إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرباً يضطرّه ذلك إلى الشتم لي. حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوّاً لي، فكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدوّي، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي. ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة. فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة - فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة - فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك! وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، ولكنه كان مرادك منه؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصاناً في تدبيرك وتعويقاً في مرادك، وأنا كاره لفوات مرادك، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل الشتم، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضاً مبغض له، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيباً ولعدوّه عدوّاً. وأما بغضه لك فإني

---

(١) حديث: «إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق. . . الحديث» لم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «المرء مع من أحب» تقدم.

(٣) حديث: «من أحب قوماً ووالاهم حشر معهم» أخرجه الطبراني من حديث أبي قرصافة وابن عدي من حديث جابر: «من أحب قوماً على أعمالهم حشر في زمرتهم» زاد ابن عدي «يوم القيامة» وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف.

(٤) حديث: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» رواه أحمد وتقدم في آداب الصحبة.

(٥) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله رواها الترمذي من حديث، سعد بن أبي وقاص «من سعادة إبن آدم رضاه بما قسم الله عزّ وجل. . . الحديث» وقال غريب وتقدم حديث «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس» وحديث: «إن الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا» وتقدم في حديث الاستخارة «واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به» وحديث «من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل وحديث: «أسألك الرضا بالقضاء. . . الحديث» وغير ذلك.

أرضاه من حيث أنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك، فهو ممقوت عندي لمقته إياك، وبغضه ومقته لك أيضاً عندي مكروه من حيث أنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي. وإنما التناقض أن يقول؛ هو من حيث إنه مرادك مرضي ومن حيث إنه مرادك مكروه، وأما إذا كان مكروهاً لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه، ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى.

فإذن تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجرّه ذلك إلى حب المعصية ويجرّه الحب إلى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاً؛ ليجرّه الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم. ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره، يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى بكل عبد من عبيده ـ أعني تسليط دواعي المعصية عليه ـ يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته. فواجب على كل عبد محب لله يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من أبعده الله عن حضرته ـ وإن اضطرّه بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ـ فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وإن كان بعيداً بإبعاده قهراً ومطروداً بطرده واضطراره. والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتاً بغيضاً إلى جميع المحبين ـ موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده.

بهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عزوجل. وهذا كله يستمد من سر القدر ـ الذي لا رخصة في إفشائه ـ وهو أنّ الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي به. فمن قال: ليس الشر من الله، فهو جاهل وكذا من قال: إنهما جميعاً منه ـ من غير افتراق في الرضا والكراهة ـ فهو أيضاً مقصّي. وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه؛ فالأولى السكوت والتأديب بأدب الشرع فقد قال ﷺ «القدر سر الله فلا تفشوه[1]». وذلك يتعلق بعلم المكاشفة. وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه.

وبهذا يعرف أيضاً أنّ الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعنية على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف. كما أنّ حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش، وشرب الماء طلباً لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به. وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جرياً على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل ـ واستقصيناه في كتاب التوكل ـ فهو أيضاً لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض. وقد قال بعض السلف: من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار ـ أي في معرض الشكاية ـ وذلك في الصيف فأما الشتاء فهو شكر، والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع، والكل من صنع الله تعالى. وقول القائل: الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كدّ

---

(١) حديث: «القدر سر الله فلا تفشوه» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف.

ومشقة، كل ذلك قادح في الرضا، بل ينبغي أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه؛ لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً فإني لا أدري أيهم خير لي.

بيان أن الفرار من البلاء التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا

اعلم أنّ الضعيف قد يظن أن نهي رسول الله ﷺ عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون[1] يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال؛ بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فيهلكون هزالاً وضراً، ولذلك شبهه رسول الله ﷺ في بعض الأخبار بالفرار من الزحف[2]. ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف ـ وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل ـ وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاء التي هي مظان المعاصي ليس فراراً من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بدّ من الفرار منه. وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها ـ لأجل التنفير عن المعصية ـ ليست مذمومة. فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها، فقال ابن المبارك: قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من بغداد! قيل؛ وكيف؟ قال: هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله. ولما قدم خراسان قيل له: كيف رأيت بغداد؟ قال: ما رأيت بها إلا شرطياً غضبان أو تاجراً لهفان أو قارئاً حيران! ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة؛ لأنه لم يتعرّض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة ـ وقد كان مقامه ببغداد ـ يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوماً، فكان يتصدّق بستة عشر دينار لكل يوم دينار كفارة لمقامه. وقد ذم العراق جماعة: كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار. وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له: أين تسكن؟ فقال: العراق، فقال: فما تصنع به؟ بلغني أن ما من أحد يسكن العراق إلا قيض الله قريناً من البلاء. وذكر كعب الأحبار يوماً العراق فقال: فيه تسعة أعشار الشر وفيه الداء العضال. وقد قيل: قسم الخير عشرة أجزاء؛ فتسعة أعشاره بالشام وعشرة بالعراق، وقسم الشر عشرة أجزاء؛ على العكس من ذلك. وقال بعض أصحاب الحديث: كنا يوماً عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفي متدرع بعباءة، فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال: أين تسكن؟ فقال: بغداد: فأعرض عنه وقال: يأتينا أحدهم في زي الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال في عش الظلمة؟ وكان بشر بن الحارث يقول: مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش. وكان يقول: لا تقتدوا بي في المقام بها! من أراد أن يخرج فليخرج. وكان أحمد بن حنبل يقول:لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي! قيل وأين تختار السكنى؟ قال بالثغور. وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريرهم شرير.

فهذا يدل على أنّ من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها، بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله مطمئن النفس إليه، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلاً على الدوام: ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ فإذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال.

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله تعالى، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى، ورجل قال لا أختار شيئاً بل أرضى بما اختاره الله تعالى؛ ورفعت هذه المسألة

---

(١) حديث: النهي عن الخروج من بلد الطاعون. تقدم في آداب السفر.
(٢) حديث: إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف. تقدم فيه.

إلى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولاً. واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط، فقال الثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، واليوم وددت أني مت، فقال له يوسف لم؟ قال لما أتخوف من الفتنة، فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء، فقال سفيان لم؟ قال لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً، فقيل لوهيب إيش تقول أنت؟ فقال أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إلي أحبه إلى الله سبحانه وتعالى، فقبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة.

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين إنك محب فقال لست محباً إنما أنا محبوب والمحب متعوب. وقيل له أيضاً: الناس يقولون إنك واحد من السبعة؟ فقال أنا كل السبعة. وكان يقول إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلاً، قيل وكيف وأنت شخص واحد؟ قال لأني رأيت أربعين بدلاً وأخذت من كل بدل خلقاً من أخلاقه. وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام؟ فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه! وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدّثت نفسي يوماً قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولياً لم أعرفه. وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى، فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك! قيل فحدّثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى. فقال وهذا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه. قيل فحدّثنا عن رياضة نفسك في بدايتك، فقال نعم، دعوت نفسي إلى الله فجمحت علي فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك. ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد ـ في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ـ مستوفزاً على صدور قدميه رافعاً أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ضارباً بذقنه على صدره شاخصاً بعينه لا يطرف، قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال اللهم إنّ قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم طي الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك. حتى عدّ نيفاً وعشرين مقاماً من كرامات الأولياء، ثم التفت فرآني فقال: يحيى! قلت: نعم يا سيدي؛ فقال: مذ متى أنت ههنا؟ قلت: منذ حين، فسكت، فقلت: يا سيدي حدّثني بشيء فقال: أحدثك بما يصلح لك، أدخلني في الفلك الأسفل فدوّرني في الملكوت السفلي وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوّف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، أوقفني بين يديه فقال: سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك؟ فقلت: يا سيدي ما رأيت شيئاً استحسنته فأسألك إياه! فقال: أنت عبدي حقاً تعبدني لأجلي صدقاً لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشياء. قال يحيى؛ فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت: يا سيدي لم لا سألته المعرفة به؟ وقد قال لك الملوك سلني ما شئت، قال: فصاح بين صيحة وقال: اسكت ويلك! غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه. وحكي أنّ أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته فقال له أبو تراب يوماً لو رأيت أبا يزيد؟ فقال: إني عنه مشغول، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله «لو رأيت أبا يزيد». هاج وجد المريد فقال: ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد؟ قال أبو تراب: فهاج طبعي ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك تغتر بالله عزوجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة! قال: فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال: وكيف ذلك؟ قال له: ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره؟ فعرف ما قلت، فقال: احملني إليه، فذكر قصة قال في آخرها: فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ـ وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع ـ قال: فمرّ بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى: هذا أبو يزيد فانظر إليه! فنظر إليه الفتى فصعق، فحركناه فإذا هو ميت، فتعاونا على دفنه فقلت لأبي يزيد: يا

سيدي نظره إليك قتله، قال: لا ولكن كان صاحبكم صادقاً واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله، لأنه في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك. ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا: لو سألت الله تعالى دفعهم؟ فسكت ثم قال: إنّ لله عباداً في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة؛ ولكن لا يفعلون، قيل لم؟ قال لأنهم لا يحبون مالا يحب، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطاع ذكرها، حتى قال: ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها. وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشيء منها، فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها، فإن القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له. ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلك، فإنّ عنده فوق ذلك أضعافاً مضاعفة، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به، وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل. وقد قال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء، عليهن ثياب من ذهبَ وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوماً، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال، وقيل لي: انظر إليهن، قال: فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن وقلت: أعوذ بك مما سواك! لا حاجة لي بهذا، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني.

فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الإيمان عليه، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهراً وباطناً، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصناً بحصن الخمول: فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس. وبعد تصفية القلب عن كورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادي الحق، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجري مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة، فنظر المنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال.

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه، وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئاً ولو من مبادي الطريق، كما قيل لبشر: بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟ قال: كنت أكاتم الله تعالى حالي. معناه؛ أسأله أن يكتم علي ويخفي أمري. وروي أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له: ادع الله تعالى لي، فقال: يسر الله عليك طاعته، قلت زدني، قال وسترها عليك. فقيل معناه سترها عن الخلق، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها. وعن بعضهم أنه قال أقلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يريني إياه ليعلمني شيئاً كان أهم الأشياء علي، قال فرأيته فما غلب على همي ولا همتي إلا أن قلت له يا أبا العباس علمني شيئاً إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة لم يكن لي فيها قدر ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة، فقال قل اللهم أسبل عليّ كثيف سترك وحط عليّ سرادقات حجبك واجعلني في مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خلقك، قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك، فما زلت أقول هذه الكلمات في كل يوم، فحكي أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن ـ حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به ـ فكانت راحته ركود قلبه، واستقامة حاله في ذله وخموله. فهكذا حال أولياء الله تعالى، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم كما قال تعالى أوليائي تحت قبابي لا

يعرفهم غيري. وقال ﷺ «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه[1]».

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها. وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذلك نفسها استشعاراً إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضاً بعدم التفاته إلى الذل، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلاً في حقه بل يرى نفسه دون ذلك، حتى يصار التواضع بالطبع صفة ذاته. فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مباديء هذه الروائح، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله، فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محباً لأولياء الله مؤمناً بهم فعسى أن يحشر مع من أحب. ويشهد لهذا ما روي أن عيسى عليه السلام قال لبني إسرائيل أين ينبت الزرع؟ قالوا في التراب، فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحكمة إلا في قلب مثل التراب. ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة الخسة، حتى روي أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات، ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرّة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمي له عظم فيعود، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت. وعنه أيضاً أنه قال نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح، فتشتت على قلبي، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت، وجعلت أمشي قليلاً قليلاً. فلحقوني فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضرباً، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي.

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له، فليس بن القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس. ولذلك حكي أن شاهداً عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد، فقال له يوماً: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً وأنا أصدّق به وأحبه، فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلاثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرّة! قال: لأنك محجوب بنفسك، قال فلهذا دواء؟ قال: نعم، قال: قل لي حتى أعمله، قال: لا تقبله، قال: فاذكره لي حتى أعمل، قال: اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً، واجمع الصبيان حولك وقل: كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك، فقال الرجل: سبحان الله! تقول لي مثل هذا! فقال أبو يزيد: قولك: «سبحان الله«. شرك، قال: وكيف؟ قال: لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك! فقال: هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره! فقال: ابتدىء بهذا قبل كل شيء. فقال: لا أطيقه، قال: قد قلت لك إنك لا تقبل؟. فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه، ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله، فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً. فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً.

وهذه أمور جلية في الشرع واضحة وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعدّ نفسه من علماء الشرع فقد قال ﷺ «لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب من

---

(١) حديث: «رب أشعث أغبر ذي طمرين» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

أن يعرف[1]. وقد قال عليه السلام «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرائي بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخر على الدنيا[2]». وقال عليه السلام: «لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال: إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له[3]». وفي حديث آخر «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وخشية الله في السر والعلانية[4]»، فهذه شروط ذكرها رسول الله ﷺ لأولي الإيمان فالعجب ممن يدّعي علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرّة من هذه الشروط ثم يكون نصيبة من عمله وعقله أن يجحد مالا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عليه وراء الإيمان؛ وفي الأخبار أنّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: إنما اتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكري ولا يكون له هم غيري ولا يؤثر على شيئاً من خلقي وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألماً. فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحدّ فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات؟ وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان، ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له. ولذلك قال عليه السلام للصديق رضي الله تعالى عنه «إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم[5]». وفي حديث آخر «إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة» فقال أبو بكر: يا رسول الله هل فيَّ منها خلق فقال: «كلها فيك يا أبا بكر وأحبها إلى الله تعالى السخاء[6]». وقال عليه السلام: «رأيت ميزاناً دلِّيَ من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمتي فوضعت في كفة فرجح بهم[7]». ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله ﷺ بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال: «لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى[8]» يعني نفسه.

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قال سفيان؛ المحبة اتباع رسول الله ﷺ؛ قال غيره: دوام الذكر، وقال غيره إيثار المحبوب وقال بعضهم؛ كراهة البقاء في الدنيا. وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرّضوا لها. وقال

---

(١) حديث: «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف» ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة، وعلى هذا فهو معضل فعليّ بن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجد له أصلاً.

(٢) حديث: «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادي ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه عبد الواحد.

(٣) حديث: «لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال: إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق... الحديث» أخرجه الطبراني في الصغير بلفظ: «ثلاث من أخلاق الإيمان» وإسناده ضعيف.

(٤) حديث: «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود: العدل في الرضا والغضب» غريب بهذا اللفظ، والمعروف «ثلاث منجيات» فذكرهن بنحوه وقد تقدم.

(٥) حديث: إنه قال للصديق «إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي.. الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف.

(٦) حديث: «إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة... الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً عن الله «خلقت بضعة عشر وثلاثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة» ومن حديث ابن عباس «الإسلام ثلاثمائة شريعة وثلاثة عشرة شريعة وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ «الإيمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان «إن لله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة... الحديث» وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة.

(٧) حديث: «رأيت ميزاناً دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم... الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

(٨) حديث: «لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً... الحديث» متفق عليه وقد تقدم.

بعضهم: المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عبارته. وقال الجنيد. حرّم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة. وقال: كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة. وقال ذو النون: قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله. وقيل للشبلي رحمه الله: صف لنا العارف والمحب؛ فقال: العارف إن تكلم هلك، والمحب إن سكت هلك، وقال الشبلي رحمه الله:

يا أيها السيد الكريم	حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني	أنت بما مر بي عليم
عجبت لمن يقول ذكرت إلفي	وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا	ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقاً	فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأساً بعد كأس	فما نفذ الشرب وما رويت؟
فليت خياله نصب لعيني!	فإن قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوماً: من يدلنا على حبيبنا، فقالت خادمة لها: حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه. وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى: أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إني إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي. وقيل؛ تكلم سمنون يوماً في المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات. وقال إبراهيم بن أدهم: إلهي إنك تعلم أنّ الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك، وقال السري رحمه الله: من أحب الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوبه فتاش. وقيل لرابعة: كيف حبك للرسول ﷺ؟ فقالت: والله إني لأحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين. وسئل عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال: الرضا عن الله تعالى والحب له. وقال أبو يزيد: المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة: إنما يحب من مولاه مولاه. وقال الشبلي: الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم. وقيل المحبة أن تمحوا أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك، وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح. وقال الخوّاص: المحبة محو الإرادات واحتراق الصفات والحاجات. وسئل سهل عن المحبة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه. وقيل معاملة المحب على أربع منازل؛ على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم، وأفضلها التعظيم والمحبة لأنّ هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما. وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عزوجل أحبه، وإذا أحبه أقبل عليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة، وهي تحسره في الدنيا وتروّحه في الآخرة: وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول ـ وهي باكية والدموع على خدها جارية ـ والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى وحباً للقائه، قال فقلت لها؛ فعلي ثقة أنت من عملك؟ قالت لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟ وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود هذه إرادتي في المدبرين علي فكيف إرادتي في المقبلين علي، يا داود أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني وأجل ما يكون عبدي إذا رجع إلي: وقال أبو خالد الصفار لقي نبي من الأنبياء عابداً فقال له؛ إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق. وقال الشبلي رحمه الله: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكرى للذاكرين، وجنتي للمطيعين وزيارتي للمشتاقين، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا

آدم من أحب حبيباً صدّق قوله ومن أنس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق إليه جدّ في مسيره. وكان الخوّاص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يراني ولا أراه. وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمي، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أقعد، وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقاً مني إليك. وعن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال: «المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني والحب أساسي والشوق مركبي وذكر الله أنيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوّتي والصدق شفيعي والطاعة حبي والجهاد خلقي وقرّة عيني في الصلاة[1]». وقال ذو النون سبحان من جعل الأرواح جنود مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة، وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيت في جبل اللكام رجلاً أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول:

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله اشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات، فهذا القدر كاف في شرح المحبة والأنس والشوق والرضا، فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب.

تم كتاب المحبة والشوق والأنس، يتلوه كتاب النية والإخلاص والصدق.

كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقرّ بوحدانية إقرار الصادقين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وخالق السموات والأرضين، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقرّبين أن يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾. فما لله إلا الدين الخالص المتين، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد: فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون؛ والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أوّلاً لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص.

---

(١) حديث علي: سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال: «المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني. . . الحديث» ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ولم أجد له إسناداً.

ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:
(الباب الأول) في حقيقة النية ومعناها.
(الباب الثاني) في الإخلاص وحقائقه.
(الباب الثالث) في الصدق وحقيقته.

الباب الأوّل في حقيقة النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كونَ النية خيراً من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار.

بيان فضيلة النية

قال الله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾. والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امريء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه[١]». قال ﷺ: «أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته[٢]». وقال تعالى: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ فجعل النية سبب التوفيق. وقال ﷺ: «إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[٣]». وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية، وقال ﷺ: «إنّ العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد الملائكة في صحف مختمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون: يا ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه[٤]». وقال ﷺ: «الناس أربعة، رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله تعالى مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما في الوزر سواء[٥]».
ألا ترى كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساويه. وكذلك في حديث أنس بن مالك: لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولاوطئنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة! «قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال، حبسهم العذر فشركوا بحسن النية[٦]». وفي حديث ابن مسعود «من هاجر يبتغي شيئاً فهوله». فهاجر رجل فتزوّج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس[٧]. وكذلك جاء في الخبر «إن رجلاً قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل

---

(١) حديث: «إنما الأعمال بالنيات... الحديث» متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم.
(٢) حديث: «أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته» أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة.
(٣) حديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.
(٤) حديث: «إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة... الحديث» أخرجه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن.
(٥) حديث: «الناس أربعة: رجل آتاه الله علماً ومالاً... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ: «مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر... الحديث» وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه: «وإنما الدنيا لأربعة نفر... الحديث» وقال حسن صحيح.
(٦) حديث أنس: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً... الحديث» أخرجه البخاري مختصراً وأبو داود.
(٧) حديث ابن مسعود: «من هاجر يبتغي شيئاً فهو له» هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس: أخرجه الطبراني بإسناد جيد.

الحمار[1]». لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته. وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى[2]». وقال أبي: استعنت رجلاً يغزو معي فقال: لا حتى تجعل لي جعلا، فجعلت له، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له[3]». وروي في الإسرائيليات، أن رجلاً مر بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب مالو كان طعاماً فتصدّقت به». وقد ورد في أخبار كثيرة «من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة[4]». وفي حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها[5]». وفي حديث أم سلمة: أن النبي ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم البيداء فقلت: يا رسول الله يكون فيهم المكره والأجير فقال: «يحشرون على نياتهم[6]». وقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما يقتتل المقتتلون على النيات[7]». وقال عليه السلام: «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[8]». وعن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه[9]». وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لأنه أراد قتل صاحبه[10]». وفي حديث أبي هريرة «من تزوّج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاء فهو سارق[11]». وقال ﷺ «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة[12]».

وأما الآثار: فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع

---

(1) حديث: «إن رجلاً قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار» لم أجد له أصلاً في الموصولات، وإنما رواه أبو إسحق الفراوي في السنن من وجه مرسل.

(2) حديث: «من غزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى» أخرجه النسائي من حديث عبادة بن الصامت وتقدم غير مرة.

(3) حديث أبي: استعنت رجلاً يغزو معي فقال لا حتى تجعل لي جعلاً فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له» أخرجه الطبراني في مسند الشاميين لأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيراً للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبي ﷺ: «ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمى».

(4) حديث: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة» متفق عليه وقد تقدم.

(5) حديث عبد الله بن عمرو: «من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه... الحديث» أخرجه ابن ماجة من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله «وفارقها أرغب ما يكون فيها» ودون قوله «وفارقها أزهد ما يكون فيها» وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو.

(6) حديث أم سلمة: في الجيش الذي يخسف بهم «يحشرون على نياتهم» أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم.

(7) حديث: «إنما يقتتل المقتتلون على النيات» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ «إنما يبعث» ورويناه في فوائد تمام بلفظ «إنما يبعث المسلمون على النيات» ولابن ماجه من حديث أبي هريرة «إنما يبعث الناس على نياتهم» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

(8) حديث: «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم: فلان يقاتل الدنيا... الحديث» أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففي الصحيحين من حديث أبي موسى «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

(9) حديث جابر: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» رواه مسلم.

(10) حديث الأحنف عن أبي بكرة: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار» متفق عليه.

(11) حديث أبي هريرة: «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان» أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصراً على قصة: الدين، دون ذكر: الصداق.

(12) حديث: «من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك... الحديث» أخرجه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من حديث إسحٰق بن أبي طلحة مرسلاً.

عما حرّم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى. وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم أنّ عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره. وقال بعض السلف: رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية. وقال داود الطائي: البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك. وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل. وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير. وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فإني لا أحب أن يأتي علي ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله، فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فإنّ الهام بعمل الخير كعامله. وكذلك قال بعض السلف وإنّ نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإنّ ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك. وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم. وقال أبو هريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ يبكي ويرددها ويقول إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. وقال الحسن إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات وقال أبو هريرة مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير، وما أريد به غيري فكثيره قليل. وقال بلال بن سعد إنّ العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عزوجل وقوله حتى ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه، فإن تورّع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوي، فإن صلحت نيته فبالحرى أن يصلح ما دون ذلك فإذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق.

بيان حقيقة النية

اعلم أنّ النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفه للقلب يكتنفها أمران: علم، وعمل (العلم) يقدمه لأنه أصله وشرطه (والعمل) يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأنّ كل عمل أعني كل حركة وسكون اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة امور: علم، وإرادة، وقدرة. لأنه لا يريد الإنسان مالا يعلمه فلا بدّ وأن يعلم، ولا يعمل مالم يرد فلا بدّ من إرادة. ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضارّ المنافي عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً وهي الحواس الظاهرة والباطنة ـ وليس ذلك من غرضنا ـ ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول مالم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه، إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحرّكة إليه، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة ـ وأعني به نزوعاً في نفسه إليه وتوجهاً في قلبه إليه ـ ثم ذلك لا يكفيه فكم من شاهد طعاماً راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمناً؟ فخلقت له القدرة والأعضاء المتحرّكة حتى يتم به التناول، والعضو لا يتحرّك إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له، فإذا جزمت المعرفة بأنّ الشيء موافق ولا بدّ وأن يفعل، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء والقدرة خادمة للإرادة، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة. فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل. فالمحرّك الأوّل هو الغرض المطلوب وهو الباعث،

والغرض الباعث هو المقصد المنوي، والانبعاث هو القصد والنية، انتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل، إلا أنّ انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملياً بإنهاض القدرة، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع؟ وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً. فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام: فلنذكر لكل واحد مثالاً واسماً.

أما الأوّل: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرّد، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضارّاً فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نيته للفرار من السبع لا نية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها «إخلاصاً» بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره ممازجته.

وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد. ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوّة كان كافياً في الحمل لو انفرد. ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرّد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرّد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب، في قضاء حاجته!، وفقير أجنبي فيرغب أيضاً فيه. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفه، وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأوّل. فلنسم هذا «مرافقة للبواعث».

والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكل قوي مجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهم به. ومثاله في غرضنا أن يقصد قريبه الغني فيطلب درهماً فلا يعطيه، ويقصده الاجنبي الفقير فيطلب درهماً فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر. وكذلك الرجل يتصدّق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرّد قصد الثواب بمجموعهما تحريك القلب. ولنسم هذا الجنس «مشاركة».

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل. ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإنّ ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه. ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله، وعلم أنّ عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرّد الرياء يحمله عليه، فهو شوب تطرّق إلى النية. ولنسم هذا الجنس «المعاونة».

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً. وسنذكر حكمها في باب الإخلاص. والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإنّ العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه. ولذلك قيل «إنما الأعمال بالنيات» لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع:

بيان سر قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله[1]».

اعلم أنه قد يظن أنّ سبب هذا الترجيح أنّ النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، والعمل ظاهر،

(١) حديث: «نية المؤمن خير من عمله» أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان، وكلاهما ضعيف.

ولعمل السر فضل. وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيراً من التفكر، وقد يظن أنّ سبب الترجيح أنّ النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف، لأن ذلك يرجع معناه إلى أنّ العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيراً من عمله. وقد يقال: إنّ معناه أنّ النية بمجرّدها خير من العمل بمجرّده دون النية، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلاً، والنية بمجرّدها خير؛ وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير، بل المعنى أنّ كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من حملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه: نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختياراً في النية وفي العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما؛ فهذا معناه.

وأما سبب كونها خيراً ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود. فمن قال: الخبز خير من الفاكهة، فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أنّ للغذاء مقصداً وهو الصحة والبقاء، وأنّ الأغذية مختلفة الآثار فيها، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محباً لله تعالى عارفاً بالله، ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له. فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة، ولن يتفرّغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرّغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له نافراً عن الشر مبغضاً له، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنّ سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما. وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإنّ المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها. فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفاً، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكيد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق. بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعاً فلا ضعيفاً، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون ذلك زجراً ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر بسبب وينقمع وينمحي. وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرّغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح، لأنّ بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون، إلا أنّ القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع. فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي

ﷺ: «إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد[1]». وقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم أصلح الراعي والرعية[2]». وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى: ﴿لن ينال لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ وهي صفة القلب. فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح. ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له.

وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر، فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود، وهذا كما أنّ المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة، فالشرب خير من طلاء الصدر لأنّ طلاء الصدر أيضاً إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة، فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع.

فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها، إذاً المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظنن أنّ في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإنّ من يجد في نفسه تواضعاً، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبله تأكد الرقة في قلبه، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً أصلاً لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانّ أنه يمسح ثوباً ـ لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلاً، فيقال: العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا. فهذا وجه كون النية خير من العمل.

وبهذا أيضاً يعرف معنى قوله ﷺ «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة». لأنّ هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيداً، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثاراً لوجه الله تعالى، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق: ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾. والتقوى ههنا صفة القلب؛ ولذلك قال ﷺ: «إنّ قوماً بالمدينة قد شركونا في جهادنا» ـ كما تقدّم ذكره ـ لأنّ قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات. وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة.

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أنّ الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصوّر إحصاؤه واستقصاؤه ـ فهي ثلاثة أقسام: معاص وطاعات ومباحات.

(القسم الأوّل) المعاصي، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات». فيظن أنّ المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب.

---

(١) حديث: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد» متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم

(٢) حديث: «اللهم أصلح الراعي والرعية» تقدم ولم أجده.

أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام؛ وقصده الخير. فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلمًا وعدواناً ومعصية. بل قصده الخير بالشر ـ على خلاف مقتضى الشرع ـ شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرٍ؟ هيهات، بل المروّج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى؛ فإنّ القلب إذا كان مائلاًإلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل! قيل: يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشدّ من الجهل؟ قال: نعم الجهل بالجهل. وهو كما قال، لأنّ الجهل بالجهل يسدّ بالكلية باب التعلم، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم! ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أنّ رأس الجهل: الجهل بالجهل. فإنّ من لا يعلم العلم النافع من العلم الضارّ اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم، والمقصود أنّ من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم. وقد قال الله سبحانه: ﴿فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وقال النبي ﷺ:«لا يعذر الجاهل على الجهل، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله، ولا للعالم أن يسكت على علمه[1]».

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس الحرام تقرّب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار؛ المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مباراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجري الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جمعية يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله ومف مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف نسة مثلاً وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث يقول: «إنما الأعمال بالنيات». وقد قصدت بذلك نشر علم الدين؛ فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير. وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه: وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعدّ له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده؛ ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى، فإن إعداد الخيل والرباط والقوّة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي. وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله ﷺ «إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من تقرّب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء[2]». فليت شعري لم حرم هذا السخاء؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمدّه بغيره؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى وقد يعاون به أعداء الله عزوجل وهو الهوى! فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز

---

(١) حديث: «لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله... الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله: «لا يعذر الجاهل على الجهل» وقال: «لا ينبغي» بدل «ولا يحل» وقد تقدم في العلم.

(٢) حديث: «إن لله ثلاثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء» تقدم في كتاب المحبة والشوق.

عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم، فلو رأوا منه تقصيراً في نفل النوافل أنكروه وتركوا إكرامه، وإذا رأوا منه فجوراً واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوّذ جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوّذوا من الفاجر الجاهل، حكي عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره، حتى قال. بلغني أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم. فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم. وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدّم على الأقران.

فإذن قوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات». يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً نعم للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها ـ كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة.

(القسم الثاني) الطاعات: وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل؛ فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل: فبكثرة النيات الحسنة فإنّ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها[(1)]. كما ورد به الخبر.

ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقرّبين. (أوّلها) أن يعتقد أنه بيت الله وأنّ داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله ﷺ حيث قال: «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور أن يكرم زائره[(2)]». (وثانيها) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى: ﴿ورابطوا﴾ (وثالثها) الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإنّ الاعتكاف كف ـ وهو في معنى الصوم ـ وهو نوع ترهب، ولذلك قال رسول الله ﷺ «رهبانية أمتي القعود في المساجد[(3)]». (ورابعها) عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد (وخامسها) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر «من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى [(4)]». (وسادسها) أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي

---

(١) حديث: تضعيف الحسنة بعشر أمثالها، تقدم.

(٢) حديث: «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدما في الصلاة.

(٣) حديث: «رهبانية أمتي العقود في المساجد» لم أجد له أصلاً.

(٤) حديث: «من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى» هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حاج تاماً حجه» وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته (وسابعها) أن يستفيد أخاً في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله (وثامنها) أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستظرفاً، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردي، أو يترك الذنوب خشية أو حياء.

فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمره له وتفكر فيه. فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات.

(القسم الثالث) المباحات: وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال ﷺ:«حلالها حساب وحرامها عقاب[1]». وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إنّ العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه[2]». وفي خبر آخر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة». فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية.

فإن قلت: فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله؟ فاعلم أنّ من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصوّر أن يقصد التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلاً للنظر إليهن، ولأمور أخرى لا تحصى. وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأوّل وهو التلذذ والتنعم فإنّ ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسأل عنه، ومن نوقش الحساب عذب. ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره، وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى. وأما النية الحسنة فإنه ينوي به اتباع سنة رسول الله ﷺ يوم الجمعة[3]». وينوي بذلك أيضاً تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسبب، فمن تعرّض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا   أن لا تفارقهم فالراحلون هم

(١) حديث: «حلالها حساب وحرامها عذاب» تقدم.

(٢) حديث معاذ: «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه» لم أجد له إسناداً.

(٣) حديث: «إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة» أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه... الحديث» ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته» وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين: أن عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة... الحديث».

وقال الله تعالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله. فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه. وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء.

والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه، ولهذا قال بعض العارفين من السلف: إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرّب إلى الله تعالى، لأنّ كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، فمن قصده من الأكل والتقوى على العبادة، ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد ﷺ كان مطيعاً بأكله ونكاحه، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة، ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوي ذلك بسكوته عن الجواب. ففي الخبر «إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول: يا رب هذه أعمال ما عملتها قط؟ فيقال؛ هذه أعمال الذي اغتابوك وآذوك وظلموك[1]». وفي الخبر «إنّ العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة. فتقول الملائكة: قد فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيئاتكم ثم صكوا له صكاً إلى النار[2]». وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحرز من غرورها وشرورها ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب فإنّ الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ وقال بعض السلف: كتبت كتاباً وأردت أن أتربه من حائط جار لي فتحرّجت ثم قلت: تراب وما تراب! فتربته فهتف بي هاتف: سيعلم من استخف بتراب جاره ما يلقى غداً من سوء الحساب. وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرّفهفمدّ يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه، فسأله عن ذلك فقال: إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله. وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله! فيقول: والله ما أعرفك؟ فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطاً من ثوبي!

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين، فإن كنت من أولي العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أوّلاً أنك لم تتحرك، وماذا تقصد، وما الذي تنال به من الدنيا، وما الذي يفوتك من الآخرة، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك، ثم راقب أيضاً قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدّ له من نية صحيحة، فلا ينبغي أن يكون

---

(١) حديث: «إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة... الحديث» وفيه: «هذه أعمال الذين اغتابوك... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوى مختصراً «أن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشراً فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعلمها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر» وفيه ابن لهيعة.

(٢) حديث: «إن العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال» وفيه: «ويأتي قد ظلم هذا وشتم هذا... الحديث» تقدم مع اختلاف.

الداعي هوى خفي لا يطلع عليه، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار.

فقد روي عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين، وكان أجيراً لقوم فقدّموا له رغيفاً ـ إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده ـ فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أنّ الخير في طلب المساعدة في الطعام، فقال: إني أعمل لقوم بالأجرة وقدّموا إلي الرغيف لأتقوّى به على عملهم، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله، فإنّ ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل، ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم: دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال: لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه. وقال سفيان: من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه. فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية، فإن لم تحضره النية توقف فإنّ النية لا تدخل تحت الاختيار.

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أنّ الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: نويت أن أدرّس لله أو آكل لله. ويظنّ ذلك نية وهيهات! فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل من جميع ذلك. وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أنّ فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً.

والميل إذ لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرّد الإرادة بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه وأعظمه بقلبي، فذلك محال. بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قدم عليه وقد لا يقدر عليه. وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها، ومالم يعتقد الإنسان أنّ غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده. وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال. فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح[1]. اتباعاً لرسول الله ﷺ يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي النكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه، وهو حديث محض ليس بنية. نعم طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوى أوّلاً إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحرّكه تلك الرغبة وتتحرّك أعضاؤه لمباشرة العقد، فإذا انتهضت القدرة المحرّكة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً، فإن لم يكن كذلك فما يقدّره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان.

وهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه

---

(١) حديث: «إن النكاح سنة رسول الله ﷺ» تقدم في آداب النكاح.

نية، حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نية. ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى، فقالت؛ أجيء بالمرآة؟ فسكت ساعة ثم قال: نعم، فقيل له في ذلك فقال: كان لي في المدرى نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى. ومات حماد بن سليمان ـ وكان أحد علماء أهل الكوفة ـ فقيل للثوري: ألا تشهد جنازته؟ فقال: لو كان لي نية لفعلت. وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر يقول: إن رزقني الله تعالى نية فعلت. وكان طاوس لا يحدّث إلا بنية، وكان يسأل أن يحدّث فلا يحدّث، ولا يسأل فيبتدىء! فقيل له في ذلك قال. أفتحبون أن أحدّث بغير نية؟ إذا حضرتني نية فعلت. وحكي أن داود بن المحبر لما صنف: كتاب العقل، جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحاً ورده فقال: مالك؟ قال: فيه أسانيد ضعاف، فقال له داود: أنا لم أخرجه على الأسانيد، فانظر فيه بعين العمل فانتفعت، قال أحمد: فرده علي حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال: جزاك الله خيراً فقد انتفعت به. وقيل لطاوس؛ ادع لنا! فقال: حتى أجد له نية. وقال بعضهم: أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد. وقال عيسى بن كثير: مشيت مع ميمون ابن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألا تعرض عليه العشاء؟ قال: ليس من نيتي.

وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية، وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه: نويت، بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى، فقد تتيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها. نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالباً. ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته. وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا، وهذه أعز النيات وأعلاها، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلاً عمن يتعاطاها. ونيات الناس في الطاعات أقسام: إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقي النار. ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة، وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه ـ كالأجير السوء ـ ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله. وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حباً لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة فإنهم لم يقصدوها، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين! بل أشدّ فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشدّ وأعظم كثيراً من الالتفات بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء بأنها لا تشعر به أصلاً ولا تلتفت اليه، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت اليهنّ ﴿ولا يزالون مختلفين ـ كل حزب بما لديهم فرحون ـ ولذلك خلقهم﴾. حكي أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عزوجل في المنام فقال له: كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني، ورأى أبو

يزيد ربه في المنام فقال: يارب كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال إلي. ورؤي الشبلي بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني على الدعاوي بالبرهان إلا على قول واحد: قلت يوماً أي خسارة أعظم من خسران الجنة؟ فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي:

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها. ومعرفة هذه الحقائق تورث اعماراً وأفعالاً لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء، فإنا نقول: من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات. وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار في الظلم، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل. ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوّى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له. بل لو مل العبادة لمواظبة عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة. قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق. وقال علي كرم الله وجهه: روّحوا القلوب فإنها إذا كرهت عميت. وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وإنما يبتغي به أن يعيد أوّلاً قوته ليحتمل المعالجة بالضدّ، والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً ليتوصل بذلك إلى الغلبة، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه. وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بي يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكرّ عليه فيقهره. فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على الطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكاراً على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حدّ بصيرته ومالا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأنّ يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق.

الباب الثاني: في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته.

فضيلة الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وقال: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ وقال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾ وقال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه وقال النبي ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله[1]». وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ظنّ أبي أنّ له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم[2]». وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي[3]». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا تهتموا لقلة العمل

---

(١) حديث: «ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله» أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير.

(٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه: أنه ظن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم» رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم».

(٣) حديث الحسن مرسلاً: «يقول الله تعالى الإخلاص سر استودعته قلب من أحببت من عبادي» رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من رواته: سألت فلاناً عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف.

واهتموا للقبول فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «أخلص العمل يجزك منه القليل[1]». وقال عليه السلام: «ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قبل على لسانه[2]». وقال عليه الصلاة والسلام: «أول من يُسأل يوم القيامة ثلاثة: رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول: يارب كنت أقوم اناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك. ورجل آتاه الله مالاً فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول: يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك. ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول، يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك. قال أبو هريرة، ثم خبط رسول الله ﷺ فخذي وقال: «يا أبا هريرة أولئك أوّل خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة[3]». فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال: صدق الله إذ قال: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ الآية

وفي الإسرائيليات أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إنّ ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة، قال: وما أنت وذاك! تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرّغت لغير ذلك! فقال: إنّ هذا من عبادتي، قال: فإني لا أتركك أن تقطعها، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك، فقام عنه فقال إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك! وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها! فقال العابد لا بدّ لي من قطعها، فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك، فأطلقه فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس! قال: نعم قال: فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتها فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدّقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها! فتفكر العابد فيما قال وقال: صدق الشيخ! لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً. فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة فقال: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها، قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أوّل مرة فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا غلبتني فخلّ عني وأخبرني كيف غلبتك أوّلاً وغلبتني الآن؟ فقال:

(١) حديث أنه قال لمعاذ: «أخلص العمل يجزك منه القليل» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع.

(٢) حديث: «ما من عبد يخلص لله أربعين يوماً» أخرجه ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم.

(٣) حديث: «أول من يسال يوم القيامة ثلاثة: رجل آتاه الله العلم... الحديث» وقد تقدم.

لأنك غضبت أوّل مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك، وهذه المرّة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك.

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلصي تتخلصي. وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته. وقال سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السختياني، تخليص النيات على العمال أشدّ عليهم من جميع الأعمال. وكان مطرف يقول: من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه. وروؤي بعضهم في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك فقال: كل شيء عملته لله وجدته، حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرّة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثواباً فقلت: موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها؟ فقيل لي: إنه قد وجه حيث بعثت به، فإنه لما قيل لك: قد مات، قلت، في لعنه الله، فبطل أجرك فيه، ولو قلت: في سبيل الله، ولوجدته في حسناتك. وفي رواية قال: وكنت قد تصدّقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي فوجدت ذلك لا علي ولا لي. قال سفيان: لما سمع هذا، ما أحسن حاله؟ إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه. وقال يحيى بن معاذ، الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم. وقيل: كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم، فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعاه الله تعالى بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا: أن أطلقوا الحرّة فقد وجدنا الدرّة. وقال بعض الصوفية: كنت قائمًا مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارّه بشيء فقال أبو عبيد: لا، فمرّ كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني، فقلت لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألني أن أحج معه، قلت: لا، قلت: فهلا فعلت؟ قال: ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرّضت لمقت الله تعالى، لأني أدخل في عمل الله شيئاً غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة. ويروى عن بعضهم قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت أشتريها فأنتفع بها في غزوي فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأنّ شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملي عليه، خرج فلان متنزهاً وفلان مرائياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلي وقال: اكتب فلان خرج تاجراً، فقلت الله الله في أمري! ما خرجت أُتجر وما معي تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو، فقال: يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجراً فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى؟ فقال: اكتب خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عزوجل فيه بما يرى. وقال سري السقطي رحمه الله تعالى: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمائة بعلو وقال بعضهم: إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً، أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها. وقال السوسي: مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط. وقال الجنيد: إنّ لله عباداً عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع. وقال محمد بن سعيد المروزي: الأمر كله يرجع إلى أصلين: فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل. فإذن أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين.

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أنّ كل شيء يتصوّر أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا، ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصاً. قال الله تعالى: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضادّه الإشراك. فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده الشريك في الإلهية. والشرك ـ منه خفي ومنه جلي وكذا الإخلاص. والإخلاص وضدّه يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات. وقد ذكر حقيقة النية أنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص. ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ـ ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات ـ وأقل أموره ما ورد في الخبر من «إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسام: يامرائي يا مخادع يا مشرك يا كافر[1]».

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب. أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدّو له في منزله، أو يتبرم بأهله وولده، أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياماً. أو ليغزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها. أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله. أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة، أو ليكون عقاره أو ماله محروساً بعز العلم عن الأطماع. أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث. أو تكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس، أو لينال به رفقاً في الدنيا, أو كتب مصحفاً ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطه. أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء . أو توضأ ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته. أو روى الحديث ليعرف بعلوّ الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخف كراء المسكن. أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرّغ لأشغاله فل يشغله الأكل عنها. أو تصدّق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه. أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض. أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عنحدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك. وقد قال تعالى: «أنا أغني الشركاء عن الشركة». وبالجملة، كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب ـ قل أم كثر ـ إذا تطرق إلى العمل تكدّر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس. فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا, وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلاّ طلب القرب من الله تعالى. وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدّة الأمر على صاحبه فيها،

---

(١) حديث: «إن المرائي يدعى يوم القيامة: يا مرائي يا مخادع. . . الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والإخلاص وقد تقدم.

وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة - كما سبق في النية - وبالجملة؛ فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر - كما سنذكره - وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها - قليلها وكثيرها - حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه. وهذا لا يتصوّر إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى. فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلاً حتى يريح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همة وصارت إخلاصاً؛ فالذي يغلب على نفسه: الدنيا والعلوّ والرياسة - وبالجملة غير الله - فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً. فإذن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرّد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص. وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظنّ أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرور لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكي عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأوّل لأني تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أنّ نظر الناس إلي في الصف الأوّل كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر. وهذه دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ وبقوله تعالى: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ . وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره. ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده. وليت شعري لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدي أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محموداً أو مذموماً؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموماً، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر. فما بال العلماء لا يفرحون بمثل لذلك؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد. وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها، فمعرفة حقيقة

الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص. وما ذكره إشاره ألى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب؛ وهو من جملة الآفات. والخالص: ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعرّض لآفة واحدة وقال سهل رحمه الله تعالى: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله تعالى. وقيل لسهل: أي شيء أشدّ على النفس؟ فقال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم: الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين. وهذا إشارة إلى أنّ حظوظ النفس آفة آجلاً وعاجلاً. والعابد لأجل التنعم بالشهوات في الجنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصدّيقين وهو الإخلاص المطلق. فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط، وهو القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية، ومن ادعى ذلك فهو كافر. وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدّعي البراءة من الحظوظ وقال: هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظاً، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط. فأما التلذذ بمجرّد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، وهذا لا يعدّو الناس حظاً بل يتعجبون منه. وهؤلاء لو عوّضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية سراً وجهراً جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه؛ فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره. وقال أبو عثمان: الإخلاص نسيان رؤية الخلق في دوام النظر إلى الخالق فقط. وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط؛ ولذلك قال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه؛ فإنه إشارة إلى مجرّد الإخفاء. وقد قيل: الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق. وهذا أجمع للمقاصد. وقال المجالسي: الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب. وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء. وكذلك قول الخوّاص: من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية. وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما الخالص من الأعمال؟ فقال: الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد. وهذا أيضاً تعرّض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوّشة للإخلاص. وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات. وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها. وهذا هو البيان الكامل والأقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة.

وإنما البيان الشافي بيان سيد الأوّلين والآخرين ﷺ إذ سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت[1]». أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقاً.

---

(١) حديث: سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول: ربي الله ثم تستقيم كما أمرت» لم أره بهذا اللفظ وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال: «قل ربي الله ثم استقم» وهو عند مسلم بلفظ: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوّشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال. وأظهر مشوّشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالاً.

فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته؛ ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك! فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته؛ وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمرّ في صلاته كما كان. فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة! وهذا أغمض من الأوّل وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأوّل، وهو أيضاً عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؟ فهذا محض التلبيس، بل المقتدي به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما هذه فمحض النفاق والتلبيس، فما اقتدى به أقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها؛ أن يجرّب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضاً كذلك. فهذا أيضاً من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد فرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق. بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة. فكأنّ نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلا والملأ وهيهات! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملأ جميعاً، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملأ والخلا جميعاً، وهذا من المكايد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى؛ أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أنّ ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمة في الخلوة ولكان لا يختص حضورها تجاه حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سبباً فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفي في قلب ابن آدم من دبيب النملة

السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء[1]. كما ورد في الخبر، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإنّ هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حدّ الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص، بل من يتعكف مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه للطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الإعتكاف، وقد يكون المحرّك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة السمجد واستراحة الطبع إليه، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة. فمنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه. ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير. وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيراً. ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموّه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضية الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغرّ الغبي. فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم. ومداخل الآفات المتطرّفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالاً، والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضاً فلا فائدة في التفضيل.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أنّ العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أنّ ذلك هل يقتضي عقاباً أم لا يقتضي شيئاً أصلاً فلا يكون له ولا عليه؟ أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعاً وهو سبب المقت والعقاب. وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له[2]. وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه. والذي ينقدح لما فيه والعلم عند الله ـ أن ينظر إلى قدر قوّة الباعث. فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب. نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب. وإن كان قصد التقرّب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ ولقوله تعالى: ﴿إنّ الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾ فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء هبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد.

---

(١) حديث: «الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة» تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء.

(٢) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال: وليس تخلو الأخبار عن تعارض رواه أبو داود من حديث أبي هريرة: أن رجلاً قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ «لا أجر له... الحديث» وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال: «لا شيء له» فأعادها ـ ثلاث مرات ـ يقول «لا شيء له» ثم قال «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه» وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال «له أجران أجر السر وأجر العلانية» وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

وكشف الغطاء عن هذا أنّ الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها. فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوّته العمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها. فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوّى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرّب فقد قوّى أيضاً تلك الصفة، وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدب تقوية الآخر فقد تقاوما. فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوّته، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن أثر، فكما لا يضيع مثقال ذرّة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرّة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده، فإذا جاء بما يقرّبه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه، وإن كان الفعل مما يقرّبه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لا محالة شبر، وقد قال النبي ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها[١]». فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بدّ وأن يتدافعا بالضرورة. ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. نعم يمكن أن يقال: إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة. ولكن الصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرّك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما. وعندي: أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها، ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم. بل العدل أن يقال: إذ كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة.

فإن قلت؛ فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف ـ أو قال يتصدّق فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا[٢]﴾. وقد قصد الأجر والحمد جميعاً وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «أدنى الرياء شرك[٣]». وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ «يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له[٤]». وروي عن عبادة:«أن الله عزوجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة من عمل لي عملاً فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي». وروى أبو موسى أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه فأيهم في سبيل الله فقال ﷺ:«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[٥]». وقال عمر رضي الله عنه: تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قدملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ «من هاجر يبتغي شيئاً من

---

(١) حديث: «اتبع السيئة الحسنة تمحها» تقدم في رياضة النفس وفي التوبة.

(٢) حديث طاوس وعدة من التابعين: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف ـ أو قال يتصدق ـ فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم ونحوه من رواية طاوس مرسلاً وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

(٣) حديث معاذ: «أدنى الرياء شرك» أخرجه الطبراني والحاكم وتقدم.

(٤) حديث أبي هريرة: «يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له» تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة: «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه» وفي رواية مالك في الموطأ «فهو له كله».

(٥) حديث أبي موسى: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» تقدم فيه.

الدنيا فهو له[1]»؟ فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا». وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها، وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة أبداً في خطر فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاً ولذلك قال تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾. أي لا يرجي اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط، ويجوز أن يقال أيضاً: منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص في الغزو. وبعيد أن يقال: من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرّد الغزو ـ وإن لم يكن غنيمة ـ وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء ـ لإعلاء كلمة الله وللغنيمة ـ لا ثواب له على غزوه البتة، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فأما أن يكون في إحباطه فلا. نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظنّ أن الباعث الأقوى هو قصد التقرّب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفي غاية الخفاء. فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد متردداً بين الرد والقبول خائفاً أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها. وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة. ولذلك قال سفيان رحمه الله: لا أعتدّ بما ظهر من عملي. وقال عبد العزيز بن أبي روّاد. جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله، ليته لا لي ولا علي. ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص. ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً. وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز وكيف في أعماله فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوماً ـ يريد إخلاص الحركات ـ فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركه ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها، فقال أبو سعيد: لا تفعل إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل؟ وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

الباب الثالث: في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾. وقال النبي ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً[2]». ويكفي في فضيلة الصدق أنالصدّيق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً﴾. وقال ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ وقال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب

---

(١) حديث ابن مسعود: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له» تقدم في الباب الذي قبله.

(٢) حديث: «إن الصدق يهدي إلى البر. . . الحديث» متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ وقال ابن عباس: أربع من كنّ فيه فقد ربح؛ الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحارث: من عامل الله بالصدق استوحش من الناس. وقال أبو عبد الله الرملي رأيت منصوراً الدينوري في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأعطاني مالم أؤمل، فقلت له: أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا؟ قال: الصدق وأقبح ما توجه به الكذب. وقال أبو سليمان: اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك. وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقاً! فقال له: لو كنت صادقاً لعرفت الصادقين. وعن محمد بن علي الكتاني قال: وجدنابين الله تعالى مبنياً على ثلاثة أركان؛ على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول. وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾ قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته. وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة، فقال الشبلي: إن كان صادقاً فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذباًفالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم؛ أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ـ ولا يتم بعضها إلا ببعض ـ الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال، وطيب المطعم. وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها: لا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفى من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أخزى من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق، ولا داء أوجع من الخرق، ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غني أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت. وقال محمد بن سعيد المروزي: إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة. وقال أبو بكر الورّاق: احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق. وقيل لذي النون: هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال:

قد بقينا من الذنوب حيارى ... نطلب الصدق ما إليه سبيل
فدعاوي الهوى تخف علينا ... وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل: ما أصلُ هذا الأمر الذي نحن عليه؟ فقال: الصدق والسخاء والشجاعة. فقيل: زدنا، فقال: التقى والحياء وطيب الغذاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ سئل عن الكمال فقال: «قول الحق والعمل بالصدق[1]». وعن الجنيد في قوله تعالى: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضاً على درجات فمن كان له حظ في

(١) حديث ابن عباس: سئل عن الكمال فقال: قول الحق والعمل بالصدق. لم أجده بهذا اللفظ.

الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه. (الصدق الأول) صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان:

(أحدهما) الاحتراز عن المعاريض؛ فقد قيل: في المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أنّ ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن إطلاعهم على أسرار الملك، فمن اضطرّ إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره والحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهمًا غير ما هو عليه، لأنّ الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً، كان رسول الله ﷺ «إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره[1]». وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد، وليس هذا من الكذب في شيء، قال رسول الله ﷺ «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو أنمى خيراً[2]». ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين أثنين، ومن كان له زوجتان، ومن كان في مصالح الحرب. والصدق هٰهنا يتحوّل إلى النية فلا يراعي فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجرّدت للخبر إرادته صار صادقاً وصِديقاً كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى. وطريقه ما حكي عن بعضهم، أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته: خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدق وأفهم الظالم أنه ليس في الدار. فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضاً إلا عند الضرورة (والكمال الثاني) أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله: ﴿وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾ فإنّ قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب. وكقوله؛ ﴿إياك نعبد﴾ وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز تحقيقه فإنه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله. وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا! وقال نبينا ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة[3]». فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له.

وإنما العبد الحق ـ لله عزوجل ـ من أعتق أوّلا من غير الله تعالى فصارحرّاً مطلقاً، فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغاً فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرّية هو أن يعتق أيضاً عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى. وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرّاً، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرّاً. وصار مفقوداً لنفسه موجوداً لسيده ومولاه إن حرّكه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضي، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض، بل هو بين يدي الله كالميت

---

(١) حديث: كان إذا أراد سفراً ورى بغيره: متفق عليه من حديث كعب بن مالك.

(٢) حديث: «ليس بكاذب من أصلح بين الناس. . . الحديث» متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم

(٣) حديث: «تعس عبد الدينار. . . الحديث» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى. فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصدّيقين. وأما الحرّية عن غير الله فدرجات الصادقين، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقاً ولا صديقاً: فهذا هو معنى الصدق في القول.

(الصدق الثاني) في النية والإرادة! ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً ـ كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يُسأل العالم ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم[1]. ـ فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته. وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد. وكذلك قول الله تعالى: ﴿والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾ وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرّق إلى الخبر. وهذا القول يتضمن إخباراً بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما فيه قلبه، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلا بدّ وأن يكون مخلصاً.

(الصدق الثالث) صدق العزم؛ فإن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه. إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه ـ أو بشطره، أو إن لقيت عدّواً في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال: لفلان شهوة صادقة. ويقال: هذا المريض شهوته كاذبة، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى. والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد: بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فإنه قد وجد في نفسه العزم الجازم، والمحبة الصادق بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

ومراتب الصدّيقين في العزائم تختلف؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدّم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه، بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبي بكر الصديق.

(الصدق الرابع) في الوفاء بالعزم، فإنّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ فقد روي عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع! قال: فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة! إني أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا بثيابه، فنزلت هذه الآية ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه[2]﴾. ووقف

---

(١) حديث الثلاثة: حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت... الحديث. تقدم.

(٢) حديث أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ... الحديث. في قتاله بأحد حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول ﴿رجال صدقوا﴾ الآية أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى وهو عند البخاري مختصراً أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر.

رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير ـ وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيداً وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومهم من ينتظر[٢]﴾. وقال فضالة بن عبيد: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا «ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ـ قال الراوي: فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ ـ «ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدوّ فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عابر فقتله فهو في الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً، وآخر سيئاً لقي العدّو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة، ورجل أسرف على نفسه لقي العدوّ فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة[٣]». وقال مجاهد: رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالاً لنتصدّقن فبخلوا به فنزلت ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين﴾ وقال بعضهم: إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضلة بخلوا به وتولو ا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ فجعل العزم عهداً وجعل الخلف فيه كذباً والوفاء به صدقاً. وهذا الصدق أشدّ من الصدق الثالث، فإنّ الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدّته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسوّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها. أشار بذلك إلى شدّة الوفاء بالعزم. وقال أبو سعيد الخرّاز: رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد، فقالا لي: صدقت، وعرجا إلى السماء.

(الصدق الخامس) في الأعمال، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره. ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذباً في دلالة الظاهر على الباطن.

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق.

ولذلك قال رسول الله ﷺ «اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي واجعل علانيتي صالحة[١]». وقال يزيد بن الحارث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف، وإن كات سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور. وأنشدوا:

---

(١) حديث: وقف على معصب بن عمير وقد سقط على وجهه بوم أحد وقرأ هذه الآية. أخرجه أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلاً.

(٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان. . . الحديث» أخرجه الترمذي وقال حسن.

(٣) حديث: «أللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي. . . الحديث» تقدم ولم أجده.

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى   فقد عزّ في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سراً فما له   على سعيه فضل سوى الكدّ والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافق   ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا

وقال عطية بن عبد الغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدي حقاً. وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكاء بالليل بسام بالنهار. وقال عبد الواحد بن زيد؛ كان الحسن إذ أمر بشيء كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه. وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول: إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ـ ويبكي. وقال أبو يعقوب النهرجوري: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية.

فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدقه.

(الصدق السادس) وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه، كما يقال: فلان صدق القتال. ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة. وقال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ إلى قوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ وقال تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾ إلى قوله: ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ وسئل أبو ذرّ عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له: سألناك عن الإيمان؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية[1].

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف، سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره ، حتى لا ينتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه ولذلك قال ﷺ «لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها[2]». فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي سمي صادقاً فيه. فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها ولذلك قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام «أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك». فقال لا تطيق ذلك قال «بل أرني». فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي ﷺ فإذا هو به قد سدّ الأفق ـ يعني جوانب السماء ـ فوقع النبي ﷺ مغشياً عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى، فقال النبي ﷺ «ما ظننت أن أحداً من خلق الله هكذا». قال: وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع[3]. يعني كالعصفور الصغير، فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم. وقال جابر قال رسول

---

(١) حديث أبي ذر: سألته عن الإيمان فقرأ قوله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾ إلى قوله ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له إسناداً.

(٢) حديث: «لم أر مثل النار نام هاربها. . . الحديث» تقدم.

(٣) حديث: قال لجبريل «أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك» فقال: لا تطيق ذلك. . . الحديث. تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا، والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين.

الله ﷺ:«مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله تعالى[1]». يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير، وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله ﷺ ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى في دين الله. وقال مطرف: ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه أن بعض الحمق أهون من بعض وقال النبي ﷺ:«لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير[2]». فالصادق إذن في أميع هذه المقامات عزيز. ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً. قال سعد بن معاذ: ثلاثة أنا فيهنّ قوي وفيما سواهن ضعيف؛ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدّثت نفس حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدّثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها، وما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق، فقال ابن المسيب: ما ظننت أنّ هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام. فهذا صدق في هذه الأمور، وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ؟ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه. والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرّض إلا لآحاد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الورّاق: الصدق التوحيد، وصدق الطاعة، وصدق المعرفة. فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون﴾ وصدق الطاعة لأهل العلم والورع، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض ـ وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام ـ وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى: ﴿هو اجتباكم﴾ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه، فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبيباً، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلقي خذلته ولا أبالي. فإذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً وكراهة اطلاع الخلق عليها.

تم كتاب الصدق والإخلاص، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة، والحمد لله.

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة لما اجترحت، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت، الذي لا يغرب عن علمه مثقال ذرّة في السمٰوات والأرض تحرّكت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت المتطول بالعفو عن من معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدّمت وأخرت، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت،

---

(١) حديث: «مررت ليلة أسري بي وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله... الحديث» أخرجه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطارد وهذا مرسل.

(٢) حديث: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير» لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع.

فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت، واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت، وبيمن توفيقة تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت، وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت، فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء.

أما بعد؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾وقال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾ وقال تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾ وقال تعالى: ﴿ثم توفى كل نفس أنّ بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه﴾ وقال تعالى: ﴿واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ فرابطوا أنفسه أوّلا بالمشارطة ، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة. ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، ولا بدّ من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

المقام الأوّل من المرابطة: المشارطة

اعلم أنّ مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أنّ التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطالبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله، وكما أنّ الشريك يصير خصمًا منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أوّلاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أوّلاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجوّ وانفرد بالمال. ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء، ولا خير في خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائمًا وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائمًا

وقد انقضى الخير. ولذلك قيل:

أشدّ الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فختم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها. فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل. فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أنّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته. فيقول للنفس: مالي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم علي به ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم فإنّ كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمي يا نفس أنّ اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار. ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه[1]». وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبناً. وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار. وقد قال بعضهم: هب أنّ المسيء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾ فهذه وصيته لنفسه في أوقاته.

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة. وإنّ لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها (أما العين) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه، فإنّ الله تعالى يسأل عباده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن (أما اللسان) فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك ـ مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك

(١) حديث: «ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فتفتح له منها خزانة فيراها مملوءة من حسناته. . . ». الحديث بطوله لم أجد له أصلاً.

كله ـ مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرّك اللسان طول النهار إلا في الذكر: فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة و ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (وأما البطن) فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة. ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها. وهكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء. واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرّر عليه في اليوم والليلة، ثم النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها. وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذ تعوّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه في ذلك حق. ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرّد: فإن النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها: ﴿ وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين﴾ فهذا وما يجري مجراه هو أوّل مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل. والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى: ﴿واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ وهذا للمستقبل. وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة. فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهاً للاحتراز منه في المستقبل. وروى عبادة بن الصامت: أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانته عنه[1]». وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان؛ إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أو الندامة. وروى شدّاد بن أوس عنه ﷺ أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله[2]». دان نفسه: أي حاسبها. ويوم الدين: يوم الحساب. وقوله: ﴿أئنا لمدينون﴾ أي لمحاسبون. وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيؤوا للعرض الأكبر. وكتب إلى أبي موسى الأشعري: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدّة. وقال لكعب: كيف تجدها في كتاب الله؟ قال: ويل لديان الأرض من ديان السماء؛ فعلاه بالدرّة وقال: إلا من حاسب نفسه، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه. وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال: من دان نفسه يعمل لما بعد الموت. ومعناه: وزن الأمور أوّلاً وقدّرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها.

المرابطة الثانية: المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال

---

(١) حديث عبادة بن الصامت: «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته. . . الحديث» تقدم.

(٢) حديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. . . الحديث» تقدم.

وملاحظاتها بالعين الكالئة فإنها إن تركت طغت وفسدت. ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.

(أما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه[1]». وقال عليه السلام: «أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[2]». وقد قال تعالى: «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ وقال تعالى: ﴿ألم يعلم بأنّ الله يرى﴾ وقال الله تعالى: ﴿إنّ الله كان عليكم رقيبا﴾ وقال تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى؛ فسأله عن تفسيره فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عزوجل، وقال عبد الواحد بن زيد: إذا كان سيدي رقيباً علي فلا أبالي بغيره. وقال أبو عثمان المغربي: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الجريري: أمرنا هذا مبني على أصلين؛ أن تلزم نفسك المراقبة لله عزوجل ويكون العلم على ظاهرك قائمًا.
وقال أبو عثمان: قال لي أبو حفص، إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك ولا يغرّنك اجتماعها عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك. وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدّمه فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدّة طيور وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً ورجع الشاب والطائر حي في يده، فقال: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال: لم أجد موضعاً لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع علي في كل مكان، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرم. وحكي أنّ زليخا لما سمعت يوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: مالك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار! وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له: ألا تستحي؟ فقال: ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكبها؟ وقال الجنيد بم أستعين على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه. وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عزوجل. وعن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة، قيل له: ومن يسكنها؟ قال: يقول الله عزوجل وإنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب. وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أوّلها علم القلب بقرب الله تعالى. وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة.
ويروى أنّ الله تعالى قال لملائكته: أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن. وقال محمد بن علي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه. وقال سهل: لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأنّ الله شاهده حيث كان. وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ فقال معناه: ذلك لمن راقب ربه عزوجل وحاسب نفسه وتزوّد لمعاده وسئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب

---

(١) حديث: سأل جبريل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه» متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم.
(٢) حديث: «اعبد الله كأنك تراه... الحديث» تقدم.

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غداً للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظنّ أنه لا يراك فلقد كفرت. وقال سفيان الثوري عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة. وقال فرقد السنجي إنّ المنافق ينظر فإذا لم ير أحد دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى. وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرجنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له يا راعي بعني شاة من هذه الغنم، فقال إني مملوك، فقال قل لسيدك أكلها الذئب؟ قال فأين الله؟ قال: فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلاناً ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب. أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه. وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً ـ أعني أنها خلت عن الشك ـ ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته؛ فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين.

(الدرجة الأولى) مراقبة المقربين من الصديقين؛ وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب. أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد. بل يسدّد الرعية من ملك كلبة الراعي، والقلب هو الراعي، فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف، وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم. ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه، حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني. ولا تستبعد هذ: فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدّة استغراقهم بهم، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له. وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة! فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام، فقال له عبد الواحد بن زيد: من أين جئت يا عتبة؟ فقال من موضع كذا ـ وكان طريقه على السوق ـ فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحداً. ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام: أنه مرّ بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جداراً. وحكي عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة

يترامون وواحد جالس بعيداً منهم، فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى! فقلت وحدك؟ فقال: معي ربي وملكاي! فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال: أكثر خلقك شاغل عنك. فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه. فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرّك إلا بما هو فيه. ودخل الشبلي على أبي الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرّك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرّك لها شعرة. وقال أبو عبد الله بن خفيف: خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري ـ المعروف بالزاهد في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما؟ فدخلت صبراً وأنا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شيء، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله إلا رددتما علي السلام! فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلي وقال: يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير، يا ابن خفيف: ما أقل شغلك حتى تتفرّغ إلى لقائنا: قال: فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي، فلما كان وقت العصر قلت: عظني! فرفع رأسه إلي وقال: يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا ـ فلما كان اليوم الثالث قلت في سري: أحلفهما أن يعظاني لعلي أن أنتفع عظهما، فرفع الشاب رأسه وقال لي: يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله، والسلام؛ قم عنا! فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

(الدرجة الثانية) مراقبة الورعين من أصحاب اليمين؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة. نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك، لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء، فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك. وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به، لا حياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى.

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل (أما قبل العمل) فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوّة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته. وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه، فإن في الخبر: إنه ينشر للعبد في

كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل؛ لم؟ والثاني كيف؟ والثالث: لمن؟[1] ومعنى «لم» أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلت هذا، فإن لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظنّ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له. لمن عملت ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك «لا إله إلا الله». فيكون أجرك على الله؟ أو لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا؟ أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك؟ وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعتني أقول: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إنّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه﴾ ويحك أما سمعتني أقول: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً، فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت، ولا يحرّك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل. وقد قال النبي ﷺ لمعاذ «إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه[2]». وقال الحسن، كان أحدهم إذا أراد أن يتصدّق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه. وقال الحسن: رحم الله تعالى عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر. وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان «اتق الله عند همك إذا هممت[3]». وقال محمد بن علي: إنّ المؤمن وقاف متأنّ يقف عند همه ليس كحاطب ليل. فهذا هو النظرالأوّل في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقة بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان. فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوّه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته، فلا يسلم في هذه المراقبة. بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولا تظنن أنّ الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات! بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقي ذلك، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه؟ فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة ،فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران. فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به، فإنّ الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأوّل وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه. ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين، وليفرّ من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشدّ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي. فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدّة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى، فإن مستضاء أنوار

---

(١) حديث: «ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الأول لم. والثاني كيف. والثالث لمن» لم أقف له على أصل.

(٢) حديث: قال لمعاذ «إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه... الحديث» تقدم في الذي قبله.

(٣) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن: اتق الله عند همك إذا هممت. أخرجه أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم.

القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدّوها وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا؟ فلتكن همة المريد أوّلاً في أحكام العلم، أو في طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها. وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات[1]». جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات. ولذلك قال عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً[2]». فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الآدمي به حتى يعمد إلى محوه ومحقة بمقارفة الذنوب، ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار، فإنّ الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات وقالوا هذه هو الفقه، وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجرّدوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرّغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه. وفي الخبر «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت[3]». ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم. فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذ قال «فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم[4]﴾. وقوله عليه السلام: «إياكم والظن فإنّ الظن أكذب الحديث[5]». وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه. ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصدّيق رضي الله تعالى عنه: اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه، ولا تجعله متشابهاً علي فأتبع الهوى وقال عيسى عليه السلام: «الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه[6]». وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم[7]». فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتناناً على عبده: ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ وأراد به العلم وقال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وقال تعالى: ﴿إنّ علينا للهدى﴾ وقال: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ وقال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾.

وقال علي كرم الله وجهه: الهوى شريك العمى، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة، ونعم طارد الهم اليقين، وعاقبة الكذب الندم، وفي الصدق السلامة، رب بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبيب، والصديق من صدق عيبه، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن، نعم الخلق التكرم، والحياء سبب إلى كل جميل، وأوثق العرا التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك، والرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك، وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك، واستدل على ما لم يكن بما كان فإنما الأمور أشباه، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً وما فاتك منها فلا تتبعه

---

(١) حديث: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات... الحديث» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور.

(٢) حديث: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً» تقدم ولم أجده.

(٣) حديث: «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت» لم أجده.

(٤) حديث: «فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً. الحديث» تقدم.

(٥) حديث: «إياكم والظن... الحديث» تقدم.

(٦) حديث: «قال عيسى الأمور ثلاثة... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٧) حديث: «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم» لم أجده.

نفسك أسفاً، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت.
وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله: «ومن التوفيق التوقف عند الحيرة». فإذن النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهي لله أم للهوى؟ وقد قال ﷺ:«ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومه لائم، ولا يرائي بشيء من عمله، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا[1]». وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ﷺ:«من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه[2]».

النظر الثاني للمرقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه، وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب. فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ:«خير المجالس ما استقبل به القبلة[3]». ولا يجلس متربعاً إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: جلست مرة متربعاً فسمعت هاتفاً يقول: هكذا تجالس الملوك؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعاً وإن كان ينام. فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة ـ مع سائر الآداب التي ذكرناها في موضعها ـ فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة.

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعته، أو في معصية أو في مباح.

فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات.

وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر.

وإن كان مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بدّ له من الصبر عليها ونعمة لا بدّ له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة. بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى،ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته. ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإنّ من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾.

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإنّ الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية. وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها؟ وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه. فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى. ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة، و تكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام: «لا يكون المؤمن

---

(١) حديث: «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٢) حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» تقدم.

(٣) حديث: «خير المجالس ما استقبل به القبلة» أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم.

ظاعناً إلا في ثلاث: تزود لماء أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم[1]». وما روي عنه أيضاً في معناه «وعلى العاقل أن تكون له أربعة ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب[2]». فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات. ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب مالو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح. والناس فيه أقسام:

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه، وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ـ كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر ـ وهذا مقام ذوي الألباب.

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسم مقهورين فيه مسخرين لشهواته، وهذا مقام الزاهدين.

وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم لسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جداً.

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته، ويذمون منه مالا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى، وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن فقد ذم الله، ولذلك قال النبي ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر[3]». فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتسال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول.

المرابطة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل. ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة: فقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد﴾. وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا، وفي الخبر: أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال: «أمستوص أنت؟». فقال نعم، قال: «إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غياً فانته عنه». وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه. وقال تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه. وقد قال ﷺ: «إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة[4]». وقال تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ وعن عمر رضي الله عنه؛ أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنّ الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم؟ وعن ميمون بن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه

---

(١) حديث أبي ذر: «لا يكون المؤمن ظاعناً إلاّ في ثلاث: تزود لمعاد. . . الحديث» أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه ﷺ قال إنه في صحف موسى وقد تقدم.

(٢) حديث: «وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي بها ربه. . . الحديث» وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله.

(٣) حديث: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٤) حديث: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة» تقدم غير مرة.

أشدّ من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل. وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت: ما أحد من الناس أحب إلي من عمر، ثم قال لها كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز علي من عمر. فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها! وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته ـ فتدبر ذلك ـ فجعل حائطه صدقة لله تعالى، ندماً ورجاء للعوض مما فاته[1]».

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال أردت أن أجرّب نفسي هل تنكره؟ وقال الحسن: المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامةعلى قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك! وهذا حساب قبل العمل، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لها أبداً إن شاء الله! وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول ـ وبيني وبينه جدار ـ وهو في الحائط؛ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوَّامة﴾ قال: لا يلقي المؤمن إلا يعاتب نفسه؛ ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: رحم الله عبداً قال لنفسه؛ ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً. وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه، وقال ميمون بن مهران: التقي أشدّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريكك شيح. وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها. ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي يا نفسي أي شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً! قلت: فأنت في الأمنية فاعملي. وقال مالك بن دينار: سمعت الحجاج يخطب وهو يقول؛ رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله، رحم الله امرأ نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكاني. وحكي صاحب للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل، الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أنّ العبد كما يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ـ كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدينا، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته! ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟ ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك. ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أوّلاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه

---

(١) حديث أبي طلحة: حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة. تقدم غير مرة.

ورغبها في مثلها، وإنّ فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرّط ـ كما يصنع التاجر بشريكه ـ وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خدّاعة ملبسة مكارة، فليطالبها أوّلاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لم سكت؟ وعن سكونه لم سكن؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس. وصح عنده قدر أدى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه.

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون. أما بعضها: فبالغرامة والضمان، وبعضها: برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء. ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ـ كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقة وكان محاسباً لنفسه؛ فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خرّ مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى! فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة؛ ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مدّة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك ﴿أحصاه الله ونسوه﴾.

المرابطة الرابعة

في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع. وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته. هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روي عن منصور بن إبراهيم: أن رجلاً من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست. وروي أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث كذلك زماناً طويلاً فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال: ما هذا الذي أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات! رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود في صومعتي لا يكون والله ذلك أبداً! فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت؛ فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره. ويحكى عن الجنيد قال: سمعت ابن الكريبي يقول: أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة، فوجدت في نفسي تأخراً وتقصيراً فحدّثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت: واعجباً أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له عليَّ حق فلا أجد في المسارعة وأجد الوقوف والتأخر! آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه! وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس، ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهما

فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال: إنك للحاظة إلى ما يضرك. ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: لا تسألني عما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة فصامها. وقال مالك بن ضيغم: جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا: إنه نائم، فقال: أنوم هذه الساعة! هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له: ألا نوقظه لك! فجاء الرسول وقال: هو أشغل من أن يفهم عني شيئاً، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول: أقلت وقت نوم هذه الساعة؟ أفكان هذا عليك؟ ينام الرجل متى شاء! وما يدريك أنّ هذا ليس وقت نوم؟ تتكلمين بما لا تعلمين؟ أما إن لله علي عهداً لا أنقضه أبداً! لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل، سوأة لك أما تستحين! كم توبخين؟ وعن غيك لاتنتهين؟ قال: وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته. ويحكى عن تميم الداري: أنه نام ليلة لم يقم فيها بتهجد؛ فقام سنة لم ينم فيها، عقوبة للذي صنع. وعن طلحة رضي الله تعالى عنه قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه: ذوقي! ونار جهنم أشدّا حرّاً! أجيفة بالليل بطالة بالنهار؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي! فقال له النبي ﷺ: «ألم يكن لك بدّ من الذي صنعت أما لقد فتحت لك أبوب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة». ثم قال لأصحابه «تزوّدوا من أخيكم». فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لي! يا فلاَن أدع لي فقال النبي ﷺ: «عمهم». فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم. فجعل النبي ﷺ يقول: «اللهم سدّده». فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم[1] وقال حذيفة بن قتادة: قيل لرجل كيف تضع بنفسك في شهواتها؟ فقال: ما على وجه الأرض نفس أبغض اليَّ منها فكيف أعطيها شهواتها؟ ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات ـ وهو في بيته على التراب ـ فقال: يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له. وعن وهب بن منبه: أن رجلاً تعبد زماناً، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل حاجته فلم يعطها، فرجع إلى نفسه وقال: منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك! فنزل إليه ملك وقال: يا ابن آدم؛ ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك. وقال عبد الله بن قيس: كنا في غزاة لنا فحضر العدو، فصيح في الناس فقاموا إلى المصارف في يوم شديد الريح، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا فقلت لي؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت! ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت! والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك! فقلت لأرمقنه اليوم، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صريعاً، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة. وقد ذكرنا حديث أبي طلحة: لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك. وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول: ماذا عملت اليوم؟ وعن مجمع: أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا. وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه: ما حملك علي أن صنعت يوم كذا كذا؟ وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه: ويحك! إنما أريد بك الخير. ورأى محمد بن بشر داود الطائي، وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح! فقال له: لو أكلته بملح! فقال: إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة، ولا ذاق داودّ ملحاً في الدنيا.

---

(١) حديث طلحة: إنطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه: ونار جهنم أشد حراً... الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل، ولا أدري من طلحة هذا.

فكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الإختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك وأشد طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها.

المرابطة الخامسة: المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين. وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة. وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو التصديق بجميع ماله. كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها.

فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها؟ فأقول: سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين[1] ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدي به. وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعاً. إلا أن هذه العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم ملكهم وما أشدّ حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة! ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد! نعوذ بالله تعالى من ذلك.

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى[2]». قال الحسن: أجهدتهم العبادة! قال الله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ قال الحسن: يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله! وقال رسول الله ﷺ «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله[3]». ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته: ما بال عبادي مجتهدين، فيقولون: إلهنا خوفتهم شيئاً فخافوه وشوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه! فيقول الله تبارك وتعالى: كيف لو رآني عبادي لكانوا أشدّ اجتهاداً، وقال الحسن: أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت

---

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين» وله وللنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته» وللترمذي من حديث بلال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم... الحديث» وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك.

(٢) حديث: «رحم الله أقواماً تحسبهم مرضى وما بمرضى» لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع لا لكن رواه أحمد في الزهد موقوفاً على علي في كلام له قال فيه: ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض.

(٣) حديث: «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله» أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة «عن» وهو مدلس وللترمذي من حديث أبي بكرة: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله» وقال حسن: صحيح وقد تقدم.

أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوي له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنَّهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله مازالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة. ويحكى أنّ قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم، فقال عمر له: يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض، فقال: سألتك بالله إلا صدقتني! فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه. وقال أبو نعيم: كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له في ذلك فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية. ودخل رجل عليه يوماً فقال: إنّ في سقف بيتك جذعاً مكسوراً فقال: يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف. وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام. وقال محمد بن عبد العزيز: جلسنا إلى أحمد ابن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة! فقيل له في ذلك فقال: إن الله عزوجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى. فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة. وقالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة! وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له. وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقي أطايب الثمر. وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحرّ حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله عزوجل لم يأمرك بكل هذا؟ فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الإستكانة شيئاً إلا جئت به. وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة، حتى أقعد من رجليه فكان يصلي جالساً ألف ركعة، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك! عجبت للخليقة كيف أنست بسواك! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك! وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فأذن إلي أن أصلي في قبري. وقال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري! أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعاً إلا في علة الموت. وقال الحارث بن سعد: مرّ قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدّة اجتهاده، فكلموه في ذلك فقال: وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم؟ فبكى القوم عن آخرهم. وعن أبي محمد المغازلي قال: جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمدّ رجليه، فعبر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا؟ فقال: علم صدق باطني فأعانني على ظاهري، فأطرق الكتاني ومشى مفكراً. وعن بعضهم قال: دخلت على فتح الموصلي فرأيته قد مدّ كفيه يبكي -حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه- فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة! فقلت: ولم بالله يا فتح بكيت الدم؟ فقال: لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك، نعم بكيت دماً فقلت له: على ماذا بكيت الدموع؟ فقال: على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع؟ قال: فرأيته بعد موته في المنام فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي، فقلت له: فماذا صنع في دموعك؟ فقال: قرّبني ربي عزّ وجل وقال لي: يا فتح الدمع على ماذا؟ قلت: يارب على تخلفي عن واجب حقك، فقال: والدم على ماذا؟ فقلت على دموعي أن لا تصح لي، فقال لي يا فتح ما أردت بهذا كله، وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة. وقيل إنّ قوماً أرادوا سفراً

فحادوا عن الطريق، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته، فقالوا يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق؟ فأومأ برأسه إلى السماء، فعلم القوم ما أراد، فقالوا يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟ فقال سلوا ولا تكثروا فإنّ النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث، فعجب القوم من كلامه فقالوا يا راهب علام الخلق غداً عند مليكهم؟ فقال على نياتهم، فقالوا أوصنا، فقال تزودوا على قدر سفركم فإنّ خير الزاد ما بلغ البغية. ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته. وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف علي وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على بلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته، وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار، فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم! فقلت يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله تعالى بعد أن عرفوه؟ فقال يا أخي لم يقطع الخلق عن الله تعالى إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصي والذنوب، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقرّبه من ربه.

وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن لفارغ. وكان أويس القرني يقول:هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال:هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة. وقيل لما تاب عتبة الغلام:كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك! قال الرفق أطلب! دعيني أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً. وكان سفيان الثوري يقول:عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقي. وقال عبد الله بن داود كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوي فراشه أي كان لا ينام طول الليل. وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول:لنفسه قومي يا مأوى كل شر! فلما ضعف اقتصر على خمسمائة، ثم كان يبكي ويقول ذهب نصف عملي. وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول يا ابنتاه إنّ أباك يخاف البيات. ولما رأت أم الربيع مايلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يا بني لعلك قتلت قتيلاً! قال نعم يا أماه، قالت: فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك، فيقول: يا أماه هي نفسي. وعن عمر ـ ابن أخت بشر بن الحارث ـ قال سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأمي، يا أختي جوفي وخواصري تضرب علي، فقالت له أمي يا أخي أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك! فقال لها ويحك! أخاف أن يقول أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدري إيش أقول له. فبكت أمي وبكى معها وبكيت معهم. قال عمر: ورأت أمي ما ببشر من شدّة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له أمي: يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك! فسمعته يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ ولدتني لم يدر ثديها علي. قال عمر وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار. وقال الربيع أتيت أويساً فوجدته جالساً حتى صلى الفجر، ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نوّامة ومن بطن لا تشبع! فقلت حسبي هذا منه، ثم رجعت. ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض؟ فقال وما لأويس أن لا يكون مريضاً يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم.

وقال أحمد بن حرب يا عجباً لمن يعرف أنّ الجنة تزين فوقه وأنّ النار تسعر تحته كيف ينام بينهما، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءاً فحاك ذلك في صدري فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعاً ثم لم تجدّد الوضوء فقال كنت الليل كله

جائلاً في رياض الجنة أحياناً وفي أودية النار أحياناً فهل في ذلك نوم. وقال ثابت البناني أدركت رجالاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبواً، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة ركعة. وعن أبي بكر المطوعي قال كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه قل هو الله أحد، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة ـ شك الراوي، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إنّ حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لعلك يا بني أصبت نفساً لعلك قتلت قتيلاً؟ فيقول يا أماه أنا أعلم بما صنعت بنفسي، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يصبح فإذا جاء النهار قال أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يمسي فإذا جاء الليل قال من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعضهم صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار.
ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين ـ يعني من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوّف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا مني فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمهم عليه زحاماً حتى يعلموا أنهم خلفوا وراءهم رجالاً.
وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الإجتهاد ما لو قيل له القيامة غداً ما وجد متزايداً. وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضر به البرد، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحرّ فلا ينام، وأنه مات وهو ساجد، وأنه كان يقول: اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي.

وقال القاسم بن محمد: غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها أسلم عليها، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى، وهي تقرأ: ﴿فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾ وتبكي وتدعو وتردد الآية، فقمت حتى مللت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو. وقال محمد بن إسحاق: لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجاً اعتلت إحدى قدميه فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء. وقال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل.
وقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غبرة الخاشعين، وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال؛ لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهي خلقتني ولم تؤامرني، وتميتني ولا تعلمني، وخلقت معي عدوّاً وجعلته يجري مني مجرى الدم وجعلته يراني ولا أراه، ثم قلت لي: استمسك، إليه كيف أستمسك إن لم تمسكني؟ إلهي في الدنيا الهموم والأحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح؟ وقال جعفر بن محمد: كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة، قال جعفر بن

محمد: فحدّثت به بعض البصريين فقال. لا تنظر إليّ صياحه ولكن أنظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح! وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب ـ وكان له أهل وبنات ـ وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون! أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارىء ومن ههنا متوضىء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته؛ عند الصباح يحمد القوم السري. وقال بعض الحكماء: إنّ لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوم، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفاً أن يصفه فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً وهم الظاهر مناديل، مبذولون لم أرادهم تواضعاً. وهذه طريق لا يبلغ إليه بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء. وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ إلى قوله: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرّ مغشياً عليه، فقلت: وا أسفاه هذا لشقائي. ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين. ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين، ثم نفض يده فقال مالي وللدنيا وما للدنيا ومالي؟ عليك يا دنيا بأبناء جنسك وألاف نعيمك! إلى محبيك فاذهبي! وإياهم فاخدعي! ثم قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة، في التراب يبلون، وعلى الزمان يفنون، فناديته: يا عبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك! فقال. وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه؟ وبقيت آثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها، ثم لها عني ساعة وقرأ: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ ثم صاح صيحة أخرى أشدّ من الأولى وخرّ مغشياً عليه! فقلت: قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب، ثم أفاق وهو يقول: ما أنا، ما خطري؟ هب لي إساءتي من فضلك! وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك! فقلت له: بالذي ترجوه لنفسك! وتثق به إلا كلمتني! فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه، ودع كلام من أوبقته ذنوبه، إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجد عوناً علي ليخرجني مما أنا فيه غيرك؟ فإليك عني يا مخدوع فقد عطلت على لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي! وأنا أعوذ بالله من شرك، ثم أرجو أن يعيذني من سخطه ويتفضل علي برحمته. قال: فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا! فانصرفت وتركته. وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها، فإذا أنا بشيخ قد أشرف علي فقال لي: يا هذا قم فإن الموت لم يمت، ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ اللهم بارك لي في الموت، فقلت: وفيما بعد الموت، فقال: من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقرّ، ثم قال: يا من لوجهه عنت الوجوه بيض وجهي بالنظر إليك واملأ قلبي من المحبة لك وأجرني من ذلك التوبيخ غداً عندك فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك، ثم قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي، ثم مضى وتركني. وقد أنشدوا في هذا المعنى:

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد	تراه بقمة أو بطن وادي
ينوح على معاص فاضحات	يكدّر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته: أغثني يا عمادي
فأنت بما ألاقيه عليم	كثير الصفح عن زلل العباد

الـذ مـن الـتـلـذذ بـالـغـواني	إذ أقـبـلـن في حـلـل حـسـان
مـنـيـب فـرّ مـن أهـل ومـال	يـسـيـح إلى مـكـان من مـكـان
لـيخـمـل ذكـره ويـعـيش فـرداً	ويـظـهـر في الـعـبادة بـالأمـاني
تـلـذذه الـتـلاوة أيـن ولى	وذكـر بـالـفـؤاد وبـالـلـسـان
وعـنـد المـوت يـأتـيـه بـشـير	يـبـشـر بـالـنـجـاة مـن الهـوان
فـيـدرك مـا أراد ومـا تمـنى	من الـراحـات في غـرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له: قد أجهدت نفسك! فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل سبعة آلاف سنة، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم؟ يعني أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيراً وكنت بالرغبة فيه جديراً، فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها؟ فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها. فمهما تمرّدت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الإقتداء فليس الخبر كالمعاينة، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء «فإن لم تكن إبل فمعزى». وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك، ولا ترضى لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء.

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: يا نفس لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها! ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات؛ فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي قد غارت النجوم وقامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها علي فأعزى؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك. ويروى عن عجزة أنها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون: إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أوّل زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم، ثم تخرّسا حدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر. وقال يحيى بن بسطام؛ كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء، فقلت لصاحب لي: لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها؟ فقال: أنت وذاك، قال فأتينا فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريدين؟ قال فبكت ثم قالت والله لوددت أني أبكي حتى تنفذ دموعي ثم أبكي دماً حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء. فلم تزل تردد «وأنى لي بالبكاء». حتى غشي عليها. وقال محمد بن مُعاذ حدثتني امرأة من المتعبدات قالت رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم، فقلت ما شأن أهل الجنة قيام؟ فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها! فقلت ومن هذه المرأة؟ فقيل أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها شعوانة. قالت فقلت أختي والله، قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت؛ يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك؟ قالت فتبسمت إلي وقالت

لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين ألزمي الحزن قلبك وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجباً فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي، فقلت لها لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك، فقالت: يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام. وقال أبو هاشم القرشي: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض ديارنا، قال: فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً، فقلت يوماً لخادم لي: أشرف على هذه المرأة، ماذا تصنع قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لا تردّ طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظنّ أنك لا ترى فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير وقال ذو النون المصري: خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل علي وهو يقول: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ ويبكي فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة، فقالت لي: من أنت؟ غير فزعة مني، فقلت: رجل غريب، فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها فقالت: ما الذي ابكاك؟ فقلت: قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه، قالت: فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت يرحمك الله والصادق لا يبكي؟ قالت لا، قلت ولم ذاك ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب، فسكت متعجباً من قولها. وقال أحمد بن علي استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا، فقالت جعل الله قراءكم في بيتي المغفرة، ثم قالت لنا مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء، فحانت منه نظرة فخر مغشياً عليه فأصابه فتق في بطنه، فيا ليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص! ويا ليتها إذا عصت لم تعد! وقال بعض الصالحين خرجت يوماً إلى السوق ومعي جارية حبشية فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت لا تبرحي حتى أنصرف إليك، وقال فانصرفت فلم أجدها في الموضع، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تعجل علي إنك أجلستني في موضع لم أر فيه ذاكر الله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع! فعجبت لقولها وقلت لها أنت حرّة. فقالت أوما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران، وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدي كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة، تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها من كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت! قالت أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها ما هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه؟ فقالت إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منها في الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا؟ ثم أعرضت. قال فقال القوم قوموا بنا فهي والله في شيء غير ما نحن فيه وكانت رابعة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي، فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح: وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت، فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غداً وكانت شعوانة تقول في دعائها إلهي ما أشوقني إلى لقائك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهي إن كان دنا أجلي ولم يقربني منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي؛ فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك، إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها،

إلهي إنك لم تزل بي براً أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه، إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في حياتي، إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتي لك قد أجارتني فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك علي من غره جهله، إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فمتعني بما له هديتني وأدم لي ما به سترتني، إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري، إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك، وقال الخوّاص: دخلنا على رحلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت ـ وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر، قال: فشهقت ثم قالت: علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئاً مذكوراً، ثم أقبلت على صلاتها.

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك على سبيل الله. وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر. وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب «حيلة الأولياء». فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين. فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت: إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه؛ فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمت طابت ـ فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها، وقل لها: أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال: وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك: أن المصيبة إذا عمت طابت؟ أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها.

المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرّارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوّامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس إلا فاستحي مني، وقال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتدّ أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها: يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة الذكاء والفطنة وأنت أشدّ غباوة وحمقاً! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غداً، فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد

ما ليس بآت؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضي إلى الموت فمالك لا تستعدّين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب؟ أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر منْ ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم﴾ ويحك يا نفس إن جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشدّ وقاحتك وأقل حياءك، ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات هيهات! جرّبي نفسك! إن ألهاك البطر عن ألم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعوّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا! وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدّعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ وقال في أمر الآخرة: ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر! ما هذا من علامات الإيمان؟ لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات! أتحسبين أنك تتركين سدى! ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك! أما تتفكرين أنه مما ذا خلقك؛ من نطفة خلقك فقدّرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله. ثم إذا شاء أنشرك؟ فإن لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك ولو أن يهودياً أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقرباً لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء! أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه! ما هذه أفعال العقلاء! بل لو انكشفت للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدّة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى! ثم هبي أن

الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم تشتغلين فيه بذلك؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟ أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس، وهذا محال وجوده، أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين: غداً؛غداً؛ فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدته؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس لا بل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز وأعجز؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فأخرها إلى سنة أخرى، مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفاً ووهناً، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب، بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب. والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك، فإن كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة؟.

ولعلك تقولين ما يمنعني عن الإستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدّة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته. وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي. أما الكفر الخفي؛ فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب. وأما الحمق الجلي: فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك ـ مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل ـ وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله ﷺ حيث قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرّك الحياة الدنيا ولا يغرّنك بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة؛ فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها، يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته؛ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدّة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا؟ كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدّة والبرودة؟ أفتظني أن العبد ينجو منها بغير سعي هيهات! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حرّ النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات، وإنما كرم الله تعالى في عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك

لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سبباً لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو

مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين. ويحك يا نفس انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ و ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده﴾ و ﴿كما بدأكم تعودون﴾ وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً ويحك يا نفس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودّتها، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت، ولذلك قال سيد البشر ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقة واعمل ما شئت فإنك مجزي به وعش ما شئت فإنك ميت[1]». ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لا يدري؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون: يبني كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ومقرّه قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حق وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً. أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم، واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا واقتدي من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء، يا نفس ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك، عجباً لك كيف تعمين هذه الأمور الواضحة الجليلة! ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك. أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ﴿فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي؟ هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك لأسباب كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك؟ فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فمالك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها وتنزهاً عن كثرة عنائها توقياً من سرعة فنائها؟ أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء! فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقرّبين من النبيين والصدّيقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياماً قلائل فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين! فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك

(١) حديث: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من من أحببت فإنك مفارقة. . . الحديث» تقدم في العلم وغيره.

ربك بعد الموت. ويحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك؟ أما تعلمين يا نفس أنّ الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك؟ أما علمت يا نفس أنّ عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالإيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم؟ أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة؟ ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارّة وتذكرين بالله وأنت له ناسية؟ أما تعلمين يا نفس أنّ المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك؟ ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء ألا بشؤمك! ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح في يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وذلك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه؟ ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجراك على المعاصي! ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيراً وبنوا مشيداً وأملوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً؟ ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟ هيهات هيهات ساء ما تتوهمين! ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشري بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدّعين البصيرة والفطنه ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص؟ ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك! فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك؟ فاحذري أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله وبأي لسان تجيبين وأعدّي للسؤال جواباً وللجواب صواباً واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، اعملي قبل أن لا تعملي اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الإضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً وسعيك لها اضطراراً ورفضك لها اختياراً وطلبك للآخرة ابتداراً، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، وينهي الناس ولا ينتهي، واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر. فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تزل فالمواظبة

على الصيام، فإن لم يزل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تزل فاعلمي أنّ الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه، فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فكل ميسر لما خلق له، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك ـ والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ـ فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن ـ سمحت ـ فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستعيني بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمني الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك، فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجاً إلا إلى مولاك فافزعي إليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوب لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطرّ، وقد أصبحت إليه مضطرّة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجح فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم والمسؤول جواد والمستغاث به برّ رؤوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر أنا الجريء لا أقلع أنا المتمادي الذي لا أستحي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل إغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوّة عظمتك يا أرحم الراحمين. اقتداء بأبيك آدم عليه السلام؛ فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عزوجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك؟ قال: يا رب عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا أبكي على خطيئتي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ألم أصطفك لنفسي وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي، ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين، فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام. وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله: إلهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي وأنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى! واعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى! واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ! واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى. وقال منصور بن عمار سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابداً يناجي ربه وهو يقول يا رب وعزتك ما أرد بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سوّلت لي نفسي وأعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخي علي فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي؛ فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي فإلى متى أتوب وإلى متى أعود؟ أما آن لي أن أستحي من ربي!.

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهل المعاتبة والمناجاةلم يكن لنفسه مراعياً ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه

راضياً والسلام تم كتاب المحاسبة والمراقبة. يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.

كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يقدّر لانتهاء عزته نحواً ولا قطراً، ولا يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى، بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسراً، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً، ثم قيل لها أجيلي في ذلك العبودية منك فكراً لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدراً، وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمراً فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى، وجدّدي لكل نعمة منها ذكراً وشكراً، وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً وشراً، ونفعاً وضراً، وعسراً ويسراً، وفوزاً وخسراً، وجبراً وكسراً، وطياً ونشراً وإيماناً وكفراً، وعرفاناً ونكراً، فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمراً إمراً، وخاطرت بنفسك مجاوزة حدّ طاقة البشر ظلمًا وجوراً، فقد انبهرت العقول دون مبادي إشراقه وانتكصت على أعقابها أضطراراً وقهراً، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعدّ سيادته فخراً، صلاة تبقى لنا في عرضات القيامة عدّة وذخراً، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدراً ولطوائف المسلمين صدراً، وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد: فقد وردت السنة بأن «تفكر ساعة خير من عبادة سنة[1]». وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار، ولا يخفى أنّ الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه؟ فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعاً؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أوّلاً فضيلة التفكر. ثم حقيقة التفكر وثمرته. ثم مجاري الفكر ومسارحه. إن شاء الله تعالى.

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابة العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ قوماً تفكروا في الله عزوجل فقال النبي ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله إنكم لن تقدروا قدره[2]». وعن النبي ﷺ: أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال: «مالكم لا تتكلمون؟». فقالوا؛ نتفكر في خلق الله عزوجل قال: «فكذلك فافلعوا، تفكروا في خلقه ولا

---

(١) حديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» أخرجه إبن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه إبن الجوزي في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ «ثمانين سنة» وإسناده ضعيف جداً ورواه أبو الشيخ من قول إبن عباس بلفظ «خير من قيام ليلة».

(٢) حديث ابن عباس: إن قوماً تفكروا في الله عزّ وجل فقال النبي ﷺ «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره» أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث إبن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك.

تتفكروا فيه فإنّ بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها، مسيرة الشمس أربعين يوماً بها خلق من خلق الله عزوجل لم يعصوا الله طرفة عين». قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال: «ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا: من ولد آدم؟ قال: «لا يدرون خلق آدم أم لا[1]». وعن عطاء قال: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: «زر غباً تزدد حباً». قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال: فبكت وقالت كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «ذريني أتعبد لربي عزوجل». فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة ﴿إنّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾. ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها[2]». فقيل للأوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن. وعن محمد بن واسع أنّ رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذرّ ـ بعد موت أبي ذرّ ـ فسألها عن عبادة أبي ذرّ فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر. وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وعن الفضيل قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقيل لإبراهيم إنك تطيل الفكرة، فقال الفكرة مخ العقل، وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

إذا المـرء كـانـت لـه فـكـرة   فـفـي كـل شـيء لـه عـبـرة

وعن طاوس قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم؛ ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال نعم، من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي . وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو، وفي قوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾. قال أمنع قلوبهم التفكر في أمري. وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة، فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: «النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه[3]». وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقرّ لهم في الدنيا عين. وكان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان؛ إنّ طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرىء قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عزوجل من أفضل العبادة. وقال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل ابن علي ورآه ساكناً متفكراً أين بلغت! قال: الصراط. وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عزوجل وعن ابن عباس: ركعتان متقصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب. وبينا أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب

---

(1) حديث: خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال: «ما لكم لا تتكلمون» فقالوا: نتفكر في خلق الله... الحديث «رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام».

(2) حديث عطاء: انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة... الحديث» قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ... الحديث في نزول ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض﴾ وقال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» تقدم في الصبر والشكر «وأنه في صحيح ابن حيان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء.

(3) حديث أبي سعيد الخدري: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف.

أجلي. وقال أبو سليمان: عوّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر. وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر يزيد الخوف. وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه. ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه: إني لست أقبل كلام حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكراً وكلامه حمداً وإن لم يتكلم. وقال الحسن: إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة. وقال إسحاق بن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء، فتفكر في ملكوت السمٰوات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له. قال فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً وبيده سيف وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال، من ذا الذي طرحك من السطح؟ قال ما شعرت بذلك. وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عزوجل، ثم قال يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه. وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر. وقال أيضاً صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم: والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوّة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم. وقال أيضاً الفضائل أربع (إحداهما) الحكمة وقوامها الفكرة. (والثانية) العفة وقوامها في الشهوة (والثالثة) القوّة وقوامها في الغضب، (والرابعة) العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها.

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة، ومثاله أنّ من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان (أحدهما) أن يسمع من غيره ان الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا ، فيقلده ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر ميميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرّد قوله، وهذا يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة. (والطريق الثاني) أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أنّ الآخرة أبقى. فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين.

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً. أما التدبر والتأمل والتفكر: فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة. وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر: فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحد؛ كما أنّ اسم: الصارم، والمهند، والسيف؛ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة. فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد.

فكذلك الاعتبار: ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم: التذكر، لا اسم: الاعتبار. وأما النظر والتفكر: فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً، فكل متفكر فهو متذكر، وليس كل متذكر متفكراً. وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب. وفائدة التفكر: تكثير العلم واستخلاب معرفة ليست حاصلة. فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت في القلب على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة. فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر. وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية، وإنما تنسدّ طريق زيادة المعارف بالموت. أو بالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكير. وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم

رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها.

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ـ وذلك عزيز جداً ـ وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر. ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد. فكم من إنسان يعلم أنّ الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين: وهو أنّ الأبقى أولى بالإيثار وأنّ الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو أنّ الآخرة أولى بالإيثار، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة.

وأما ثمرة الفكر: فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة، العلم، لا غير. نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح. فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر. فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأنّ الفكر ذكر وزيادة. وذكر القلب خير من عمل الجوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر. فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال. ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، فقيل هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى، ولذلك قال تعالى: ﴿لعلهم يتقون أن يحدث لهم ذكراً﴾ وإنْ أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإنّ الفكر يعرّفنا أنّ الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا. وهذا ما عنيناه بالحال، إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها.

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته. ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في اطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة. فههنا خمس درجات: (أولاها) التذكر وهو إحضار المعرفتين في القلب. (وثانيتها) التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منها. (والثالثة) حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها. (والرابعة) تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة. (والخامسة) خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدّد له من الحال.

فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفاً مخصوصاً كما يضرب الحجر على الحديد ضرباً مخصوصاً، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه. ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره. فإذن ثمرة الفكر: العلوم والأحوال، والعلوم لا نهاية لها، والأحوال التي تتصوّر أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها. ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية. نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك ضبطاً جملياً فإنّ تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها، فإنها مشتملة على علوم، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة. فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجاري الفكر.

بيان مجاري الفكر

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر. ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى؛ فجميع أفكار العبد: إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين. وما يتعلق بالعبد: إما أن يكون نظراً فيما هو محبوب عند الرب تعالى، أو فيما هو مكروه، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين. وما يتعلق بالرب تعالى: إما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى، وإما أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السمٰوات والأرض وما بينهما.

وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه.

فإن تفكر في معشوقه؛ فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفاً للذة ومقوياً لمحبته. وإن تفكر في نفسه؛ فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها، أو في الصفات التي تقرّبه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها.

فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق، وهو نقصان فيه، لأن العشق التام الكامل؛ ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره. فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه. ومهما كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبة أصلاً. فلنبدأ بالقسم الأوّل وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه، فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو المقصود بهذا الكتاب، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة.

ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر، كالطاعات والمعاصي. وإلى باطن، كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب ـ وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات.

والمعاصي: تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن، كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام، ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور (الأوّل) التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا، فرب شيء لا يظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر (والثاني) التفكر في أنه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه؟ (والثالث) أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرّض له في الإستقبال فيحترز عنه؟ أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الإنقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها . وشرح آحاد هذه الإنقسامات يطول، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع: الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات. فلنذكر في كل نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه.

(النوع الأول: المعاصي) ينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم؟ أو هو متعرّض لها في نهاره فيستعدّ للاحتراز والتباعد عنها؟

فينظر في اللسان ويقول إنه متعرّض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني، إلى غير ذلك من المكاره، فيقرّر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدّة العذاب فيها، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد، أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً ينكر

عليه مهما تكلم بما يكرهه الله، وإلا فيضع حجراً في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له: فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز.

ويتفكر في سمعه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة، وإن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر:

فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه؛ أنه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب، إما بكثرة الأكل من الحلال فإن ذلك مكروه عند الله ومقوّي للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدوّ الله، وإما بأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه؟ ويتفكر في طريق الحلال ومداخله. ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام[1] كما ورد الخبر به.

فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الإستقصاء. فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها.

وأما النوع الثاني: وهو الطاعات فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل؟ ثم يرجع إلى عضو عضو، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً:

إن العين خلقت للنظر في ملكوت السمٰوات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وانظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله؟

وكذلك يقول في سمعه إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر، فمالي أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لأشكره؟ فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله؟

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة.

وكذلك يتفكر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه، ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله، وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج مني إلى ذلك المال.

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات، ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظانّ الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات.

(وأما النوع الثالث: فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب) فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات: وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك، ويتفقد من قلبه هذه الصفات: فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتخلف، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق، كما كان الأوّلون يجربون به أنفسهم. وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله

---

(١) حديث: «إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثوبه درهم حرام» أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم.

من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات. وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا؟ ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات، فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة.

كما لو رأى في نفسه عجباً بالعمل، فيتفكر ويقول: إنما عمل ببدني وجارحتي وبقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إلي وإنما هو من خلق الله وفضله علي، فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وإرادتي، وهو الذي حرّك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي؟ فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها: لم ترين نفسك أكبر؟ والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت، وكم من كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقياً بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة؟.

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة، ولما اتصف به البهائم، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقرّبين أبعد. وكذلك يقرّر على نفسه في الغضب، ثم يتفكر في طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب. فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بدّ له من تحصيل ما في هذه الكتب.

(وأما النوع الرابع: وهو المنجيات) فهو التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له. وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته. فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى؟ فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار. فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم: فليفتش ذنوبه أولاً وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه. ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى، حتى ينبعث له حال الندم. وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه ـ على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك. وإذا أراد حال المحبة والشوق: فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه ـ كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر ـ وإذا أراد حال الخوف: فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه، ثم في هول النداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب في النقير والقطمير، ثم في الصراط ودقته وحدّته، ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار، أو يصرف إلى اليمين فينزل دار القرار، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها. وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جرى، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها. وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء. فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم.

فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة. وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر، أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين، وفيه ما

يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة! فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم، فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة، فإن تحت كل كلمة منها أسرار لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكرِ عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة. وكذلك مطالعة أخبار رسول الله ﷺ فإنه قد أوتي جوامع الكلم[1] وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره. وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي: أحب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به[2]». فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأوّلين والآخرين وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية.

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة. والمبتدىء ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفه وينزه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هوله غاية المطلب، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصدّيقين وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه، أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب: كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق.

فأما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب؟ ولذلك كان الخوّاص يدور في البوادي فلقيه الحسن بن منصور وقال: فيم أنت؟ قال: أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل،فقال الحسن: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد؟ فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصدّيقين وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدّة في النكاح. وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة وجهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها؛ فإن استغرقت جميع عمرك، في تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء المحبوب.

فهكذا ينبغي أن تفهم طريقة الدين إن كنت من أهل المجالسة، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفاً من الضرب وطمعاً في الأجرة فدونك وإلعاب البدن بالأعمال الظاهرة، فإنّ بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون. وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحاً ومساء، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقرّبة إليه سبحانه وتعالى. بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة ـ فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ـ وهي؛ البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدّة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف الرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع له.

---

(١) حديث: أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم. تقدم.
(٢) حديث: «إن روح القدس نفث في روعي: أحب من أحببت فإنك مفارقه. . . الحديث» تقدم غير مرة.

فهذه عشرون خصلة؛ عشرة مذمومة، وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته، ويدع الفكر فيها، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أنّ ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه، فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات؛ فإذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلاً خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر.

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة؛ كأكل الشبهة، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الإشتغال بعمارة القلب وتطهيره. بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها. مثاله: العالم الورع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ، ومن فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع، وذلك من المهلكات. وإنّ رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول: إنّ غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد، حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول؛ إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله. فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثرَ من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع، وإنما مخدوع، وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين! ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً ويكون بلقائه أشدّ فرحاً واستبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاة، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه. وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات، ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك، ولا مطمع له في سلامة العوام. فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوي مهما سئل. فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جميعاً من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم مفتون، وكانوا يتدافعون الفتوى. ولك من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره. وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا؛ فإنّ هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق، وليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فإنه قد كان معموراً قبلي وكذلك يكون بعدي، ولو مت لا تنهدم أركان الإسلام فإنّ الدين مستغن عني، وأما أنا فلست مستغنياً عن إصلاح قلبي. وأما اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل، فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلوّ يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم. فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة. بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم[1]». و «إن الله ليؤيد هذا الدين

---

(١) حديث: «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم» تقدم.

بالرجل الفاجر[1]». فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق. قال ﷺ: «حب الجاه والمال ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل[2]» وقال رسول الله ﷺ: «ماذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم[3]». ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم.

فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها، وهذه وظيفة العالم المتقي. فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوّي إيماننا بيوم الحساب، إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً: إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار! فإن من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه: وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي ونحن منهمكون فيها، وأن طالب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها. فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدي بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها، ويقال! لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا. فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا. فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا. فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا.

فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات، وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدراً مقطوعاً، وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة، ولا طريق له في كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه. وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوّشات، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات. فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى.

(القسم الثاني) الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه. وفيه مقامان: المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه، وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله، وذلك لأنّ العقول تتحير فيه فلا يطيق مدّ البصر إليه - إلا الصدّيقون ثم لا يطيقون دوام النظر. بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس، فإنه لا يطيقه البته، بل يختفي نهاراً وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض. وأحوال الصدّيقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه، ويخشى على بصره لو أدام النظر، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر. وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل. فالصواب إذن أن لا يتعرّض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته، فإنّ أكثر العقول لا تحتمله. بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو: أنّ الله تعالى مقدّس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه؛ قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته. بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم: إنه

---

(١) حديث: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». تقدم أيضاً في العلم.
(٢) حديث: «حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب. . . . الحديث» تقدم.
(٣) حديث: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم. . . الحديث» تقدم.

يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو، وأن يكون جسماً مشخصاً له مقدار وحجم. فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله، حتى قال بعض الحمقى من العوام: إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله؛ لظنّ المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه، فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه: نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره، فلا جرم غايته أن يقدّر ذلك في حق الله ـ تعالى وتقدّس ـ حتى يفهم العظمة. بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمناً لا يقدر على الطيران؟ أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل، وإن الإنسان لجهول ظلوم كفار، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون.

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه، لكنا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدّسه وتعاليه، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته. فينظر إلى صفاته من آثار صفاته، فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس. ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر. وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته، بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود. ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته ـ تعالى وتقدس ـ إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها، فيكون الماء واسطة يغض قليلاً من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال. فهذا سر قوله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله تعالى».

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مداداً لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره. ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه.

فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلى (مالا يعرف أصلها) فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى: ﴿ويخلق مالا تعلمون ـ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ وقال: ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ وإلى ما يعرف أصلها وجملتها، ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها . وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر، وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي ندركه بالبصر. فكما الملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك. ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض. فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر: وذلك هو السمٰوات السبع والأرض وما بينهما فالسمٰوات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها.

فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسام، ويتشعب كل قسم إلى أصناف. ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئآته ومعانيه الظاهرة والباطنة. وجميع ذلك مجال الفكر. فلا تتحرّك ذرّة في السمٰوات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أت عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه.

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ وكما قال تعالى: ﴿ومن آياته﴾ ومن أول القرآن إلى آخره. فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات.

(فمن آياته) الإنسان المخلوق من النطفة ـ وأقرب شيء إليك نفسك ـ وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشرة عشيرة وأنت غافل عنه. فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال: ﴿قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدّره، ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره﴾ وقال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشر تنتشرون﴾ وقال تعالى: ﴿ألم يك من نطفة من مني يمنى ثم كان علقه فخلق فسوّى﴾ وقال تعالى: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم﴾ وقال: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ وقال: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ ثم ذكر: كيف جعل النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، فقال تعالى؛ ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة﴾ الآية.

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه، فانظر الآن إلى النطفة ـ وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ـ كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الإجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم؟.

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر، وكيف جعل النطفة وهي. بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم؟ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق: الأعضاء الظاهرة، فدّور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مدّ اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل؟ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص لعمل مخصوص! ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر؛ فركب العين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا نقضي فيه الأعمار.

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له، ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت وعريض ودقيق. ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه، مفتقر للتردد في حاجاته، لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه

بالعظم الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور، فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس - كما تراه - فمنها ستة تخص القحف، وأربعة عشر للحي الأعلى، واثنان للحي الأسفل، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا: ثم جعل الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات مجوّفات مستديرات، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق على بعض - ويطول ذكر وجه الحكمة فيها.

ثم ركب الرقبة على الظهر، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء.

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين، فلا نطول بذكر عدد ذلك. ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً، سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل. فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة.

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون، إنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدّرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعة، ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها، فشتان بين النظرين.

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة - والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية - وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها. فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين. وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص. وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله - وشرحه يطول - فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء، ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء مذرة، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السمٰوات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرّق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها؟ فلا تظنن أن ذرّة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان. بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السمٰوات ولذلك قال تعالى: ﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾.

فأرجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أوّلاً وما صارت إليه ثانياً، وتأمل أنه لو اجتمع الجنّ والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب

ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها: كأنه إنسان! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله، مع أنك تعلم أنّ تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم والإرادة. وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه.

وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها وتصويرها. وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة. وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها. ثم شق أذنيه وأودعها ماء مراً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم. ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه. وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومعرباً عما في القلب. وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدّد رؤوسها وبيض لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدرّ المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسدّ منفذه وليتم بها حروف الكلام. وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها. ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر، حتى اختلفت بسببها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرّد الصوت في الظلمة. ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ. وزين الوجه باللحية والحاجبين، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل. وزين العينين بالأهداب.

ثم خلق الأعضاء وسخر كل واحد لفعل مخصوص. فسخر المعدة لنضج الغذاء، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد. فالطحال يخدمها بجذب السواد عنها. والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها. والكلية تخدمها بجذب المائية عنها. والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها، ثم تخرجه في طريق الإحليل: والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن. ثم خلق اليدين وطوّلهمالتمتدّ إلى المقاصد. وعرّض الكف، وقسم الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، ووضع الأربعة في جانب الإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع. ولو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب، وإن ضمها ضمًا غير تام كانت مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له. ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفها، ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه. ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتدّ إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم

يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل. ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتدّ إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصوّر ولا آلته! فهل رأيت مصوّراً أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه.

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرّك، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه.

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي؟ ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدّة الجوع؟.

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السنّ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة! ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه. فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه.

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل، فصار مراهقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً؛ إما كفوراً أو شكوراً مطيعاً أو عاصياً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفوراً﴾ فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية.

والعجب كل العجب ممن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وكيف اقتدر عليه! ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته! ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته؟ فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل. والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السمٰوات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس؛ إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين ويحشر في زمرة النبيين والصدّيقين مقرّباً من حضرة رب العالمين. وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير، إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك في الأرض التي هي مقرّك، ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السمٰوات. أما الأرض: فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً فجاجاً وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارّة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد. ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم، فقال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ وقال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها﴾ وقال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ وقد أكثر في كتابه العزيز

فمن ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقرّ للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً﴾.

فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات. ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً، وجعل به كل شيء حي، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقصب وزيتون ونخل ورمان، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح، يفضل بعضها على بعض في الأكل، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة.

فإن قلت: إنّ اختلافها باختلاف بذورها وأصولها؟ فمتى كان في النواة نخلة مطوّقة لعناقيد الرطب؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة. ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراها تراباً متشابهاً، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة؟ فهذا النبات يغذي وهذا يقوّي وهذا يحيي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يقمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفي الدم وهذا يستحل دماً وهذا يفرّح وهذا ينوّم وهذا يقوّي وهذا يضعف! فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تبنة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها. وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص؛ فالنخل تؤثر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر. ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات.

(ومن آياته) الجواهر المودعة تحت الجبال، والمعادن الحاصلة من الأرض: ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها، بعضها منطبعلا تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل؟ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلى منها. ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها! فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر، فيستحيل ملحاً مالحاً محرقاً لا يمكن تناول مثقال منها، ليكون ذلك تطييباً لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك. وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس. ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه. ولذلك قال تعالى: ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾.

(ومن آياته) أصناف الحيوانات: وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي. وانقسام ما يمشي: إلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشي على أربع، وعلى عشر، وعلى مائة، كما يشاهد في بعض الحشرات. ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع. فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ولا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت ـ وهي من صغار الحيوانات ـ في بنائها بيتها

وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك. فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أوّلاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه، ثم يبتدىء ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً، حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى، ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب، ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير؛ فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله. وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى. أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كوّنه آدمي أو علمه أو لا هادي له ولا معلم؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز؟ بل الفيل العظيم شخصه، الظاهرة قوّته، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم. فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات. وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة. نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولو دواد تجدّد تعجبه وقال: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها. ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصوّرها، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته، فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه؟ بل هو كما أثنى على نفسه، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته.

(ومن آياته) البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبي ﷺ «الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض[1]»، فأنسب إصطبلاً إلى جميع الأرض. واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله.

وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرّك ويعلم أن حيوان. وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا

---

(١) حديث: «الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض» تقدم ولم أجده.

وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر: وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوّره في صدفه تحت الماء. وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر. ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه! ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن، ثم عرّف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها. ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات. وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر! وهو كيفية قطره الماء: وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها! فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها! فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال. وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها، منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذي لب؛ أما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي؟ أتظنّ أني كوّنت نفسي أو خلقني أحد من جنسي؟ أو ما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاث أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط. ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه.

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون: توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي، فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدّي وشفتي، فترى التقويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها، ولا داخل الرحم ولا خارجه، ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم! فما هذا النقاش بأعجب مما نشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أنّ الذي صوّر ونقش وقدر لانظير له ولا يساويه نقاش ولا مصوّر، كما أنّ نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع - فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين - فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب؟ فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرّات العالم وأجزائه، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

(ومن آياته) الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض: يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه، ولا يرى بالعين شخصه، وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر، فإذا حرّك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فإن شاء جعله نشراً بين يدي رحمته كما قال سبحانه: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء، وإن شاء جعله

عذاباً على العصاة من خليقته كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ ثم انظر إلى لطف الهواء، ثم شدّته وقوّته مهما ضغط في الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه. فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوّته مع لطافته؟ وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء، وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء لأنّ الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوّتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف، كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوى في البئر. فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والغوص في الماء! فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد.

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق؛ فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ وهذا هو الذي بينهما. وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى: ﴿والسحاب المسخر بين السمآء والأرض﴾ وحيث تعرّض للرعد والبرق والسحاب والمطر، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة! فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه. فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القشرات كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدّم المتأخر ولا يتأخر المتقدّم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها. ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب، ومكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني! هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى. كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر مالأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الإستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته، فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها، ولو قيل له: ما معنى الطبع وما الذي خلقه؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل؟ وما الذي رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق، فيغذي كل جزء من كل ورقة، ويجري إليه في تجاويف عروق شعرية صغار يروي منه العرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار ـ فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة ـ فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه. فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق؟ فإن كان ذلك يجذب

جاذب فما الذي سخر ذلك الجاذب؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السمٰوات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أوّل الأمر؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل.

(ومن آياته) ملكوت السمٰوات والأرض وما فيها من الكواكب: وهو الأمر كله، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السمٰوات فقد فاته الكل تحقيقاً. فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السمٰوات بالإضافة إلى السمٰوات قطرة في بحر وأصغر. ثم انظر كيف عظم الله أمر السمٰوات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى: ﴿والسماء ذات البروج ـ والسماء والطارق ـ والسماء ذات الحبك ـ والسماء وما بناها﴾ وكقوله تعالى: ﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها﴾ وكقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس﴾ وقوله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى ـ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون ـ وما أقسم الله بها ـ فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ وأثنى على المفكرين فيه فقال: ﴿ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض﴾ وقال رسول الله ﷺ: «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته[1]». أي تجاوزها من غير فكر. وذم المعرضين عنها فقال: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب، والسمٰوات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سماه الله تعالى محفوظاً فقال: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ وقال سبحانه: ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ وقال: ﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها﴾ فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت. ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقه السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر. فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله : ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض﴾ لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بماشاء، وهو ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً الا من ارتضى من رسول﴾.

فأجل أيها العاقل فكر ـ في الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: رأى قلبي ربي وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك، ثم الأرض التي هي مقرك، ثم الهواء المكتنف لك، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض، ثم السمٰوات السبع بكواكبها، ثم الكرسي، ثم العرش، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السمٰوات، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسمٰوات والأرض وما بينهما. فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة، وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعي معرفة ربك وتقول: قد عرفته وعرفت خلقه ففي ماذا أتفكر إلى ماذا أتطلع؟.

فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام ـ من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها، بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طي السجل للكتاب ـ وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي. ثم انظر كيفية أشكالها: فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور

(١) حديث: «ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته» أي قوله تعالى ﴿ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض﴾ تقدم.

والأسد والإنسان، وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء. ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدّة سنة، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار معاشاً، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص. وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتدّ القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان ـ وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر، واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره، ثم في شكله، ثم في لونه ثم في وضعه من السماء، وقربه من وسط السماء وبعده، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة، وأمر السماء أعظم، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه. وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، وفي الأخبار ما يدل على عظمتها[1] ثم الكواكب التي تراها أصغرها مثل الأرض ثماني مرات، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض. وهذا تعرف ارتفاعها وبعدها؛ إذ للبعد صارت ترى صغاراً ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال: ﴿رفع سمكها فسوّاها﴾.

وفي الأخبار: أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام[2] فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافاً فانظر إلى كثرة الكواكب. ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها. ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلاً عن أن تدرك سرعتها، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب، لأن الزمان من طلوع أوّل جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه. فانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي ﷺ «هل زالت الشمس؟». فقال: لا... نعم، فقال: «كيف تقول لا... نعم». فقال. من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام[3] فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها. فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوّقاً بالصبغ مموّهاً بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمر! وأنت أبداً

---

(١) الحديث الدال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر: رأى رسول الله ﷺ الشمس حين غربت فقال: «في نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض» وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة «وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أتت على شيء إلا أحرقته».

(٢) حديث: «بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام» أخرجه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب، قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة، ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصرة عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصرة سماع من أبي ذر.

(٣) حديث: أنه قال لجبريل: «هل زالت الشمس؟» فقال: لا... نعم، فقال: كيف تقول لا... نعم؟ فقال: من حين قلت: لا، إلى أن قلت: نعم، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام، لم أجد له أصلاً.

تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدّث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه! فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت! ومع هذا فلا تنظر إليه؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك؟ ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك. وغاية شهوتك أن تملأ بطنك، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات. وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك، ويضمرون خبائث الإعتقادات عليك وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً و لاحياة ولا نشوراً، وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السمٰوات والأرض ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك. وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من حجرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواري والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدّث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها، فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره. وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضاً عن سكانه، فأنت أيضاً غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمٰواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك، ولا تعرف من ملائكة السمٰوات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك. نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه. ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له، ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا ﷺ. وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقرّبون كإسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علماً، بل هو إلى أن يسمى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً أقرب. فسبحان من عرّف عباده ما عرّف ثم خاطب جميعهم فقال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم. وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه، فلا تزال تطلع على غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنة له توقيراً وتعظيماً واحتراماً، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاً من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك. فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبداً، وإنما لكل عبد منها بقدر ، ما رزق. فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر، فإذا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا. وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته. وما من ذرّة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به، ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث

تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقى وارتدى فنعوذ بالله من الضلال، ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته.

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه، يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده، وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه.

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرادهم في الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرّغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزاً، واتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً، وانظر ﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء! وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصاً للأتقياء وموعداً في حقهم للقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر في السمٰوات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه وبطن الأرض مستقرّه والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله! ولا انتظار وتربص إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت، وقد قال رسول الله ﷺ «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت[1]». ولن يتيسر الإستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه. ونحن نذكر من أمر الموت ومقدّماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بدّ للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار، ليكون ذلك مستحثاً على الإستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين:

الشطر الأوّل

في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور، وفيه ثمانية أبواب

(الباب الأوّل) في فضل ذكر الموت والترغيب فيه. (الباب الثاني) في ذكر طول الأمل وقصره. (الباب الثالث) في سكرات الموت وشدّته وما يستحب من الأحوال عند الموت. (الباب الرابع) في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده. (الباب الخامس) في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين. (الباب السادس) في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور. (الباب السابع) في حقيقة الموت وما يلقاه

---

(١) حديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» تقدم غير مرة.

الميت في القبر إلى نفخة الصور (الباب الثامن) فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام.

الباب الأول: في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ ثم الناس: إما منهمك، وإما تائب مبتدىء، أو عارف منته. أما المنهمك: فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً. وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ «من كره لقاء الله كره الله لقاءه[1]». فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارهاً للقائه. وعلامة هذا أن يكون دائم الإستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا، وأما العارف: فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد لقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين. كما روي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم؛ اللهم إن كنت تعلم أنّ الفقر أحب إلي من الغنى والسقم أحب إلي من الصحة والموت أحب إلي من العيش فسهل علي الموت حتى ألقاك فإذن التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما رتبة من فوّض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه. فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى. وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته. وكل ما يكدّر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة.

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات[2]». ومعناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى وقال ﷺ: «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سميناً[3]». وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة[4]». وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أنّ ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الإستعداد للآخرة، والغفلة عن الموت تدعو إلى الإنهماك في شهوات الدنيا. وقال ﷺ «تحفة المؤمن الموت[5]». وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه، فالموت إطلاق له من هذا العذاب، والإطلاق تحفة في حقه. وقال ﷺ: «الموت كفارة

---

(١) حديث: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) حديث: «أكثروا من ذكرها زم اللذات» أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

(٣) حديث: «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سميناً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم.

(٤) حديث: قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة» تقدم.

(٥) حديث: «تحفة المؤمن الموت» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلاً بسند حسن.

لكل مسلم[1]». وأراد بهذا؛ المسلم حقاً المؤمن صدقاً الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصغائر، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض: قال عطاء الخراساني: مر رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال: «شوّبوا مجلسكم بذكر مكدّر اللذات». قالوا: وما مكدّر اللذات؟ قال: «الموت[2]». وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا[3]» وقال ﷺ: «كفى بالموت مفرقاً[4]». وقال عليه السلام: «كفى بالموت واعظاً[5]». وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدّثون ويضحكون، فقال: «اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً[6]». وذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال: «كيف ذكر صاحبكم الموت؟». قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت! قال: «فإنّ صاحبكم ليس هنالك[7]». وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أتيت النبي ﷺ ـ عاشر عشرة ـ فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم استعداداً له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة[8]».

أما الآثار؛ فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً. وقال الربيع بن خثيم. ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت. وكان يقول: لا تشعروا بي أحد وسلوني إلى ربي سلا. وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده. وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه. وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأنّ بين أيديهم جنازة. وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا؛ ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عزوجل. وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها. وقال مطرف: رأيت فيما يرى النائم كأنّ قائلاً يقول ـ في وسط مسجد البصرة ـ قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين. وقال أشعث: كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت. وقالت صفية رضي الله تعالى عنها: إنّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت: أكثري ذكر الموت. يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله

---

(١) حديث: «الموت كفارة لكل مسلم» أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء.

(٢) حديث عطاء الخراساني: مر النبي ﷺ بمجلس قد استعلاه الضحك فقال: «شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مرسلاً ورويناه في أمالي الجلال من حديث أنس ولا يصح.

(٣) حديث أنس: «أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا» أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف جداً.

(٤) حديث: «كفى بالموت مفرقاً» أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف، ورواه إبن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الحبلي مرسلاً.

(٥) حديث: «كفى بالموت واعظاً» أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار إبن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد.

(٦) حديث: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال: «اذكروا الموت... الحديث» أخرجه إبن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

(٧) حديث: ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال «كيف كان ذكر صاحبكم للموت... الحديث» أخرجه إبن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أخبرنا مالك بن مغول فذكره بلاغاً بزيادة فيه.

(٨) حديث ابن عمر: أتيت النبي ﷺ ـ عاشر عشرة ـ فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس... الحديث» أخرجه إبن ماجه مختصراً وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد.

عنها. وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دماً. وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع أوصاله، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه. وقال الحسن: ما رأيت عاقلاً قط إلا أصبته من الموت حذراً وعليه حزيناً. وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عظني؛ فقال؛ لست أوّل خليفة تموت؟ قال زدني، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك، فبكى عمر لذلك وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد. وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: إنّ هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه. وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك. وقال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هارون، أتحبين الموت؟ قالت: لا، قلت: لم؟ قالت: لوعصيت آدمياً ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته.

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيافلا ينجع ذكر الموت في قلبه. فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه. وانجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم من مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم. وكيف تبدّدت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، فمهما تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله، وكيفية موته ووهم صورته، ونذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع. وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله. وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه. وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه. وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه - إلى عشر سنين - في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار؛ فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه:إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره. وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عزوجل تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدّد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يسند له ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال، أنه لا بد له من مفارقته. نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاء شديداً حتى ارتفع صوته.

الباب الثاني

في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر: «إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غداً[1]». وروى علي كرّم الله وجهه أنه ﷺ قال: «إن أشدّ ما أخاف عليكم خصلتان. اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا». ثم قال: «ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض، وإذا أحب عبداً أعطاه الإيمان، ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة. ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل[2]». وقالت أم المنذر: اطلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس فقال: «أيها الناس أما تستحون من الله» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تجمعون مالا تأكلون وتأملون مالا تدركون وتبنون مالا تسكنون[3]»: وقال أبو سعيد الخدري: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار ـ إلى شهر ـ فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر، إن أسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أفيض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت». ثم قال: «يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى والذي نفسي بيده ﴿إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾[4]». وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب، فأقول له: يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول: «ما يدريني لعلي لا أبلغه[5]». وروي أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: «هل تدرون ما هذا». قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا الإنسان وهذا الأجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل[6]». وقال عليه السلام: «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع في الهرم[7]». قال ابن مسعود: هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه، والهرم وراء الحتوف، والأمل وراء الهرم، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو

---

(١) حديث: قال لعبد الله بن عمر «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء... الحديث» أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث «كن في الدنيا كأنك غريب».

(٢) حديث علي: «إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل... الحديث» بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف.

(٣) حديث أم المنذر: «أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تجمعون ما لا تأكلون... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم.

(٤) حديث أبي سعيد: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار ـ إلى شهر ـ فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(٥) حديث ابن عباس: كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول الماء منك قريب فيقول: «ما يدريني لعلي لا أبلغه» أخرجه إبن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبزار بسند ضعيف.

(٦) حديث: أنه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه... الحديث. أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل وللفظ له والرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضفا من رواية أبي المتوكل مرسلاً.

(٧) حديث: مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن.

ينتظر الأمل. قال عبد الله خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً، وخط وسطه خطاً، وخط خطوطاً إلى جنب الخط، وخط خطاً خارجاً وقال: «أتدرون ما هذا؟». قلنا الله ورسوله أعلم، قال: «هذا الإنسان ـ للخط الذي في الوسط ـ وهذا الأجل محيط به، وهذه الأعراض ـ للخطوط التي حوله ـ تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا، وذاك الأمل ـ يعني الخط الخارج[1]». وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل[2]». وفي رواية «وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر». وقال رسول الله ﷺ: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل[3]». وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض، فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل، فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير! فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت، فقمت إلى مسحاتي. وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ «أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟». قالوا: نعم يا رسول الله قال: «قصروا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء[4]». وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل[5]».

الآثار: قال مطرف بن عبد الله: لو علمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقلي؟ ولكن الله تعالى منّ علي عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنؤوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق. وقال الحسن: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق وقال الثوري بلغني أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش: وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن: إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني، مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وصاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني، فراق الأحبة ـ محمد وحزبه ـ وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار. وقال بعضهم: رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت: أي الأعمال أبلغ عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل. وقال الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة. وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عن شهوة الطعام والشراب، ثم دعا ربه فرد عليه الأمل، فرجع إلى الطعام والشراب، وقيل للحسن: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟ فقال الأمر أعجل من ذلك. وقال الحسن: الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم. وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه. وقال داود الطائي: لو أملت أن أعيش شهراً لرأيتني قد أتيت عظيمًا، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار؟ وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرماني ـ وفي طرف كسائه شيء مصرور ـ فقال له أستاذه: إيش هذا معك؟ فقال: لوزات دفعها إليَّ أخ لي

---

(١) حديث ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً وخط وسطه خطاً. . . الحديث» رواه البخاري.

(٢) حديث أنس: يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان: الحرص والأمل» وفي رواية «ويشب معه اثنان: الحرص على المال والحرص على العمر» ورواه مسلم بلفظ الثاني ،ابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح.

(٣) حديث: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٤) حديث الحسن: «أكلكم يحب أن يدخل النار؟» قالوا: نعم يا رسول الله قال: «قصروا من الأمل. . . الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلاً.

(٥) حديث: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: أللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي ﷺ وفي إسناده ضعف وجهالة ولا أدري من حوشب.

وقال: أحب أن تفطر عليها، فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبداً، قال؛ فأغلق في وجهي الباب ودخل. وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: إن لكل سفر زاد لا محالة فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغتراً، وإنما تقرّعين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح من أمن من أهوال القيامة فأما من لا يداوي كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهي عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة، لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولوعنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما. وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد: فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام. وكتب آخر إلى أخ له: إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإنسان قريب وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في جسمه دبيب، فبادر قبل أن تنادي بالرحيل والسلام. وقال الحسن: كان آدم عليه السلام ـ قبل أن يخطيء ـ أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره. وقال عبد الله بن سميط: سمعت أبي يقول، أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتاً قط من غير سقم، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذاً قط من غير عدّة، إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدّم من لذاتك أبا لصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون، أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط، ثم يقال رحم الله عبداً عمل لما بعد، الموت، رحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول الوت، وقال أبو زكريا التيمي: بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور، فطلب من يقرؤه، فأتي بوهب بن منبه فإذا فيه: ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك غداً ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة، فبكى سليمان بكاء شديداً، وقال بعضهم: رأيت كتاباً من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فإن يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع، ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين، فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم، فياليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ففي هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين، فإنما نحن به وله والسلام.وخطب عمر بن عبد العزيز، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم، فخاب وشقى غداً عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجنته التي عرضها السمٰوات والأرض، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف واتقى وباع قليلاً بكثير وفانياً بباق وشقوة بسعادة، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عزوجل قد قضى

نحبه وانقطع أمله فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب، وايم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي، ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته وأستغفر الله ووضع كمه على وجهه وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات. وقال القعقاع بن حكيم: قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء. وقال الثوري: رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء. وقال عبد الله بن ثعلبة: تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار. وقال أبو محمد بن علي الزاهد: خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ فقعد ناحية وهي تدفن، فجئت فقعدت قريباً منه فتكلم فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم، واعلم أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور وإنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون، وروي أن معروفاً الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة، قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم، فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل. وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها الظعن عنها، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى، إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب، بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنها تسر قليلاً وتحزن طويلاً. وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في خطبته: أين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا!.

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم أنّ طول الأمل له سببان، أحدهما: الجهل، والآخر: حب الدنيا.

أما حب الدنيا: فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه. والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدّر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الإستعداد له سوّف ووعد نفسه وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر فيقول: إلى أن تصير شيخاً. فإذا صار شيخاً قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرغ من قهر هذا العدوّ الذي يشمت بك. فلا يزال يسوّف ويؤخر، ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون: واحزناه من سوف. والمسوف المسكين لا يدري أنّ الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدّة قوة ورسوخاً، ويظنّ أنه يتصوّر أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات! فما يفرغ منها إلا من طرحها.

فـما قضى أحـد منهـا لبـانـتـه　　　ومـا انـتـهـى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله ﷺ: «أحبب من أحببت فإنك مفارقه[1]» . -

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدّوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد، وإنما قلوا لأنّ الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب. وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أنّ ذلك غير بعيد، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد، وكل مرض فإنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً. ولو تفكر هذا الغافل وعلم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه، وهو أبداً يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدّر أن تشيع جنازته، لأنّ هذا قد تكرّر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه فإنه لم يقع، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد هذه، فهو الأوّل وهو الآخر، وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بدّ وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه ولا يدري فتسويفه جهل محض.

وإذا عرفت أنّ سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه.

(أما الجهل) فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

(وأما حب الدنيا) فالعلاج في إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الأوّلين والآخرين علاجه؛ ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير، فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدّر منغص، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده. ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا. أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً، وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً. فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة؟ وكيف تتفتت عظامها؟ وليتفكر أنّ الدود يبدأ بحدقته اليمنى أوّلاً أو اليسرى؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر. فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الإستعداد له.

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أنّ الناس في ذلك يتفاوتون؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله ﷺ: «الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا

---

(1) حديث: «أحبب من أحببت فانك مفارقة.. الحديث» تقدم غير مرة.

الذين اتقوا وقليل ما هم[1]». ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدّر لنفسه وجوداً في عالم قابل، ولكن هذا يستعدّ في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف. فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة. ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة، فلا يستعدّ إلا لنهاره وأما للغد فلا. قال عيسى عليه السلام: لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم. ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ: «يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح ومنهم من لا يقدّر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله ﷺ يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول: «لعلي لا أبلغه، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه فقال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى[1] وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أنه كان يصلي ليلاً ويلتفت يميناً وشمالاً فقال له قائل: ما هذا؟ قال: أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني.

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله، ﴿فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ـ ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل، وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب، إنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة، فيدل ذلك على طول أمله. وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح؛ وهكذا إذا أصبح. ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه. فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الإستعداد ولذة المناجاة؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد، فليكن الموت على بالك يا مسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل من نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادة العمل اغتناماً لكل نفس أمهلت فيه.

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غد. فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار. فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً يرى لنفسه متسعاً في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله ﷺ: «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غني مطغياً أو فقراً منسياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مقيداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال، فالدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر[3]». وقال ابن عباس؛ قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك

---

(١) حديث: «الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم» لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال».

(٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف.

(٣) حديث: «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً أو فقراً منسياً... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ: «هل ينتظرون إلا غناء... الحديث» وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم.

وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك[1]». وقال ﷺ:«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ[2]» أي أنه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما، وقال ﷺ:«من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية ألا أن سلعة الله الجنة[3]». وقال رسول الله ﷺ: «وجاءت تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه[4]». وكان رسول الله ﷺ إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرّة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمته إما بشقاوة وإما بسعادة[5]». وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد[6]، وقال ابن عمر: خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: «ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه[7] وقال ﷺ: «مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوّله إلى آخره فبقي متعلقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع[8] وقال جابر:«كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرّت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول. صبحتكم ومسيتكم «بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وقرن بين أصبعيه ـ [9] ». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تلا رسول الله ﷺ ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ فقال: «إن النور إذا دخل الصدر انفسح» فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ قال: «نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله[10]».

وقال السدي: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي أيكم أكثر للموت ذكراً وأحسن له استعداداً وأشد منه خوفاً وحذراً. وقال حذيفة:ما من صباح ولا مساء إلا ومنادي ينادي: يا أيها الناس الرحيل الرحيل. وتصديق ذلك قوله تعالى؛ ﴿إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخر﴾ في الموت. وقال سحيم ـ مولى بني تميم ـ جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل علي فقال؛ أرحني بحاجتك فإني أبادر، قلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت رحمك الله، قال: فقمت عنه وقام إلى صلاته. ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال: دعني! إنما أبادر خروج نفسي؛ قال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة. وقال المنذر: سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه: ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر؛ ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر! حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يراني. وكان الحسن يقول في موعظة: المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عزوجل، رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه! ثم قرأ هذه الآية: ﴿إنما نعدّ لهم عدّاً﴾ يعني الأنفاس، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهاداً شديداً، فقيل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟

---

(1) حديث إبن عباس: «إغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك... الحديث» أخرجه إبن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلاً.

(2) حديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ» أخرجه البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم.

(3) حديث: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن.

(4) حديث: «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة... الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب.

(5) حديث: «كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السليمي مرسلاً.

(6) حديث أبي هريرة «أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد» أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين.

(7) حديث إبن عمر: خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال: «ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن وللترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه.

(8) حديث: «مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح.

(9) حديث جابر: كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه... الحديث» أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له.

(10) حديث ابن مسعود: تلا رسول الله ﷺ ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ فقال:«إن النور إذا دخل القلب انفسح... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرك وقد تقدم.

فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلي أقل من ذلك! قال: فلم يزل على ذلك حتى مات. وكان يقول لامرأته: شدي رحلك فليس على جهنم معبرة. وقال بعض الخلفاء على مبره: عباد الله اتقوا الله مااستطعتم وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، واستعدّوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جدّ بكم، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يجدّ به الجديد أن الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة، وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدّة، فالتقي عند ربه من ناصح نفسه وقدّم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له، والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوّفها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيا لها حسرة على ذي غفلة أو يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فعال لما يشاء.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فتنتم أنفسكم﴾ قال بالشهوات واللذات: ﴿وتربصتم﴾ قال بالتوبة: ﴿وارتبتم﴾ قال شككتم: ﴿حتى جاء أمر الله﴾ قال الموت: ﴿وغركم بالله الغرور﴾ قال الشيطان وقال الحسن: تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعي الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم. وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤادة. وقال أبو عبيدة الباجي: دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحباً بكم وأهلاً حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن، فإن من رأى محمداً ﷺ فقد رآه غادياً ورائحاً لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معاً، رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً فأكل كسرة ولبس خلقاً ولزق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[1]. وقال عاصم الأحول: قال لي فضيل الرقاشي ـ وأنا سائله ـ يا هذا لا يشغلك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار في لا شيء، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم.

الباب الثالث: في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك. وقال لقمان لابنه. يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جدي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إلا بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإما الاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه. فأما القياس الذي يشهد له: فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم، فإذا كان فيه الروح فالمدرك

---

(١) حديث أبي عبيدة الباجي: دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحباً بكم... الحديث. أخرجه إبن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه.

للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم، والمؤلم ينفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده!

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الإحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم.

وأما الجراحة: فإنما تصيب الموضع الذي مسه الحديد فقط، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم، فلا تسأل عن كربه وألمه، حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه، وبلغ كل موضع منه فهدّ كل قوّة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوّة الإستغاثة.

أما العقل فقد غشيه وشوّشه. وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد ضعفها. ويود لو قدر على الإستراحة بالأنين والصياح والإستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره، وقد تغير لونه واربدّ حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته، وقد جذب منه كل عرق على حياله، فالألم منتشر في داخله وخارجه، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه، وتتقلص الشفتان، ويتقلص اللسان إلى أصله، وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما، وتخضر أنامله.

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه! ولو كا ن المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق. ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجاً فتبرد أوّلاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة، وقال رسول الله ﷺ: «تقبل توبة العبد مالم يغرغر[1]». وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ قال: إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه مالك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته! ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم هوّن على محمد سكرات الموت[2]». والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوّة والولاية، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن علي هذه السكرة - يعني الموت - فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت، وروي أن نفراً من إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض: لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألونه؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال: يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي. وقالت عائشة رضي الله عنها: لا أغبط أحد يهوّن عليه الموت بعد الذي

---

(١) حديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر.

(٢) حديث كان يقول: «اللهم هون على محمد سكرات الموت» تقدم.

رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ وروي أنه عليه السلام كان يقول: «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل. اللهم فأعني على الموت وهوّنه علي[1]». وعن الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال: «هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف[2]». وسئل ﷺ عن الموت وشدّته فقال: «إن أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف[3]». ودخل ﷺ على مريض ثم قال: «إني أعلم ما يلقى ما منه عرق إلا ويألم للموت على حدته[4]». وكان علي كرّم الله وجهه يحض على القتال ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من موت على فراش. وقال الأوزاعي: بلغنا أنّ الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره. وقال شدّاد بن أوس: الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشدّ من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدور، ولو أنّ الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هوّن عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفة فيصير إلى النار. وعن بعضهم: أنه كان يسأل كثيراً من المرضى كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأنّ السمٰوات مطبقة على الأرض وكأنّ نفسي يخرج من ثقب إبرة. وقال ﷺ: «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر[5]».
وروي عن مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أنّ شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السمٰوات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى لأن في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشيء إلا مات[6]». ويروى «لو أنّ قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت[7]». وروي أنّ إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له: كيف وجدت الموت يا خليلي قال: كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب. فقال: أما إنا قد هوّنا عليك. وروي عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه: يا موسى كيف وجدت الموت، قال: وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير، وروي عنه أنه قال: وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب. وروي عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللهم هوّن علي سكرات الموت[8]». وفاطمة رضي الله عنها تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه! وهو يقول: «لا كرب على أبيك بعد اليوم[9]». وقال عمر رضي الله عنه

---

(١) حديث كان يقول: «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعبة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي.

(٢) حديث الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال: «هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلاً ورجاله ثقات.

(٣) حديث: سئل عن الموت وشدته فقال: «إن أهون الموت بمنزلة حسكة... الحديث» أخرجه إبن أبي الدنيا فيه من رواية شهر ابن حوشب مرسلاً.

(٤) حديث: دخل على مريض فقال: «إني لأعلم ما يلقي ما منه عرق إلا ويألم للموت على حدته» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلاً مع اختلاف ورجاله ثقات.

(٥) حديث: «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر» اخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد صحيح قال: «وأخذة أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي «موت الفجأة أخذة أسف».

(٦) حديث مكحول «لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا... الحديث» أخرجه إبن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه «لو أن ألم شعرة وزاد «وإن في يوم القيامة لتسعين هولاً أدناها هولاً يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف» وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد.

(٧) حديث: «لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت» لم أجد له أصلاً ولعل المصنف لم يورده حديثاً فإنه قال: ويروى.

(٨) حديث: إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللهم هون عليّ سكرات الموت» متفق عليه من حديث عائشة.

(٩) حديث: إن فاطمة قالت واكرباه لكربك يا أبت... الحديث. أخرجه البخاري من حديث أنس بلفظ: واكرب أبتاه، وفي رواية لابن خزيمة: واكرباه.

لكعب الأحبار يا كعب حدثنا عن الموت؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين إنّ الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى وقال النبي ﷺ: « تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة[1] » .

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه. فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث:

(الداهية الأولى) شدّة النزع كما ذكرناه .

(الداهية الثانية) مشاهدة صورة ملك الموت ودخل الروع والخوف منه على القلب؛ فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوّة لم يطق رؤيته. فقد روي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك، قال: بلى قال: فأعرض عني فأعرض عنه. ثم التفت فإذا هو برجل أسود قاتم الشعر، منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان؛ فغشي على إبراهيم عليه السلام. ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه: وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «أنّ داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان إذا خرج أغلق الأبواب، فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار فقالت: من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء؟ فجاء دواد فرآه فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنع مني الحجاب، فقال: فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه[2]». وروي أنّ عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال: تكلمي بإذن الله فقالت: يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا، بينما أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي، إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله، ثم خرجت نفسي إليه، فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة! ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة! فهذه ناهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون، فقد حكى الأنبياء مجرّد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك، ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره! فكيف برؤيته في مثل تلك الحال؟.

وأما المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام: كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال: من أدخلك داري؟ فقال؛ أدخلنيها ربها! فقال: أنا ربها، فقال: أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك، فقال: من أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت، قال: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض بها روح المؤمن؟ قال: نعم، فأعرض عني، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه ورطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين. قال وهيب: بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله، فإن كان مطيعاً قالا له: جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا، وإن كان فاجراً قالا له: لا جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيراً. فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبداً.

(الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة؛ فإنهم في حال السكرات قد

---

(١) حديث: «إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض... الحديث» رويناه في الأربعين لأبي هدية إبراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك.

(٢) حديث أبي هريرة: «إن داود كان رجلاً غيوراً... الحديث» أخرجه أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه.

تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين: إما أبشر يا عدوّ الله بالنار، أو أبشر يا ولي الله بالجنة. ومن هذا كان خوف أرباب الألباب، وقد قال النبي ﷺ: «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار[1]». وقال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». فقالوا: كلنا نكره الموت قال: «ليس ذلك بذاك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه[2]». وروي أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود ـ وهو لما به من آخر الليل: قم فانظر أي ساعة هي؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال: قد طلعت الحمراء فقال حذيفة: «أعوذ بالله من صباح إلى النار». ودخل مروان على أبي هريرة، فقال مروان: اللهم خفف عنه، فقال أبو هريرة: اللهم اشدد! ثم بكى أبو هريرة وقال: والله ما أبكي حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار. وروي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله إذا رضي عن عبد قال: يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه، حسبي من عمله، قد بلوته فوجدته حيث أحب؛ فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه، معهم الريحان، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ». قال فيقول له جنوده: مالك يا سيدنا فيقول: أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا؟ قالوا: قد جهدنا به فكان معصوماً[3]». وقال الحسن: لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه. وقيل لجابر بن زيد ـ عند الموت: ما تشتهي؟ قال: نظرة إلى الحسن، فلما دخل عليه الحسن قيل له: هذا الحسن! فرفع طرفه إليه ثم قال: يا إخوناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة وقال محمد بن واسع ـ عند الموت: يا إخوناه عليكم السلام! إلى النار أو يعفو الله وتمنى بعضهم أن يبقى في النزع أبداً ولا يبعث لثواب ولا عقاب. فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت. وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع. ولكننا لا نطول بذكره وإعادته.

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون! ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى.

(أما الصورة) فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ارقبوا الميت عند ثلاث: إذا رشح جبينه ودمعت عيناه

---

(١) حديث: «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار» أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفاً «لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار» وفي رواية: «حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار» وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك: «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته... الحديث».

(٢) حديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه... الحديث» متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

(٣) حديث: «إن الله إذا رضى على عبده قال: يا ملك الموت إذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه في آخره ما دلّ على أنه مرفوع وللنسائي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح: «إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: أخرجي راضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان... الحديث».

ويبست شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به، وإذا غط غطيط المخنوق واحمرّ لونه واربدّت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به[1]».

(وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة) فهي علامة الخير، قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله[2]». وفي رواية حذيفة: «فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا[3]». وقال عثمان: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة[4]». وقال عبيد الله: «وهو يشهد». وقال عثمان: إذا احتضر الميت فلقنوه «لا إله إلا الله» فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة. وقال عمر رضي الله عنه: احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم: لا إله إلا الله. وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حضر ملك الموت رجلاً يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئاً، ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقاً بحنكه يقول: لا إله إلا الله، فغفر له بكلمة الإخلاص[5]».

وينبغي للملقن أن لا يلمح في التلقين ولكن يتلطف، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة.

وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان مقدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه. وإن كان القلب مشغوفاً بالدنيا ملتفتاً إليها متأسفاً على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها، وقع الأمر في خطر المشيئة، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول.

(وأما حسن الظنّ) فهو مستحب في هذا الوقت ـ وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء ـ وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظنّ بالله. ودخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟ قال: أغرقتني ذنوب لي وأشرفت على هلكه ولكني أرجو رحمة ربي! فكبر واثله وكبر أهل البيت بتكبيره وقال: الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقول الله تعالى أنا عند ظنّ عبدي بي فليظن بي ما شاء». ودخل النبي ﷺ على شاب وهو يموت فقال: «كيف تجدك»[6] قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال النبي ﷺ: «ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف[7]». وقال ثابت البناني. كان شاب به حدّة وكان له أم تعظه كثيراً وتقول له. يا بني إن لك يوماً فاذكر يومك، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له: يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوماً، فقال: يا أمه إن لي رباً كثير المعروف وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه، قال ثابت: فرحمه الله بحسن ظنه بربه. وقال جابر بن وداعة: كان شاب به رهق فاحتضر، فقالت له أمه: يا بني توصي بشيء؟ قل: نعم، خاتمي لا تسلبينيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني، فلما دفن رؤي في المنام فقال: أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتني وأن الله قد غفر لي. ومرض أعرابي فقيل له إنك تموت، فقال: أين يذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه. وقال أبو المعتمر بن سليمان: قال أبي لما حضرته الوفاة: يا

---

(١) حديث: «ارقبوا الميت عند ثلاث: إذا رشح جبينه وذرفت عيناه... الحديث» أخرجه الترمذي والحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح.

(٢) حديث: «لقنوا موتاكم: «لا إله إلا الله» تقدم.

(٣) حديث حذيفة: فإنها تهدم ما قبلها. تقدم.

(٤) حديث: من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة. تقدم.

(٥) حديث أبي هريرة: حضر ملك الموت رجلاً يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئاً... الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلاً لم يسم وسمي في رواية الطبراني إسحٰق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف.

(٦) حديث: دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟ وفيه: «يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء» أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب . له جميعاً.

(٧) حديث: دخل على شاب وهو يموت فقال: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي... الحديث» تقدم.

معتمر حدّثني بالرخص لعلي ألقى الله عزوجل وأنا حسن الظنّ به وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم: سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت ـ واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه ـ فقال: يا ملك الموت ما تصنع. إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع؟ قال: أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين؛ وقال: قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء، قال وهو يبشره بأنه خليل الله عزوجل. وقال سليمان بن دواد عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالي لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا؟ قال ما أنا بذلك بأعلم منك! إنما هي صحف أو كتب تلقى إلي فيها أسماء، وقال وهب بن منبه: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه ـ بعد مرات ـ وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه، حتى أتي بدواب فركب أحسنها؛ فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبراً. ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام، فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمر عظيماً! قال إن لي إليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن، فقهره على لجام دابته فقال اذكرها! قال، هو سر، فأدنى له رأسه فسارّه وقال، أنا ملك الموت! فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال لا والله لا نرى أهلك وثقلك أبداً! فقبض روحه فخرّ كأنه خشبة، ثم مضى فلقي عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فسارّه وقال أنا ملك الموت! فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته علي فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك! فقال ملك الموت أقض حاجتك التي خرجت لها، فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى! قال فاختر علي أي حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال تقدر على ذلك؟ قال نعم إني أمرت بذلك، قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالاً فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي؟ فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليه بكى تحسراً عليه، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك؟ فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرّق بين روحك وبدنك! قال فالمهلة حتى أفرّقه قال هيهات انقطعت عنك المهلة! فلا كان ذلك قبل حضور أجلك؟ فقبض روحه. وروي أنّ رجلاً جمع مالاً فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذه، وابتنى قصراً وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرساً من غلمانه، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال يا نفسي أنعمي لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك؟ فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين، فقرع الباب بشدّة عظيمة قرعاً أفزعه وهو على فراشه، فوثب إليه الغلمان وقالوا ما شأنك؟ فقال ادعوا إليّ مولاكم فقالوا وإلى مثلك لا يخرج مولانا؟ قال نعم فأخبروه بذلك فقال: هلا فعلتم به وفعلتم، فقرع الباب قرعة أشدّ من الأولى، فوثب إليه الحرس فقال: أخبروه أني ملك الموت، فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع، فقال قولوا له قولاً ليناً وقولوا هل تأخذ به أحداً؟ فدخل عليه وقال أصنع في مالك ما أنت صانع، فإني لست بخارج منها حتى أخرج روحك، فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال! أنت شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي، فانطق الله المال فقال لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتقي عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بي وتجلس مجالس الملوك بي وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك؟ خلقت يا ابن ادم من

تراب فمنطلق ببر ومنطلق بإثم، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط. وقال وهب بن منبه: قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله! ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا متعهد له بها. فقالت الملائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء! قال عطاء بن يسار:إذا كانت ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض في هذه السنة من هذه الصحيفة قال فإنّ العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبني البنيان وإنّ اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري. وقال الحسن:ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول، والله ما أكلت له رزقاً ولا أفنيت له عمراً ولا انتقصت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقي منكم أحداً. قال الحسن:فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكواعلى أنفسهم، وقال يزيد الرقاشي بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض أهله، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعاً مغضباً فقال له من أنت ومن أدخلك على داري؟ فقال أما الذي أدخلني الدار فر منها، وأما أنا فالذي لا يمنع من الحجاب ولا أُستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد؟ قال فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكباً على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستجدياً متذللاً له فقال له أنت إذن ملك الموت! قال أنا هو، قال فهل أنت بممهل حتى أحدث عهداً؟ قال هيهات! انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل! قال فإلى أين تذهب بي؟ قال إلى عملك الذي قدّمته وإلى بيتك الذي مهدته، قال فإني لم أقدم عملاً صالحاً ولم أمهد بيتاً حسناً، قال فإلى لظى نزاعة للشوى، ثم قبض روحه فسقط ميتاً بين أهله، فمن بين صارخ وباك. قال يزيد الرقاشي لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر. وعن الأعمش عن خيثمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل من هذا؟ قال هذا ملك الموت، قال لقد رأيته ينظر إلي كأنه يريدني قال فماذا تريد؟ قال أريد أن تخلصني منه فتأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند! ففعلت الريح ذلك، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانياً رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي، قال نعم كنت أتعجب منه لأني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك!.

الباب الرابع

في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله ﷺ

اعلم أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ـ حياً وميتاً وفعلاً وقولاً ـ وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين، إذا لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه، وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام، فجدوا بروحه الزكية لينقلوها، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة رضوان، وخيرات حسان، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن، فاشتد مع ذلك في النزع كربه وظهر أنينه، وترادف قلقه وارتفع حنينه، وتغير لونه وعرق جبينه، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه، حتى بكى لمصرعه من حضره، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة دافعاً عنه مقدوراً؟ وهل راقب الملك فيه أهلاً وعشيراً؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيراً ونذيراً؟ هيهات! بل امتثل

ما كان به مأموراً واتبع ما وجده في اللوح مسطوراً فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود، والحوض المورود، وهو أوّل من تنشق عنه الأرض، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض، فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات! وقرناء المعاصي والسيئات! فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين، لعلنا نظن أننا مخلدون، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون، هيهات! هيهات! بل نتيقن أنا جميعاً على النار واردون، ثم لا ينجو منها إلا المتقون، فنحن للورود مستيقنون، وللصدور عنها متوهمون، لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين، فما نحن والله من المتقين، وقد قال الله رب العالمين: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتًما مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين. ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين، إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا! وكيف اشتدّ أمره عند الإنقلاب إلى جنة المأوى، قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق، فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال: «مرحباً بكم حياكم الله، آواكم الله، نصركم الله، وأوصيكم بتقوى الله وأوصي بكم الله، إني لكم منه نذير مبين، ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل، والمنقلب إلى الله وإلى سدره المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى، فاقرؤوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ورحمة الله[(1)]». وروي أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته: «من لأمتي بعدي» فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته، وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته. فقال: «الآن قرت عيني[(2)]». وقالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال: «أما بعد: يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على التي هي عليها اليوم، وإنّ الأنصار عيبتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم - يعني محسنهم - وتجاوزوا عن مسيئهم». ثم قال: «إن عبداً خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله». فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه، فقال النبي ﷺ: «على رسلك يا أبا بكر سدّوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم امرأ أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر[(3)]». قالت عائشة رضي الله عنها: فقبض ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل على أخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك، فقلت له: آخذه لك، فأومأ برأسه أن؛ نعم، فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتدّ عليه فقلت: ألينه لك؟ فأومأ برأسه أن نعم، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها ويده ويقول: «لا إله

---

(1) حديث ابن مسعود: دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق... الحديث» رواه البزار وقال: هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة، قال: وعبد الرحمن الأصبهاني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة، قال: ولا أعلم أحداً رواه عن عبد الله غير مرة. قلت: وقد روي من غير ما وجه. رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود. ورويناه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنها منقطعان وضعيفان، والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط.

(2) حديث: أنه ﷺ قال لجبريل عند موته: «من لأمتي بعدي» فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته... الحديث» أخرجه الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه «من لأمتي المصطفاة من بعدي» قال: أبشر يا حبيب الله فإن الله عزّ وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال: «الآن طابت نفسي» وإسناده ضعيف.

(3) حديث عائشة: أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد... الحديث» أخرجه الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن إسحٰق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة.

إلا الله إن للموت لسكرات». ثم نصب يده يقول: «الرفيق الأعلى... الرفيق الأعلى». فقلت: إذن والله لا يختارنا[1]. وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال: لما رأت الأنصار أنّ النبي ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه علي رضي الله عنه فأعلمه بمثله، فمدّ يده وقال: «ها» فتناولوه، فقال «ما تقولون!». قالوا: نقول: نخشى أن تموت، وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ، فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئاً على علي والفضل، والعباس أمامه، ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر، وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت، وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم؟ هل خلد نبي قبلي فيمن بعث فأخلد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون به وإني أوصيكم بالمهاجرين الأوّلين خيراً وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإنّ الله عزوجل قال: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا. إلى آخرها ـ وإن الأمور تجري بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإنّ الله عزوجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذي تبوؤوا الدار والإيمـان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن ولي يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم ولتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون بي، ألا وإنّ موعدكم الحوض، حوض أعرض مما بين بصري الشام وصنعاء اليمن، يصب فيه ميزاب الكوثر، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد، من شرب منه لم يظمأ أبداً، حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك، من حرمه من الموقف غداً حرم الخير كله، ألا فمن أحب أن يرده علي غداً فليكفف لسانه ويده إلا مما ينبغي فقال العباس: «يا نبي الله أوص بقريش!» فقال: «إنما أوصي بهذا الأمر قريشاً والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم، فاستوصوا آل قريش بالناس خيراً، يا أيها الناس إنّ الذنوب تغير النعم وتبدل القسم، فإذا بر الناس برهم أئمتهم وإذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾[2]». وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «سل يا أبا بكر» فقال يا رسول الله دنا الأجل؟ فقال: «قد دنا الأجل وتدلى» فقال ليهنك يا نبي الله ما عند الله! فليت شعري عن منقلبنا، فقال: «إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنا». فقال: يا نبي الله من يلي غسلك؟ قال: «رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى». قال ففيم نكفنك؟ فقال: «في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي بياض مصر». فقال كيف الصلاة عليك منا؟ وبكينا وبكى ثم قال: «مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً. إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفيرى قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإنّ من يدخل عليّ من خلق الله ويصلي على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة، ثم الملائكة بأجمعها ﷺ أجمعين، ثم أنتم فادخلوا علي أفواجاً فصلوا علي أفواجاً زمرة زمرة وسلموا تسليمًا، ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى، ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان» قال: فمن يدخلك القبر؟ قال: «زمر من أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم

---

(١) حديث عائشة: قبض في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت... الحديث» متفق عليه.

(٢) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال: لما رأت الأنصار رسول الله ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد، فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر... الحديث في خروجه متوكئاً معصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر. فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلاً وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي. روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوي.

يرونكم قوموا فأدوا عني إلى من بعدي[٣]». وقال عبد الله بن زمعة: جاء بلال في أوّل شهر ربيع الأوّل فأذن بالصلاة فقال رسول الله ﷺ: «مروا أبا بكر يصلي بالناس» فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، فقام عمر فلما كبر وكان رجلاً صيتاً سمع رسول الله ﷺ صوته بالتكبير فقال: «أين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون» قالها ثلاث مرات: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء! فقال: «إنكن صويحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس». قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر، فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة ـ بعد ذلك ـ ويحك ماذا صنعت بي! والله لولا أني ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك ما فعلت. فيقول عبد الله: إني لم أر أحداً أولى بذلك منك! قالت عائشة رضي الله عنها: وما قلت ذاك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا، ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله، وخشيت أيضاً أن لا يكون الناس يحبون رجلاً صلى في مقام النبي ﷺ وهو حي أبداً إلا أن يشاء الله، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الأمر أمر الله والقضاء قضاؤه، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين[٢]. وقالت عائشة رضي الله عنها: فاذا كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين، وأخلوا رسوله الله ﷺ بالنساء، فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك، قال رسول الله ﷺ: «اخرجن عني! هذا الملك يستأذن علي» فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلاً، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة «ادخلن« فقلت: ما هذا بحس جبريل عليه السلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال: إن الله عزوجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بإذن، فإن لم تأذن لي أرجع وإن أذنت لي دخلت، وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فماذا أمرك فقلت: أكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السلام، فهذه ساعة جبريل». فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها؛ فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئاً وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا، قالت، وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال: إن الله عزوجل يقرأ عليك السلام ويقول؛ كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة في أمتك فقال: «أجدني وجعاً» فقال: أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال: «يا جبريل إن ملك الموت استأذن علي». وأخبره الخبر فقال جبريل: يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك؟ لا والله تعالى ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبداً، إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق، قال: «فلا تبرح إذن حتى يجيء» وأذن للنساء فقال: «يا فاطمة ادني» فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام، ثم قال «ادني مني رأسك» فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام، فكان الذي رأينا منها عجباً،

---

(١) حديث ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر «سل يا أبا بكر» فقال: يا رسول الله دنا الأجل؟ فقال: «قد دنا الأجل... الحديث» في سؤالهم له: من يلي غسلك وفيم نكفنك؟ وكيفية الصلاة عليه» رواه إبن سعد في الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

(٢) حديث عبد الله بن زمعة: جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي ﷺ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر... الحديث» أخرجه أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصراً دون قوله: «فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق... إلى آخره» ولم يقل: في أول ربيع الأول، وقال «مروا من يصلي بالناس» وقال: «يأبى الله ذلك والمؤمنون» مرتين في رواية له فقال: «لالالا... ليصل **بالناس** ابن أبي قحافة» يقول ذلك مغضباً، وأما ما في آخره من قول عائشة ففي الصحيحين من حديثها فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء! فقال: «إنكن صويحبات يوسف مروا أبا بكرفليصل بالناس».

فسألتها بعد ذلك فقالت أخبرني وقال: «إني ميت اليوم». فبكيت ثم قال: «إني دعوت الله أن يلحقك بي في أوّل أهلي وأن يجعلك معي» فضحكت وأدنت ابنيها منه فشمهما قالت: وجاء ملك الموت واستأذن فأذن له فقال الملك: ما تأمرنا يا محمد؟ قال: «الحقني بربي الآن». فقال:بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت: وجاء جبريل فقال:السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبداً «طوى الوحي وطويت لدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك، ومالي فيها حاجة إلا حضورك، ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمداً بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا، قالت: فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره. وجعل يغمي عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط، فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له ـ إذا أفاق ـ بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح؟ فقال: «يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار» فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا، فكان أوّل رجل جاءنا ولم يشهده أخي، بعثه إلى أبي، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد، وإنما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أغمي عليه قال: «بل الرفيق الأعلى». كأن الخيرة تعاد عليه، فإذا أطاق الكلام قال: «الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعاً». الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول: «الصلاة الصلاة[1]». قالت عائشة رضي الله عنها: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين[2]. قالت فاطمة رضي الله عنها: ما لقيت من يوم الإثنين، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم: يوم أصيب علي كرّم الله وجهه بالكوفة مثلها: ما لقيت من يوم الإثنين، مات فيه رسول الله ﷺ، وفيه قتل علي؛ وفيه قتل أبي، فما لقيت من يوم الإثنين. وقالت عائشة رضي الله عنها: لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس ـ حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه ـ فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان، وبقي آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون. فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته، وعلي فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس. فخرج عمر على الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وليرجعنه الله عزوجل، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت، إنما

---

(١) حديث عائشة: لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله ﷺ: «اخرجن عني، هذا ملك يستأذن علي... الحديث» بطوله في مجيء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته ﷺ، أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه: فلما كان يوم الإثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد ﷺ في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه. وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال «يا ملك الموت أين خلفت جبيبي جبريل» قال خلفته في سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك، فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له، وفيه إذن يا ملك الموت فانته إلى ما أمرت به... الحديث. وفيه: فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي ﷺ وذكر كربه لذلك، إلى أن قال: فقبض رسول الله ﷺ، وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكر، وفيه عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد: كان يكذب على وهب بن منبه، وأبوه إدريس أيضاً متروك قاله الدارقطني، ورواه الطبراني أيضاً من حديث الحسين بن علي: أن جبريل جاءه أولاً فقال له عن ربه.كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وإن جبريل دخل أولاً فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله «امض لما أمرت به» وهو منكر أيضاً فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضاً من حديث إبن عباس في مجيء ملك الموت أولاً واستئذانه وقوله: إن ربك يقرئك السلام فقال: «أين جبريل» فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل... الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث.

(٢) حديث عائشة: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين. رواه ابن عبد البر.

واعده الله عزوجل كما واعد موسى وهو آتيكم[1] وفي رواية أنه قال: يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله ﷺ فإنه لم يمت، والله لا أسمع أحداً يذكر أن رسول الله ﷺ قد مات إلا علوته بسيفي هذا. وأما علي فإنه أقعد فلا يبرح البيت. وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا ـ يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ـ ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عزوجل أيدهما بالتوفيق والسداد، وإن كان الناس لم يرعووا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال: والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت، ولقد قال وهو بين أظهركم ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾.

وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله تعالى ليذيقك الموت مرتين، فقد والله توفي رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى الناس فقال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت قال الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من بعده الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم... الآية﴾[2]. فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ. وفي رواية؛ أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ ـ وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال ـ فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت أمي ونفسي وأهلي طبت حياً وميتاً انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوّة، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لحزنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء العيون، فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وادّكار محالفان لا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا[3]. وعن ابن عمر: أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجاً سمعه أهل المصلى، كلما ذكر شيئاً ازدادوا، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال: السلام عليكم يا أهل البيت ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ الآية إن في الله خلفاً من كل واحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل مخافة، فالله تعالى فارجوا وبه فثقوا. فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحداً، ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته: يا أهل البيت اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين، إنّ في الله عزاء من كل مصيبة

---

(١) حديث عائشة: لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس ـ حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه ـ فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم ولا بعد البعد، وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون. وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته، وعلي فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس. فخرج عمر على الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت... الحديث إلى قوله ﴿عند ربكم تختصمون﴾ لم أجد له أصلاً وهو منكر.

(٢) حديث: بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين... الحديث. إلى آخر قوله: وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة: أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله ﷺ وهو مغشي بثوب حسرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال: بأبي وأمي أنت، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها. ولهما من حديث ابن عباس: أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس... الحديث. وفيه: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر. لفظ البخاري فيهما.

(٣) حديث: إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ ـ وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الحرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال ـ فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه... الحديث، إلى قوله: واحفظه فينا، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف: جاء أبو بكر ورسول الله ﷺ مسجى فكشف الثوب عن وجهه... الحديث إلى آخره.

وعوضاً من كل رغيبة، فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا. فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي ﷺ[1] واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال: قام أبو بكر في الناس خطيباً حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فالله الحمد وحده وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه، وأشهد أن الكتاب كما شرع وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة اللهم قرّب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد، أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يمت، وإن الله قد تقدّم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً، فإن الله عزوجل قد اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ﷺ فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم.

وقال ابن عباس: لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله ﷺ؟ أما ترى أن نبي الله ﷺ قال يوم كذا: كذا ويوم كذا: كذا وكذا وقال تعالى في كتابه: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ فقال: والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله ﷺ. ثم جلس إلى أبي بكر.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما اجتمعوا لغسله قالوا: والله ما ندري كيف نغسل رسول الله ﷺ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله في ثيابه؟ قالت: فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائماً ثم قال قائل ـ لا يدري من هو ـ غسلوا رسول الله ﷺ في ثيابه، فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله ﷺ في قميصه. حتى إذا فرغوا من غسله كفن. وقال علي كرم الله وجهه: أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله ﷺ ثيابه. فأقررناه فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا مستلقياً ما نشاء

---

(١) حديث ابن عمر في سماع التعزية به ﷺ: إن في الله خلفاً من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا. ثم سمعوا آخر بعده: إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل رغيبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا. فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع. لم أجد فيه ذكر «اليسع» وأما ذكر «الخضر» في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال: إنما ذكره الأصحاب. قلت: بلى قد رواه الحاكم في المستدرك في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضاً قال: لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بعضادتي باب البيت فبكى على رسول الله ﷺ ثم أقبل على أصحابه فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا ونظره إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبره الثواب. ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر: على الرجل، فنظروا يميناً وشمالاً فلم يروا أحداً، فقال أبو بكر: لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا. ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جداً ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث علي بن أبي طالب: لما قبض رسول الله ﷺ جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضاً من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم. فقال علي: تدرون من هذا؟ هو الخضر. وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والمعروف عن علي بن الحسين مرسلاً من غير ذكر علي كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر «الخضر».

أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه، وإن معنا لحفيفاً في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله ﷺ ولم يترك سبداً ولا لبداً إلا دفن معه. قال أبو جعفر؛ فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش، ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة[1] ففي وفاته عبرة تامة للمسلمين به أسوة حسنة.

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمـرك ما يغني الثـراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذا ولكن قولي: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت. وقالت عائشة رضيَ الله عنها عند موته:

وأبيض يستسقى الغمـام بـوجهـه ... ربيـع اليتـامى عصمـة لـلأرامـل

فقال أبو بكر: ذاك رسول الله ﷺ، ودخلوا عليه فقالوا: ألا ندعوا لك طبيبنا ينظر إليك؟ قال قد نظر إلي طبيبي وقال: إني فعال لما أريد. ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده فقال: يا أبا بكر أوصنا فقال: إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذنّ منها إلا بلاغك، واعلم أن من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك.

ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف، فاستخلف عمر رضي الله عنه، فقال الناس له: استخلفت علينا فظاً غليظاً فماذا تقول لربك؟ فقال: أقول استخلفت على خلقك خير خلقك. ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه فجاء فقال: إني موصيك بوصية؛ اعلم أن لله حقاً في النهار لا يقبله في الليل وأن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهار، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل. وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف، وأن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فيقول القائل: أنادون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا، فيقول القائل: أنا أفضل من هؤلاء، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهباً ولا يلقي بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدّ لك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه.

وقال سعيد بن المسيب: لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا: يا خليفة رسول الله ﷺ زوّدنا فإنا نراك لما بك. فقالوا أبو بكر: من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق المبين، قالوا: وما الأفق المبين؟ قال: قاع بين يدي العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار، يغشاه كل يوم مائة رحمة، فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان «اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم، ثم جعلتهم فريقين فريقاً للنعيم وفريقاً للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير، اللهم إنك خلقت

---

(١) حديث أبي جعفر: فرش لحده بمفرشه وقطيفته، وفيه: فلم يترك بعد وفاته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أما وضع المفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله ﷺ وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا، وأما كونه لم يترك مالاً فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته فتقدم أيضاً.

الخلق فرقت وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقياً وسعيداً وغوياً ورشيداً، فلا تشقني بمعاصيك. اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت، فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك اللهم إنّ أحد الا يساء حتى تشاء، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني إليك اللهم إنك قد قدّرت حركات العبادة فلا يتحرّك شيء إلا بإذنك، فاجعل حركاتي في تقواك. اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به، فاجعلني من خير القسمين. اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلاً، فاجعلني من سكان جنتك. اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم، فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي، اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك. فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقرّبني إليك زلفى. اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك، فأنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوّة إلا بالله» قال أبو بكر: هذا كله في كتاب الله عزوجل:

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون «كنت قائماً غداة أصيب عمر. ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس، وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما، فإذا رأى خللاً قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدّم فكبر. قال: وربما قرأ سورة يوسف أو النحل ـ أو نحو ذلك ـ في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن أكبر فسمعته يقول: قتلني ـ أو أكلني ـ الكلب، حين طعنه أبو لؤلؤة، وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمرّ على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، فمات منهم تسعة ـ وفي رواية سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر رضي الله تعالى عنه عبد الرحمن ابن عوف فقدّمه، فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت، وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله! فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن العباس انظر من قتلني! قال: فغاب ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة بن شعبة، فقال عمر رضي الله عنه: قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفاً. ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل مسلم، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة! وكان العباس أكثرهم رقيقاً فقال ابن عباس: إن شئت فعلت؛ أي إن شئت قتلناهم، قال: بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم! فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال: وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ! قال: فقائل يقول أخاف عليه، وقائل يقول لا بأس. فأتي بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشرب منه فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت. قال: فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عزوجل؛ قد كان لك صحبة من رسول الله ﷺ وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، فقال: وددت أن ذلك كان كفافاً لا علي ولا لي. فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال: ردوا عليّ الغلام، فقال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك. ثم قال: يا عبد الله انظر ما علي من الدين؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، فقال: إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم؛ وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، وأد عني هذا المال وانطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقال: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأؤثرنه اليوم على نفسي! فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال: أرفعوني، فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال: الحمد لله ما كان شيء

أهم إلي من ذلك! فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر! فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً فسمعنا بكاءها من داخل. فقالوا: أوصي يا أمير المؤمنين واستخلف، فقال: ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء، كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعداً فذاك وإلا فليستعن به أيكم أمر، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة. وقال أوصى الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل عن محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدوّ وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن لا يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله عزوجل وذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من وراءهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم. قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي، فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب، فقالت أدخلوه فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه... الحديث.

وعن النبي ﷺ قال: «قال لي جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر[1]». وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكفنه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعن إلا رجل قد أخذ بمنكبي فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال ما خلفت أحد أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك! وايم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر[2]». فإني كنت ـ لأرجو أن لأظن ـ أن يجعلك الله معهما.

وفاة عثمان رضي الله عنه

الحديث في قتله مشهور. وقد قال عبد الله بن سلام: أتيت أخي عثمان لأسلم عليه وهو محصور، فدخلت عليه فقال مرحباً يا أخي! رأيت رسول الله ﷺ الليلة في هذه الخوخة ـ وهي خوخة في البيت ـ فقال: «يا عثمان حصروك؟». قلت نعم، قال: «عطشوك» قلت نعم، فأدلى إلى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت ـ حتى إني لأجد برده بين ثدي وبين كتفي ـ وقال لي: «إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا». فاخترت أن أفطر عنده! فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه. وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط؟ قالوا سمعناه يقول، اللهم اجمع أمة محمد ﷺ ـ ثلاثاً ـ قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبداً ما أجتمعوا إلى يوم القيامة. وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين، بخير له منها في الجنة؟ فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر؟ قالوا اللهم نعم، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا

---

(1) حديث: «قال لي جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر» أخرجه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جداً وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

(2) حديث ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فكفنه الناس يدعون ويصلون، فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر... الحديث» متفق عليه.

نعم، أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ «من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير منها في الجنة؟فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا اللهم نعم؛ قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقط حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال: «اسكن ثبير فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان؟«. قالوا اللهم نعم، قال الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد[1].

وروي عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ اللهم إني أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني.

وفاة علي كرم الله وجهه

قال الأصبغ الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي كرم الله وجهه، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام علي يمشي وهو يقول

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه ابن ملجم فضربه. فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضي الله عنه فجعلت تقول مالي ولصلاة الغداة! قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة؛ وقتل أبي صلاة الغداة. وعن شيخ من قريش أنّ علياً كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال: فزت ورب الكعبة. وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله، حتى قبض.

ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه الحسين رضي الله عنه فقال يا أخي لأي شيء تجزع؟ تقدم على رسول الله ﷺ وعلى علي بن أبي طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك! قال يا أخي أقدم على أمر لم أقدم على مثله.

وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيباً! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد نزل من الأمر ما ترون! وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء، ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى، وإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرماً.

الباب الخامس: في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء الصالحين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: أقعدوني، فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال: تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط! ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه وقال: يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولو يثق بأحد سواك. وروي عن شيخ من قريش؛ أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غضوناً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدّتنا وباستلذاذنا بعيشنا، فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالاً بعد حال وعروة بعد عروة، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من دار، ثم أف لها من دار. ويروى أنّ

(١) حديث ثمامة بن حزن القشيري: شهدت الدارحين أشرف عليهم عثمان... الحديث أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي.

آخر خطبة خطبها معاوية أن قال: أيها الناس إني من زرع قد استحصد وإني وليتكم ولن يليكم أحد من بعدي إلا وهو شر مني، كما كان من قبلي خيراً مني! ويا يزيد إذا وفى أجلي فولي غسلي رجلاً لبيباً، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل وليجهز بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي ﷺ وقراضه من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفي وفمي وأذني وعيني، واجعل الثوب على جلدي دون أكفاني، ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جديدي ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين: وقال محمد بن عقبة: لما نزل بمعاوية الموت قال يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذي طوى وإني لم أل من هذا الأمر شيئاً.

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوي ثوباً بيده ثم يضرب به المغسلة فقال عبد الملك: ليتني كنت غسالاً آكل من كسب يدي يوماً بيوم لم أل من أمر الدنيا شيئاً، فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمنّ ما هم فيه. وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ الآية ومات.

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ـ امرأة عمر بن عبد العزيز ـ كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار. فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر ـ بيني وبينه باب وهو في قبة له ـ فسمعته يقول: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاماً فقلت لوصيف له: انظر أنائم هو؟ فلما دخل صاح، فوثبت فإذا هو ميت وقيل له وقد حضره الموت: أعهد يا أمير المؤمنين! قال: أحذركم مثل مصرعي هذا فإنه لا بدّ لكم منه. وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له طبيب فلما نظر إليه قال: أرى الرجل قد سقي السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال: ولا تأمن الموت أيضاً على من لم يسق السم! قال الطبيب: هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال: فتعالج يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك، قال: ربي خير مذهوب إليه، والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت يدي إلى أذني فتناولته. اللهم خير لعمر في لقائك؛ فلم يلبث إلا أياماً حتى مات وقيل: لما حضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله بك سنناً وأظهر بك عدلاً! فبكى ثم قال: أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها؛ فكيف بكثير مما ضيعنا؟ وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات: ولما قرب وقت موته قال: أجلسوني! فأجلسوه فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ـ ثلاث مرات ـ ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر فقيل له في ذلك فقال: إني لأرى خضرة؛ ما هم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله.

وحكي عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾.

وفرش المأمون رماداً واضطجع عليه وكان يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه.

وكان المعتصم يقول عند موته: لوعلمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس إلا هذا: لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة.

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة ـ وقد نظر إلى صناديق لبنيه: من يأخذها بما فيها ليته كان بعراً.

وقال الحجاج عند موته: اللهم اغفر لي فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لي. فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها، ولما حكي ذلك للحسن قال: أقالها؟ قيل: نعم، قال: عسى.

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوّف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذاً رضي الله عنه الوفاة قال: اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر. ولما اشتد به النزع ونزع نزعاً لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أخنقني خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك.

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك؟ قال: ما أبكى جزعاً على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب[1] فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهماً.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه فقال: بل واطرباه! غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه.

وقيل. فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾.

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك؟ قال: أنتظر من الله رسولاً يبشرني بالجنة أو بالنار

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكي؟ فقال، والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيته؛ ولكن أخاف أني أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم.

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك؟ قال ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء!

ولما حضرت فضيلاً الوفاة غشي عليه، ثم فتح عينيه وقال: وابعد سفراه واقلة زاده

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه. اجعل رأسي على التراب، فبكى نصر فقال له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً! قال: اسكت! فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء، ثم قال له لقني ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثان.

وقال عطاء بن يسار: تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له: نجوت! فقال: ما آمنك بعد. وبكى بعضهم عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ آية في كتاب الله تعالى قوله عزوجل: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال: إن أمراً هذا أوله لجدير أن يتقي آخره، وإن أمراً هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله. وقال الجريري: كنت عند الجنيد في حال نزعه ـ وكان يوم الجمعة ويوم النيروز ـ وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت له: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟ فقال: ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي؟ وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول:

حنين قلوب العارفين إلى الذكر	وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤوس للمنايا عليهم	فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي الشكر
همومهم جوّالة بمعسكر	به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه	وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسرى
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم	وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجب أن تطير روحه

(١) حديث: لما حضرت سلمان الوفاة بكى، وفيه عهد إلينا رسول الله ﷺ: أن يكون بلغه أحدنا من الدنيا كزاد الراكب» أخرجه أحمد والحاكم وصححه، وقد تقدم.

اشتياقاً. وقيل لذي النون ـ عند موته، ما تشتهي؟ قال: أن أعرفه قبل موتي بلحظة. وقيل لبعضهم وهو في النزع! قل الله فقال: إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله. وقال بعضهم؛ كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقيراً وقال: السلام عليكم؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه؟ قال: فأشاروا إليه بمكان ـ وكان ثم عين ماء ـ فجدد الفقير الوضوء وركع ما شاء الله، ومضى إلى ذلك المكان ومدّ رجليه ومات. وكان أبو عباس الدينوري يتكلم في مجلسه، فصاحت امرأة تواجداً فقال لها: موتي، فقامت المرأة، فلما بلغت الدار التفتت إليه وقالت: قد مت ووقعت ميتة. ويحكى عن فاطمة ـ أخت أبي علي الروذباري ـ قالت: لما قرب أجل أبي علي الروذباري ـ وكان رأسه في حجري ـ فتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردها ثم أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا ... بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ ... وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد: قل لا إله إلا الله، فقال: ما نسيته فأذكره. وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري ـ خادم الشبلي ـ ما الذي رأيت منه؟ فقال: قال علي درهم مظلمة، وتصدقت عن صاحبه بألوف فما على قلبي شغل أعظم منه! ثم قال: وضئني للصلاة؛ ففعلت فنسيت تخليل لحيته ـ وقد أمسك على لسانه ـ فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال: ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة؟ وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر ـ وكان يشق عليه ـ كأنك تحب الحياة؟ فقال: القدوم على الله شديد. وقيل لصالح بن مسمار: ألا توصي بابنك وعيالك؟ فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره! ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم، فقال لهم ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير؟ ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم واحتضر بعضهم فبكيت امرأته فقال لها ما يبكيك؟ فقالت عليك أبكي! فقال إن كنت باكية فابكي على نفسك! فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة. وقال الجنيد دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك؟ فأنشأ يقول:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ... والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروّحه فقال، كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق؟ ثم أنشأ يقول:

القلب محترق والدمع مستبق ... والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له ... مما جناه الهوى والشوق والقلق
يا رب إن يك شيء فيه لي فرج ... فامنن علي به ما دام بي رمق

وحكي أنّ قوماً من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله، فأنشأ يقول:

إن بيتاً أنت ساكنه ... غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا ... يوم يأتي الناس بالحجج
لا أتاح الله لي فرجاً ... يوم أدعو منك بالفرج

وحكي أنّ أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه، ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرني فإني كنت في وردي! ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات. وقيل للكناني لما حضرته الوفاة ما كان عملك؟ فقال لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به! وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه. وحكي عن المعتمر قال: كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق، فقلت اللهم

هوّن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان ـ فذكرت محاسنه ـ فأفاق فقال من المتكلم؟ فقلت أنا! فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لي؛ إني بكل سخي رفيق، ثم طفىء. ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقاً فقال: يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع؟ فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي! فقال حذيفة واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله. وعن المغازلي قال دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة ـ وهو عليل ـ وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي، ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع ـ من باب الدعاء ـ فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض علي الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي. وقيل لرويم عند الموت؛ قل لا إله إلا الله، فقال: لا أحسن غيره. ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له: قل لا إله إلا الله، فقال أليس ثم أمر؟ ودخل المزني على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوء عملي ملاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرّما
ولولاك لم يغوى بإبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضرت أحمد بن خضروية الوفاة سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال يا بني باب كنت أدقه خمساً وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لي، لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة؟ فآن لي أو أن الجواب.

فهذه أقاويلهم، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر، وحكم زيارة القبور

اعلم أنّ الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة، لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ولا يتفكرون أنّ المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إ ويقدّر نفسه محمولاً عليها، فإنه محمول عليها، على القرب وكأن قد، ولعله في غد أو بعد غد. ويروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال امضوا فإنا على الأثر. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال اغدوا فإنا رائحون. موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأوّل والآخر لا عقل له. وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدّثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما

هو صائر إليه. ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه، ولا أعلم ما دمت حياً. وقال الأعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي؟ لحزن الجميع. وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعاً باكياً.

فهكذا كان خوفهم من الموت. والآن! لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما

خلفه، ولا يتفكر واحد منهم ـ إلا ما شاء الله ـ في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها. ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت. نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيراً لكم، إنه نجا من أهوال ثلاثة وجه ملك الموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف الخاتمة وقد أمن. وقال أبو عمرو بن العلاء جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعراً فاطلعت جنازة فأمسك وقال شيبتني والله هذه الجنائز. وأنشأ يقول:

تروّعنا الجنائز مقبلات ... ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ثلة لمغار ذئب ... فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز: التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع ـ كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه ـ ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة مخطرة لا تدري حقيقتها. ولذلك روي عن عمر بن ذرّ أنه مات واحد من جيرانه، وكان مسرفاً على نفسه، فتجافى كثير من الناس عن جنازته، فحضرها هو وصلى عليها، فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود، وإن قالوا مذنب وذو خطايا؟ فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا؟ ويحكى أنّ رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه، فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فما صلى عليه أحد، فحملتها إلى الصحراء للدفن؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار، فرأته كالمنتظر للجنازة، ثم قصد أن يصلي عليها، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال: قيل لي في المنام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فإنه مغفور له، فزاد تعجب الناس! فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته؟ قالت: كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر! فقال: انظري هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخير؟ قالت: نعم؛ ثلاثة أشياء: كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح في جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق (والثاني) أنه كان أبداً لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده، وكان شديد التفقد لهم. (والثالث) أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول: يا رب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث؟ يعني نفسه. فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجيا

بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور

قال الضحاك؛ قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال: «من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعدّ غداً من أيامه وعدّ نفسه من أهل القبور[1]». وقيل لعلي كرّم الله وجهه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ قال: إني أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة. وقال رسول الله ﷺ ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه[2]» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

(١) حديث الضحاك: قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس؟ قال: «من لم ينس القبور والبلى... الحديث» تقدم.

(٢) حديث: «ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه» تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة.

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدني القوم منه. فبكى وبكيت وبكوا فقال: «ما يبكيكم؟» قلنا؛ بكينا لبكائك! قال: «هذا قبر أمي آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فاذن لي، فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى علي، فأدركني ما يدزك الولد من الرقة[1]». وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فسئل عن ذلك وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي! وتبكي إذا وقفت على قبر؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن القبر أوّل منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ[2]». وقيل إنّ عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين، فقيل له هذا شيء لم تكن تصنعه؟ فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرّب إلى الله بهما. وقال مجاهد أوّل ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟ وقال أبو ذرّ ألا أخبركم بيوم فقري، يوم أوضع في قبري. وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يذكروني معادي وإذا قمت لم يغتابوني وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلاً ويقول: يا أهل القبور مالي إذا دعوتكم لا تجيبوني! ثم يقول: حيل والله بينهم وبين جوابي وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر. وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه: يا فلان لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه، وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به! ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلي الأكفان، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب، قال: ثم شهق شهقة خرّ مغشياً عليه. وكان يزيد الرقاشي ويقول: أيها المقبور في حفرته والمتخلي في القبر بوحدته المستأنس في بطن الأرض بأعماله ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي إخوانك اغتبطت؟ ثم يبكي حتى يبل عمامته ثم يقول: استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور. وقال حاتم الأصم:من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفس ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم. وكان بكر العابد يقول يا أماه ليتك كنت بي عقيما إن لابنك في القبر حبساً طويلاً ومن بعد ذلك منه رحيلاً. وقال يحيى بن معاذ؛ يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه؟ إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها، وإن أجبته من قبرك منعتها. وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي في بـاطنك! وكان عطاء السلمي إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه! وعاينتم أعمالكم فواعملاه، ثم يقول غداً عطاء في القبور غداً عطاء في القبور، فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار. وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبراً، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول: ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ يرددها، ثم يرد على نفسه يا ربيع قد رجعتك فاعمل. وقال أحمد بن حرب تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوي فراشه للنوم، فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء! وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل علي فقال يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم! أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى وأصابت الهوام مقيلاً

(١) حديث عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم... الحديث» وفيه «هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي...» وتقدم في آداب الصحبة أيضاً، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب، وآخره عند ابن ماجه مختصراً وفيه أيوب بن هانىء ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم صالح.

(٢) حديث عثمان: كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه: إن القبر أول منازل الآخرة: أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصحبة.

في أبدانهم؟ ثم بكى وقال والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها. ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت:

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطاً واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة، فسمعوا صوتاً من جانب البقيع: هل وجدوا ما فقدوا؟ فسمعوا من الجانب الآخر: بل يئسوا فانقلبوا. وقال أبو موسى التميمي: توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة ـ وفيهم الحسن ـ فقال له الحسن: يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال:

أخاف وراء القبر إن لم تعافني ... أشدّ من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد ... عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور:

قف بالقبور وقل على ساحاتها ... من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكرّم منكم في قعرها ... قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذي العيون فواحد ... لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن ... تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل في روضة ... يفضي إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرم الطاغي بها متقلب ... في حفرة يأوي إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ... في شدّة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول:

عدمت الحياة ولا نلتها ... إذا كنت في القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى ... وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت: يا ابناه بأي خديك بدأ الدود؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشياً عليه. وقال مالك بن دينار: مررت بالمقبرة فأنشأت أقول:

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه ... وأين المزكي إذا ما افتخر

قال: فنوديت من بينها، أسمع صوتاً ولا أرى شخصاً وهو يقول:

تفانوا جميعاً فما مخبر ... وماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا ... أما لك فيما ترى معتبر

قال: فرجعت وأنا باك

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوباً على قبر:

تناجيك أجداث وهن صموت ... وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغة ... لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

أيا غانم أما ذراك فواسع ... وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره ... إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك: مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب:

يمرّ أقاربي جنبات قبري ... كأن أقاربي لم يعرفوني
ذوو الميراث يقتسمون مالي ... وما يألون أن جحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا ... فيالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوباً:

إن الحبيب من الأحباب مختلس ... لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها ... يا من يعدّ عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلاً في النقص منغمساً ... وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا الجهل لغرّته ... ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به ... عن الجواب لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف ... فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

وقفت على الأحبة حين صفت ... قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعي ... رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيب مكتوباً:

قد قلت لما قال لي قائل ... صار لقمان إلى رمسه
فأين ما يوصف من طبه ... وحذقه في الماء مع جسه
هيهات لا يدفع عن غيره ... من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

يا أيها الناس كان لي أمل ... قصر بي عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل ... أمكنه في حياته العمل
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى ... كل إلى مثقله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الإعتبار قبل الموت. والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم، وليتحقق أنه

لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموقف به رتبته فيتضاعف له الثواب، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها، فوطن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الإختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار. فقد قال بعض الصالحين: رأيت أخاً لي في الله - فيما يرى النائم - فقلت: يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين، قال: لأن أقدر على أن أقولها - يعني الحمد لله رب العالمين - أحب إلي من الدنيا وما فيها، ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإن فلاناً قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها.

بيان أقاويلهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله - في تقدمه عليه في الموت - منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لا حق به على القرب، وليس بينهما إلا تقدّم وتأخر. وهكذا الموت فإنّ معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه، لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزي به كل مصاب، قال رسول الله ﷺ: «لأن أقدم سقطاً أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله[1]». وإنما ذكر السقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب. وقال زيد بن أسلم: توفي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزناً شديداً فقيل له: ما كان عدله عندك؟ قال ملء الأرض ذهباً! قيل له: فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك، وقال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار». فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ؛ أو اثنان؟ قال: «أو اثنان[2]». وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة. وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفي. ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال: اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فإنك أجود وأكرم. ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من يرى فهب له ما قصر فيه من طاعتك. ولما مات ذرّ بن عمر بن ذر قام أبوه عمر بن ذرّ - بعد ما وضعه في لحده - فقال: يا ذرّ لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك؟ ثم قال: اللهم إن هذا ذرّ متعتني به ما متعتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، اللهم ما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه. فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة يا ذرّ وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة، فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال: ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن! فقالت: يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد، قال: فكيف؟ قالت: إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر: أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة؟ قال: نعم، فأخذه وذبحه وما شعر نابه إلا متشحطاً في دمه، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله، فخرج أبوه يطلبه فمات عطشاً من شدّة الحر، قالت: فأرداني الدهر كما ترى. فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدّة الجزع، فما من

---

(١) حديث: «لأن أقدم سقطاً أحب إليّ من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله» لم أجد فيه ذكر «مائة فارس» وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة «لسقط أقدمه بين يدي أحب إلّي من فارس أخلفه خلفي».

(٢) حديث: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم... الحديث» تقدم في النكاح.

مصيبة إلا ويتصوّر ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر.

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الإعتبار وقد كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد[1]».

روي عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجراً[2]». وزار رسول الله ﷺ: «قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكياً أكثر من يومئذ[3]». وفي هذا اليوم قال: «أذن لي في الزيارة دون الاستغفار[4]». كما أوردنا من قبل. وقال ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة رضي الله عنها يوماً من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت من قبر أخي عبد الرحمن، فقلت أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت نعم، ثم أمر بها[5]». ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر، فإنهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها. نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر.

وقال أبو ذر قال رسول الله ﷺ: «زر القبور تذكر بها الآخرة، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة، وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين في ظل الله[6]». وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ: «زوروا موتاكم وسلموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة[7]». وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام، فتصلي وتبكي عنده. وقال النبي ﷺ: «من زار قبر والديه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب براً[8]». وعن ابن سيرين قال قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليموت والده وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من

---

(١) حديث: نهيه عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك. أخرجه مسلم من حديث بريدة وقد تقدم.

(٢) حديث علي «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجراً» رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى «غير أن لا تقولوا هجراً» وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخاري لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات.

(٣) حديث: زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها.

(٤) حديث «وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار» تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي».

(٥) حديث ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة يوماً من المقابر فقلت: يا أم المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن قلت: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت: نعم ثم أمر بها. أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد.

(٦) حديث أبي ذر «زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة.. الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد.

(٧) حديث ابن أبي مليكة «زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم.. الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلاً وإسناده حسن.

(٨) حديث «من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب براً» أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك.

بعدهما فيكتبه الله من البارّين[1]». وقال النبي ﷺ؛ «من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي[2]». وقال ﷺ: «من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة[3]». وقال كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه.

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً بوجهه الميت، وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله، فإن ذلك من عادة النصارى. قال نافع: كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، وينصرف. وعن أبي أمامة قال رأيت أنس ابن مالك أتى قبر النبي ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم[4]». وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم؟ قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه، وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام. وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصماً في منامي بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت؟ قال بلى، فقلت أين أنت؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني فنتلاقى أخباركم. قلت أجسامكم أم أرواحكم؟ قال هيهات! بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو أخرت إلى يوم الإثنين؟ قال بلغني أن الموتى يعلمون بزوّارهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده وقال الضحاك من زار قبراً قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته، قيل وكيف ذاك؟ قال لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلي ولم آت إلى المقابر فأدعو كما كنت أدعو، فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاؤ وني فقلت ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم؟ قالوا إنك قد عوّدتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت وما هي؟ قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها، قلت فإني أعود لذلك، فما تركتها بعد ذلك وقال بشار بن غالب النجراني رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على طبق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق من نور وخمر مناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك. قال رسول الله ﷺ: «ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له، فإذا لحقته

---

(١) حديث ابن سيرين «أن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عقبة أبي العيزار عن محمد بن جحادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف.

(٢) حديث: «من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي» تقدم في أسرار الحج.

(٣) حديث: «من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة» تقدم فيه.

(٤) حديث عائشة: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم» أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشبيلي.

كان أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار[1]. وقال بعضهم مات أخ لي فرأيته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك؟ قال أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لي لرأيت أنه سيضربني به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال يا سعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال: «إذا مات أحدكم فسوّيتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره». ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعداً، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول أرشدنا يرحمك الله و لكن لا تسمعون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً وبالقرآن إماماً، فإن منكرا ونكير يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته، ويكن الله عزوجل حجيجه دونهما». فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف اسم أمه؟ قال: «فلينسبه إلى حواء[2]».

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور. روي عن علي بن موسى الحداد قال كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي؟ قال ثقة: قال هل كتبت عنه شيئاً؟ قال نعم «قال أخبرني مبشر بن إسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها، وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك، فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد بن أحمد المروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرؤ وا بفاتحة الكتاب والمعوّذتين وقل هو الله أحد، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم. وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم تنبهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول لقد آذيتني منذ الليلة، ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها، ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيراً أقرئهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نوراً مثل الجبال.

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه. فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الإعتبار به. وإنما يحصل له الإعتبار بأن يصوّر في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاءه وكيف يبعث من قبره؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنها عوتبت، في كثرة إتيانها المقابر فقالت إنّ القلب القاسي إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور فكأني انظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة، فيا لها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل للأنفس وأشدّ للأبدان، بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز؛ حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهاد والعبادة فقال له: يا فلان لو رأيتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على

---

(١) حديث: «ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له. . . الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل.

(٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال: شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال: يا سعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال: «إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلان. . . الحديث» في تلقين الميت في قبره أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف.

الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان. وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم، ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن.

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه[1]». وقال ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أمضوا إلى ما قدّموا[2]». وقال ﷺ؛ «لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيها[3]». وقال أنس بن مالك: مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شراً فقال عليه السلام: «وجبت» ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيراً فقال رسول الله ﷺ «وجبت» فسأله عمر عن ذلك فقال: «إنّ هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار! وأنتم شهداء الله في الأرض[4]». وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنّ العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره يقول الله تعالى لملائكته أشهدكم أني قد قبلت شهادة عبيدي على عبدي وتجاوزت عن علمي في عبدي[5]».

الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت

اعلم أن الناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد أخطؤ وا فيها.

فظنّ بعضهم: أنّ الموت هو العدم، وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر، وأنّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات. وهذا رأي الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وظنّ قوم: أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر.

وقال آخرون: إنّ الروح باقية لا تنعدم بالموت، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد، وإنّ الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً.

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق. بل الذي تشهد له طرق الإعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أنّ الموت معناه تغير حال فقط وأنّ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات الروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب ههنا عبارة عن الروح، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم نفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء. فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث. والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده، وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدّة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها، والموت عبارة عن استعصاء

---

(١) حديث: «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه» أخرجه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد.

(٢) حديث: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» أخرجه البخاري من حديث عائشة أيضاً.

(٣) حديث: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير. . . الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة بإسناد جيد مقتصراً على ما ذكره منه هنا بلفظ «هلكاكم» وذكر الزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني.

(٤) حديث أنس: مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شراً فقال «وجبت» الحديث متفق عليه.

(٥) حديث أبي هريرة: «إن العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك. . . الحديث» أخرجه أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه على ربه عزّ وجل «ما من عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث أبيات من جيرانه الأدنين بخير إلا قال لله عزّ وجل قد قبلت شهادة عبادي على ما عملوا وغفرت له ما أعلم».

الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها، وأعني بالروح: المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذات الأفراح. ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات، ولا بطل منها الأفراح والغموم، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات. والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللذات وذلك لا يموت ـ أي لا ينعدم ـ ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له، كما أنّ معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة. فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية.

نعم تغير حاله من جهتين: (إحداهما) أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحد في الحالتين. وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويعتدّ بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقته، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلاً ويفرح به، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلي بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله. فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة.

(والثاني) أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأوّل ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سر قلبه وكان يشغله عن الإطلاع عليه شواغل الدنيا، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وعبد ذلك يقال له: ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن، وتشتعل فيه نيران الفراق أعني فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه. وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغني عنه، فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه. وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمه تهجم عليه قبل الدفن.

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه، ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتماداً على أنّ الملك يتساهل في أمره، أو على أنّ الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دوّنت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرّة ذرّة وخطوة خطوة، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه. فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم. فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به، بل عند موته نعوذ بالله منه، فإنّ الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما. فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولوا البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة.

نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسه وإدراك ماهية ذاتها، ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على

أن يقول: «الروح من أمر ربي[1]». فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت،

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها وأخبار كثيرة (أما الآيات) فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين﴾ ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله ﷺ فقال: «يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً». فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب[2]». فهذا نص في روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص أرواح في الشهداء. ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة. وقال ﷺ: «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة[3]». وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخير، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته[4]». وقال ﷺ: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقول هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة[5]». وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال: كنا مع علقمة في جنازة فقال: أما هذا فقد قامت قيامته وقال علي كرم الله وجهه: حرام على نفسي أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «من مات غريباً مات شهيداً ووقي فتانات القبر وغدي وريح عليه برزقه من الجنة[6]». وقال مسروق: ما غبطت مؤمناً في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى. وقال يعلى بن الوليد: كنت أمشي يوماً مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب؟ قال: الموت، قلت: فإن لم يمت؟ قال: يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن، والموت إطلاق المؤمن من السجن. وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا، والأنس بما لا بد من فراقه غاية الشقاء. فكل ما سوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة. ولهذا قال عبد الله بن عمرو. إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه لامثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها. وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى، وكانت شواغل الدنيا تحسبه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه؛ فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع.

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله! لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب

---

(١) حديث: إنه لم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم في الروح. متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن الروح ونزول قوله تعالى ﴿ويسألونك عن الروح﴾ وقد تقدم.

(٢) حديث: ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر «يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً...» أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) حديث: «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف.

(٤) حديث أنس: «الموت القيامة من مات فقد قامت قيامه» أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم.

(٥) حديث: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي... الحديث» متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٦) حديث أبي هريرة: «من مات غريباً مات شهيداًووقي فتاني القبر» أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا «فتان».

مرضاته، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعاً بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوّق إليها. فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه! وتجرّد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير. والقتال سبب للموت فكان سبباً لإدراك الموت على مثل هذه الحالة. فلهذا عظم النعيم، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده قال الله تعالى: ﴿ولهم ما يشتهون﴾ فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم. وهذا النعيم يدركه الشهيد ـ كما انقطع نفسه ـ من غير تأخير. وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين. وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ لجابر: «ألا أبشرك يا جابر». وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال: بلى بشرك الله بالخير فقال: «إن الله عزوجل قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال تمن علي يا عبدي ماشئت أعطيكه فقال: يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع[1]». وقال كعب: يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له: لم تبكي وأنت في الجنة؟ قال؛ أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة! فكنت أشتهي أن أرد فأقتل فيه قتلات.

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلاً فقال لرجل مات: «أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه[2]». فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم. وقال ﷺ: «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه[3]». وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله ﷺ؛ «إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه[4]». أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه. وقال أبو عمر صاحب السقيا: مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال: إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً وإنما الأرواح التي تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة. وعن عمرو بن دينار قال: ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم. وقال مالك بن أنس: بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت. وقال

---

(١) حديث عائشة: «ألا أبشرك يا جابر... الحديث» وفيه: «إن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعيف وللترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر: «ألا أبشرك بما لقي الله به أباك» قال: بلى يا رسول الله... الحديث» وفيه فقال: «يا عبدي تمن على أعطك قال يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون».

(٢) حديث: قال لرجل مات «أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أيرجع إلى بطن أمه» أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلاً ورجاله ثقات.

(٣) حديث: «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم بن عامر الجنائزي مرسلاً هكذا.

(٤) حديث: قيل لرسول الله ﷺ إن فلاناً قد مات فقال: «مستريح أو مستراح منه» متفق عليه من حديث أبي قتادة بلفظ: مر عليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده المصنف.

النعمان ابن بشير: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوّها فالله الله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم[(١)]». وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور[(٢)]». ولذلك قال أبو الدرداء: اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبد الله بن رواحة ـ وكان قد مات وهو خاله ـ وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال: في حواصل طير بيض في ظل العرش، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة. وقال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره[(٣)]». وقال صالح المري بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم: كيف كان مأواك وفي أي الجسدين كنت في طيب أو خبيث؟ وقال عبيد ابن عمير: أهل القبور يترقبون الأخبار، فإذا أتاهم الميت قالوا: ما فعل فلان؟ فيقول: ألم يأتكم. . . أو ما قدم عليكم؟ فيقولون: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ سلك به غير سبيلنا. وعن جعفر بن سعيد قال: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب. وقال مجاهد: إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره. وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح، فإنه كان في كرب شديد فيسألونه: ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة؟ وهل تزوّجت فلانة فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال: مات قبلي قالوا: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ ذهب به إلى أمه الهاوية[(٤)]».

بيان كلام القبر للميت

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال، التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء. قال رسول الله ﷺ: «يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرّك بي! ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرّك بي إذ كنت تمرّ بي فذاذاً؟ فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر: إني إذا أتحوّل عليه خضراً ويعود جسده نوراً وتصعد روحه إلى الله تعالى[(٥)]» والفذاذ هو الذي يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي. وقال عبيد بن عمير الليثي: ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التي يدفن فيها: أنا بيت الظلمة

---

(١) حديث النعمان بن بشير: ألا أنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوفها فالله الله في إخوانكم من أهل القبور، فإن أعمالكم تعرض عليهم» أخرجه إبن أبي الدنيا وأبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدي عن النعمان من قوله «الله الله» ورواه بكامله الأزدي في الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره إبن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكماله في ترجمة أبي إسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدي ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول، قال الأزدي لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات ملك بن أدي.

(٢) حديث أبي هريرة «لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور» أخرجه إبن أبي الدنيا والمحاملي بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنساناً عن أنس «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات. . . الحديث».

(٣) حديث أبي سعيد الخدري «إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره» رواه أحمد من رواية رجل عنه إسمه معاوية أو إبن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن.

(٤) حديث أبي أيوب: «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح» أخرجه إبن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف، ورواه إبن المبارك في الزهد موقوفاً على أبي أيوب بإسناد جيد، ورفعه إبن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وإن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد.

(٥) حديث: «يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة. . . الحديث» أخرجه إبن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم في السكنى من حديث أبي الحجاج الثمالي بإسناد ضعيف.

والوحدة والانفراد فإن كنت في حياتك لله مطيعاً كنت عليك اليوم رحمة، وإن كنت عاصياً فأنا اليوم عليك نقمة، أنا الذي من دخلني مطيعاً خرج مسروراً، ومن دخلني عاصياً خرج مثبوراً. وقال محمد بن صبيح: بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره عذّب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى: أيها المتخلف عن الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك في متقدّمنا إياك فكرة، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك؟ وتناديه بقاع الأرض: أيها المغتر بظاهر الدنيا هلاّ اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض ممن غرّته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولاً تهاداه أحبته إلى المنزل الذي لا بدّ منه؟ وقال يزيد الرقاشي: بلغني أنّ الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت: أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا. وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة والصيام والحج والجهاد والصدقة، قال: فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بي القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم

عليه. قال: فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه. قال فيقال له: هنيئاً طبت حياً وطبت ميتاً. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشاً من الجنة ودثاراً من الجنة ويفسح له في قبره مدّ بصره ويؤتى بقنديل من الجنة نستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره، وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «أن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شيء إلا قبره ويقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيقي ونتني وهولي ودودي فماذا أعددت لي[1]».

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر» ثلاثاً ثم قال: «إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مدّ بصره، فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول أرجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وإنه ليسمع خفيف نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك وما نبيك؟ فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبي محمد ﷺ«فينتهرانه انتهاراً شديداً وهي آخر عرضه تعرض على الميت، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهي معنى قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول: أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم، فيقول: وأنت فبشرك الله بخير من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح والله ما علمت أن كنت لسريعاً إلى طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً». قال: «ثم ينادي مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي». قال: «وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الدنيا وانقطاع من الآخرة نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فإذا

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعية فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا إبن آدم. . . الحديث» أخرجه إبن أبي الدنيا في القبور وهكذا مرسلاً ورجاله ثقات ورواه إبن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه.

خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه نبذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عزوجل: ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إني وعدته ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وأنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فيقول: لا أدري فيقال: لا دريت، ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول: أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول: بشرك الله شراً من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، والله إن كنت لسريعاً في معصية الله بطيئاً عن طاعة الله فجزاك الله شراً فيقول وأنت فجزاك الله شراً، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يلقوها لم يستطيعوا، لو ضرب بها جبل صار تراباً، فيضربه بها ضربة فيصير تراباً، ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين، ليس الثقلين». قال: «ثم ينادي مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار[1]». وقال محمد بن علي ما من ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته. وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال: أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية ومرضياً عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين. وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوط عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وأن لها نشيشاً ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين[2]». وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار؟ قال: لا، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت، قال: فيقول الجبار ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ أي ليقولنها عند الموت. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «المؤمن في قبره في روضه خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، هل تدرون فيماذا أنزلت ﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾» «قالوا الله ورسوله أعلم، قال: «عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً هل تدرون ما التنين، تسعة وتسعون حية لكل حية تسعة رموش يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون[3]». ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات، فإن لها أصولاً معدودة، ثم تتشعب منها فروع معدودة، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام. وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب، وما بينهما يؤذي إيذاء الحية. وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوّة. فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة، فمن لم تتكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم.

---

(١) حديث البراء: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر... الحديث» بطوله أخرجه أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه إبن حبان ورواه النسائي وإبن ماجه مختصراً.

(٢) حديث أبي هريرة: «إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان... الحديث» أخرجه إبن أبي الدنيا وإبن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف.

(٣) حديث أبي هريرة: «المؤمن في قبره في روضه خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً... الحديث» ورواه إبن حبان.

فإن قلت: فنحن نشاهد الكافر في قبره مدّة ونراقبه ولا نشاهد شيئاً من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا

(أحدهما) وهو الأظهر والأصح والأسلم أن تصدّق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت. أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك، وإن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي مالا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات،فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى.

(المقام الثاني) أن تتذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حيةً تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصبح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه، كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكناً ولا ترى حواليه حية، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقك غير مشاهد. وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد.

(المقام الثالث) أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها وهو السم، ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوم من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون بالإضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب، والسبب يراد لثمرته لا لذاته.

وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات. وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذياً عند موت المعشوق، فإنه كان لذيذاً فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلماً، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال. بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتدّ عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا أتاذى بفراقه؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة:

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه؟ ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عزوجل فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به «فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى، وذلك هو العذاب الذي يعذب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله كان مشتاقاً إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب. فإذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من العقرب، وحبه الفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه

فرسه. فليستعدّ لهذه اللدغات؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه، ويأخذ منه جاهه وقبوله، بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك إليه. فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك إذا مات، لأنا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشدّ. لأنه في الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت، إذ قد انسدّ عليه طرق التسلي وحصل اليأس. فإذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفاً عليه ومعذباً به، فإن كان مخفاً في الدنيا سلم وهو المعني بقولهم: نجا المخفون، وإن كان مثقلاً عظم عذابه. وكان أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير، فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعني بقوله ﷺ: «صاحب الدرهم أخف حساباً من صاحب الدرهمين[1]». وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك.

وإنما تكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها. فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقاربه وفي سائر أنواع عذابه.

رأى أبو سعيد الخدري ابناً له قد مات في المنام فقال له: يا بني عظني، قال: لا تخالف الله تعالى فيما يريد، قال: يا بني زدني، قال: يا أبت لا تطيق! قال: قل، قال: لا تجعل بينك وبين الله قميصاً. فما لبس قميصاً ثلاثين سنة.

فإن قلت: فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث؟ فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأوّل وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر الأوّل وأثبت الثاني. ومنهم من لم يثبت إلا الثالث. وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الإمكان. وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور. بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب. ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره.

هذا هو الحق فصدّق به تقليداً فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقاً، والذي أوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان. فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى؟ وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له. فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان.

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر

قال أبو هريرة: قال النبي ﷺ «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير، فيقولان له ما كنت تقول في النبي، فإن كل مؤمناً قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك. ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً وينوّر له في قبره. ثم يقال له نم فيقول دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقال له نم فينام كنومة العروس

---

(١) حديث: «صاحب الدرهم أخف حساباً من صاحب الدرهمين» لم أجد له أصلاً.

الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وإن كان منافقاً قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئاً وكنت أقوله، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك[1]». وعن عطاء بن يسار قال. قال رسول الله لأ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا عمركيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك، كيف بك عند ذلك يا عمر؟». فقال عمر: «ويكون معي مثل عقلي الآن؟» قال: «نعم» قال: «إذن أكفيكهما[2]». وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء. فيكون الميت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان، لا يتغير من عقله شيء. وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء. ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت، فإن ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم وقال محمد بن المنكدر: «بلغني أنّ الكافر يسلط عليه في قبره دابة عمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة». لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه. وقال أبو هريرة: إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن. وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان: والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه، وإن جاء من قيل فيه جاء ذكره وصيامه، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خللاً لكنت أنا صاحبه. قال سفيان: تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده، ثم يقال له عند ذلك: بارك الله لك في مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك. وعن حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال: «يضغط المؤمن في هذا ضغطه ترد منه حمائله[3]». وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إنّ للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ[4]». وعن أنس قال: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة، فتبعها رسول الله ﷺ فساءنا حاله، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة. فلما خرج أسفر وجهه، فقلنا: يا رسول الله رأينا منك شأناً فمم ذلك؟ قال: «ذكرت ضغطة ابنتي وشدّة عذاب القبر، فأتيت فأخبرت أنّ الله قد خفف عنها وقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين[5]».

---

(١) حديث أبي هريرة: «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير. . . الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه وإبن حبان مع اختلاف.

(٢) حديث عطاء بن يسار؛ قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: «يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر. . . الحديث» أخرجه إبن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا مرسلاً ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد. رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلاً قلت: ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث إبن عباس، ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل ولأحمد وإبن حبان من حديث عبد الله بن عمر؛ فقال عمر: أيرد إلينا عقولنا؟ فقال: «نعم كهيئتكم اليوم» فقال عمر: بفية الحجر.

(٣) حديث حذيفة: كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه. . . الحديث رواه أحمد بسند ضعيف.

(٤) حديث عائشة: «إن للقبر ضغطه لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ» رواه أحمد بإسناد جيد.

(٥) حديث أنس: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة. . . الحديث» وفيه «لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين» أخرجه إبن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه.

الباب الثامن: فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أنوار البصائر ـ المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن مناهج الاعتبار ـ تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء. ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلاً، فإنا إن عوّلنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له؟ وإن عوّلنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه، وإذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان، ولكنّ الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها، ولا يتصوّر أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه.

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه. والموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا. ولذلك رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد ابن معاذ وفي حق زينب ابنته[1] وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر. ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم.

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوّة. قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة[2]». وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدّق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بالطهارة عند النوم لينام طاهراً[3] وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها. ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل، كما انكشف دخول مكة لرسول الله ﷺ في النوم حتى نزل قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾[4] وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة، والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة.

ولكن القدر الذي يمكن ذكره هُهنا مثال يفهمك المقصود؛ وهو أن تعلم أنّ القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور، وأنّ كل ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح، وتارة بالكتاب المبين، وتارة بإمام مبين؛ كما ورد في القرآن. فجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين. ولا تظنن أنّ ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم، وأنّ الكتاب من كاغد أو رق، بل ينبغي أن تفهم أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق، كما أنّ ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم. بل إن كنت تطلب له مثالاً يقرّبه إلى فهمك فاعلم أنّ ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في

---

(١) حديث: رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب إبنته وكذل حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله.

(٢) حديث: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» تقدم.

(٣) حديث: أمره بالطهارة عند النوم. متفق عليه من حديث البراء «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة... الحديث».

(٤) حديث: انكشف دخول مكة لرسول الله ﷺ في النوم. أخرجه إبن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسلاً.

دماغ حافظ القرآن وقلبه، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه، ولو فتشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخط حرفاً، وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشاً بجميع ما قدّره الله تعالى وقضاه. واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور، فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو في عالم الملكوت، فإن هبت ريح حرّكت هذا الحجاب ورفعته تلألأ في مرآة القلب من عالم الملكوت كالبرق الخاطف، وقد يثبت ويدوم، وقد لا يدوم وهو الغالب. وما دام متيقظاً فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة، وهو حجاب عن عالم الملكوت.

ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا توره على القلب، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافياً في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما، إلا أنّ النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحركه، فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيل والمعاني. وأمثاله ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير. ويكفيك مثال واحد وهو أنّ رجلاً قال لابن سيرين: رأيت كأنّ بيدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء. فقال: أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان، قال: صدقت! فانظر أنّ روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم. وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه، وهو كونه مانعاً للناس من الأكل والشرب، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية.

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر عجائبه! وكيف لا وهو أخو الموت، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب، حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية: حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازي والفضائح ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وإما مكنوفاً بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ ويقال: ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله. ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة؟ لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر.

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا! وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذرّيتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا! مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقيناً ولكن أين من ينفث روح القدس في روعة فيقول ما قال لسيد النبيين: «أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به[1]». فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[2] ولم يخلف ديناراً ولا درهماً[3] ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً نعم قال: «لو كنت متخذاً خليلاً

---

(١) حديث: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه. . . الحديث» تقدم.

(٢) حديث: لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة. تقدم أيضاً.

(٣) حديث: لم يخلف ديناراً ولا درهماً. تقدم أيضاً.

«لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن[1]». فبين أنّ خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأنّ حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعاً لخليل ولا حبيب! وقد قال لأمته: ﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ فإنما أمته من اتبعه، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة، فإنه ما دعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته، وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى﴾ فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يا رجل ـ وكلنا ذلك الرجل ـ لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلا في الحظوظ العاجلة، ولا تتحرّك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غداً من أمته وأتباعه! وما أبعد ظنك وما أبرد طمعك: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾.

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده، ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات.

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله ﷺ وقد قال عليه السلام: «من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي[2]». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فرأيته لا ينظر إلي فقلت: يا رسول الله ما شأني! فالتفت إلي وقال: «ألست المقبل وأنت صائم؟». قال: والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً. وقال العباس رضي الله عنه: كنت وداً لعمر فاشتهيت أن أراه في المنام، فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كان عرشي ليهدّ لولا أني لقيته رؤوفاً رحيماً. وقال الحسن بن علي: قال لي علي رضي الله عنه؛ إنّ رسول الله ﷺ سنح لي الليلة في منامي فقلت: يا رسول الله ما لقيت من أمتك؟ قال: ادع عليه، فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني! فخرج فضربه ابن ملجم. وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله استغفر لي، فأعرض عني فقلت: يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدّثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله: أنك لم تسأل شيئاً قط فقلت: لا، فأقبل علي فقال: «غفر الله لك[3]». وروي عن العباس ابن عبد المطلب قال: كنت مواخياً لأبي لهب مصاحباً له. فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يريني إياه في المنام قال: فرأيته يلتهب ناراً فسألته عن حاله فقال: صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروّح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي! قلت: وكيف ذلك؟ قال: ولد في تلك الليلة محمد ﷺ فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحاً به، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين.

وقال عبد الواحد بن زيد: خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ، فسألته عن ذلك فقال: أخبرك عن ذلك؛ خرجت أول مرة إلى مكة ومعي أبي، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل؛ فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه! قال: فقمت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه، فداخلني من ذلك رعب، فبينما أنا في ذلك الغم إذ غلبتني عيني فنمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه

---

(١) حديث: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن» تقدم أيضاً.

(٢) حديث: «من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) حديث إبن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر: ما سئل النبي ﷺ شيئاً قط فقال لا. رواه مسلم وقد تقدم.

بين ثوبين أخضرين فقال لهم: تنحوا، فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال: قم فقد بيض الله وجه أبيك! فقلت له: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقال: أنا محمد، قال: فقمت فكشفت الثوب عن وجه أمي فإذا هو أبيض! فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله ﷺ.

وعن عمر بن عبد العزيز قال: رأيت رسول الله ﷺ ـ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده ـ فسلمت وجلست، فبينما أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة.

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال: قتل الحسين والله ـ وكان ذلك قبل قتله ـ فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال: ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدي؟ قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى. فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه.

ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له: إنك كنت تقول أبداً في لسانك: هذا أوردني الموارد، فماذا فعل الله بك؟ قال: قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة.

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ: رأيت متمماً الدورقي في المنام: يا سيدي ما فعل الله بك؟ فقال: دير بي في الجنان فقيل لي: يا متمم هل استحسنت فيها شيئاً؟ قلت: لا يا سيدي، فقال: لو استحسنت منها شيئاً لوكلتك إليه ولم أوصلك إلي. ورؤي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي؛ قيل. بماذا؟ قال: ما خلطت جداً بهزل. وعن منصور بن إسماعيل قال: رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً فإني استحييت أن أقرّ به، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي فقلت. ما كان ذلك الذنب؟ قال: نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره. وقال أبو جعفر الصيدلاني: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وحوله جماعة من الفقراء، فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما: بيده طشت، وبيد الآخر: إبريق، فوضع الطشت بين يدي رسول الله ﷺ فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا، ثم وضع الطشت بين يدي فقال أحدهما للآخر: لا تصب على يده فإنه ليس منهم! فقلت: يا رسول الله أليس قد روي عنك أنك قلت: «المرء مع من أحب»؟. قال: بلى، قلت: يا رسول الله فإني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء! فقال ﷺ: صب على يده فإنه منهم. وقال الجنيد: رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس فوقف عليّ ملك فقال: أقرب ما تقرّب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا؟ فقلت: عمل خفي بميزان وفي! فولّى الملك وهو يقول: كلام موفق والله. ورؤي مجمع في النوم فقيل له: كيف رأيت الأمر؟ فقال: رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة. وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد: رأيتك في النوم كأنك في الجنة! فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال: لعل الشيطان أراد أمراً فعصمت منه فأشخص رجلاً يقتلني! وقال محمد بن واسع: الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره. وقال صالح بن بشير: رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له: رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، قال: أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً، فقلت: في أي الدرجات أنت؟ فقال: ﴿مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ وسئل زرارة بن أبي أوفى في المنام: أي الأعمال أفضل عندكم؟ فقال: الرضا وقصر الأمل. وقال يزيد بن مذعور: رأيت الأوزاعي في المنام فقلت: يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى! قال: ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين. قال: وكان يزيد شيخاً كبيراً، فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه. وقال ابن عيينة: رأيت أخي في المنام فقلت: يا أخي ما فعل الله بك؟ فقال: كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي. وقال علي الطلحي: رأيت في المنام امرأة

لا تشبه نساء الدنيا فقلت: من أنت؟ فقالت: حوراء، فقلت زوّجيني نفسك، قالت: اخطبني إلى سيدي وأمهرني، قلت: وما مهرك؟ قالت: حبس نفسك عن آفاتها. وقال إبراهيم بن اسحاق الرحبي: رأيت زبيدة في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي، فقلت لها: بما أنفقت في طريق مكة؟ قالت: أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها، وغفر لي بنيتي. ولما مات سفيان الثوري رؤي في المنام فقيل له: ما فعل بك؟ قال: وضعت أوّل قدمي على الصراط والثاني في الجنة. وقال أحمد بن أبي الحواري: رأيت فيما يرى النائم جارية ـ ما رأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نوراً ـ فقلت لها: ممّاذا ضوء وجهك؟ قالت: تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها؟ قلت: نعم، قالت: أخذت دمعك فمسحت به وجهي، فمن ثم ضوء وجهي كما ترى. وقال الكتاني: رأيت الجنيد في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل. ورؤيت زبيدة في المنام فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي بهذه الكلمات الأربع: لا إلّه إلا الله أفني بها عمري، لا إلّه إلا الله أدخل بها قبري، لا إلّه إلا الله أخلو بها وحدي، لا إلّه إلا الله ألقى بها ربي. ورؤي بشر في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني ربي عزوجل وقال يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف. ورؤي أبو سليمان في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال رحمني وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم إلي. وقال أبو بكر الكتاني: رأيت في النوم شاباًلم أر أحسن منه فقلت له: من أنت؟ قال: التقوى! قلت: فأين تسكن؟ قال: كل قلب حزين! ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت: من أنت؟ قالت: أنا السقم! قلت: فأين تسكنين؟ قالت: كل قلب فرح مرح! قال: فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة. وقال أبو سعيد الخراز: رأيت في المنام كأن إبليس وثب علي، فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها فهتف بي هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإنما يخاف من نور يكون في القلب. وقال المسوحي: رأيت إبليس في النوم يمشي عرياناً فقلت: ألا تستحي من الناس! فقال: بالله هؤلاء ناس! لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة! بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية. وقال أبو سعيد الخراز: كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي ﷺ جاءني متكئاً على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. فجاء فوقف علي وأنا أقول شيئاً من الأصوات وأدق في صدري، فقال: شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال: رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول: ﴿لمثل هـذا فليعمل العاملون﴾ فقلت له: أوصني قال: أقلل من معرفة الناس، وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال: رأيت سفيان الثوري فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:

نـظرت إلى ربي كفـاحـاً فقـال لي	هنيئاً رضائي عنـك يا ابن سعيـد
فقد كنت قوّاماً إذا أظلم الدجى	بـعبـرة مشتـاق وقـلب عميـد
فـدونك فـاختـر أي قصـر أردتـه	وزرني فـإني منـك غـير بعيـد

ورؤي الشبلي بعد موته بثلاثة أيام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: ناقشني حتى أيست، فلما رأى يأسي تغمدني برحمته. ورؤي نون بني عامر بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين. ورؤي الثوري في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني، فقيل له: ما حال عبد الله بن المبارك؟ فقال: هو ممن يلج على ربه في كل يوم مرتين. ورؤي بعضهم فسئل عن حاله فقال حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا. ورؤي مالك بن أنس فقيل: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة:سبحان الحي الذي لا يموت. ورؤي في الليلة التي مات فيها الحسن البصري كأن أبواب السماء مفتحة، وكأن منادياً ينادي ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض. ورؤي الجاحظ فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال:

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عرياناً فقال ألا تستحي من الناس؟ فقال وهؤلاء ناس! الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدي وأحرقوا كبدي! قال الجنيد فلما انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون. فلماراأوني قالوا لا يغرّنك حديث الخبيث. ورؤي النصر أباذي بمكة - بعد وفاته - في النوم فقيل له ما فعل الله بك؟ قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال؟ فقلت لا يا ذا الجلال، فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي. ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئاً فيحال بيني وبينك، فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثاً لا رجعة لي عليها حتى ألقاك. وقيل رأى أيوب السختياني جنازة عاص، فدخل الدهليز كيلا يصلي عليها. فرأى الميت بعضهم في المنام فقيل له ما فعل الله بك؟ قال غفر لي وقال قل ﴿قل لو أنتم تَملكون خزائنَ رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق﴾ وقال بعضهم رأيت في الليلة التي مات فيها داود الطائي نوراً، وملائكة نزولاً وملائكة صعوداً، فقلت: أي ليلة هذه؟ فقالوا: ليلة مات فيها داود الطائي وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه. وقال أبو سعيد الشحام: رأيت سهلا الصعلوكي في المنام فقلت: أيها الشيخ! قال: دع التشييخ، قلت: تلك الأحوال التي شاهدتها، فقال: لم تغن عنا! فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز. وقال أبو بكر الرشيدي: رأيت محمداً الطوسي المعلم - في المنام - فقال لي: قل لأبي سعيد الصفار المؤدب:

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد وحياة الحب - حلتم وما حلنا

قال: فانتبهت فذكرت ذلك له فقال: كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة. وقال ابن راشد: رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فما صنع الله بك؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب، قلت: فسفيان الثوري؟ قال: بخ بخ ذاك ﴿من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين﴾ الآية وقال الربيع بن سليمان: رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت: يا أبا عبد الله ما صنع الله بك؟ قال: أجلسني على كرسي من ذهب ونثر علي اللؤلؤ الرطب. ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأنّ منادياً ينادي - إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه. وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي رأيت في منامي رجلاً آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت: من هذا؟ قالوا: أويس القرني، فأتيته فقلت أوصني رحمك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله، فأقبل علي وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك، ثم ولى وتركني. وقال أبو بكر بن أبي مريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمي فقلت ما فعلت يا ورقاء؟ قال البكاء من خشية الله. وقال يزيد بن نعامة هلكت جارية في الطاعون الجارف فرآها أبوها في المنام فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة؟ قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم، نعلم ولا نعمل وتعلمون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إلي من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام: رأيت عتبة في المنام فقلت، ما صنع الله بك؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك! قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت (يا هادي المضلين ويا أرحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذي أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت، يا أبا عبد الله بم نلت هذا؟ فقال بالورع، قلت فما بال علي بن عاصم؟ قال ذاك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب. ورأى رجل من التابعين النبي ﷺ في المنام فقال يا رسول الله عظني، قال نعم من لم يتفقد

النقصان فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له. وقال الشافعي رحمة الله عليه دهمني في هذه الأيام أمر أمضني وآلمني ولم يطلع عليه الله عزوجل، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي فقال لي يا محمد بن إدريس قل اللهم إني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية؛ فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار وأعطاني الله عزوجل طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه، فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها. فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقرّبة إلى الله زلفى، فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما في الجنة أو في النار والحمد لله حمد الشاكرين.

الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت وفي وقت نفخة الصور إلى آخر الإستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار.

وفيه بيان نفخة الصور. وصفة أرض المحشر وأهله. وصفة طول يوم القيامة. وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها. وصفة المساءلة عن الذنوب. وصفة الميزان، وصفة الخصماء ورد المظالم، وصفة الصراط. وصفة الشفاعة. وصفة الحوض. وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها. وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشها وسررهم، وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان. وصفة النظر إلى وجه الله تعالى. وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى.

صفة نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شتت أحوال الميت في سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه. وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور وبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط مع دقته وحدّته، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء. فهذه أحوال وأهوال لا بدّ لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الإستعداد لها، وأنثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه ـ الذي أخبر ـ صدقت، ثم مدّ يديه لتناوله؛ كان مصدقاً بلسانه ومكذباً بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان. وقد قال النبي ﷺ: «قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، وكذبني وما ينبغي له ان يكذبني، أما شتمه إياي فيقول إن لي ولداً وأما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني[1]». وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور: ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له: إن صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به، ولذلك قال الله تعالى ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا

(١) حديث: «قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني... الحديث» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

هو خصيم مبين﴾ وقال تعالى ﴿أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ ففي خلق الآدمي - مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه - أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته؟ فإن كان في إيمانك ضعف فقوة الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوي الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار، وتفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة. فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك مغبراً بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتاً من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الإنتظار لعاقبة الأمر، كما قال تعالى ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ وقال تعالى ﴿فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير﴾ وقال تعالى ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى اهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتقي فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السمٰوات والأرض - يعني يموتون بها - إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ[1]».

قال مقاتل: الصور هو القرن؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السمٰوات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السمٰوات والأرض أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. ثم يؤمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل ثم يؤمر ملك الموت فيموت. ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله ﷺ: «حيث بعث إليّ بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلاً وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة[2]» فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الإنبعاث خوفاً من هذه الصعقة، وانتظاراً لما يقضي عليهم من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم. بل إن كنت في الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطؤون بالأقدام مثل الذرة. وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤوسهم مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها،

---

(١) حديث: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ «إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران» وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه.

(٢) حديث: «حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به وقدم رجلاً وآخر أخرى الحديث» لم أجده هكذا بل قد ورد: إن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة «إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السمٰوات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر» قال البخاري ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ: «ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفة كأن عينيه كوكبان دريان» وإسنادها جيد.

ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى: ﴿ وإذا الوحوش حشرت﴾ ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى: ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ فتفكر في حالك وحال قلبك هناك.

صفة أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلاً إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا ترى عليها ربوة يختفي الإنسان وراءها، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمراً، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة، والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة، قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراءكقرص النقي ليس فيها معلم لأحد[1]».

قال الراوي: والعفرة: بياض ليس بالناصع، والنقي: هو النقي عن القشر والنخالة. ومعلم؛ أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر.

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الإسم قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات﴾. قال ابن عباس: يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمدّ مدّ الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة، والسمٰوات تذهب شمسها وقمرها ونجومها. فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدّته، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر، وأظلمت الأرض لخمود سراجها. فبيناهم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدّتها خمسمائة عام، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها في سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشتتها! ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس حفاة عراة قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان». قالت سودة - زوج النبي ﷺ راوية الحديث - قلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «شغل الناس عن ذلك بهم: ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[2]».

فأعظم بيوم تنكشف فيه العوارت ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات. كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الإلتفات إلى غيرهم، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: ركباناً ومشاة وعلى وجوههم، فقال رجل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم[3]». في طبع الآدمي إنكار كل

---

(1) حديث: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لأحد» متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخاري قوله: «ليس فيها معلم لأحد» فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه.

(2) حديث: «يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان» قالت سودة راوية الحديث: واسوأتاه... الحديث» أخرجه الثعلبي والبغوي وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهي القائلة «واسوأتاه» ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهي القائلة «وأسوأتاه».

(3) حديث أبي هريرة: «يحشر الناس يوم القيامة ركباناً ومشاة وعلى وجوههم... الحديث» رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس: أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصوّر المشي على غير رجل، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا، فإنك لو لم تكن قد شاهدت، عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدّ إنكاراً لها! فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجري عليك القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة.

صفة العرق

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجنّ وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرّها وتبدّلت عما كانت عليه من خفة أمرها، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل رب العالمين. ولم يمكن من الإستظلال به إلا المقرّبون، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحرّ الشمس قد صهرته بحرها واشتدّ كربه وغمه من وهجها، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الإفتضاح والإختزاء عند العرض على جبار السماء، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة. ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، وبعضهم كاد يغيب فيه. قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه[1]». وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعاً ويلجمهم ويبلغ أذقنهم[2]». كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح. وفي حديث آخر: «قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب[3]». وقال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه ـ وأشار بيده فألجمها فاه ـ ومنهم من يغطيه العرق ـ وضرب بيده على رأسه هكذا[4]». فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم، وفيهم من ينادي فيقول رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً فإنك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق؟

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله ـ من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر ـ فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمراً وأقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار في القيامة، فإنه يوم عظيمة شدّته طويلة مدته.

---

(١) حديث ابن عمر: «يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه» متفق عليه.

(٢) حديث أبي هريرة: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً... الحديث» أخرجاه في الصحيحن كما ذكره المصنف.

(٣) حديث: «قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب» أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدي لا أظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه.

(٤) حديث عقبة بن عامر: «تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبة... الحديث» رواه أحمد وفيه ابن لهيعة.

صفة طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم، يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم. قال كعب وقتادة: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام. بل قال عبد الله بن عمرو، تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «كيف بكم إن جمعكم الله كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة ولا ينظر إليكم[1]». وقال الحسن: ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً واحترقت أجوافهم جوعاً انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرّها واشتدّ لفحها، فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرّم على مولاه ليشفع في حقهم، فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال: دعوني! نفسي نفسي؟ شغلني أمري عن أمر غيري. واعتذر كل واحد بشدّة غضب الله تعالى وقال: قد غضب اليوم ربنا غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه: ﴿لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ فتأمل في طول هذا اليوم وشدّة الإنتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر.

واعلم أنّ من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك إلى خاصة، قال رسول الله ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا[2]». فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيديك، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تربح ربحاً لا منتهى لسروره، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلاً لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفاً لكان ربحك كثيراً وتعبك يسيراً.

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعدّ يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كوّرت، والجبال قد سيرت، والعشار قد عطلت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوّجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدّت، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية وتبس الجبال بساً فكانت هباء منبثا، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد

---

(١) حديث ابن عمر: تلا هذه الآية ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ ثم قال: «كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم» قلت: إنما هو عبد الله بن عمر ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راوياً غير ابن وهب ولهم غير عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون.

(٢) حديث: سئل عن طول ذلك اليوم فقال «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا» أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد «يهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب وراوه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ «إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة».

القهار، يوم تنسف فيه الجبال نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مر السحاب، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان، فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام، ولا يسأل فيه عن الإجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدّمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه: أراك قد شبت يا رسول الله قال: «شيبتني هود وأخواتها[٢]». وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت، فيا أيها القارىء العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرّك به اللسان، ولو كنت متفكراً فيما تقرؤه لكنت جديراً بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين، وإذا أقنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن، فالقيامة أحد ما ذكر فيه. وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها بكثرة أساميها على كثرة معانيها، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب بل الغرض تنبيه أولي الألباب، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى، فاحرص على معرفة معانيها.

ونحن الآن نجمع لك أساميها. وهي: يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص وبوم التناد ويوم الحساب ويوم المآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزي يوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم المنتهى ويوم الجزع ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم الساعة ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى فيه السرائر ويوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ويوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ويوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ويوم يسبحون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لا يجزي والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مراد له من الله يوم هم بارزون ويوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار. يوم تخشع فيه الأبصار، وتسكن الأصوات ويقل فيه الإلتفات، وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات، يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد، ويشيب الصغير ويسكر الكبير، فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين، وبرزت الجحيم وأغلى الحميم، وزفرت النار ويئس الكفار، وسعرت النيران وتغيرت الألوان، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان.

فيا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين، يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين. لاويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرّفنا غفلتنا ويقول: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم

---

(١) حديث: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وهم يتساءلون إذا الشمس كورت» أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم.

يلعبون لاهية قلوبهم﴾ ثم يعرّفنا قرب القيامة فيقول: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر - إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً - وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه. فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

صفة المساءلة

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاهاً من غير ترجمان، فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير. فبينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار. قال رسول الله ﷺ: «إن لله عزوجل ملكاً ما بين شفري عينيه مسيرة مائة عام[1]». فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلاً هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده. وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين. فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة؛ أفيكم ربنا؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا! سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد! وعند ذلك تقوم الملائكة صفاً محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم.

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ وقاله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ فيبدأ سبحانه بالأنبياء: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة؛ إذ يقال لهم: ما أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون، فيقولون من شدة الهيبة، لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب. وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له: هل بلغت، فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ فيبقى متشحطاً تحت هيبة هذا السؤال سنين، فيالعظم يوم القيامة فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحداً واحداً يا فلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض. وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار. ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق.

وقبل الإبتداء بالسؤال يظهر نور العرش: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه المأخوذ بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك: يا جبريل ائتني بالنار فيجيء لها جبريل ويقول: يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك. فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره. فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعاً ورعباً فتساقطوا جثياً على الركب،

---

(١) حديث: «إن لله عزّ وجل ملكاً ما بين شفري عينيه مسيرة مائة عام» لم أره بهذا اللفظ

وولوا مدبرين يوم: ﴿ترى كل أمة جاثية﴾ وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادي العصاة والظالمون بالويل والثبور، وينادي الصديقون نفسي نفسي. فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين.

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم، فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتدّ الفزع على العصاة، ففرّ الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته، وبقي كل واحد منتظراً لأمره. ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاهاً عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه، قال أبو هريرة قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب». قالوا لا، قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب». قالوا لا، قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم؛ فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك أسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع، فيقول العبد بلى؛ فيقول أظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتني[1]». فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاهاً، فيقول لك. ألم أنعم عليك بالشباب ففي ماذا أبليته، ألم أمهل لك في العمر ففي ماذا أفنيته، ألم أرزقك المال فمن أين أكتسبته وفي ماذا أنفقته، ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت. فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك قال أنس رضي الله عنه كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال: «أتدرون مم أضحك» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه ويقول يا رب ألم تجرني من الظلم». قال: «يقول بلى». قال: «فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً». قال: «فيختم علي فيه ويقال لأركانه انطقي». قال: «فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل[2]». فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره. سأل ابن عمر رجل فقال له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم[3]». وقد قال رسول الله ﷺ: «من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة[4]». فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه. فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيام، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدّة الهول مظل، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه: يا ابن آدم ادن مني،

---

(١) حديث أبي هريرة: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب... الحديث» متفق عليه دون طوله «فيلقى العبد... الخ» فانفرد بها مسلم.

(٢) حديث أنس: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه... الحديث» رواه مسلم.

(٣) حديث: سأل ابن عمر رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى... الحديث» رواه مسلم.

(٤) حديث: «من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة» تقدم.

فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر، وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها؟ فكم لك من خجل وجبن؟ وكم لك من حصر وعجز؟ فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول؟ ثم تفكر في عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاهاً إذ يقول: يا عبدي؟ أما استحييت مني فبارزتني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل، أكنت أهون عليك من سائر عبادي، استخففت بنظري إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيري، ألم أنعم عليك؛ فماذا غرّك بي أظننت أني لا أراك وأنك لا تلقاني. قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان[1]». وقال رسول الله ﷺ: «ليقفن أحدكم بين يدي الله عزوجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالاً فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولاً فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة[2]». وقاله ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عزوجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول يا ابن آدم ما غرّك بي يا ابن آدم ما عملت فيما عملت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك ألم أكن رقيباً على أذنيك، وهكذا حتى عدّ سائر أعضائه، وقال مجاهد: لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بينَ يدي الله عزوجل حتى يسأله عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفي ماذا أنفقه؟ فأعظم يا مسكين بحيائك عن ذلك بخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ـ فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأوّلون والآخرون ـ وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه ـ وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديراً بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرّطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك!.

صفة الميزان

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب إلى الإيمان والشمائل، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق (فرقة) ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلتقطهم لقط الطير الحب وينطوي عليهم ويلقيهم في النار، فتبتلعهم النار وينادي عليهم شقاوة ولا سعادة بعدها (وقسم آخر) لا سيئة لهم فينادي مناد ليقم الحمادون لله على كل حال؛ فيقولون. ويسرحون إلى الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى. وينادي عليهم سعادة لا شقاوة بعدها (ويبقى قسم ثالث) وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله إلا أن يعرّفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عندالعقاب، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق. وروى الحسن أن رسول الله ﷺ كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها فنعس، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله ﷺ فانتبه فقال: «ما يبكيك يا عائشة؟». قالت: ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: «والذي نفسي بيده في ثلاث مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا نفسه: إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل. وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه

---

(١) حديث: «ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين... الحديث» متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بلفظ «إلا سيكلمه» الحديث.

(٢) حديث: «ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان... الحديث» أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم.

أو بشماله، وعند الصراط[1]». وعن أنس «يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً. وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار». قال رسول الله ﷺ في يوم القيامة: «إنه يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون». فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة. فلما رأى رسول الله ﷺ ما عند أصحابه قال: «اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بني آدم وبني إبليس». قالوا وما هما يا رسول الله؟ قال: «يأجوج ومأجوج». قال: فسري عن القوم فقال: «اعملوا أبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة[2]».

صفة الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية﴾ واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا. وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه، ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة. فهذا يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلببه، هذا يقول ظلمتني، وهذا يقول شتمتني، وهذا يقول استهزأت بي، وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني، وهذا يقول جاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول عاملتني فغششتني، وهذا يقول بايعتني فغبنتني وأخفيت عني عيب سلعتك، وهذا يقول كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول رأيتني محتاجاً وكنت غنياً فما أطعمتني، وهذا يقول وجدتني مظلوماً وكنت قادر على دفع الظلم عني فداهنت الظالم وما راعيتني. فبينا أنت كذلك وقد انشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم - لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم - إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم﴾ فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس﴾ الآية.

فما أشدّ فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم! وما أشدّ حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً

---

(١) حديث الحسن: أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت... الحديث» وفيه: فقال: «ما يبكيك يا عائشة» قالت: ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة... الحديث» أخرجه أبو داود من رواية الحسن: أنها ذكرت النار فبكت فقال «ما يبكيك» دون كون رأسه ﷺ في حجرها وأنه نعس وإسناده جيد.

(٢) حديث: «يقول الله يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول: وكم بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون... الحديث» متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم.

أو تظهر عذراً؟ فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من المفلس». قلنا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، قال: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار[1]». فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل، لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك! فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القرناء؟ فقد روى أبو ذرّ؛ أن رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أبا ذرّ أتدري فيم ينتطحان؟». قلت: لا، قال: «ولكن الله يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة[2]».

وقال أبو هريرة في قوله عزوجل: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ أنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ـ البهائم والدواب والطير وكل شيء ـ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً. فكنت أنت يا مسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول: أين حسناتي؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك. وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتدّ بسبب الكف عنها عناؤك فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط! فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات، فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجينه فما يزال عبد يجيء فيقول رب إن فلاناً ظلمني بمظلمة فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا[3]». وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير: يا رسول الله أيكرّر علينا ما كان بيننا في الدنيا خواص الذنوب! قال: «نعم ليكرّرن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذي حق حقه[4]». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. فأعظم بشدّة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم! قال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد عراة غبراً بهماً». قال: قلنا: ما بهما؟ قال ليس معهم شيء، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من

---

(١) حديث أبي هريرة: «هل تدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس يا رسول الله من لا درهم ولا متاع... الحديث. تقدم.

(٢) حديث: «يا أبا ذر أتدري فيم ينتطحان» قلت: لا، قال: «ولكن ربك يدري وسيقضي بينهما» أخرجه أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر.

(٣) حديث ابن مسعود: «إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما دون ذلك المحقرات وهي الموبقات... الحديث» وفي آخره «وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة... الحديث» رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصراً على آخره «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً... الحديث. وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصراً من حديث جابر: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحرش بينهم».

(٤) حديث: لما نزل قوله تعالى ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا... الحديث. أخرجه أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح.

بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه؛ حتى اللطمة». قلنا: وكيف وإنما نأتي الله عزوجل عراة غبراً بهماً! فقال: «بالحسنات والسيئات[1]». فاتقوا الله عباد الله، ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فيكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم، كما روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر! ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تعالى؛ أعط أخاك مظلمته قال: يا رب لم يبق من حسناته شيء فقال الله تعالى للطالب: كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال: يا رب يتحمل عني من أوزاري». قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: «إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم». قال: «فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان فرفع رأسه». فقال: يا رب أرى مدائن من فضة مرتفعة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا أو لأي صديق هذا؟ أو لأي شهيد هذا؟ قال لمن أعطاني الثمن، قال: يا رب ومن يملك ثمنه ؟ قال: أنت تملكه، قال: وما هو؟ قال عفوك عن أخيك، قال: يا رب إني قد عفوت عنه، قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك «اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين[2]». وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق.

فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد؛ كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل الفضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء؟ وعند ذلك طار قلبك سروراً وفرحاً وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعاً رأسك خالياً عن الأوزار ظهرك، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك، وخلق الأوّلين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك؟ والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد: هذا فلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً! أفترى أنّ هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به.

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة فمقتك لأجلها فقال: عليك لعنتي يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون: عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين، وعند ذلك تنثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك، وأنت تنادي الويل

---

(١) حديث أنس: «يحشر العباد عراة غبراً بهماً» قلنا: ما بهماً؟ قال: «ليس معهم شيء... الحديث» قلت: ليس من حديث أنس وإنما هو عبيد الله بن أنيس رواه أحمد بإسناد حسن وقال «غرلاً» مكان «غبراً».

(٢) حديث أنس: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العالمين... الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرك وقد تقدم.

والثبور، وهم يقولون لك: لا تدع اليوم ثبوراً واحداً وادع ثبوراً كثيراً وتنادي الملائكة ويقولون: هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلباً للمكانة في قلوبهم أو خوفاً من الإتضاح عندهم، فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الإفتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لا نخشى من الإفتضاح العظيم في ذلك الملأ العظيم مع التعرّض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم، فهذه أحوالك وأنت لم تشعر لابالخطر الأعظم وهو خطر الصراط.

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ وفي قوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم. وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ فالناس من بعده هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ـ وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدق من الشعر ـ فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الإستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر في أوّل قدم من الصراط وتردى. فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أنّ تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدّة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك ويزلون ويتعثرون، وتتنازلهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتتسفل إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم، فيا له من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه! فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك، تلتفت يميناً وشمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون في النار والرسول عليه السلام يقول: «يا رب سلم سلم». والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط لامن الخلائق، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك؟ فناديت بالويل والثبور وقلت: هذا ما كنت أخافه فيا ليتني قدّمت لحياتي! يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً! يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً! يا ليتني كنت تراباً! يا ليتني كنت نسياً منسياً! يا ليت أمي لم تلدني وعند ذلك تختطفك النيران ـ والعياذ بالله ـ وينادي المنادي ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم، وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاوناً فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه! فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه ـ وإن سلمت ـ فناهيك به هولاً وفزعاً ورعباً! قال رسول الله ﷺ: «يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أوّل من يجيز بأمته من الرسل، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم اللهم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان؟». قالوا: نعم يا رسول الله قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو[1]». وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ، يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يميناً وشمالاً وعلى جنبتيه ملائكة يقولون: اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس

---

(١) حديث: «ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز» متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طويل.

المجري ومنهم من يسعى سعياً ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يحبوا حبواً ومنهم من يزحف زحفاً، فأما أهل النار الذي هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون، وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحمًا ثم يؤذن في الشفاعة[١]». وذكر إلى آخر الحديث: وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «يجمع الله الأوّلين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء». وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال: «ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطي نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطي نوره مثل النخلة ومنهم من يعطي نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلاً يعطي نوره على إبهام قدمه فيضيء مرة ويخبو مرة فإذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا أظلم قام». ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم «فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشدّ الفرس ومنهم من يمر كشدّ الرجل حتى يمرّ الذي أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار». قال: «فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط أحداً إذ نجاني منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غابر عند باب الجنة فيغتسل[٢]». وقال أنس بن مالك: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: الصراط كحدّ السيف أو كحدّ الشعرة وإنّ الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإنّ جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتي وإني لأقول يا رب سلم سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير[٣]».

فهذه أهوال الصراط وعظائمه، فطوّل فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة. ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك؟ فماذا من الخوف في شيء؟ بل من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه. فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته. وابعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أُحدهم: استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم. وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم. فالشيطان يضحك من استعاذتهم. كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين واستعين بشدة بنيانه | وإحكام أركانه؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأني يغني عن ذلك من السبع. وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول : «لا إله إلا الله». صادقاً ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره. ومن اتخذ إله هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر في نفسه، فإن عجزت عن ذلك كله فكن محباً لرسول الله ﷺ حريصاً على تعظيم سننه ومتشوّقاً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركاً بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنحو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة.

صفة الشفاعة

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء

---

(١) حديث أبي سعيد: «يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف... الحديث» متفق عليه مع اختلاف الفاظ.

(٢) حديث ابن مسعود: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء». قال: وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصراً.

(٣) حديث أنس: «الصراط كحد السيف ـ أو كحد الشعرة... الحديث» أخرجه البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميري عن أنس مرفوعاً «الصراط كحد الشعرة ـ أو كحد السيف» قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة.

والصدّيقين، بل شفاعة العلماء والصالحين، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه، فكن حريصاً على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة، وذلك بأن لا تحقر آدمياً أصلاً فإن الله تعالى خبأ ولايته في عباده فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله، ولا تستصغر معصية أصلاً فإن الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه، ولا تستحقر أصلاً طاعة فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه. ولو الكلمة الطيبة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه.

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة: قال الله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ روى عمرو ابن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب إنهنّ أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ ثم رفع يديه وقال: «أمتي أمتي». ثم بكى فقال الله عزوجل: يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل فسأله فأخبره ـ والله أعلم به ـ فقال: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[1] وقال ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبل نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة، وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة[2]». وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر». وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أوّل من تنشق الأرض عنه وأنا أوّل شافع وأوّل مشفع بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه[3]». وقال ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة[4]». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها، ويبقى منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي، فأقول: يا رب أمتي فيقول الله عزوجل: يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول: يا رب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطي صكاكاً برجال قد بعث بهم إلى النار وحتى إن مالكاً خازن النار يقول: يا محمد ما تركت النار لغضب ربك في أمتك من بقية[5]». وقال ﷺ : «إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر[6]». وقال أبو هريرة أتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: «أنا سيد المرسلين يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من

---

(١) حديث عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم ﷺ ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني منهم فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وقول عيسى ﷺ ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ ثم رفع يديه، ثم قال: «أمتي أمتي» ثم بكى. الحديث. وفيه: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك ولا نسوءك في أمتك، قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ.

(٢) حديث: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي. . . الحديث» وفيه «وأعطيت الشفاعة» متفق عليه من حديث جابر: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح.

(٣) حديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر. . . الحديث» أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) حديث: «لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة» متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث إبن عباس: «ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً . . . الحديث» أخرجه الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت والبناني ضعيف.

(٦) حديث: «إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر» أخرجه أحمد والطبراني من حديث بريدة بسند حسن.

يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله تعالى بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته؛ نفسي نفسي! أذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله. فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم اؤمر بقتلها؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما أخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع. فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي يا رب؛ فقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب». ثم قال: «والذي نفسي بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى[1]». وفي حديث آخر. هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم؛ وهو قوله في الكواكب هذا ربي، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا، وقوله إني سقيم. فهذه شفاعة رسول الله ﷺ، ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضاً حتى قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر[2]». وقال ﷺ يقال للرجل يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل الرجلين على قدر عمله[3]». وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إنّ رجلاً من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول: يا فلان هل تعرفني؟ فيقول: لا والله ما أعرفك من أنت؟ فيقول: أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني شربة ماء فسقيتك، قال: قد عرفت، قال: فاشفع لي بها عند ربك!

---

(١) حديث أبي هريرة: «أن النبي ﷺ أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: «أنا سيد الناس... الحديث بطوله في الشفاعة، قال وفي حديث آخر مع ذكر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم.

(٢) حديث: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر» رويناه في جزء أبي عمر بن السماك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال: «مثل أحد الحيين ربيعة ومضر» وفيه: فكأن المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجدعان «يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم «قالوا: سواك قال «سواي» قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أو يسأ.

(٣) حديث: «يقال للرجل قم يا فلان يشفع فيقوم بشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد «إن من أمتي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة... الحديث» وقال حسن وللبزار من حديث أنس أن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة.

فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إني أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال: هل تعرفني؟ فقلت: لا من أنت؟ فقال: أنا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه، فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار[1]». وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «أنا أوّل الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يئسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر[2]». وقال رسول الله ﷺ: «إني أقوم بين يدي ربي عزوجل فأكسي حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري[3]». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم: عجباً إنّ الله عزوجل اتخذ من خلقه خليلاً، اتخذ إبراهيم خليلاً! وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليماً! وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه! وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم ﷺ وقال: «قد سمعت كلامكم وتعجبكم إنّ إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أوّل شافع وأوّل مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أوّل من يحرك خلق الجنة فيفتح الله لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر[4]».

صفة الحوض

اعلم أنّ الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ وقد اشتملت الأخبار على وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه، فإن من صفاته أنّ من شرب منه لم يظمأ أبداً. قال أنس أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقالوا له: يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال: «آية أنزلت عليّ آنفاً». وقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ـ إنا أعطيناك الكوثر﴾ حتى ختمها ثم قال: «هل تدرون ما الكوثر؟». قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «نهر وعدنيه ربي عزوجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء[5]». وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر[6]». وقال كان رسول الله ﷺ يقول: «ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء ـ أو مثل ما بين المدينة وعمان ـ[7]». وروى ابن عمر: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال رسول الله ﷺ: «هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب، شرابه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحاً من

---

(١) حديث أنس: «أن رجلاً من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول: يا فلان هل تعرفني؟ فيقول: لا والله ما أعرفك من أنت؟ فيقول: أنا الذي مررت بي في الدنيا يوماً فاستسقيتني شربة فسقيتك... الحديث» في شفاعته فيه وإخراجه من النار. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف.

(٢) حديث أنس: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا... الحديث» أخرجه الترمذي. وقال حسن غريب.

(٣) حديث: «فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح.

(٤) حديث إبن عباس: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجباً: إن الله اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً... الحديث. رواه الترمذي وقال غريب.

(٥) حديث أنس: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقالوا يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال: «آية نزلت عليّ آنفاً» وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ رواه مسلم.

(٦) حديث أنس: بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف... الحديث» أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ورواه البخاري من قول أنس: لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء... الحديث. وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي ﷺ.

(٧) حديث أنس: «ما بين لأبتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان» رواه مسلم.

المسك يجري على جنادل اللؤلؤ والمرجان». وقال ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال رسول الله ﷺ: «إنّ حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقان ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، أوّل الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين». فقال عمر بن الخطاب: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم الشعث رؤوساً الدنس ثياباً الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد». فقال عمر بن عبد العزيز: والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله، لا جرم لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسخ. وعن أبي ذرّ قال: قلت يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفسي محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المضحية، من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله ما بين عمان وأيلة، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل[1]». وعن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة[2]». فهذا رجاء رسول الله ﷺ فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين، وليحذر أن يكون متمنياً ومغتراً وهو يظن أنه راج، فإنّ الراجي للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد، فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين في شيء، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى. نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإنّ الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى: ﴿فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾.

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البراءة من سوء المنقلب. وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له: ﴿ذق إنك أنت العزيزالكريم﴾ فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم ومستقرّهم الجحيم، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك قد حق

---

(١) حديث ابن عمر: لما نزل قوله تعالى ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال رسول الله ﷺ «هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب... الحديث» أخرجه الترمذي مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف.

(٢) حديث ثوبان: «إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء... الحديث» أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه.

(٣) حديث أبي ذر: قلت يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء... الحديث» رواه مسلم.

(٤) حديث سمرة: «إن لكل نبي حوضاً وأنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة... الحديث» أخرجه الترمذي وقال غريب قال روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح.

علينا الوعيد يا مالك أثقلنا الحديد يا مالك قد نضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود. فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان! ولا خروج لكم من دار الهوان فأخسؤ وا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن إيمانهم والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل. ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، قد عرّيت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفح تلك النيران، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون! فكيف بك لو نظرت إليهم وقد اسوّدت وجوههم أشد سواداً من الحميم، وأعميت أبصارهم، وابكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومزقت جلودهم، وغلت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم. وهم يمشون على النار بوجوههم ويطؤ ون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب النار سار في بواطن أجزائها وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم. هذا بعض جملة أحوالهم. وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضاً في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي ﷺ: «إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعين ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يوقع ذلك كله[1]». وقال علي كرم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من جب الحزن ـ أو وادي الحزن» قيل يا رسول الله وما وادي ـ أوجب ـ الحزن قال: «واد في جهنم تتعوّذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعدّه الله تعالى للقراء المرائين[2]». فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها. وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض الأعلى: جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السير ثم الجحيم ثم الهاوية، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حدّ لعمق شهوات الدنيا، فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها. قال أبو هريرة: كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين عاماً الآن انتهى إلى قعرها[4]».

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة. فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان، بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا بحذافير لافتدى بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة

---

(١) حديث: «إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله» لم أجده هكذا بجملته وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب.

(٢) حديث علي: تعوذوا بالله من جب الحزن ـ أو وادي الحزن... الحديث. رواه ابن عدي بلفظ: «جب الحزن» وضعفه ابن عدي وتقدم في ذم الجاه والرياء.

(٣) حديث أبي هريرة: كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة... الحديث» وفيه «هذا حجر أرسل في جهنم... الحديث» رواه مسلم.

نعليه(١)». فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه. ومهما تشككت من شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به. ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات! لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هرباً مما هم فيه. وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل: «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا(٢)» بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم فقال: «أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرّت ثم أوقد عليه ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة(٣)». وقال ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها في نفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدونه في الصيف من حرها وأشد ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها(٤)». وقال أنس بن مالك: يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيمًا قط فيقال: لا، ويؤتى بأشد الناس ضراً في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له: هل رأيت ضراً قط؟ فيقول: لا وقال أبو هريرة: لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا. وقد قال بعض العلماء في قوله: ﴿تلفح وجوههم النار﴾ إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته عند أعقابهم.

ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق: قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «لو أن دلواً من غساق جهنم ألقي في الدنيا لأنتن أهل الأرض(٥)» فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحرهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً.

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى: ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم﴾ وقال تعالى: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنها لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ وقال تعالى: ﴿تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية﴾ وقال تعالى: ﴿إن لدينا أنكالاً وجحيًا وطعاماً ذا غصة وعذابه أليماً﴾ وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ؛ «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم(٦)». فكيف من يكون طعامه ذلك؟ وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم، ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبثتها عليكم(٧)». وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع

---

(١) حديث: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار. . . الحديث» متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

(٢) حديث: «إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا» ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس «وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد» وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف «وما وصلت إليكم» حتى أحسبه قال: «نضحت بالماء فتضيء عليكم».

(٣) حديث: «أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت. . . الحديث» تقدم.

(٤) حديث: «اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين. . . الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث أبي سعيد الخدري: «لو أن دلواً من غساق ألقى في الدنيا لأنتن أهل الأرض» أخرجه الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف.

(٦) حديث ابن عباس: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم. . . الحديث» أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه.

(٧) حديث أنس: «ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم. . . . الحديث» لم أجد له إسناداً.

حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة، فيذكرون كما كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم، قال: فيدعون خزنة جهنم: ﴿أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب فيقولون أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ قال: «فيقولون ادعوا مالكاً فيدعون فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك». قال: «فيجيبهم إنكم ماكثون[1]». قال الأعمش: أنبئت التي بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال: فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال: فيجيبهم: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل. وقال أبو أمامة قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرّعه ولا يكاد يسيغه﴾ قال: «يقرّب إليه فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه. فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره». يقول الله تعالى: ﴿وسقوا ماء حميمًا فقطع أمعاءهم﴾ وقال تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ فهذه طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم[2].

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم، فهي عن النهش واللدغ ساعة واحدة! قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه - يعني أشداقه - فيقول أنا مالك أنا كنزك». ثم تلا قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله... الآية[3]﴾. وقال الرسول ﷺ: «إنّ في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً، وإن فيها لعقارب كالبغال الموكفة يلعسن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقي ذلك وقي هذه الحيات فلم تمثل له[4]». ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار فإنّ الله تعالى يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عذابهم بسببه، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي». قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث[5]». وقال رسول الله ﷺ: «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجه[6]». وقال عليه السلام: «إن الكافر ليجرّ لسانه في سجين يوم القيامة يتواطؤه الناس[7]». ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم

---

(١) حديث أبي الدرداء: «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام. الحديث» أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، قال الدارمي: والناس لا يعرفون هذا الحديث، وإنما روي عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله.

(٢) حديث أبي أمامة في قوله تعالى ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ قال يقرب إليه... الحديث أخرجه الترمذي وقال غريب.

(٣) حديث أبي هريرة: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع... الحديث» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه.

(٤) حديث: «إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة... الحديث» أخرجه أحمد من رواية ابن لهيعة من دراج عن عبد الله بن الحارث بن حمزه.

(٥) حديث أبي هريرة: «ضرس الكافر في النار مثل أحد... الحديث» رواه مسلم.

(٦) حديث: «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب.

(٧) حديث: «إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس» أخرجه الترمذي من رواية أبي المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لا يعرف.

النار مرات فتجدّد جلودهم ولحومهم. قال الحسن في قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها﴾ قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا.

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعاتهم بالويل والثبور، فإن ذلك يسلط عليهم في أوّل إلقائهم في النار قال رسول الله ﷺ: «يؤتي بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك[1]». وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضاً من ذلك[2]». قال محمد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عزوجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون: ﴿ربنا أمتنا أثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ فيقول الله تعالى مجيباً لهم: ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ ثم يقولون: ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾. فيقولون: ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل به﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ ثم يقولون: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ فلا يتكلمون بعدها أبداً وذلك غاية شدّة العذاب. قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾. وقال ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت[3]». وعن الحسن قال: يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل. ورؤي الحسن رضي الله عنه جالساً في زاوية وهو يبكي فقيل له: لم تبكي؟ فقال: أخشى أن يطرحني في النار ولا يبالي. فهذه أصناف عذاب وجهنم على الجملة، وتفصيل عمومها وأجزائها ومحنها وحسرتها لا نهاية له، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدّة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياماً قصيرة وكانت غير صافية، بل كانت مكدّرة منغصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا! وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياماً قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان؟ فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتها لكنها تعرض عليهم. فقد قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بيوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأوّلون والآخرون بمثلها، فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا، فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذ خلوتم بارزتموني بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلوني وتركتم الناس ولم تتركوا لي فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من

(١) حديث: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام. . . الحديث» أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) حديث أنس: «يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع. . . الحديث» أخرجه ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف.

(٣) حديث: «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح» أخرجه البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم.

الثواب المقيم[1]». وقال أحمد بن حرب: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار. وقال عيسى عليه السلام. كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدابين أطباق النار يصيح. وقال داود؛ إلهي لا صبر لي على حرّ شمسك فكيف صبري على حر نارك؟ ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك؟.

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه قال الله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ ولعمري الإشارة به يوم القيامة، بل في أزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك!

فإن قلت: فليت شعري ماذا موردي وإلى ماذا مآلي ومرجعي وماالذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإنّ كلا ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار. فقد قال الله تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم﴾ فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم.

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى، فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم، جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان، شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان، قاصرات الطرف عين، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون، في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم فيما اشتهيت أنفسهم خالدون، لا يخافون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً في أنهار أراضيها من فضة وحصاؤها مرجان، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور، ويؤتون بأكواب وأي أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب. كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته، لم يصنعه آدمي

---

(١) حديث: «يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا روائحها... الحديث» رويناه في الأربعين لأبي هدبة عن أنس وأبو هدبة إبراهيم بن هدبة هالك.

فيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته، في كف خادم يحكي ضياء وجهه للشمس في إشراقها، ولكن من أين الشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه. فيا عجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دونها؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها! وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته! كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرير ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون. قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «ينادي مناد أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله عزوجل: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون﴾[1]».

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ من قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ إلى آخر سورة الرحمن، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور. وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها، وتأمل أوّلاً عدد الجنان قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن[2]». ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد». فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم[3]». وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكراً لا أحفظه ثم قال: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبداً ولا تشعث رؤوسهم كأنما دهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها: ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾. ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة، يقولون له: أبشر أعدّ الله لك من الكرامة كذا، قال: فينطق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول: قد جاء فلان - باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا - فتقول: أنت رأيته؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثري، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدّره لألم أن يذهب بصره، ثم يطأطىء رأسه فإذا أزواجه: ﴿وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة﴾ ثم اتكأ فقال: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾. ثم

---

(١) حديث أبي هريرة: «ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.
(٢) حديث: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما... الحديث» متفق عليه من حديث أبي موسى.
(٣) حديث أبي هريرة: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة... الحديث» متفق عليه.

ينادي مناد: تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظعنون أبداً وتصحون فلا تمرضون أبداً وقال رسول الله ﷺ: «آتي يوم القيامة باب فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك[(١)]».

ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ وقال تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنـافسون﴾ والعجب أنه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها، فقد قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراؤ ون أهل الغرف فوقهم كما تتراؤ ون الكوكب الغائر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين[(٢)]». وقال أيضاً: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما[(٣)]». وقال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ «ألا أحدثكم بغرف الجنة». قال: قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك، بأبينا أنت وأمنا قال: «إن في الجنة غرفاً من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». قال: قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف؟ قال: «لمن أفشي السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام». قال: قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: «أمتي تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك، من لقي أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفشى السلام، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام، ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام، ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة في جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام[(٤)]». يعني اليهود والنصارى والمجوس. وسئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ قال: «قصور من لؤلؤ، في كل قصر سبعون داراً من ياقوت أحمر، في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر، في كل بيت سرير، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش زوجة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة. على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كل بيت سبعون وصيفة، ويعطي المؤمن في كل غداة - يعني من القوّة - ما يأتي على ذلك أجمع[(٥)]».

---

(١) حديث: «آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أنس.

(٢) حديث أبي سعيد: «إن أهل الجنة ليتراؤ ون أهل الغرف فوقهم كما تراؤ ون الكوكب... الحديث» متفق عليه وقد تقدم.

(٣) حديث: «إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع» رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد.

(٤) حديث جابر: «ألا أحدثكم بغرف الجنة» قلت: بلى يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا. قال: «إن في الجنة غرفاً من أصناف الجوهر... الحديث» أخرجه أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر.

(٥) حديث: سئل عن قوله تعالى ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ قال: «قصور من لؤلؤ... الحديث» أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجري في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال: سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن ابن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم، والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور.

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضاً عنها فقد قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك[١]» وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص[٢]». وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يسقيه الله عزوجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا، ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا[٣]». وقال: «أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك[٤]». ولوكان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عزوجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها[٥]». وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرءوا إن شئتم ﴿وظل ممدود﴾[٦]». وقال أبو أمامة: كنا أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إنّ الله عزوجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم؛ أقبل أعرابي فقال: يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أدري أنّ في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما هي». قال: السدر فإنّ لها شوكاً، فقال: «قد قال الله تعالى: ﴿في سدر مخضود﴾ يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر[٧]». وقال جرير بن عبد الله: نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه، فقلت للغلام: أنطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال: يا جرير تواضع الله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت: لا أدري! قال: ظلم الناس بعضهم بعضاً، ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من صغره فقال: يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده، قلت: يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر.

صفةلباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله: ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار؛ فقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عن قلب بشر[٨]». وقال رجل: يا رسول الله

---

(١) حديث أبي هريرة: «إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطيبها مسك» أخرجه الترمذي بلفظ «وملاطها المسك» وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح.

(٢) حديث: سئل عن تربة الجنة فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص» أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن إبن صياد سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره.

(٣) حديث أبي هريرة: «من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا» أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة».

(٤) حديث: «أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك» أخرجه العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة.

(٥) حديث: «لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

(٦) حديث: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها. . . . الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) حديث أبي أمامة: أقبل أعرابي فقال يا رسول الله في القرآن شجرة مؤذية قال: «ما هي» قال: السدر. . . الحديث» أخرجه إبن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلاً من غير ذكر لأبي أمامة.

(٨) حديث أبي هريرة: «من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه. . . الحديث» رواه مسلم دون قوله «في الجنة ما لا عين رأت. . . الخ» فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة: «قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت. . . . الحديث».

أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج؟ فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون؟ من جاهل سأل عالماً». ثم قال رسول الله ﷺ: «بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين[1]». وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أوّل زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوّطون آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية». وفي رواية: «على كل زوجة سبعون حلة[2]». وقال ﷺ في قوله تعالى: ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾ قال: «إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب[3]». وقال ﷺ: «الخيمة درّة مجوّفة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون[4]». رواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس: الخيمة درّة مجوّفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب. وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة﴾. قال: ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض[5]».

صفة طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى، قال الله تعالى: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً﴾. وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة، وقد قال ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال: فمن أوّل إجازة ـ يعني على الصراط ـ؟ فقال: «فقراء المهاجرين». قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد الحوت». قال: فما غداؤهم على أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل في أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً». فقال: صدقت[6]. وقال زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقال: يا أبا القاسم ألست تزعم أنّ أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟. وقال لأصحابه: إن أقرّ لي بها خصمته، فقال رسول الله ﷺ: «بلى والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوّة مائة رجل في المطعم والمشرب والجماع». فقال اليهودي: فإنّ الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمر[7]». وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشوياً[8]». وقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) حديث: قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقاً أم تنسج نسجاً... الحديث» أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) حديث أبي هريرة: «أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر... الحديث» متفق عليه.

(٣) حديث: في قوله تعالى ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾ قال: «إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد.

(٤) حديث: «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً... الحديث» عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

(٥) حديث أبي سعيد في قوله تعالى ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال: «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض» أخرجه الترمذي بلفظ: «إرتفاعها كما بين السماء والأرض» وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد.

(٦) حديث ثوبان: جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال: فمن أول الناس إجازة؟ يعني على الصراط فقال: «فقراء المهاجرين» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال: «زيادة كبدالنون... الحديث» رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره.

(٧) حديث زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون.... الحديث. وفيه: «حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك» أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحيح.

(٨) حديث إبن مسعود: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً» أخرجه البزار بإسناد صحيح.

«إنّ في الجنة طيراً مثل البخاتي. قال أبو بكر رضي الله عنه: إنها لناعمة يا رسول الله؟ قال:أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر[1]». وقال عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿يطاف عليهم بصحاف﴾ قال: يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾. قال: يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقرّبون صرفاً. وقال لو أنّ رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها.

صفة الحور العين والولدان

قد تكرّر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه. روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت ما بينهما رائحة ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها[2]». يعني الخمار، وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ قال: «تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك[3]». وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي دخلت في الجنة موضعاً يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلو والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن: السلام عليك يا رسول الله؛ فقلت: يا جبريل ما هذا النداء فقال: هؤلاء المقصورات في الخيام استأذنّ ربهنّ في السلام فأذن لهن، فطفقن يقلن:نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن الخالدات فلا نظعن أبداً. وقرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿حور مقصورات في الخيام[4]﴾».

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وأزواج مطهرة﴾. قال: من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد. وقال الأوزاعي: ﴿في شغل فاكهون﴾ قال: شغلهم افتضاض الأبكار. وقال رجل: يا رسول الله أيباضع أهل الجنة؟ قال: «يعطي الرجل منهم من القوّة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم[5]». وقال عبد الله بن عمر؛ إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى له ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه. وقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوّج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق

---

(١) حديث حذيفة: «إن في الجنة طيراً أمثال البخاتي... الحديث» غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح «إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة» قال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه الطير ناعمة قال: «أكلتها أنعم منها» قالها ثلاثاً «وإني أرجو أن تكون ممن يأكل منها» وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال «فيه طير أعناقها كأعناق الجزر» قال عمر: إن هذه لناعمة... الحديث. وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن.

(٢) حديث: غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها.... الحديث» أخرجه البخاري من حديث أنس.

(٣) حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالى ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ قال: «تنظر إلى وجهها في خمرها أصفى من المرآة... الحديث» أخرجه أبو يعلي من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه إبن لهيعة ورواه إبن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسلاً دون ذكر أبي سعيد وللترمذي من حديث إبن مسعود: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة... الحديث» ورواه عنه موقوفاً قال وهذا أصح وفي الصحيحن من حديث أبي هريرة «لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللهم».

(٤) حديث أنس: لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعاً يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر... الحديث» وفيه: «أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام» وفيه «فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط» لم أجده هكذا بتمامه وللترمذي من حديث علي: «إن في الجنة لمجتمعاً للحور العير يرفعن أصواتاً لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له» وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث إبن أبي أوفى بسند ضعيف «فيجتمعن في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات... الحديث».

(٥) حديث: قال رجل يا رسول الله أيباضع أهل الجنة؟ قال: «يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم» أخرجه الترمذي وصححه وإبن حبان من حديث أنس: «يعطى المؤمن في الجنة كذا وكذا من الجماع» فقيل أو يطبق ذلك؟ قال: «يعطى قوة مائة».

كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا[1]. وقال النبي ﷺ: «إن في الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها، وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له[2]». وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الحور العين في الجنة يتغنين: نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام[3]». وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى: ﴿في روضة يحبرون﴾. وقال السماع في الجنة. وقال أبو أمامة الباهلي: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وضاء رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه[4]».

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى أسامة بن زيد أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ونصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة ونعمة في مقام أبداً ونضرة في دار عالية بهية سليمة». قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله قال: «قولوا إن شاء الله تعالى». ثم ذكر الجهاد وحفز عليه[5] وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟ قال: «إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت». وقال له رجل: إنّ الإبل تعجبني فهل في الجنة إبل؟ فقال«يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك[6]». وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي، يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة[7]» وقال رسول الله ﷺ: «إذا استقرّ أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان ويتحدّثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخي تذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عزوجل فغفر لنا[8]». وقال رسول الله ﷺ: «إن

---

(١) حديث: «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلالف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره في الدنيا» أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث إبن أبي أوفى إلا أنه قال «مائة حوراء» ولم يذكر فيه عناقه لهن، وإسناده ضعيف، وتقدم قبله بحديث.

(٢) حديث: «إن في الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء... الحديث» أخرجه الترمذي فرقه في موضعين من حديث علي وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين.

(٣) حديث أنس: «إن الحور في الجنة يتغنين فيقلن: نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام» أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكدر قال البخاري يتكلمون فيه وقال إبن عدي أرجو أنه لا بأس به.

(٤) حديث أبي أمامة: «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمع الأنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه» أخرجه الطبراني بإسناد حسن.

(٥) حديث أسامة بن زيد: «ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها... الحديث» أخرجه إبن ماجه وإبن حبان.

(٦) حديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له هل في الجنة خيل فإنها تعجبني... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودي مختلف ورواه إبن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلاً قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى المديني عبد الرحمن بن سابط في ذيله على إبن منده في الصحابة ولا يصح له صحبة.

(٧) حديث أبي سعيد: «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي، ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة» أخرجه إبن ماجه والترمذي وقال حسن غريب، قال: وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد، انتهى. ولأحمد من حديث لأبي رزين «يلذ ويلم مثل لذاتكم في الدنيا ويتلذذن بكم غير أن لا توالد».

(٨) حديث: «إذا استقر أهل الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا» أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس، إنتهى. والربيع بن صبيح ضعيف جداً ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسلاً دون ذكر أنس.

أهل الجنة جرد مرد جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع[1]». وقال رسول الله ﷺ: «أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء وإنّ عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب[2]». وقال ﷺ: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت، وإذا فيها جارية فقلت يا جارية لمن أنت؟ فقالت لزيد بن حارثة، وإذا في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[3]». وقال كعب: خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلاً.

وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال: إنّ رمانها مثل الدلاء، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنها من خمر لذة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرؤوس وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثون في سن واحد طولهم ستون ذراعاً في السماء، كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار، وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها إلا الله تعالى، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة، وإن لهم فيها خيلاً وإبلاً هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة، قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت، لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوّطون وإنما هو جشاء ورشح مسك، لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا، أما إنه ليس ليل يكرّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدّ له في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، يغدي عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها، في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثله، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوّله، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب. وقال مجاهد: إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه؛ وأرفعه الذي ينظر إلى ربه بالغداة والعشي. وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة؛ سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؟ وقال يحيى بن معاذ: ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشدّ وترك الدنيا مهر الآخرة. وقال أيضاً في طلب الدنيا ذل النفوس، وفي طلب الآخرة عز النفوس، فيا عجباً لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى!

---

(1) حديث: «أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله «بيض جعاد» ودون قوله «على خلق آدم» إلى آخره ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة مختصراً «أهل الجنة جرد مرد كحل» وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً».

(2) حديث: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم... الحديث» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد منقطعاً من أوله إلى قوله: «وإن عليهم التيجان» ومن هنا بإسناده أيضاً وقال لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد.

(3) حديث «نظرت الى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب واذا طيرها كالبخت.. الحديث» رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد وأبو هارون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «يقول الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال الله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة ـ وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة ـ وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف وما يعتقده أهل البدعة. قال جرير بن عبد الله الجحلي: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها[1]﴾. وهو مخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ قال: « إذا دخل اهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد؟ أام يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة. ويجزنا من النار؟». قال: «فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل وفما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه[2]». وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة ، وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى ، وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء: وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى. وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه الهيمة المسرحة في المرعى.

نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد كان رسول الله ﷺ يحب الفأل[3]. وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدي . سول الله ﷺ في التفاؤل، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾. وقال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾. وقال تعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض. ونحن خلق من خلق الله عزوجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه. فقد قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجنّ والإنس والطير والبهائم والهوام فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخّر تسعاً وتسعين رحمة

---

(١) حديث جرير: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم... الحديث» هو في الصحيحين كما ذكر المصنف.

(٢) حديث صهيب في قوله تعالى ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ رواه مسلم كما ذكره المصنف.

(٣) حديث: كان رسول الله ﷺ يحب التفاؤل. متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث: «ويعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة» ولهما من حديث أبي هريرة: «وخيرهما الفأل؟» قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم».

يرحم بها عباده يوم القيامة[1]». ويروى أنه كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتاباً من تحت العرش فيه إنّ رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة[2]». وقال رسول الله ﷺ: «يتجلى الله عزوجل لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً[3]». وقال النبي ﷺ: «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذرّيته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف ألف[4]». وقال ﷺ إن الله عزوجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتي[5]». وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزوجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام[6]». وقال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع الله عزوجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين[7]﴾». وقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها[8]». وقال جابر بن عبد الله: من زادت حسناته على سيآته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيآته فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة. وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره.

ويروى أنّ الله عزوجل قال لموسى عليه السلام: يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه. وقال سعد بن بلال: يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار، فيقول الله تبارك وتعالى: ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد، ويأمر بردهما إلى النار، فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر ويأمر بردهما ويسألهما عن فعلهما، فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرّض لسخطك ثانية ويقول الذي تلكأ حسن ظني بك كان يشعرني أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها، فيأمر بهما إلى الجنة وقال رسول الله ﷺ: «ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة

---

(١) حديث: «أن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان.

(٢) حديث: «إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتاباً من تحت العرش فيه أن رحمتي سبقت غضبي... الحديث» متفق عليه من حديث أبي هريرة: «لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي» لفظ البخاري وقال مسلم: «كتب في كتابه على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي».

(٣) حديث: «يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً» أخرجه مسلم من حديث أبي موسى: «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداؤك من النار» ولأبي داود: «أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة... الحديث» وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضاً: «يتجلى الله ربنا لنا ضاحكاً يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول إرفعوا رؤوسكم فليس هذا يوم عبادة» وفيه علي بن زيد بن جدعان.

(٤) حديث: «يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف» أخرجه الطبراني من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٥) حديث: «أن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم... الحديث» أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف.

(٦) حديث: «يقول الله عزّ وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام» أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب.

(٧) حديث: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار... الحديث» في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ أخرجه النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح.

(٨) حديث: «الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها» متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله: قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته ببطنها فأرضعته.

محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي[1]». ويروى أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ فقال الأعرابي: فوالله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها، فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه. وقال الصنابحي: دخلت على عبادة ابن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال: مهلاً... لم تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدّثتكموه إلا حديثاً واحداً وسوف أحدّثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إلّه إلا الله وأنّ محمداً رسول الله حرّم الله النار عليه[2]». وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مثل مدّ البصر، ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يارب. فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها: «أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله». فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول إنك لا تظلم». قال: «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة». قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء[3]». وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط: «إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به». فكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرّة وإن تكُ حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾. قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلا الشمس أصفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل أبيض. قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقال ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحد من العالمين، فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبداً[4]». رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما. وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «عرضت علي الأمم يمر النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط، فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن تكون أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه، ثم قيل لي انظر

(١) حديث: «ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتي» رويناه في سباعيات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب ليس بثقة.

(٢) حديث الصنابحي عن عباد بن الصامت: «من شهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله حرمه الله على النار» أخرجه مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر.

(٣) حديث عبد الله بن عمرو: «إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينتشر له تسعة وتسعون سجلاً» فذكر حديث البطاقة إبن ماجه والترمذي وقال حسن غريب.

(٤) حديث: «إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً... الحديث» في إخراج الموحدين وقوله تعالى لأهل الجنة: «فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد

فرأيت سواداً كثيراً قد سدّ الأفق، فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سواداً كثيراً، فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب». فتفرق الناس ولم يعين لهم رسول الله ﷺ فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم يارسول الله فقال: «أنت منهم». ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي ﷺ: «سبقك بها عكاشة[1]». وعن عمر بن حزم الأنصاري قال: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثاً لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا: يارسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال: «لم يحدث إلا خير إن ربي عزوجل وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم وإني سألت ربي في هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربي ماجداً واجداً كريماً فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً». قال: «قلت يارب وتبلغ أمتي هذا؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب[2]». وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: «عرض لي جبريل في جانت الحرة فقال: بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، فقلت يا جبريل وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم وإن سرق وإن زنى، قلت وإن سرق وإن زنى؟ قال وإن سرق وإن زنى قلت وإن سرق وإن زنى؟ قال وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر[3]». وقال أبو الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾. فقلت: وإن زنى يارسول الله؟ فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾. فقلت وإن سرق وإن زنى؟ فقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: وإن سرق وإن زنى يارسول الله؟ قال وإن رغم أنف أبي الدرداء[4]. وقال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار[5]». وروى مسلم في الصحيح عن أبي بردة: أنه حدّث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «لايموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مكانه النار يهودياً أو نصرانياً». فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ أن أباه حدّثه عن رسول الله ﷺ فحلف له[6]. وروي أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادى عليه فيمن يزيد ـ في يوم صائف شديد الحرّ ـ فبصرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت تشتدّ وأقبل أصحابها خلفها، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحرّ، وقالت: ابني ابني! فبكى الناس وتركوا ما هم فيه، فأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم

---

(١) حديث ابن عباس: «عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد... الحديث» إلى قوله «سبقك بها عكاشة» رواه البخاري.

(٢) حديث عمرو بن حزم الأنصاري: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثاً لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه «إن ربي وعدني أن يدخلْ من أمتي الجنة سبعين ألفاً لا حساب عليهم» وفيه «أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً» أخرجه البيهقي في البعث والنشور ولأحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر: «فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً» وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر: فهلاّ استزدته؟ فقال: «فقد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً» قال عمر: فهلا استزدته؟ قال: قد استزدته فأعطاني هكذا» وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحثى عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف.

(٣) حديث أبي ذر: «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال: بشر أمتك بأنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة... الحديث» متفق عليه بلفظ: «أتاني جبريل فبشرني» وفي رواية لهما: «أتاني آت من ربي».

(٤) حديث أبي الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فقلت: «وإن زنى وإن سرق... الحديث» رواه أحمد بإسناد صحيح.

(٥) حديث: «إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار» رواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه وقد تقدم.

(٦) حديث أبي بردة: أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهودياً أو نصرانياً» عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك.

فقال: «أعجبتم من رحمة هذه لابنها؟». قالوا: نعم، قال ﷺ: «فإن الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها[1]». فتفرّق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة.

فهذه الأحاديث وما أودنا في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى، فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته.

---

(١) حديث: وقف صبي في بعض المغازي، ينادى عليه فيمن يزيد، في يوم صائف شديد الحر، فبصرت به امرأة... الحديث.
وفيه: «الله أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها» متفق عليه مختصراً مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها» لفظ مسلم وقال البخاري: فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسعى إذ وجدت صبياً... الحديث.

والحمد لله تعالى عوداً على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد في كل حركة وهدء.

يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقي: أنني أكملت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٦١، وأكملت تبييض هذا المختصر منها في يوم الإثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠. انتهى.

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة